بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

سئل شيخ الإسلام

أحمد بن تيمية قدس الله روحه

ما قولكم فى مذهب السلف فى الاعتقاد ، ومذهب غيرهم من المتأخرين ؟ ما الصواب منهما ؟ وما تنتحلونه أنتم من المذهبين ؟ وفى أهل الحديث : هل هم أولى بالصواب من غيرهم ؟ وهل هم المرادون بالفرقة الناجية ؟ وهل حدث بعدهم علوم جهلوها وعلمها غيرهم ؟ .

فأجاب :—

الحمد لله . هذه المسائل بسطها يحتمل مجلدات ، لكن نشير إلى المهم منها والله الموفق .

قال الله تعالى : (وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ

ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا) . وقد شهد الله لأصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم ومن تبعهم بإحسان بالإيمان . فعلم قطعاً أنهم المراد بالآية الكريمة ، فقال تعالى : (وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ) ، وقال تعالى : (لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا) .

فحيث تقرر أن من اتبع غير سبيلهم ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم .

فمن سبيلهم فى الاعتقاد : «الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه» التى وصف بها نفسه ، وسمى بها نفسه فى كتابه وتنزيله ، أو على لسان رسوله ، من غير زيادة عليها ولا نقص منها ، ولا تجاوز لها ولا تفسير لها ، ولا تأويل لها بما يخالف ظاهرها ، ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين ؛ ولا سمات المحدثين ، بل أمروها كما جاءت ، وردوا علمها إلى قائلها ؛ ومعناها إلى المتكلم بها .

وقال بعضهم — ويروى عن الشافعى — : « آمنت بما جاء عن الله ، وبما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على مراد رسول الله » .

وعلموا أن المتكلم بها صادق لا شك فى صدقه فصدقوه ، ولم يعلموا حقيقة معناها فسكتوا عما لم يعلموه . وأخذ ذلك الآخر عن الأول ، ووصى بعضهم

بعضاً بحسن الاتباع والوقوف حيث وقف أولهم ، وحذروا من التجاوز لهم والعدول عن طريقتهم ، وبينوا لنا سبيلهم ومذهبهم ، ونرجوا أن يجعلنا الله تعالى ممن اقتدى بهم فى بيان ما بينوه ؛ وسلوك الطريق الذى سلكوه .

والدليل على أن مذهبهم ما ذكرناه : أنهم نقلوا إلينا القرآن العظيم ، وأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم نقل مصدق لها مؤمن بها ، قابل لها ؛ غير مرتاب فيها ؛ ولا شاك فى صدق قائلها ، ولم يفسروا ما يتعلق بالصفات منها ولا تأولوه ، ولا شبهوه بصفات المخلوقين ، إذ لو فعلوا شيئاً من ذلك لنقل عنهم ، ولم يجز أن يكتم بالكلية . إذ لا يجوز التواطؤ على كتمان ما يحتاج إلى نقله ومعرفته ، لجريان ذلك فى القبح مجرى التواطؤ على نقل الكذب وفعل ما لا يحل .

بل بلغ من مبالغتهم فى السكوت عن هذا : أنهم كانوا إذا رأوا من يسأل عن المتشابه بالغوا فى كفه ، تارة بالقول العنيف ؛ وتارة بالضرب ، وتارة بالإعراض الدال على شدة الكراهة لمسألته . ولذلك لما بلغ عمر ـ رضى الله عنه ـ أن صبيغاً يسأل عن المتشابه أعد له عراجين النخل ، فبينما عمر يخطب قام فسأله عن : (وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا) وما بعدها . فنزل عمر فقال : « لو وجدتك محلوقاً لضربت الذى فيه عيناك بالسيف » ، ثم أمر به فضرب ضرباً شديداً ، وبعث به إلى البصرة ، وأمرهم أن لا يجالسوه ، فكان بها كالبعير الأجرب لا يأتى مجلساً إلا قالوا : « عزمة أمير المؤمنين » فتفرقوا عنه ، حتى تاب وحلف بالله ما بقى يجد مما كان فى نفسه شيئاً ، فأذن عمر فى مجالسته ،

فلما خرجت الخوارج أتى ، فقيل له : هذا وقتك فقال : لا ، نفعتنى موعظة العبد الصالح .

ولما سئل « مالك بن أنس » ـ رحمه الله تعالى ـ فقيل له : يا أبا عبد الله ! (ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ) كيف استوى ؟ فأطرق مالك وعلاه الرحضاء ـ يعنى العرق ـ ، وانتظر القوم ما يجىء منه فيه . فرفع رأسه إلى السائل وقال : « الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وأحسبك رجل سوء » . وأمر به فأخرج .

ومن أول الاستواء بالاستيلاء فقد أجاب بغير ما أجاب به مالك ، وسلك غير سبيله . وهذا الجواب من مالك ـ رحمه الله ـ فى الاستواء شاف كاف فى جميع الصفات . مثل النزول والمجىء ، واليد ، والوجه ، وغيرها .

فيقال فى مثل النزول : النزول معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

وهكذا يقال فى سائر الصفات ، إذ هى بمثابة الاستواء الوارد به الكتاب والسنة .

وثبت عن محمد بن الحسن ـ صاحب أبى حنيفة ـ أنه قال : « اتفق الفقهاء كلهم من الشرق والغرب : على الإيمان بالقرآن والأحاديث التى جاء بها الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صفة الرب عز وجل من غير تفسير ، ولا

وصف ولا تشبيه ، فمن فسر شيئاً من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، وفارق الجماعة . فإنهم لم يصفوا ولم يفسروا ، ولكن آمنوا بما فى الكتاب والسنة ثم سكتوا . فمن قال بقول جهم فقد فارق الجماعة » انتهى .

فانظر - رحمك الله - إلى هذا الإمام كيف حكى الإجماع فى هذه المسألة ، ولا خير فيما خرج عن إجماعهم . ولو لزم التجسيم من السكوت عن تأويلها لفروا منه . وأولوا ذلك ؛ فإنهم أعرف الأمة بما يجوز على الله وما يمتنع عليه .

وثبت عن إسماعيل بن عبد الرحمن الصابونى أنه قال : « إن أصحاب الحديث المتمسكين بالكتاب والسنة يعرفون ربهم - تبارك وتعالى - بصفاته التى نطق بها كتابه وتنزيله ، وشهد له بها رسوله ؛ على ما وردت به الأخبار الصحاح ، ونقله العدول الثقات . ولا يعتقدون تشبيها لصفاته بصفات خلقه ، ولا يكيفونها تكييف المشبه ، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه تحريف المعتزلة ، والجهمية .

وقد أعاذ الله « أهل السنة » من التحريف والتكييف ، ومن عليهم بالتفهيم والتعريف ، حتى سلكوا سبيل التوحيد والتنزيه ، وتركوا القول بالتعطيل والتشبيه ، واكتفوا بنفى النقائص بقوله عز من قائل : (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) وبقوله تعالى : (وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ) » .

وقال سعيد بن جبير : « ما لم يعرفه البدريون فليس من الدين » .

وثبت عن الربيع بن سليمان أنه قال : سألت الشافعى — رحمه الله تعالى —

عن صفات الله تعالى ؟ فقال : « حرام على العقول أن تمثل الله تعالى ؛ وعلى الأوهام أن تحده ، وعلى الظنون أن تقطع ؛ وعلى النفوس أن تفكر ؛ وعلى الضمائر أن تعمق ، وعلى الخواطر أن تحيط ، وعلى العقول أن تعقل إلا ما وصف به نفسه ، أو على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام » .

وثبت عن الحسن البصرى أنه قال : « لقد تكلم مطرف على هذه الأعواد بكلام ما قيل قبله ، ولا يقال بعده . قالوا : وما هو يا أبا سعيد؟ قال : «الحمد لله الذى من الإيمان به : الجهل بغير ما وصف به نفسه » .

وقال سحنون « من العلم بالله السكوت عن غير ما وصف به نفسه » .

وثبت عن الحميدى — أبى بكر عبد الله بن الزبير — أنه قال : « أصول السنة » ـ فذكر أشياء ـ ثم قال : وما نطق به القرآن والحديث مثل : (وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ) ، ومثل : (وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ) ، وما أشبه هذا من القرآن والحديث لا نزيد فيه ، ولا نفسره ، ونقف على ما وقف عليه القرآن والسنة ، ونقول : (ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) ، ومن زعم غير هذا فهو جهمى » .

فمذهب السلف رضوان الله عليهم : إثبات الصفات وإجراؤها على ظاهرها ، ونفى الكيفية عنها . لأن الكلام فى الصفات فرع عن الكلام فى الذات وإثبات الذات إثبات وجود ، لا إثبات كيفية ، فكذلك إثبات الصفات . وعلى

هذا مضى السلف كلهم . ولو ذهبنا نذكر ما اطلعنا عليه من كلام السلف فى ذلك لخرجنا عن المقصود فى هذا الجواب .

فمن كان قصده الحق وإظهار الصواب اكتفى بما قدمناه ، ومن كان قصده الجدال والقيل والقال والمكابرة ، لم يزده التطويل إلا خروجاً عن سواء السبيل والله الموفق .

وقد ثبت ما ادعيناه من مذهب السلف رضوان الله عليهم بما نقلناه جملة عنهم وتفصيلا ، واعتراف العلماء من أهل النقل كلهم بذلك . ولم أعلم عن أحد منهم خلافاً فى هذه المسألة ، بل لقد بلغنى عمن ذهب إلى التأويل لهذه الآيات والأخبار من أكابرهم : الاعتراف بأن مذهب السلف فيها ما قلناه . ورأيته لبعض شيوخهم فى كتابه ، قال : « اختلف أصحابنا فى أخبار الصفات ، فمنهم من أمرها كما جاءت من غير تفسير ، ولا تأويل ، مع نفى التشبيه عنها . وهو مذهب السلف » فحصل الإجماع على صحة ما ذكرناه بقول المنازع والحمد لله .

وما أحسن ما جاء عن « عبد العزيز بن عبد الله بن أبى سلمة » أنه قال : « عليك بلزوم السنة فإنها لك بإذن الله عصمة . فإن السنة إنما جعلت ليستن بها ويقتصر عليها ، وإنما سنها من قد علم ما فى خلافها من الزلل والخطأ والحمق والتعمق . فارض لنفسك بما رضوا به لأنفسهم . فإنهم عن علم وقفوا ، وببصر نافذ كفوا . ولهم كانوا على كشفها أقوى . وبتفصيلها لو كان فيها أحرى ،

وإنهم لهم السابقون ، وقد بلغهم عن نبيهم ما يجرى من الاختلاف بعد القرون الثلاثة ؛ فلئن كان الهدى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه ، ولئن قلتم حدثٌ حدثَ بعدهم فما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم ، ورغب بنفسه عنهم ، واختار ما نحته فكره على ما تلقوه عن نبيهم ؛ وتلقاه عنهم من تبعهم بإحسان .

ولقد وصفوا منه ما يكفى ؛ وتكلموا منه بما يشفى . فمن دونهم مقصر ؛ ومن فوقهم مفرط . لقد قصر دونهم أناس فجفوا ، وطمح آخرون فغلوا ؛ وإنهم فيما بين ذلك لعلى هدى مستقيم » .

فصـــــل

وأما كونهم أعلم ممن بعدهم وأحكم ، وأن مخالفهم أحق بالجهل والحشو. فنبين ذلك بالقياس المعقول ؛ من غير احتجاج بنفس الإيمان بالرسول ، كما قال الله : (سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ) ؛ فأخبر : أنه سيريهم الآيات المرئية المشهودة حتى يتبين لهم أن القرآن حق . ثم قال : (أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ) أى بإخبار الله ربك فى القرآن وشهادته بذلك .

فنقول : من المعلوم أن أهل الحديث يشاركون كل طائفة فيما يتحلون به من صفات الكمال ، ويمتازون عنهم بما ليس عندهم . فإن المنازع لهم لا بد أن يذكر فيما يخالفهم فيه طريقاً أخرى ؛ مثل المعقول ، والقياس ، والرأى ، والكلام والنظر ، والاستدلال ، والمحاجة ، والمجادلة ، والمكاشفة ، والمخاطبة ، والوجد ، والذوق ، ونحو ذلك . وكل هذه الطرق لأهل الحديث صفوتها وخلاصتها : فهم أكمل الناس عقلا ، وأعدلهم قياساً ، وأصوبهم رأياً ، وأسدهم كلاماً وأصحهم نظراً ، وأهداهم استدلالا وأقومهم جدلا ، وأتمهم فراسة ، وأصدقهم إلهاماً ، وأحدهم بصراً ومكاشفة ، وأصوبهم سمعاً

ومخاطبة ، وأعظمهم وأحسنهم وجداً وذوقاً . وهذا هو للمسلمين بالنسبة إلى سائر الأمم ، ولأهل السنة والحديث بالنسبة إلى سائر الملل .

فكل من استقرأ أحوال العالم وجد المسلمين أحد وأسد عقلا ، وأنهم ينالون فى المدة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال أضعاف ما يناله غيرهم فى قرون وأجيال ، وكذلك أهل السنة والحديث تجدهم كذلك متمتعين . وذلك لأن اعتقاد الحق الثابت يقوى الإدراك ويصححه ، قال تعالى : (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى) وقال : (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) .

وهذا يعلم تارة بموارد النزاع بينهم وبين غيرهم ، فلا تجد مسألة خولفوا فيها إلا وقد تبين أن الحق معهم . وتارة بإقرار مخالفيهم ورجوعهم إليهم دون رجوعهم إلى غيرهم ، أو بشهادتهم على مخالفيهم بالضلال والجهل . وتارة بشهادة المؤمنين الذين هم شهداء الله فى الأرض . وتارة بأن كل طائفة تعتصم بهم فيما خالفت فيه الأخرى ، وتشهد بالضلال على كل من خالفها أعظم مما تشهد به عليهم .

فأما شهادة المؤمنين الذين هم شهداء الله فى الأرض : فهذا أمر ظاهر معلوم بالحس والتواتر لكل من سمع كلام المسلمين ، لا تجد فى الأمة عظم أحد تعظيما أعظم مما عظموا به ، ولا تجد غيرهم يعظم إلا بقدر ما وافقهم فيه ، كما لا ينقص إلا بقدر ما خالفهم .

حتى إنك تجد المخالفين لهم كلهم وقت الحقيقة يقر بذلك ، كما قال الإمام أحمد : « آية ما بيننا وبينهم يوم الجنائز » ، فإن الحياة بسبب اشتراك الناس فى المعاش يعظم الرجل طائفته ، فأما وقت الموت فلا بد من الاعتراف بالحق من عموم الخلق . ولهذا لم يعرف فى الإسلام مثل جنازته : مسح المتوكل موضع الصلاة عليه فوجد ألف ألف وستمائة ألف ؛ سوى من صلى فى الخانات والبيوت وأسلم يومئذ من اليهود والنصارى عشرون ألفاً . وهو إنما نبل عند الأمة باتباع الحديث والسنة .

وكذلك الشافعى ، وإسحق ، وغيرهما ، إنما نبلوا فى الإسلام باتباع أهل الحديث والسنة . وكذلك البخارى وأمثاله إنما نبلوا بذلك ، وكذلك مالك والأوزاعى ، والثورى ، وأبو حنيفة وغيرهم ، إنما نبلوا فى عموم الأمة وقبل قولهم لما وافقوا فيه الحديث والسنة ، وما تكلم فيمن تكلم فيه منهم إلا بسبب المواضع التى لم يتفق له متابعتها من الحديث والسنة ، إما لعدم بلاغها إياه ، أو لاعتقاده ضعف دلالتها ، أو رجحان غيرها عليها .

وكذلك المسائل الاعتقادية الخبرية ؛ لم ينبل أحد من الطوائف ورءوسهم عند الأمة إلا بما معه من الإثبات والسنة ، فالمعتزلة أولا ـ وهم فرسان الكلام ـ إنما يحمدون ويعظمون عند أتباعهم وعند من يغضى عن مساويهم لأجل محاسنهم عند المسلمين بما وافقوا فيه مذهب أهل الإثبات والسنة والحديث ، وردهم على الرافضة بعض ما خرجوا فيه عن السنة والحديث : من إمامة الخلفاء

وعدالة الصحابة ، وقبول الأخبار ، وتحريف الكلم عن مواضعه والغلو فى علىّ ، ونحو ذلك .

وكذلك الشيعة المتقدمون كانوا يرجحون على المعتزلة بما خالفوهم فيه من إثبات الصفات والقدر والشفاعة ، ونحو ذلك ، وكذلك كانوا يستحمدون بما خالفوا فيه الخوارج من تكفير علىّ وعثمان وغيرهما ، وما كفروا به المسلمين من الذنوب ، ويستحمدون بما خالفوا فيه المرجئة ، من إدخال الواجبات فى الإيمان . ولهذا قالوا بالمنزلة ، وإن لم يهتدوا إلى السنة المحضة .

وكذلك متكلمة أهل الإثبات ، مثل الكلابية ، والكرامية ، والأشعرية إنما قبلوا واتبعوا واستحمدوا إلى عموم الأمة بما أثبتوه من أصول الإيمان ، من إثبات الصانع وصفاته ، وإثبات النبوة ، والرد على الكفار من المشركين وأهل الكتاب وبيان تناقض حججهم ، وكذلك استحمدوا بما ردوه على الجهمية والمعتزلة ، والرافضة والقدرية ، من أنواع المقالات التى يخالفون فيها أهل السنة والجماعة .

فحسناتهم نوعان : إما موافقة أهل السنة والحديث . وإما الرد على من خالف السنة والحديث ببيان تناقض حججهم .

ولم يتبع أحد مذهب الأشعرى ونحوه إلا لأحد هذين الوصفين ، أو كلاهما . وكل من أحبه وانتصر له من المسلمين وعلمائهم فإنما يحبه وينتصر له

بذلك . فالمصنف فى مناقبه الدافع للطعن واللعن عنه — كالبيهق ؛ والقشيرى أبى القاسم ؛ وابن عساكر الدمشق — إنما يحتجون لذلك بما يقوله من أقوال أهل السنة والحديث ، أو بما رده من أقوال مخالفيهم ، لا يحتجون له عند الأمة وعلمائها وأمرائها إلا بهذين الوصفين ، ولولا أنه كان من أقرب بنى جنسه إلى ذلك لألحقوه بطبقته الذين لم يكونوا كذلك ، كشيخه الأول « أبى على » ؛ وولده « أبى هاشم » .

لكن كان له من موافقة مذهب السنة والحديث فى الصفات ، والقدر ، والإمامة ، والفضائل ، والشفاعة ، والحوض ، والصراط ، والميزان ، وله من الردود على المعتزلة والقدرية ، والرافضة ، والجهمية ، وبيان تناقضهم : ما أوجب أن يمتاز بذلك عن أولئك ؛ ويعرف له حقه وقدره ، (قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا) ، وبما وافق فيه السنة والحديث صار له من القبول والأتباع ما صار . لكن الموافقة التى فيها قهر المخالف وإظهار فساد قوله : هى من جنس المجاهد المنتصر .

فالراد على أهل البدع مجاهد ، حتى كان « يحيى بن يحيى » يقول : « الذب عن السنة أفضل من الجهاد » ، والمجاهد قد يكون عدلا فى سياسته وقد لا يكون ، وقد يكون فيه فجور ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم » ، ولهذا مضت السنة بأن يغزى مع كل أمير ، براً كان أو فاجراً ، والجهاد عمل مشكور لصاحبه فى الظاهر لا محالة ،

وهو مع النية الحسنة مشكور باطنــاً وظاهراً ، ووجـه شكره : نصره للسنة والدين ، فهكذا المنتصر للإسلام والسنة يشكر على ذلك من هذا الوجه .

فحمد الرجال عند الله ورسوله وعباده المؤمنين بحسب ما وافقـوا فيه دين الله وسنة رسوله وشرعه من جميع الأصناف ؛ إذ الحمد إنما يكون على الحسنات . والحسنات : هى ما وافق طاعـة الله ورسوله ، من التصديق بخـبر الله والطاعة لأمره . وهذا هو السنة . فالخير كله ـ باتفاق الأمة ـ هو فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم .

وكذلك ما يذم من يذم من المنحرفين عن السنة والشريعة وطاعـــة الله ورسوله إلا بمخالفة ذلك .

ومن تكلم فيه من العلماء والأمراء وغيرهم إنما تكلم فيه أهل الإيمان بمخالفته السنة والشريعة .

وبهذا ذم السلف والأئمة أهل الـكلام والمتكلمين الصفاتية ، كابن كرام ؛ وابن كلاب ، والأشعرى . وما تكلم فيه من تكلم من أعيان الأمة وأئمتهـا المقبولين فيهـا من جميع طوائف الفقهاء ؛ وأهـل الحديث والصوفيـة ، إلا بمـا يقولون إنهم خالفوا فيه السنة والحديث لخفائه عليهم ، أو إعراضهم عنـه ، أو لاقتضاء أصل قياس ـ مهدوه ـ رد ذلك ، كما يقع نحو ذلك فى المسائل العلمية .

فإن مخالفة المسلم الصحيح الإيمان النص إنما يكون لعدم علمه به ، أو لاعتقاده صحة ما عارضه ، لكن هو فيما ظهر من السنة وعظم أمره يقع بتفريط من المخالف وعدوان ، فيستحق من الذم ما لا يستحقه فى النص الخفى وكذلك فيما يوقع الفرقة والاختلاف ؛ يعظم فيه أمر المخالفة للسنة .

ولهذا اهتم كثير من الملوك والعلماء بأمر الإسلام وجهاد أعدائه ، حتى صاروا يلعنون الرافضة والجهمية وغيرهم على المنابر ؛ حتى لعنوا كل طائفة رأوا فيها بدعة.فلعنوا الكلابية والأشعرية: كما كان فى مملكة الأمير «محمود بن سبكتكين» وفى دولة السلاجقة ابتداء ، وكذلك الخليفة القادر ؛ ربما اهتم بذلك واستشار المعتزلة من الفقهاء ، ورفعوا إليه أمر القاضى « أبى بكر » ونحوه وهموا به ،حتى كان يختفى ، وإنما تستر بمذهب الإمام أحمد وموافقته ، ثم ولى النظام وسعوا فى رفع اللعنة ، واستفتوا من استفتوه من فقهاء العراق ،كالدامغانى الحنفى ، وأبى إسحق الشيرازى ، وفتواهما حجة على من بخراسان من الحنفية والشافعية . وقد قيل:إن أبا إسحق استعفى من ذلك فألزموه ، وأفتوا بأنه لا يجوز لعنتهم ، ويعزر من يلعنهم ، وعلل الدامغانى : بأنهم طائفة من المسلمين . وعلل أبو إسحق ـ مع ذلك ـ : بأن لهم ذباً ورداً على أهل البدع المخالفين للسنة ، فلم يمكن المفتى أن يعلل رفع الذم إلا بموافقة السنة والحديث .

وكذلك رأيت فى فتاوى الفقيه أبى محمد فتوى طويلة ، فيها أشياء حسنة قد سئل بها عن مسائل متعددة قال فيها : —

ولا يجوز شغل المساجد بالغناء والرقص ومخالطة المردان ، ويعزر فاعله تعزيراً بليغاً رادعاً ، وأما لبس الحلق والدمالج والسلاسل والأغلال ، والتختم بالحديد والنحاس ، فبدعة وشهرة . وشر الأمور محدثاتها ، وهى لهم فى الدنيا ، وهى لباس أهل النار ، وهى لهم فى الآخرة ، إن ماتوا على ذلك . ولا يجوز السجود لغير الله من الأحياء والأموات ، ولا تقبيل القبور ، ويعزر فاعله .

ومن لعن أحداً من المسلمين عزر على ذلك تعزيراً بليغاً . والمؤمن لا يكون لعاناً ، وما أقربه من عود اللعنة عليه ، قال : ولا تحل الصلاة عند القبور ، ولا المشى عليها من الرجال والنساء ، ولا تعمل مساجد للصلاة ، فإنه « اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

قال : وأما لعن العلماء لأئمة الأشعرية فمن لعنهم عزر . وعادت اللعنة عليه فمن لعن من ليس أهلا للعنة وقعت اللعنة عليه . والعلماء أنصار فروع الدين ، والأشعرية أنصار أصول الدين .

قال : وأما دخولهم النيران ، فمن لا يتمسك بالقرآن فإنه فتنة لهم ومضلة لمن يراهم ، كما يفتتن الناس بما يظهر على يدى الدجال ، فإنه من ظهر على يديه خارق فإنه يوزن بميزان الشرع ، فإن كان على الاستقامة كان ما ظهر على يديه كرامة ، ومن لم يكن على الاستقامة كان ذلك فتنة ، كما يظهر على يدى الدجال من إحياء الميت ، وما يظهر من جنته وناره . فإن الله يضل من لا خلاق له بما يظهر على يدى هؤلاء .

وأما من تمسك بالشرع الشريف : فإنه لو رأى من هؤلاء من يطير فى الهواء ، أو يمشى على المـاء ، فإنه يعلم أن ذلك فتنة للعباد . انتهى .

فالفقيه أبو محمد أيضاً إنما منع اللعن ، وأمر بتعزير اللاعن لأجل ما نصروه من « أصول الدين » وهو ما ذكرناه من موافقة القرآن والسنة والحديث ، والرد على من خالف القرآن والسنة والحديث . ولهذا كان الشيخ أبو إسحق يقول : « إنمـا نفقت الأشعرية عند الناس بانتسابهم إلى الحنـابلة » ، وهذا ظاهر عليه وعلى أئمة أصحابه فى كتبهم ومصنفاتهم قبل وقوع الفتنة القشيرية ببغداد . ولهذا قال أبو القاسم بن عساكر فى مناقبه : «ما زالت الحنابلة والأشاعرة فى قديم الدهر متفقين غير مفترقين ، حتى حدثت فتنة « ابن القشيرى » ، ثم بعد حدوث الفتنة وقبلها لا تجد من يمدح الأشعرى بمدحة ، إلا إذا وافق السـنة والحديث ، ولا يذمه من يذمه إلا بمخالفة السنة والحديث .

وهذا إجماع من جميع هذه الطوائف على تعظيم السنة والحديث ، واتفاق شهاداتهم على أن الحق فى ذلك .

ولهذا تجد أعظمهم موافقة لأئمة السنة والحديث أعظم عند جميعهم ممن هو دونه . فالأشعرى نفسه لمـا كان أقرب إلى قول الإمام أحمد ومن قبله من أئمة السنة كان عندهم أعظم من أتباعه ، والقاضى « أبو بكر بن الباقلانى » لمـا كان أقربهم إلى ذلك كان أعظم عندهم من غيره . وأما مثـــل الأستاذ أبى المعالى ،

وأبى حامد ، ونحوهما ممن خالفوا أصوله فى مواضع ، فلا تجدهم يعظمون إلا بما وافقوا فيه السنة والحديث ، وأكثر ذلك تقلدوه من مذهب الشافعى فى الفقه الموافق للسنة والحديث ، ومما ذكروه فى الأصول مما يوافق السنة والحديث ، وما ردوه مما يخالف السنة والحديث . وبهذا القدر ينتحلون السنة وينحلونها ، وإلا لم يصح ذلك .

وكانت الرافضة والقرامطة — علماؤها وأمراؤها — قد استظهرت فى أوائل الدولة السلجوقية ، حتى غلبت على الشام والعراق ، وأخرجت الخليفة القائم ببغداد إلى تكريت ، وحبسوه بها فى فتنة البساسيرى المشهورة ، فجاءت بعد ذلك السلجوقية حتى هزموهم وفتحوا الشام والعراق ، وقهروهم بخراسان ، وحجروهم بمصر . وكان فى وقتهم من الوزراء مثل : « نظام الملك » ومن العلماء مثل : « أبى المعالى الجوينى » فصاروا بما يقيمونه من السنة ويردونه من بدعة هؤلاء ونحوهم لهم من المكانة عند الأمة بحسب ذلك .

وكذلك المتأخرون من أصحاب مالك الذين وافقوه : « كأبى الوليد الباجى » والقاضى « أبى بكر بن العربى » ونحوهما ، لا يعظمون إلا بموافقة السنة والحديث ، وأما الأكابر : مثل « ابن حبيب » و « ابن سحنون » ونحوهما ؛ فلون آخر .

وكذلك أبو محمد بن حزم فيما صنفه من الملل والنحل إنما يستحمد بموافقة

السنة والحديث ، مثل ما ذكره فى مسائل « القدَر » و « الإرجاء » ونحو ذلك بخلاف ما انفرد به من قوله فى التفضيل بين الصحابة . وكذلك ماذكره فى « باب الصفات » فإنه يستحمد فيه بموافقة أهل السنة والحديث ، لكونه يثبت الأحاديث الصحيحة ويعظم السلف وأئمة الحديث ، ويقول إنه موافق للإمام أحمد فى مسألة القرآن وغيرها ، ولا ريب أنه موافق له ولهم فى بعض ذلك .

لكن الأشعرى ونحوه أعظم موافقة للإمام أحمد بن حنبل ومن قبله من الأئمة فى القرآن والصفات ، وإن كان « أبو محمد بن حزم» فى مسائل الإيمان والقدر أقوم من غيره ، وأعلم بالحديث وأكثر تعظيما له ولأهله من غيره ، لكن قد خالط من أقوال الفلاسفة والمعتزلة فى مسائل الصفات ما صرفه عن موافقة أهل الحديث فى معانى مذهبهم فى ذلك ، فوافق هؤلاء فى اللفظ وهؤلاء فى المعنى .

وبمثل هذا صار يذمه من يذمه من الفقهاء والمتكلمين وعلماء الحديث باتباعه لظاهر لا باطن له ، كما نفى المعانى فى الأمر والنهى والاشتقاق ، وكما نفى خرق العادات ونحوه من عبادات القلوب . مضموماً إلى ما فى كلامه من الوقيعة فى الأكابر ، والإسراف فى نفى المعانى ودعوى متابعة الظواهر .

وإن كان له من الإيمان والدين والعلوم الواسعة الكثيرة ما لا يدفعه إلا مكابر ؛ ويوجد فى كتبه من كثرة الاطلاع على الأقوال والمعرفة بالأحوال ؛

والتعظيم لدعائم الإسلام ولجانب الرسالة ما لا يجتمع مثله لغيره . فالمسألة التى يكون فيها حديث يكون جانبه فيها ظاهر الترجيح . وله من التمييز بين الصحيح والضعيف والمعرفة بأقوال السلف ما لا يكاد يقع مثله لغيره من الفقهاء .

وتعظيم أئمة الأمة وعوامها للسنة والحديث وأهله فى الأصول والفروع من الأقوال والأعمال: أكثر من أن يذكرهنا . وتجد الإسلام والإيمان كلما ظهر وقوى كانت السنة وأهلها أظهر وأقوى ، وإن ظهر شىء من الكفر والنفاق ظهرت البدع بحسب ذلك ، مثل : دولة المهدى ، والرشيد ، ونحوهما ممن كان يعظم الإسلام والإيمان ، ويغزو أعداءه من الكفار والمنافقين . كان أهل السنة فى تلك الأيام أقوى وأكثر ، وأهل البدع أذل وأقل . فإن المهدى قتل من المنافقين الزنادقة من لا يحصى عدده إلا الله ، والرشيد كان كثير الغزو والحج .

وذلك أنه لما انتشرت الدولة العباسية وكان فى أنصارها من أهل المشرق والأعاجم طوائف من الذين نعتهم النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال : « الفتنة ههنا » ؛ ظهر حينئذ كثير من البدع ، وعربت أيضاً إذ ذاك طائفة من كتب الأعاجم ـ من المجوس الفرس ، والصابئين الروم ، والمشركين الهند ـ وكان المهدى من خيار خلفاء بنى العباس ، وأحسنهم إيمانا وعدلا وجوداً ، فصار يتتبع المنافقين الزنادقة كذلك .

وكان خلفاء بنى العباس أحسن تعاهدا للصلوات فى أوقاتها من بنى أمية ،

فإن أولئك كانوا كثير الإضاعة لمواقيت الصلاة ، كما جاءت فيهم الأحاديث : « سيكون بعدى أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها ، فصلوا الصلاة لوقتها ، واجعلوا صلاتكم معهم نافلة » . لكن كانت البدع فى القرون الثلاثة الفاضلة مقموعة ، وكانت الشريعة أعز وأظهر ، وكان القيام بجهاد أعداء الدين من الكافرين والمنافقين أعظم .

وفى دولة « أبى العباس المأمون » ظهر « الخرمية » ونحوهم من المنافقين ، وعرب من كتب الأوائل المجلوبة من بلاد الروم ما انتشر بسببه مقالات الصابئين ، وراسل ملوك المشركين من الهند ونحوهم حتى صار بينه وبينهم مودة .

فلما ظهر ما ظهر من الكفر والنفاق فى المسلمين ، وقوى ماقوى من حال المشركين وأهل الكتاب ، كان من أثر ذلك : ما ظهر من استيلاء الجهمية ، والرافضة ، وغيرهم من أهل الضلال ، وتقريب الصابئة ونحوهم من المتفلسفة . وذلك بنوع رأى يحسبه صاحبه عقلا وعدلا ، وإنما هو جهل وظلم ، إذ التسوية بين المؤمن والمنافق ، والمسلم والكافر أعظم الظلم ، وطلب الهدى عند أهل الضلال أعظم الجهل ، فتولد من ذلك محنة الجهمية ، حتى امتحنت الأمة بنفى الصفات والتكذيب بكلام الله ورؤيته ، وجرى من محنة الإمام أحمد وغيره ما جرى ، مما يطول وصفه .

وكان فى أيام « المتوكل » قد عز الإسلام ، حتى ألزم أهل الذمة بالشروط

العمرية ، وألزموا الصغار ، فعزت السنة والجماعة ، وقمعت الجهمية والرافضة ونحوهم . وكذلك فى أيام « المعتضد » ، والمهدى ، والقادر ، وغيرهم من الخلفاء الذين كانوا أحمد سيرة وأحسن طريقة من غيرهم . وكان الإسلام فى زمنهم أعز ، وكانت السنة بحسب ذلك .

وفى دولة « بنى بويه » ونحوهم : الأمر بالعكس ، فإنهم كان فيهم أصناف المذاهب المذمومة . قوم منهم زنادقة ، وفيهم قرامطة كثيرة ومتفلسفة ، ومعتزلة ورافضة ، وهذه الأشياء كثيرة فيهم غالبة عليهم . فحصل فى أهل الإسلام والسنة فى أيامهم من الوهن ما لم يعرف ، حتى استولى النصارى على ثغور الإسلام ، وانتشرت القرامطة فى أرض مصر والمغرب والمشرق وغير ذلك ، وجرت حوادث كثيرة .

ولما كانت مملكة محمود بن سبكتكين من أحسن ممالك بنى جنسه : كان الإسلام والسنة فى مملكته أعز ، فإنه غزا المشركين من أهل الهند ، ونشر من العدل ما لم ينشره مثله . فكانت السنة فى أيامه ظاهرة ، والبدع فى أيامه مقموعة .

وكذلك السلطان «نور الدين محمود» الذى كان بالشام ، عز أهل الإسلام والسنة فى زمنه ، وذل الكفار وأهل البدع ممن كان بالشام ومصر وغيرهما من الرافضة والجهمية ونحوهم . وكذلك ما كان فى زمنه من خلافة بنى العباس

ووزارة ابن هبيرة لهم ، فإنه كان من أمثل وزراء الإسلام . ولهذا كان له من العناية بالإسلام والحديث ما ليس لغيره .

وما يوجد من إقرار أئمة الكلام والفلسفة وشهادتهم على أنفسهم وعلى بنى جنسهم بالضلال ، ومن شهادة أئمة الكلام والفلسفة بعضهم على بعض كذلك ؛ فأكثر من أن يحتمله هذا الموضع ، وكذلك ما يوجد من رجوع أئمتهم إلى مذهب عموم أهل السنة وعجائزهم كثير ، وأئمة السنة والحديث لا يرجع منهم أحد ، لأن « الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد » وكذلك ما يوجد من شهادتهم لأهل الحديث بالسلامة والخلاص من أنواع الضلال ، وهم لا يشهدون لأهل البدع إلا بالضلال . وهذا باب واسع كما قدمناه .

وجميع الطوائف المتقابلة من أهل الأهواء تشهد لهم بأنهم أصلح من الآخرين وأقرب إلى الحق ، فتجد كلام أهل النحل فيهم وحالهم معهم بمنزلة كلام أهل الملل مع المسلمين وحالهم معهم .

وإذا قابلنا بين الطائفتين — أهل الحديث ، وأهل الكلام — فالذى يعيب بعض أهل الحديث وأهل الجماعة بحشو القول : إنما يعيبهم بقلة المعرفة ؛ أو بقلة الفهم . أما الأول : فبأن يحتجوا بأحاديث ضعيفة أو موضوعة ؛ أو بآثار لا تصلح للاحتجاج . وأما الثانى : فبأن لا يفهموا معنى الأحاديث الصحيحة ، بل قد يقولون القولين المتناقضين ولا يهتدون للخروج من ذلك .

والأمر راجع إلى شيئين : ـ إما زيادة أقوال غير مفيدة يظن أنها مفيدة ، كالأحاديث الموضوعة ، وإما أقوال مفيدة لكنهم لا يفهمونها ، إذ كان اتباع الحديث يحتاج أولا إلى صحة الحديث . وثانياً إلى فهم معناه ، كاتباع القرآن . فالخلل يدخل عليهم من ترك إحدى المقدمتين . ومن عابهم من الناس فإنما يعيبهم بهذا .

ولا ريب أن هذا موجود فى بعضهم ، يحتجون بأحاديث موضوعة فى مسائل « الأصول والفروع » وبآثار مفتعلة وحكايات غير صحيحة ، ويذكرون من القرآن والحديث ما لا يفهمون معناه ، وربما تأولوه على غير تأويله ؛ ووضعوه على غير موضعه .

ثم إنهم بهذا المنقول الضعيف والمعقول السخيف قد يكفرون ويضللون ، ويبدعون أقواماً من أعيان الأمة ويجهلونهم ، ففى بعضهم من التفريط فى الحق والتعدى على الخلق ما قد يكون بعضه خطأ مغفوراً ، وقد يكون منكراً من القول وزورا ، وقد يكون من البدع والضلالات التى توجب غليظ العقوبات فهذا لا ينكره إلا جاهل أو ظالم ، وقد رأيت من هذا عجائب .

لكن هم بالنسبة إلى غيرهم فى ذلك كالمسلمين بالنسبة إلى بقية الملل ، ولا ريب أن فى كثير من المسلمين من الظلم والجهل والبدع والفجور ما لا يعلمه إلا من أحاط بكل شىء علماً ، لكن كل شر يكون فى بعض المسلمين فهو فى غيرهم

أكثر ، وكل خير يكون فى غيرهم فهو فيهم أعلى وأعظم ، وهكذا أهل الحديث بالنسبة إلى غيرهم .

وبيان ذلك : أن ما ذكر من فضول الكلام الذى لا يفيد مع اعتقاد أنه طريق إلى التصور والتصديق — هو فى أهل الكلام والمنطق أضعاف أضعاف أضعاف ما هو فى أهل الحديث ، فبإزاء احتجاج أولئك بالحديث الضعيف احتجاج هؤلاء بالحدود والأقيسة الكثيرة العقيمة ، التى لا تفيد معرفة ؛ بل تفيد جهلا وضلالا ، وبإزاء تكلم أولئك بأحاديث لا يفهمون معناها تكلف هؤلاء من القول بغير علم ما هو أعظم من ذلك وأكثر ، وما أحسن قول الإمام أحمد ! : « ضعيف الحديث خير من رأى فلان » .

ثم لأهل الحديث من المزية : أن ما يقولونه من الكلام الذى لا يفهمه بعضهم هو كلام فى نفسه حق ، وقد آمنوا بذلك ، وأما المتكلمة : فيتكلفون من القول ما لا يفهمونه ولا يعلمون أنه حق ، وأهل الحديث لا يستدلون بحديث ضعيف فى نقض أصل عظيم من أصول الشريعة ، بل إما فى تأييده ؛ وإما فى فرع من الفروع ، وأولئك يحتجون بالحدود والمقاييس الفاسدة فى نقض الأصول الحقة الثابتة .

إذا عرف هذا فقد قال الله تعالى عن أتباع الأئمة من أهل الملل المخالفين للرسل: (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ) ، وقال تعالى :

(يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا) إلى قوله :
(وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا) ، ومثل هذا فى القرآن كثير .

وإذا كانت « سعادة الدنيا والآخرة » هى باتباع المرسلين . فمن المعلوم أن أحق الناس بذلك : هم أعلمهم بآثار المرسلين وأتبعهم لذلك ، فالعالمون بأقوالهم وأفعالهم ، المتبعون لها هم أهل السعادة فى كل زمان ومكان ، وهم الطائفة الناجية من أهل كل ملة ، وهم أهل السنة والحديث من هذه الأمة . فإنهم يشاركون سائر الأمة فيما عندهم من أمور الرسالة ، ويمتازون عنهم بما اختصوا به من العلم الموروث عن الرسول ؛ مما يجهله غيرهم أو يكذب به .

والرسل — صلوات الله وسلامه عليهم — عليهم البلاغ المبين ، وقد بلغوا البلاغ المبين . وخاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم : أنزل الله كتابه مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ؛ فهو الأمين على جميع الكتب وقد بلغ أبين البلاغ وأتمه وأكمله ، وكان أنصح الخلق لعباد الله ، وكان بالمؤمنين رؤوفاً رحيما ، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وجاهد فى الله حق جهاده ، وعبد الله حتى أتاه اليقين . فأسعد الخلق وأعظمهم نعيما وأعلاهم درجة : أعظمهم اتباعاً وموافقة له علماً وعملا .

وأما غير أتباعه من أهل الكلام ؛ فالكلام فى أقيستهم التى هى حججهم

وبراهينهم على معارفهم وعلومهم ، وهذا يدخل فيه كل من خالف شيئاً من السنة والحديث ؛ من المتكلمين والفلاسفة . فالكلام فى هذا المقام واسع لا ينضبط هنا ، لكن المعلوم من حيث الجملة : أن الفلاسفة والمتكلمين من أعظم بنى آدم حشواً وقولا للباطل ، وتكذيباً للحق فى مسائلهم ودلائلهم ؛ لا يكاد — والله أعلم — تخلو لهم مسألة واحدة عن ذلك .

وأذكر أنى قلت مرة لبعض من كان ينتصر لهم من المشغوفين بهم — وأنا إذ ذاك صغير قريب العهد من الاحتلام — كل ما يقوله هؤلاء ففيه باطل ، إما فى الدلائل وإما فى المسائل ، إما أن يقولوا مسألة تكون حقاً لكن يقيمون عليها أدلة ضعيفة ، وإما أن تكون المسألة باطلا . فأخذ ذلك المشغوف بهم يعظم هذا ، وذكر «مسألة التوحيد» ، فقلت : التوحيد حق . لكن اذكر ماشئت من أدلتهم التى تعرفها حتى أذكر لك ما فيه . فذكر بعضها بحروفه حتى فهم الغلط وذهب إلى ابنه ـ وكان أيضاً من المتعصبين لهم ـ فذكر ذلك له قال فأخذ يعظم ذلك على ، فقلت : أنا لا أشك فى التوحيد ، ولكن أشك فى هذا الدليل المعين . ويدلك على ذلك أمور : ـ

أحدها : أنك تجدهم أعظم الناس شكا واضطرابا ، وأضعف الناس علماً ويقينا ، وهذا أمر يجدونه فى أنفسهم ويشهده الناس منهم ، وشواهد ذلك أعظم من أن تذكر هنا . وإنما فضيلة أحدهم باقتداره على الاعتراض والقدح والجدل ومن المعلوم : أن الاعتراض والقدح ليس بعلم ولا فيه منفعة ، وأحسن

أحوال صاحبه : أن يكون بمنزلة العامى ، وإنما العلم فى جواب السؤال . ولهذا تجد غالب حججهم تتكافأ ، إذ كل منهم يقدح فى أدلة الآخر .

وقد قيل : إن الأشعرى - مع أنه من أقربهم إلى السنة والحديث وأعلمهم بذلك - صنف فى آخر عمره كتابا فى تكافؤ الأدلة يعنى أدلة [علم] الكلام ، فإن ذلك هو صناعته التى يحسن الكلام فيها ، وما زال أئمتهم يخبرون بعدم الأدلة والهدى فى طريقهم ، كما ذكرناه عن أبى حامد وغيره ، حتى قال أبو حامد الغزالى « أكثر الناس شكا عند الموت أهل الكلام » .

وهذا أبو عبد الله الرازى من أعظم الناس فى هذا الباب - باب الحيرة والشك والاضطراب - لكن هو مسرف فى هذا الباب ؛ بحيث له نهمة فى التشكيك دون التحقيق ، بخلاف غيره ؛ فإنه يحقق شيئا ويثبت على نوع من الحق ، لكن بعض الناس قد يثبت على باطل محض ، بل لا بد فيه من نوع من الحق . وكان من فضلاء المتأخرين وأبرعهم فى الفلسفة والكلام : ابن واصل الحموى ، كان يقول : « أستلقى على قفاى وأضع الملحفة على نصف وجهى ، ثم أذكر المقالات ، وحجج هؤلاء وهؤلاء واعتراض هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر ، ولم يترجح عندى شىء » ولهذا أنشد الخطابى .

حجج تهافت كالزجاج ، تخالها حقا ؛ وكل كاسر مكسور

فإذا كانت هذه حال حججهم فأى لغو باطل وحشو يكون أعظم من هذا ؟

وكيف يليق بمثل هؤلاء أن ينسبوا [إلى الحشو] أهل الحديث والسنة ؟ الذين هم أعظم الناس علما ويقيناً وطمأنينة وسكينة ، وهم الذين يعلمون ؛ ويعلمون أنهم يعلمون ؛ وهم بالحق يوقنون لا يشكون ولا يمترون .

فأما ما أوتيه علماء أهل الحديث وخواصهم من اليقين والمعرفة والهدى : فأمر يجل عن الوصف . ولكن عند عوامهم من اليقين والعلم النافع ما لم يحصل منه شيء لأئمة المتفلسفة المتكلمين . وهذا ظاهر مشهود لكل أحد .

غاية ما يقوله أحدهم : إنهم جزموا بغير دليل ، وصمموا بغير حجة ، وإنما معهم التقليد . وهذا القدر قد يكون فى كثير من العامة . لكن جزم العلم غير جزم الهوى . فالجازم بغير علم يجد من نفسه أنه غير عالم بما جزم به ، والجازم بعلم يجد من نفسه أنه عالم ؛ إذ كون الإنسان عالماً وغير عالم مثل كونه سامعاً ومبصراً وغير سامع ومبصر ، فهو يعلم من نفسه ذلك : مثل ما يعلم من نفسه كونه محباً ومبغضاً ومريداً وكارها ؛ ومسروراً ومحزونا ، ومنعماً ومعذباً ؛ وغير ذلك . ومن شك فى كونه يعلم مع كونه يعلم - فهو بمنزلة من جزم بأنه علم وهو لا يعلم ، وذلك نظير من شك فى كونه سمع ورأى ؛ أو جزم بأنه سمع ورأى مالم يسمعه ويراه .

والغلط أو الكذب يعرض للإنسان فى كل واحد من طرفى النفى والإثبات ، لكن هذا الغلط أو الكذب العارض لا يمنع أن يكون الإنسان جازما بما لا يشك فيه من ذلك ، كما يجزم بما يجده من الطعوم والأراييح ، وإن كان قد يعرض له من الانحراف ما يجد به الحلو مراً .

فالأسباب العارضة لغلط الحس الباطن أو الظاهر والعقل : بمنزلة المرض العارض لحركة البدن والنفس ، والأصل هو الصحة فى الإدراك وفى الحركة . فإن الله خلق عباده على الفطرة . وهذه الأمور يعلم الغلط فيها بأسبابها الخاصة؛ كالمرة الصفراء العارضة للطعم ، وكالحول فى العين ، ونحو ذلك ، وإلا فمن حاسب نفسه على ما يجزم به وجد أكثر الناس الذين يجزمون بما لا يجزم به إنما جزمهم لنوع من الهوى ، كما قال تعالى : (وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ) ، وقال : (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ) .

ولهذا تجد اليهود يصممون ويصرون على باطلهم ، لما فى نفوسهم من الكبر والحسد والقسوة وغير ذلك من الأهواء . وأما النصارى فأعظم ضلالا منهم ، وإن كانوا فى العادة والأخلاق أقل منهم شراً ، فليسوا جازمين بغالب ضلالهم ، بل عند الاعتبار تجد من ترك الهوى من الطائفتين ونظر نوع نظر تبين له الإسلام حقاً .

والمقصود هنا : أن معرفة الإنسان بكونه يعلم أو لا يعلم :مرجعه إلى وجود نفسه عالمة . ولهذا لا نحتج على منكر العلم إلا بوجودنا نفوسنا عالمة؛ كما احتجوا على منكرى الأخبار المتواترة بأنا نجد نفوسنا عالمة بذلك وجازمة به كعلمنا وجزمنا بما أحسسناه . وجعل المحققون وجود العلم بخبر [من] الأخبار هو الضابط فى حصول التواتر ؛ إذ لم يحدوه بعدد ولا صفة ؛ بل متى حصل العلم كان هو المعتبر . والإنسان يجد نفسه عالمة ، وهذا حق .

فإنه لا يجوز أن يستدل الإنسان على كونه عالما بدليل ، فإن علمه بمقدمات ذلك الدليل يحتاج إلى أن يجد نفسه عالمة بها ، فلو احتاج علمه بكونه عالما إلى دليل أفضى إلى الدور أو التسلسل ؛ ولهذا لا يحس الإنسان بوجود العلم عند وجود سببه إن كان بديهيا ؛ أو إن كان نظريا إذا علم المقدمتين . وبهذا استدل على منكرى إفادة النظر العلم ، وإن كان فى هذه المسألة تفصيل ليس هذا موضعه .

فالغرض : أن من نظر فى دليل يفيد العلم وجد نفسه عالمة عند علمه بذلك الدليل ، كما يجد نفسه سامعة رائية عند الاستماع للصوت والترائى للشمس أو الهلال ، أو غير ذلك . والعلم يحصل فى النفس كما تحصل سائر الإدراكات والحركات بما يجعله الله من الأسباب ، وعامة ذلك بملائكة الله تعالى . فإن الله سبحانه ينزل بها على قلوب عباده من العلم والقوة وغير ذلك ما يشاء .

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان : « اللهم أيده بروح القدس » ، وقال تعالى: (كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ)، وقال صلى الله عليه وسلم : « من طلب القضاء واستعان عليه وكل إليه ، ومن لم يطلب القضاء ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكا يسدده » ، وقال عبد الله بن مسعود : « كنا نتحدث أن السكينة تنطق على لسان عمر » ، وقال ابن مسعود أيضاً : « إن للملك لمة وللشيطان لمة ، فلمة الملك : إيعاد بالخير وتصديق بالحق . ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق » ، وهذا الكلام الذى قاله ابن مسعود هو محفوظ

عنه ، وربما رفعه بعضهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وهو كلام جامع لأصول ما يكون من العبد من علم وعمل ، من شعور وإرادة .

وذلك : أن العبد له قوة الشعور والإحساس والإدراك ، وقوة الإرادة والحركة ،وإحداهما أصل الثانية مستلزمةلها .والثانية مستلزمة للأولى ومكملة لها . فهو بالأولى يصدق بالحق ويكذب بالباطل ، وبالثانية يحب النافع الملائم له ؛ ويبغض الضار المنافى له . والله سبحانه خلق عباده على الفطرة التى فيها معرفة الحق والتصديق به ، ومعرفة الباطل والتكذيب به ، ومعرفة النافع الملائم والمحبة له ، ومعرفة الضار المنافى والبغض له بالفطرة . فما كان حقاً موجوداً صدقت به الفطرة ، وما كان حقاً نافعاً عرفته الفطرة فأحبته واطمأنت إليه . وذلك هو المعروف ، وما كان باطلا معدوما كذبت به الفطرة فأبغضته الفطرة فأنكرته . قال تعالى : ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ .

والإنسان كما سماه النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال : « أصدق الأسماء حارث وهمام » فهو دائماً يهم ويعمل ، لكنه لا يعمل إلا ما يرجو نفعه أو دفع مضرته ، ولكن قد يكون ذلك الرجاء مبنياً على اعتقاد باطل ، إما فى نفس المقصود : فلا يكون نافعاً ولا ضاراً ، وإما فى الوسيلة : فلا تكون طريقاً إليه . وهذا جهل . وقد يعلم أن هذا الشيء يضره ويفعله ، ويعلم أنه ينفعه ويتركه ؛ لأن ذلك العلم عارضه ما فى نفسه من طلب لذة أخرى أو دفع ألم آخر ، جاهلا ، ظالماً ، حيث قدم هذا على ذاك . ولهذا قال أبو العالية : « سألت أصحاب محمد

صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : (إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ)؟ فقالوا . كل من عصى الله فهو جاهل ، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب » .

وإذا كان الإنسان لا يتحرك إلا راجيا . وإن كان راهباً خائفاً لم يسع [إلا] فى النجاة ولم يهرب [إلا] من الخوف ، فالرجاء لا يكون إلا بما يلقى فى نفسه من الإيعاد بالخير ، الذى هو طلب المحبوب ، أو فوات المكروه ، فكل بنى آدم له اعتقاد ؛ فيه تصديق بشىء وتكذيب بشىء ، وله قصد وإرادة لما يرجوه مما هو عنده محبوب ممكن الوصول إليه ، أو لوجود المحبوب عنده ؛ أو لدفع المكروه عنه .

والله خلق العبد يقصد الخير فيرجوه بعمله ، فإذا كذب بالحق فلم يصدق به ولم يرج الخير فيقصده ويعمل له : كان خاسراً بترك تصديق الحق وطلب الخير ، فكيف إذا كذب بالحق وكره إرادة الخير ؟ فكيف إذا صدق بالباطل وأراد الشر ؟ فذكر عبد الله بن مسعود أن لقلب ابن آدم لمة من الملك ولمة من الشيطان ، فلمة الملك تصديق بالحق ، وهو ما كان [من] غير جنس الاعتقاد الفاسد ، و [لمة الشيطان] هو تكذيب بالحق وإيعاد بالشر ، وهو ما كان من جنس إرادة الشر ، وظن وجوده : إما مع رجائه إن كان مع هوى نفس ، وإما مع خوفه إن كان غير محبوب لها . وكل من الرجاء والخوف مستلزم للآخر .

فمبدأ العلم الحق ، والإرادة الصالحة : من لمة الملك . ومبدأ الاعتقاد الباطل والإرادة الفاسدة : من لمة الشيطان . قال الله تعالى : (ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا) ، وقال تعالى : (إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ) أى : يخوفكم أولياءه ، وقال تعالى : (وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ) .

والشيطان وسواس خناس ، إذا ذكر العبد ربه خنس ، فإذا غفل عن ذكره وسوس ، فلهذا كان ترك ذكر الله سبباً ومبدأً لنزول الاعتقاد الباطل والإرادة الفاسدة فى القلب ، ومن ذكر الله تعالى : تلاوة كتابه وفهمه ومذاكرة العلم ، كما قال معاذ بن جبل : « ومذاكرته تسبيح » .

وقد تنازع أهل الكلام فى حصول العلم فى القلب عقب النظر فى الدليل ، فقال بعضهم : ذلك على سبيل التولد . وقال المنكرون للتولد : بل ذلك بفعل الله تعالى . والنظر إما متضمن للعلم وإما موجب له . وهذا ينصره المنتسبون للسنة من المتكلمين ومن وافقهم من الفقهاء من أصحاب مالك والشافعى وأحمد وغيرهم ، وقالت المتفلسفة : بل ذلك يحصل بطريق الفيض من العقل الفعال عند استعداد النفس لقبول الفيض . وقد يزعمون أن العقل الفعال هو « جبريل » .

فأما قول القائلين « إن ذلك بفعل الله » فهو صحيح بناء على أن الله هو معلم كل علم وخالق كل شىء ؛ لكن هذا كلام مجمل ليس فيه بيان لنفس السبب

الخاص ، وأما قول القائلين بالتولد : فبعضه حق وبعضه باطل ، [فإن] كان دعواهم أن العلم المتولد هو حاصل بمجرد قدرة العبد ؛ [فذلك] باطل قطعاً ، ولكن هو حاصل بأمرين : قدرة العبد ، والسبب الآخر ، كالقوة التى فى السهم والقبول الذى فى المحل . ولا ريب أن النظر هو بسبب ، ولكن الشأن فيما به يتم حصول العلم .

وأما زعم المتفلسفة أنه بالعقل الفعال : فمن الخرافات التى لا دليل عليها . وأبطل من ذلك زعمهم : أن ذلك هو جبريل ، وزعمهم : أن كل مايحصل فى عالم العناصر من الصور الجسمانية وكمالاتها : فهو من فيضه وبسببه ، فهو من أبطل الباطل .

ولكن إضافتهم ذلك إلى أمور روحانية : صحيح فى الجملة . فإن الله سبحانه وتعالى يدبر أمر السموات والأرض بملائكته التى هى السفراء فى أمره ، ولفظ « الملك » يدل على ذلك . وبذلك أخبرت الأنبياء ، وقد شهد الكتاب والسنة من ذلك بما لا يتسع هذا الموضع لذكره ، كما ذكره النبى صلى الله عليه وسلم فى ملائكة تخليق الجنين وغيره .

وأما تخصيص روح واحد متصل بفلك القمر يكون هو رب هذا العالم فهذا باطل . وليس هذا موضع استقصاء ذلك ، ولكن لا بد أن يعلم أن المبدأ فى شعور النفس وحركتها : هم الملائكة ، أو الشياطين ، فالملك يلقى التصديق بالحق والأمر بالخير ، والشيطان يلقى التكذيب بالحق والأمر بالشر . والتصديق والتكذيب مقرونان بنظر الإنسان ؛ كما أن الأمر والنهى مقرونان بإرادته .

فإذا كان النظر فى دليل هادٍ — كالقرآن — وسلم من معارضات الشيطان تضمن ذلك النظر العلم والهدى . ولهذا أمر العبد بالاستعاذة من الشيطان الرجيم عند القراءة . وإذا كان النظر فى دليل مضل والناظر يعتقد صحته ؛ بأن تكون مقدمتاه أو إحداهما متضمنة للباطل ، أو تكون المقدمات صحيحة لكن التأليف ليس بمستقيم : فإنه يصير فى القلب بذلك اعتقاد فاسد ، وهو غالب شبهات أهل الباطل المخالفين للكتاب والسنة من المتفلسفة والمتكلمين ونحوهم .

فإذا كان الناظر لا بد له من منظور فيه . والنظر فى نفس المتصور المطلوب حكمه لا يفيد علماً ؛ بل ربما خطر له بسبب ذلك النظر أنواع من الشبهات ؛ يحسبها أدلة ، لفرط تعطش القلب إلى معرفة حكم تلك المسألة وتصديق ذلك التصور .

وأما النظر المفيد للعلم : فهو ما كان فى دليل هاد . والدليل الهادى — على العموم والإطلاق — هو « كتاب الله » و « سنة نبيه » فإن الذى جاءت به الشريعة من نوعى النظر : هو ما يفيد وينفع ويحصل الهدى ، وهو بذكر الله وما نزل من الحق .

فإذا أراد النظر والاعتبار فى الأدلة المطلقة من غير تعيين مطلوب فذلك النظر فى كتاب الله وتدبره ؛ كما قال تعالى : (قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) . وقال تعالى :

(وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ) .

وأما النظر فى مسألة معينة وقضية معينة ، لطلب حكمها والتصديق بالحق فيها ، والعبد لا يعرف ما يدله على هذا أو هذا : فمجرد هذا النظر لا يفيد . بل قد يقع له تصديقات يحسبها حقاً وهى باطل . وذلك من إلقاء الشيطان . وقد يقع له تصديقات تكون حقاً ، وذلك من إلقاء الملك .

وكذلك إذا كان النظر فى الدليل الهادى وهو القرآن ، فقد يضع الكلم مواضعه ويفهم مقصود الدليل فيهتدى بالقرآن ، وقد لا يفهمه ، أو يحرف الكلم عن مواضعه فيضل به ، ويكون ذلك من الشيطان . كما قال تعالى : (وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) ، وقال : (يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ) ، وقال : (فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ) وقال : (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى) ، وقال : (هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ) .

فالناظر فى الدليل بمنزلة المترائى للهلال ، قد يراه ، وقد لا يراه لعشى فى بصره ، وكذلك أعمى القلب .

وأما الناظر فى المسألة : فهـذا يحتاج إلى شيئين : إلى أن يظفر بالدليل الهادى وإلى أن يهتدى به وينتفع . فأمره الشرع بمـا يوجب أن ينزل على قلبه الأسباب الهادية ، ويصرف عنه الأسباب المعوقة : وهو ذكر الله تعالى ، والغفلة عنه . فإن الشيطان وسواس خناس ، فإذا ذكر العبد ربه خنس ، وإذا غفل عن ذكر الله وسوس .

و « ذكر الله » يعطى الإيمـان ، وهو أصل الإيمان . والله سبحانه هو رب كل شىء ومليكه ، وهو معلم كل علم وواهبه ، فكما أن نفسه أصل لكل شىء موجود ، فذكره والعلم به أصل لكل علم ، وذكره فى القلب .

والقرآن يعطى العلم المفصل فيزيد الإيمان ، كما قال « جندب بن عبد الله البجلى » وغيره من الصحابة : « تعلمنا الإيمان ، ثم تعلمنا القرآن ، فازددنا إيماناً » ولهذا كان أول ما أنزل الله على نبيه : (ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ) ، فأمره أن يقرأ باسم الله ؛ فتضمن هذا الأمر بذكر الله وما نزل من الحق ، وقال : (بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) .

فذكر سبحانه أنه خلق أكرم الأعيان الموجودة عموماً وخصوصاً وهو الإنسان ، وأنه المعلم للعلم عموماً وخصوصاً للإنسان ، وذكر التعليم بالقلم الذى هو آخر المراتب ، ليستلزم تعليم القول وتعليم العلم الذى فى القلب .

وحقيقة الأمر : أن العبد مفتقر إلى ما يسأله من العلم والهدى ، طالب سائل ، فبذكر الله والافتقار إليه يهديه الله ويدله ، كما قال : « يا عبادى ! كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم » ، وكما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، انك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » .

ومما يوضح ذلك : أن الطالب للعلم بالنظر والاستدلال ، والتفكر والتدبر ، لا يحصل له ذلك إن لم ينظر فى دليل يفيده العلم بالمدلول عليه ، ومتى كان العلم مستفاداً بالنظر ، فلا بد أن يكون عند الناظر من العلم المذكور الثابت فى قلبه ما لا يحتاج حصوله إلى نظر ؛ فيكون ذلك المعلوم أصلا وسبباً للتفكر الذى يطلب به معلوماً آخر ، ولهذا كان الذكر متعلقاً بالله ، لأنه سبحانه هو الحق المعلوم ، وكان التفكر فى مخلوقاته ، كما قال الله تعالى : (ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) .

وقد جاء الأثر : « تفكروا فى المخلوق ولا تتفكروا فى الخالق » ؛ لأن التفكير والتقدير يكون فى الأمثال المضروبة ، والمقاييس ، وذلك يكون فى الأمور المتشابهة ، وهى المخلوقات .

وأما الخالق — جل جلاله ، سبحانه وتعالى — فليس له شبيه ولا نظير ، فالتفكر الذى مبناه على القياس ممتنع فى حقه ، وإنما هو معلوم بالفطرة ، فيذكره العبد . وبالذكر ، وبما أخبر به عن نفسه : يحصل للعبد من العلم به أمور عظيمة ، لا تنال بمجرد التفكير والتقدير ـ أعنى من العلم به نفسه ، فإنه الذى لا تفكير فيه .

فأما العلم بمعانى ما أخبر به ، ونحو ذلك : فيدخل فيها التفكير والتقدير كما جاء به الكتاب والسنة ، ولهذا كان كثير من أرباب العبادة والتصوف يأمرون بملازمة الذكر ، ويجعلون ذلك هو باب الوصول إلى الحق . وهذا حسن إذا ضموا إليه تدبر القرآن والسنة واتباع ذلك ، وكثير من أرباب النظر والكلام يأمرون بالتفكر والنظر ، ويجعلون ذلك هو الطريق إلى معرفة الحق .

والنظر صحيح إذا كان فى حق ودليل كما تقدم ، فكل من الطريقين فيها حق ، لكن يحتاج إلى الحق الذى فى الأخرى ، ويجب تنزيه كل منهما عما دخل فيها من الباطل ، وذلك كله باتباع ما جاء به المرسلون ، وقد بسطنا الكلام فى هذا فى غير هذا الموضع ، وبينا طرق أهل العبادة والرياضة والذكر ، وطريق أهل الكلام والنظر والاستدلال ، وما فى كل منهما من مقبول ومردود ، وبينا ما جاءت به الرسالة من الطريق الكاملة الجامعة لكل حق . وليس هذا موضع بسط ذلك .

وإنما المقصود هنا : أن الإنسان محس بأنه عالم : يجد ذلك ويعرفه بغير واسطة أحد ؛ كما يحس بغير ذلك .

وحصول العلم فى القلب كحصول الطعام فى الجسم ، فالجسم يحس بالطعام والشراب ؛ وكذلك القلوب تحس بما يتنزل إليها من العلوم التى هى طعامها وشرابها ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن كل آدب يحب أن تؤتى مأدبته ، وإن مأدبة الله هى القرآن » ، وكما قال تعالى : (أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥ) ، وفى الصحيحين عن أبى موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم : كمثل غيث أصاب أرضا ، وكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها طائفة أمسكت الماء فسقى الناس وزرعوا ، وكانت منها طائفة إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ، ونفعه ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

فضرب مثل الهدى والعلم الذى ينزل على القلوب بالماء الذى ينزل على الأرض .

وكما أن لله ملائكة موكلة بالسحاب والمطر ، فله ملائكة موكلة بالهدى والعلم . هذا رزق القلوب وقوتها ، وهذا رزق الأجساد وقوتها ، قال الحسن

البصرى فى قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ قال : « إن من أعظم النفقة نفقة العلم » أو نحو هذا الكلام ، وفى أثر آخر : « نعمت العطية ، ونعمت الهدية : الكلمة من الخير يسمعها الرجل فيهديها إلى أخ له مسلم » . وفى أثر آخر عن أبى الدرداء : « ما تصدق عبد بصدقة أفضل من موعظة يعظ بها إخواناً له مؤمنين ، فيتفرقون وقد نفعهم الله بها » ، أو ما يشبه هذا الكلام.

وعن كعب بن عجرة قال : « ألا أهدى لك هدية ؟ فذكر الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم » . وروى ابن ماجه فى سننه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أفضل الصدقة أن يتعلم الرجل علما ، ثم يعلمه أخاه المسلم » وقال معاذ بن جبل : « عليكم بالعلم ، فإن طلبه عبادة ، وتعلمه لله حسنة ، وبذله لأهله قربة ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، والبحث عنه جهاد ، ومذاكرته تسبيح » .

ولهذا كان معلم الخير يستغفر له كل شىء حتى الحيتان فى البحر ، والله وملائكته يصلون على معلم الناس الخير ، لما فى ذلك من عموم النفع لكل شىء . وعكسه كاتموا العلم ، فإنهم يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، قال طائفة من السلف : « إذا كتم الناس العلم . فعمل بالمعاصى احتبس القطر ، فتقول البهائم : اللهم عصاة بنى آدم ، فإنا منعنا القطر بسبب ذنوبهم » .

وإذا كان علم الإنسان بكونه عالما مرجعه إلى وجوده ذلك ، وإحساسه فى نفسه بذلك — وهذا أمر موجود بالضرورة — لم يكن لهم أن يخبروا عما

فى نفوس الناس : بأنه ليس بعلم بغير حجة ، فإن عدم وجودهم من نفوسهم ذلك لا يقتضى أن النـاس لم يجدوا ذلك ، لا سيما إذا كان المخبرون يخبرون عن اليقين الذى فى أنفسهم ؛ عمن لا يشكون فى علمه وصدقه ومعرفته بما يقول .

وهذا حال أئمة المسلمين وسلف الأمة ، وحملة الحجة ، فإنهم يخبرون بما عندهم من اليقين والطمأنينة والعلم الضرورى ، كما فى الحـكاية المحفوظة عن « نجم الدين الـكبرى » لما دخل عليه متكلمان ، أحدهما ، أبو عبد الله الرازى . والآخر : من متكلمى المعتزلة ، وقالا : يا شيخ ! بلغنا : أنك تعلم علم اليقين . فقال : نعم ، أنا أعلم علم اليقين . فقالا : كيف يمكن ذلك ، ونحن من أول النهار إلى الساعة نتناظر ، فلم يقدر أحدنا أن يقيم على الآخر دليلا ؟ ـ وأظن الحـكاية فى تثبيت الإسلام — فقال : ما أدرى ما تقولان . ولـكن أنا أعلم علم اليقين ، فقالا : صف لنا علم اليقين ، فقال : علم اليقين ـ عندنا ـ واردات ترد على النفوس ، تعجز النفوس عن ردها ، فجعلا يقولان : واردات ترد على النفوس تعجز النفوس عن ردها ؟ ! ويستحسنان هذا الجواب .

وذلك لأن طريق أهل الكلام تقسيم العلوم إلى ضرورى وكسبى ، أو بديهى ونظرى .

فالنظرى الـكسبى : لا بد أن يرد إلى مقدمات ضرورية أو بديهية فتلك لا تحتاج إلى دليل ، وإلا لزم الدور أو التسلسل . والعلم الضرورى : هو الذى

يلزم نفس المخلوق لزوما لا يمكنه الانفكاك عنه ، فالمرجع فى كونه ضروريا إلى أنه يعجز عن دفعه عن نفسه .

فأخبر الشيخ : أن علومهم ضرورية ، وأنها ترد على النفوس على وجه تعجز عن دفعه ، فقالا له : ما الطريق إلى ذلك ؟ فقال : تتركان ما أنتما فيه ، وتسلكان ما أمركما الله به من الذكر والعبادة . فقال الرازى : أنا مشغول عن هذا . وقال المعتزلى : أنا قد احترق قلبي بالشبهات ، وأحب هذه الواردات ، فلزم الشيخ مدة ، ثم خرج من محل عبادته ، وهو يقوله : والله يا سيدى ، ما الحق إلا فيما يقوله هؤلاء المشبهة — يعنى : المثبتين للصفات ؛ فإن المعتزلة يسمون الصفاتية مشبهة — وذلك أنه علم علماً ضروريا لا يمكنه دفعه عن قلبه أن رب العالم لا بد أن يتميز عن العالم ، وأن يكون بائنا منه له صفات تختص به ، وأن هذا الرب الذى تصفه الجهمية إنما هو عدم محض .

وهذا موضع الحكاية المشهورة عن الشيخ العارف أبى جعفر الهمدانى لأبى المعالى الجوينى ، لما أخذ يقول على المنبر : كان الله ولا عرش ، فقال : يا أستاذ ! دعنا من ذكر العرش — يعنى : لأن ذلك إنما جاء فى السمع — أخبرنا عن هذه الضرورة التى نجدها فى قلوبنا ، فإنه ما قال عارف قط « يا الله ! » إلا وجد من قلبه ضرورة تطلب العلو ، لا تلتفت يمنة ولا يسرة ، فكيف ندفع هذه الضرورة عن قلوبنا ؟ قال : فلطم أبو المعالى على رأسه ، وقال : حيرنى الهمدانى ، حيرنى الهمدانى ، ونزل .

وذلك لأن نفس استوائه على العرش بعد أن خلق السموات والأرض في ستة أيام علم بالسمع . الذى جاءت به الرسل ، كما أخبر الله به فى القرآن والتوراة .

وأما كونه عالياً عـــلى مخلوقاته بائناً منهم : فهذا أمر معلوم بالفطرة الضرورية التى يشترك فيها جميع بنى آدم .

وكل من كان بالله أعرف ، وله أعبد ، ودعاؤه له أكثر ، وقلبه له أذكر ، كان علمه الضرورى بذلك أقوى وأكمل ، فالفطرة مكملة بالفطرة المنزلة ، فإن الفطرة تعلم الأمر مجملا ، والشريعة تفصله وتبينه ، وتشهد بمـا لا تستقل الفطرة به . فهذا هذا . والله أعلم .

فصـــــل

والحاصل : أن كل من استحكم فى بدعته يرى أن قياسه يطرد ؛ لما فيه من التسوية بين المتماثلين عنده — وإن استلزم ذلك كثرة مخالفة النصوص — وهذا موجود فى المسائل العلمية الخبرية ، والمسائل العملية الإرادية : تجد المتكلم قد يطرد قياسه طرداً مستمراً ، فيكون [فى] ظاهر الأمر أجود ممن نقضها ، وتجد المستن الذى شاركه فى ذلك القياس قد يقول ما يناقض ذلك القياس فى مواضع ؛ مع استشعار التناقض تارة ، وبدون استشعاره تارة ، وهو الأغلب . وربما يخيل بفروق ضعيفة فهو فى نقض علته والتفريق بين المتماثلين فيها يظهر أنه دون الأول فى العلم والخبرة وطرد القول ، وليس كذلك ؛ بل هو خير من الأول . فإن ذلك القياس الذى اشتركا فيه كان فاسداً فى أصله : لمخالفة النص والقياس الصحيح ، فالذى طرده أكثر فساداً وتناقضاً من هذا الذى نقضه . وهذا شأن كل من وافق غيره على قياس ليس هو فى نفس الأمر بحق ، وكان أحدهما من النصوص فى مواضع ما يخالف ذلك القياس ، وهذا يسميه الفقهاء فى مواضع كثيرة : الاستحسان . فتجد القائلين بالاستحسان ، الذى تركوا فيه القياس لنص خيراً من الذين طردوا القياس وتركوا النص .

ولهذا يروى عن أبى حنيفة ، أنه قال : لا تأخذوا بمقاييس زفر ، فإنكم إن أخذتم بمقاييسه حرمتم الحلال وحللتم الحرام » ، فإن زفر كان كثير الطرد ، لما يظنه من القياس مع قلة علمه بالنصوص .

وكان أبو يوسف نظره بالعكس ؛ كان أعلم بالحديث منه ، ولهذا توجد المسائل التى يخالف فيها زفر أصحابه عامتها قياسية ، ولا يكون إلا قياساً ضعيفاً عند التأمل ، وتوجد المسائل التى يخالف فيها أبو يوسف أبا حنيفة واتبعه محمد عليها ؛ عامتها اتبع فيها النصوص والأقيسة الصحيحة ، لأن أبا يوسف رحل بعد موت أبى حنيفة إلى الحجاز ، واستفاد من علم السنن التى كانت عندهم ما لم تكن مشهورة بالكوفة ، وكان يقول : « لو رأى صاحبى ما رأيت لرجع كما رجعت » لعلمه بأن صاحبه ما كان يقصد إلا اتباع الشريعة ، لكن قد يكون عند غيره من علم السنن ما لم يبلغه .

وهذا أيضاً حال كثير من الفقهاء بعضهم مع بعض ، فيما وافقوا عليه من قياس لم تثبت صحته بالأدلة المعتمدة ، فإن الموافقة فيه توجب طرده ، ثم أهل النصوص قد ينقضونه ، والذين لا يعلمون النصوص يطردونه .

وكذلك هذه حال أكثر متكلمة أهل الإثبات مع متكلمة النفات ؛ فى مسائل الصفات والقدر وغير ذلك ، قد يوافقونهم على قياس فيه نفى ، ثم يطرده أولئك فينفون به ما أثبتته النصوص ، والمثبتة لا تفعل ذلك ،

بل لا بد من القول بموجب النص ، فربما قالوا ببعض معناها وربما فرقوا بفرق ضعيف .

وأصل ذلك : موافقة أولئك على القياس الضعيف ، وذلك فى مثل مسائل الجسم والجوهر وغير ذلك .

وهكذا تجد هذا حال من أعان ظالماً فى الأفعال ، فإن الأفعال لا تقع إلا عن إرادة ؛ فالظالم يطرد إرادته فيصيب من أعانه ، أو يصيب ظلماً لا يختاره هذا ، فيريد المعين أن ينقض الطرد ، ويخص علته ، ولهذا يقال : من أعان ظالماً بُلى به ، وهذا عام فى جميع الظلمة من أهل الأقوال والأعمال ؛ وأهل البدع والفجور . وكل من خالف الكتاب والسنة ، من خبر أو أمر أو عمل فهو ظالم .

فإن الله أرسل رسله ليقوم الناس بالقسط ، ومحمد صلى الله عليه وسلم أفضلهم ، وقد بين الله سبحانه له من القسط ما لم يبينه لغيره ، وأقدره على مالم يقدر عليه غيره ، فصار يفعل ويأمر بما لا يأمر به غيره ويفعله .

وذلك أن بنى آدم فى كثير من المواضع قد لا يعلمون حقيقة القسط ولا يقدرون على فعله ، بل ما كان إليه أقرب وبه أشبه كان أمثل ، وهى الطريقة المثلى . وقد بسطنا هذا فى مواضع ، قال تعالى : (وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ) ، وقال : (لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) ، وقال : (فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

مَاٱسْتَطَعْتُمْ) وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم » .

والمقصود : أن ما عند عوام المؤمنين وعلمائهم أهل السنة والجماعة من المعرفة واليقين والطمأنينة ، والجزم الحق والقول الثابت ، والقطع بما هم عليه أمر لا ينازع فيه إلا من سلبه الله العقل والدين .

وهب أن المخالف لا يسلم ذلك ، فلا ريب أنهم يخبرون عن أنفسهم بذلك ، ويقولون : إنهم يجدون ذلك . وهو وطائفته يخبرون بضد ذلك ، ولا يجدون عندهم إلا الريب . فأى الطائفتين أحق بأن يكون كلامها [موصوفا] بالحشو ؟ أو يكون أولى بالجهل والضلال والإفك والمحال ؟ . وكلام المشايخ والأئمة من أهل السنة والفقه والمعرفة فى هذا الباب أعظم من أن نطيل به الخطاب .

الوجه الثاني

أنك تجد أهل الكلام أكثر الناس انتقالا من قول إلى قول ، وجزما بالقول فى موضع ، وجزماً بنقيضه ، وتكفير قائله فى موضع آخر ، وهذا دليل عدم اليقين . فإن الإيمان كما قال فيه قيصر لما سأل أبا سفيان عمن أسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم : « هل يرجع أحد منهم عن دينه سخطة له ، بعد أن يدخل فيه ؟ قال : لا . قال : وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشته القلوب ، لا يسخطه أحد » ، ولهذا قال بعض السلف ـ عمر بن عبد العزيز أو غيره ـ : « من جعل دينه غرضا للخصومات أكثر التنقل » .

وأما أهل السنة والحديث فما يعلم أحد من علمائهم ، ولا صالح عامتهم رجع قط عن قوله واعتقاده ، بل هم أعظم الناس صبرا على ذلك ، وإن امتحنوا بأنواع المحن ، وفتنوا بأنواع الفتن ، وهذه حال الأنبياء وأتباعهم من المتقدمين ، كأهل الأخدود ونحوهم ، وكسلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين ، وغيرهم من الأئمة ، حتى كان مالك رحمه الله يقول : « لا تغبطوا أحداً لم يصبه فى هذا الأمر بلاء » . يقول : إن الله لا بد أن يبتلى المؤمن ، فإن صبر رفع درجته ، كما قال تعالى : (الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ

ٱلْكَٰذِبِينَ) ، وقال تعالى : (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ) ، وقال تعالى : (وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ) .

ومن صبر من أهل الأهواء على قوله ، فذاك لما فيه من الحق ، إذ لا بد فى كل بدعة ـ عليها طائفة كبيرة ـ من الحق الذى جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويوافق عليه أهـــل السنة والحديث : ما يوجب قبولها ، إذ الباطل المحض لا يقبل بحال .

وبالجملة : فالثبات والاستقرار فى أهل الحديث والسنة أضعاف أضعاف أضعاف ما هو عند أهل الكلام والفلسفة ، بل المتفلسف أعظم اضطرابا وحيرة فى أمره من المتكلم . لأن عند المتكلم من الحق الذى تلقاه عن الأنبياء ما ليس عند المتفلسف ، ولهذا تجد مثل « أبي الحسين البصرى » وأمثاله أثبت من مثل « ابن سينا » وأمثاله .

وأيضاً تجد أهل الفلسفة والكلام أعظم الناس افتراقاً واختلافاً . مع دعوى كل منهم أن الذى يقوله حق مقطوع به قام عليه البرهان . وأهل السنة والحديث أعظم الناس اتفاقا وائتلافا ، وكل من كان من الطوائف إليهم أقرب كان إلى الاتفاق والائتلاف أقرب ، فالمعتزلة أكثر اتفاقا وائتلافا من المتفلسفة ، إذ للفلاسفة فى الإلهيات والمعاد والنبوات ، بل وفى الطبيعيات والرياضات ، وصفات الأفلاك : من الأقوال ما لا يحصيه إلا ذو الجلال .

وقد ذكر من جمع مقالات الأوائل ، مثل « أبى الحسن الأشعرى » فى كتاب المقالات ومثل القاضى « أبى بكر » فى كتاب الدقائق من مقالاتهم ، بقدر ما يذكره الفارابى ، وابن سينا ، وأمثالها أضعافاً مضاعفة .

وأهل الإثبات من المتكلمين - مثل الكلابية والكرامية والأشعرية - أكثر اتفاقا وائتلافا من المعتزلة، فإن فى المعتزلة من الاختلافات وتكفير بعضهم بعضا ، حتى ليكفر التلميذ أستاذه ، من جنس ما بين الخوارج ، وقد ذكر من صنف فى فضائح المعتزلة من ذلك ما يطول وصفه ، ولست تجد اتفاقا وائتلافاً إلا بسبب اتباع آثار الأنبياء من القرآن والحديث ، وما يتبع ذلك ، ولا تجد افتراقاً واختلافاً إلا عند من ترك ذلك وقدم غيره عليه ، قال تعالى : (وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ) ، فأخبر أن أهل الرحمة لا يختلفون وأهل الرحمة هم أتباع الأنبياء قولا وفعلا ، وهم أهل القرآن والحديث من هذه الأمة ، فمن خالفهم فى شىء فاته من الرحمة بقدر ذلك .

ولهذا لما كانت الفلاسفة أبعد عن اتباع الأنبياء كانوا أعظم اختلافاً ، والخوارج والمعتزلة والروافض لما كانوا أيضاً أبعد عن السنة والحديث كانوا أعظم افتراقاً فى هذه ، لا سيما الرافضة ، فإنه يقال : إنهم أعظم الطوائف اختلافاً وذلك لأنهم أبعد الطوائف عن السنة والجماعة ، بخلاف المعتزلة فإنهم أقرب إلى ذلك منهم .

وأبو محمد بن قتيبة ـ فى أول كتاب مختلف الحديث ـ لما ذكر أهل الحديث وأئمتهم ، وأهل الكلام وأئمتهم : قفى بذكر أئمة هؤلاء ووصف أقوالهم وأعمالهم ؛ ووصف أئمة هؤلاء ، وأقوالهم وأفعالهم بما يبين لكل أحد : أن أهل الحديث هم أهل الحق والهدى ، وأن غيرهم أولى بالضلال والجهل والحشو والباطل .

وأيضاً المخالفون لأهل الحديث هم مظنة فساد الأعمال : إما عن سوء عقيدة ونفاق ، وإما عن مرض فى القلب وضعف إيمان . ففيهم من ترك الواجبات ، واعتداء الحدود والاستخفاف بالحقوق وقسوة القلب ما هو ظاهر لكل أحد ، وعامة شيوخهم يرمون بالعظائم ، وإن كان فيهم من هو معروف بزهد وعبادة ، ففى زهد بعض العامة من أهل السنة وعبادته ما هو أرجح مما هو فيه .

ومن المعلوم أن العلم أصل العمل ، وصحة الأصول توجب صحة الفروع ، والرجل لا يصدر عنه فساد العمل إلا لشيئين : إما الحاجة ، وإما الجهل ، فأما العالم بقبح الشيء الغنى عنه فلا يفعله ، اللهم إلا من غلب هواه عقله واستولت عليه المعاصى ، فذاك لون آخر وضرب ثان .

وأيضاً فإنه لا يعرف من أهل الكلام أحد إلا وله فى الإسلام مقالة يكفر قائلها عموم المسلمين حتى أصحابه ، وفى التعميم ما يغنى عن التعيين ، فأى فريق

أحق بالحشو والضلال من هؤلاء ؟ وذلك يقتضى وجود الردة فيهم ، كما يوجد النفاق فيهم كثيراً .

وهذا إذا كان فى المقالات الخفية فقد يقال : إنه فيها مخطئ ضال ، لم تقم عليه الحجة التى يكفر صاحبها ؛ لكن ذلك يقع فى طوائف منهم فى الأمور الظاهرة التى تعلم العامة والخاصة من المسلمين أنها من دين المسلمين ؛ بل اليهود والنصارى يعلمون : أن محمدا صلى الله عليه وسلم بعث بها ، وكفر مخالفها ؛ مثل أمره بعبادة الله وحده لا شريك له ، ونهيه عن عبادة أحد سوى الله من الملائكة والنبيين والشمس والقمر والكواكب والأصنام وغير ذلك ؛ فإن هذا أظهر شعائر الإسلام ، ومثل أمره بالصلوات الخمس ، وإيجابه لها وتعظيم شأنها ، ومثل معاداته لليهود والنصارى والمشركين والصابئين والمجوس ، ومثل تحريم الفواحش والربا والخمر والميسر ونحو ذلك .

ثم تجد كثيرا من رؤسائهم وقعوا فى هذه الأمور ، فكانوا مرتدين ، وإن كانوا قد يتوبون من ذلك ويعودون إلى الإسلام ، فقد حكى عن الجهم بن صفوان : أنه ترك الصلاة أربعين يوماً لا يرى وجوبها ؛ كرؤساء العشائر مثل الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن ، ونحوهم ممن ارتد عن الإسلام ودخل فيه ، ففيهم من كان يتهم بالنفاق ومرض القلب ، وفيهم من لم يكن كذلك .

أو يقال : هم لما فيهم من العلم يشبهون بعبد الله بن أبى سرح الذى كان

كاتب الوحى ، فارتد ولحق بالمشركين ، فأهدر النبى صلى الله عليه وسلم دمه عام الفتح ، ثم أتى به عثمان إليه فبايعه على الإسلام .

فمن صنف فى مذهب المشركين ونحوهم أحسن أحواله . أن يكون مسلماً . فكثير من رؤوس هؤلاء هكذا تجده تارة يرتد عن الإسلام ردة صريحة ، وتارة يعود إليه مع مرض فى قلبه ونفاق ، وقد يكون له حال ثالثة يغلب الإيمان فيها النفاق ، لكن قل أن يسلموا من نوع نفاق ، والحكايات عنهم بذلك مشهورة . وقد ذكر ابن قتيبة من ذلك طرفاً فى أول مختلف الحديث ، وقد حكى أهل المقالات لبعضهم عن بعض من ذلك طرفاً ، كما يذكره أبو عيسى الوراق والنوبختى وأبو الحسن الأشعرى ، والقاضى أبو بكر بن الباقلانى ، وأبو عبد الله الشهرستانى ، وغيرهم ، ممن يذكر مقالات أهل الكلام .

وأبلغ من ذلك : أن منهم من يصنف فى دين المشركين والردة عن الإسلام كما صنف الرازى كتابه فى عبادة الكواكب والأصنام ، وأقام الأدلة على حسن ذلك ومنفعته ورغب فيه ، وهذه ردة عن الإسلام باتفاق المسلمين ، وإن كان قد يكون تاب منه وعاد إلى الإسلام .

ومن العجب : أن أهل الكلام يزعمون أن أهل الحديث والسنة أهل تقليد ليسوا أهل نظر واستدلال ، وأنهم ينكرون حجة العقل . وربما حكى إنكار النظر عن بعض أئمة السنة ، وهذا مما ينكرونه عليهم .

فيقال لهم : ليس هذا بحق . فإن أهل السنة والحديث لا ينكرون ما جاء به القرآن ، هذا أصل متفق عليه بينهم . والله قد أمر بالنظر والاعتبار والتفكر والتدبر فى غير آية ، ولا يعرف عن أحد من سلف الأمة ولا أئمة السنة وعلمائها أنه أنكر ذلك ، بل كلهم متفقون على الأمر بما جاءت به الشريعة ، من النظر والتفكر والاعتبار والتدبر وغير ذلك ، ولكن وقع اشتراك فى لفظ « النظر والاستدلال » ولفظ « الكلام » ، فإنهم أنكروا ما ابتدعه المتكلمون من باطل نظرهم وكلامهم واستدلالهم ، فاعتقدوا أن إنكار هذا مستلزم لإنكار جنس النظر والاستدلال .

وهذا كما أن طائفة من أهل الكلام يسمى ما وضعه « أصول الدين » وهذا اسم عظيم ، والمسمى به فيه من فساد الدين ما الله به عليم . فإذا أنكر أهل الحق والسنة ذلك ، قال المبطل : قد أنكروا أصول الدين . وهم لم ينكروا ما يستحق أن يسمى أصول الدين ، وإنما أنكروا ما سماه هذا أصول الدين ، وهى أسماء سموها هم وآباؤهم بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان ، فالدين ما شرعه الله ورسوله ، وقد بين أصوله وفروعه ، ومن المحال أن يكون الرسول قد بين فروع الدين دون أصوله ، كما قد بينا هذا فى غير هذا الموضع ، فهكذا لفظ النظر ، والاعتبار ، والاستدلال» .

وعامة هذه الضلالات إنما تطرق من لم يعتصم بالكتاب والسنة ، كما كان

الزهرى يقول : كان علماؤنا يقولون : الاعتصام بالسنة هو النجاة» ، وقال مالك «السنة سفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق» .

وذلك أن السنة والشريعة والمنهاج : هو الصراط المستقيم الذى يوصل العباد الى الله . والرسول : هو الدليل الهادى الخريت فى هذا الصراط ، كما قال تعالى : (إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا). وقال تعالى : (وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ) وقال تعالى : (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ) ، وقال عبدالله بن مسعود «خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً ، وخط خطوطاً عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذا سبيل الله ، وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه . ثم قرأ : (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ) .

وإذا تأمل العاقل — الذى يرجو لقاء الله — هذا المثال ، وتأمل سائر الطوائف من الخوارج ، ثم المعتزلة ، ثم الجهمية ، والرافضة ، ومن أقرب منهم إلى السنة من أهل الكلام ، مثل الكرامية والكلابية والأشعرية وغيرهم ، وأن كلا منهم له سبيل يخرج به عما عليه الصحابة وأهل الحديث ، ويدعى أن سبيله هو الصواب ـ وجدت أنهم المراد بهذا المثال الذى ضربه المعصوم ، الذى لا يتكلم عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى .

والعجب أن من هؤلاء من يصرح بأن عقله إذا عارضه الحديث — لا سيما

فى أخبار الصفات — حمل الحديث على عقله وصرح بتقديمه على الحديث ، وجعل عقله ميزاناً للحديث ، فليت شعرى هل عقله هذا كان مصرحا بتقديمه فى الشريعة المحمدية ، فيكون من السبيل المأمور باتباعه ، أم هو عقل مبتدع جاهل ضال حائر خارج عن السبيل ؟ فلا حول ولا قوة إلا بالله .

وهؤلاء الاتحادية وأمثالهم إنما أتوا من قلة العلم والإيمان بصفات الله التى يتميز بها عن المخلوقات ، وقلة اتباع السنة وطريقة السلف فى ذلك ، بل قد يعتقدون من التجهم ما ينافى السنة ، تلقياً لذلك عن متفلسف أو متكلم ، فيكون ذلك الاعتقاد صاداً لهم عن سبيل الله ، كلما أرادت قلوبهم أن تتقرب إلى ربها ، وتسلك الصراط المستقيم إليه ، وتعبده - كما فطروا عليه ، وكما بلغتهم الرسل من علوه وعظمته - صرفتهم تلك العوائق المضلة عن ذلك ، حتى تجد خلقاً من مقلدة الجهمية يوافقهم بلسانه ، وأما قلبه فعلى الفطرة والسنة ، وأكثرهم لا يفهمون ما النفى الذى يقولونه بألسنتهم ؟ بل يجعلونه تنزيها مطلقاً مجملا .

ومنهم من لا يفهم قول الجهمية . بل يفهم من النفى معنى صحيحاً ، ويعتقد أن المثبت يثبت نقيض ذلك ، ويسمع من بعض الناس ذكر ذلك .

مثل أن يفهم من قولهم : ليس فى جهة ، ولا له مكان ، ولا هو فى السماء : أنه ليس فى جوف السموات ، وهذا معنى صحيح ؛ وإيمانه بذلك حق ، ولكن

يظن أن الذين قالوا هذا النفى اقتصروا على ذلك ، وليس كذلك . بل مرادهم : أنه ما فوق العرش شيء أصلا ، ولا فوق السموات إلا عدم محض ؛ ليس هناك إله يعبد ، ولا رب يدعى ويسأل ، ولا خالق خلق الخلائق ، ولا عُرج بالنبي إلى ربه أصلا ، هذا مقصودهم .

وهذا هو الذى أوقع الاتحادية فى قولهم : هو نفس الموجودات ؛ إذ لم تجد قلوبهم موجوداً إلا هذه الموجودات ، إذا لم يكن فوقها شيء آخر ، وهذا من المعارف الفطرية الشهودية الوجودية أنه ليس إلا هذا الوجود المخلوق ؛ أو وجود آخر مباين له متميز عنه ، لا سيما إذا علموا أن الأفلاك مستديرة وأن الأعلى هو المحيط . فإنهم يعلمون أنه ليس إلا هذا الوجود المخلوق ؛ أو موجود فوقه .

فإذا اعتقدوا مع ذلك أنه ليس هناك وجود آخر ولا فوق العالم شيء ؛ لزم أن يقولوا : هو هذا الوجود المخلوق ؛ كما قال الاتحادية . وهذه بعينها هى حجة الاتحادية .

وهذا بعينه هو مشرب قدماء الجهمية وحدثائهم كما يقولون : هو فى كل مكان ، وليس هو فى مكان . ولا يختص بشيء . يجمعون دائماً بين القولين المتناقضين ، لأنهم يريدون إثبات موجود ؛ وليس عندهم شيء فوق العالم . فتعين أن يكون هو العالم أو يكون فيه . ثم يريدون إثبات شيء غير المخلوق ؛

فيقولون : ليس هو فى العالم كما ليس خارجاً عنه ، أو يقولون : هو وجود المخلوقات دون أعيانها ، أو يقولون : هو الوجود المطلق ، فيثبتونه فيما يثبتون ، إذ كانت قلوبهم متشابهة فى النفى والتعطيل ، وهو إنكار موجود حقيقى مباين للمخلوقات عال عليها .

وإنما يفترقون فيما يثبتونه ، ويكرهون فطرهم وعقولهم على قبول المحال المتناقض ، فيقولون : هو فى العالم ، وليس هو فيه ، أو هو العالم وليس إياه ، أو يغلبون الإثبات فيقولون : بل هو نفس الوجود ، أو النفى فيقولون : ليس فى العالم ولا خارجاً عنه ، أو يدينون بالإثبات فى حال وبالنفى فى حال ، إذا غلب على أحدهم عقله غلب النفى ، وهو أنه ليس فى العالم ، وإذا غلب عليه الوجد والعبادة رجح الإثبات ، وهو أنه فى هذا الوجود أو هو هو ، لا تجد جهمياً إلا على أحد هذه الوجوه الأربعة ، وإن تنوعوا فيما يثبتونه - كما ذكرته لك - فهم مشتركون فى التعطيل .

وقد رأيت منهم ومن كتبهم ؛ وسمعت منهم وممن يخبر عنهم من ذلك ما شاء الله . وكلهم على هذه الأحوال ضالون عن معبودهم وإلههم وخالقهم . ثم رأيت كلام السلف والأئمة كلهم يصفونهم بمثل ذلك . فمن الله علينا باتباع سبيل المؤمنين وآمنا بالله وبرسوله . وكل هؤلاء يجد نفسه مضطربة فى هذا الاعتقاد لتناقضه فى نفسه . وإنما يسكن بعض اضطرابه نوع تقليد لمعظم عنده ، أو خوفه من مخالفة ، أصحابه أو زعمه أن هذا من حكم الوهم والخيال دون العقل .

وهذا التناقض فى إثبات هذا الموجود الذى ليس بخارج عن العالم ولا هو العالم ، الذى ترده فطرهم وشهودهم وعقولهم ؛ غير ما فى الفطرة من الإقرار بصانع فوق العالم ، فإن هذا إقرار الفطرة بالحق المعروف ، وذاك إنكار الفطرة بالباطل المنكر .

ومن هذا الباب : ما ذكره محمد بن طاهر المقدسى فى حكايته المعروفة : أن الشيخ أبا جعفر الهمدانى حضر مرة والأستاذ أبو المعالى يذكر على المنبر : « كان الله ولا عرش » ونفى الاستواء - على ما عرف من قوله وإن كان فى آخر عمره رجع عن هذه العقيدة ، ومات على دين أمه وعجائز نيسابور - قال فقال الشيخ أبو جعفر « يا أستاذ ! دعنا من ذكر العرش - يعنى لأن ذلك إنما جاء فى السمع - أخبرنا عن هذه الضرورة التى نجدها فى قلوبنا : ما قال عارف قط « يا الله » إلا وجد من قلبه معنى يطلب العلو ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة . فكيف ندفع هذه الضرورة عن قلوبنا ؟ » . فصرخ أبو المعالى ، ووضع يده على رأسه ، وقال . « حيرنى الهمدانى » . أو كما قال ونزل .

فهذا الشيخ تكلم بلسان جميع بنى آدم ، فأخبر أن العرش والعلم باستواء الله عليه إنما أخذ من جهة الشرع وخبر الكتاب والسنة ، بخلاف الإقرار بعلو الله على الخلق من غير تعيين عرش ولا استواء ، فإن هذا أمر فطرى ضرورى نجده فى قلوبنا نحن وجميع من يدعو الله تعالى ، فكيف ندفع هذه الضرورة عن قلوبنا ؟!.

والجارية التى قال لها النبي صلى الله عليه وسلم : « أين الله ؟ قالت : فى السماء قال : أعتقها فإنها مؤمنة » جارية أعجمية ، أرأيت من فقهها وأخبرها بما ذكرته ؟ وإنما أخبرت عن الفطرة التى فطرها الله تعالى عليها . وأقرها النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك وشهد لها بالإيمان .

فليتأمل العاقل ذلك يجده هادياً له على معرفة ربه ، والإقرار به كما ينبغى ؛ لا ما أحدثه المتعمقون والمتشدقون ممن سول لهم الشيطان وأملى لهم .

ومن أمثلة ذلك : أن الذين لبسوا الكلام بالفلسفة من أكابر المتكلمين تجدهم يعدون من الأسرار المصونة والعلوم المخزونة : ما إذا تدبره من له أدنى عقل ودين وجد فيه من الجهل والضلال ما لم يكن يظن أنه يقع فيه هؤلاء ، حتى قد يكذب بصدور ذلك عنهم ، مثل تفسير حديث المعراج ، الذى ألفه أبو عبد الله الرازى الذى احتذى فيه حذو ابن سينا ، وعين القضاة الهمدانى ، فإنه روى حديث المعراج . بسياق طويل وأسماء عجيبة ، وترتيب لا يوجد فى شيء من كتب المسلمين ، لا فى الأحاديث الصحيحة ولا الحسنة ، ولا الضعيفة المروية عند أهل العلم . وإنما وضعه بعض السؤال والطرقية ، أو بعض شياطين الوعاظ أو بعض الزنادقة .

ثم إنه مع الجهل بحديث المعراج — الموجود فى كتب الحديث والتفسير والسيرة ، وعدوله عما يوجد فى هذه الكتب إلى مالم يسمع من عالم ، ولا يوجد

فى أثارة من علم — فسره بتفسير الصابئة الضالة المنجمين ، وجعــــل معراج الرسول ترقيه بفكره إلى الأفلاك ، وأن الأنبياء الذين رآهم هم الكواكب : فآدم هو القمر ، وإدريس هو الشمس ، والأنهار الأربعة هى العناصر الأربعة وأنه عرف الوجود الواجب المطلق ، ثم إنه يعظم ذلك ويجعله من الأسرار والمعارف التى يجب صونها عن أفهام المؤمنين ، وعلمائهم ، حتى إن طائفة ممن كانوا يعظمونه لما رأوا ذلك تعجبوا منه غاية التعجب ، وجعل بعض المتعصبين له يدفع ذلك حتى أروه النسخة بخط بعض المشايخ المعروفين الخبيرين بحاله ، وقد كتبها فى ضمن كتابه الذى سماه : « المطالب العالية » ، وجمع فيه عامة آراء الفلاسفة والمتكلمين .

وتجد أبا حامد الغزالى — مع أن له من العلم بالفقه والتصوف والكلام والأصول وغير ذلك ، مع الزهد والعبادة وحسن القصد ، وتبحره فى العلوم الإسلامية أكثر من أولئك — يذكر فى كتاب « الأربعين » ونحوه كتابه : « المضنون به على غير أهله » ؛ فإذا طلبت ذلك الكتاب واعتقدت فيه أسرار الحقائق وغاية المطالب وجدته قول الصابئة المتفلسفة بعينه ، قد غيرت عباراتهم وترتيباتهم ، ومن لم يعلم حقائق مقالات العباد ومقالات أهل الملل يعتقد أن ذاك هو السر الذى كان بين النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر ، وأنه هو الذى يطلع عليه المكاشفون الذين أدركوا الحقائق بنور إلهى .

فإن أبا حامد كثيراً ما يحيل فى كتبه على ذلك النور الإلهى ، وعلى ما يعتقد

أنه يوجد للصوفية والعباد برياضتهم ودياناتهم من إدراك الحقائق وكشفها لهم، حتى يزنوا بذلك ما ورد به الشرع.

وسبب ذلك أنه كان قد علم بذكائه وصدق طلبه ، ما فى طريق المتكلمين والمتفلسفة من الاضطراب . وآتاه الله إيماناً مجملا — كما أخبر به عن نفسه — وصار يتشوف إلى تفصيل الجملة ، فيجد فى كلام المشايخ والصوفية ما هو أقرب إلى الحق، وأولى بالتحقيق من كلام الفلاسفة والمتكلمين، والأمر كما وجده ، لكن لم يبلغه من الميراث النبوى الذى عند خاصة الأمة من العلوم والأحوال : وما وصل إليه السابقون الأولون من العلم والعبادة ، حتى نالوا من المكاشفات العلمية والمعاملات العبادية ما لم ينله أولئك .

فصار يعتقد أن تفصيل تلك الجملة يحصل بمجرد تلك الطريق ، حيث لم يكن عنده طريق غيرها ، لانسداد الطريقة الخاصة السنية النبوية عنه بما كان عنده من قلة العلم بها ، ومن الشبهات التى تقلدها عن المتفلسفة والمتكلمين ، حتى حالوا بها بينه وبين تلك الطريقة .

ولهذا كان كثير الذم لهذه الحوائل ولطريقة العلم . وإنما ذاك لعلمه الذى سلكه ، والذى حجب به عن حقيقة المتابعة للرسالة . وليس هو بعلم ، وإنما هو عقائد فلسفية وكلامية ، كما قال السلف : « العلم بالكلام هو الجهل » ؛ وكما قال أبو يوسف : « من طلب العلم بالكلام تزندق » .

ولهذا صار طائفة ممن يرى فضيلته وديانته يدفعون وجود هذه الكتب عنه ، حتى كان الفقيه أبو محمد بن عبد السلام ـ فيما علقه عنه ـ ينكر أن يكون « بداية الهداية » من تصنيفه ، ويقول : إنما هو تقول عليه ، مع أن هذه الكتب مقبولها أضعاف مردودها ، والمردود منها أمور مجملة ، وليس فيها عقائد ، ولا أصول الدين .

وأما « المضنون به على غير أهله » فقد كان طائفة أخرى من العلماء يكذبون ثبوته عنه ، وأما أهل الخبرة به وبحاله فيعلمون أن هذا كله كلامه ، لعلمهم بمواد كلامه ومشابهة بعضه بعضاً ، ولكن كان هو وأمثاله ـ كما قدمت ـ مضطربين لا يثبتون على قول ثابت . لأن عندهم من الذكاء والطلب مايتشوفون به إلى طريقة خاصة الخلق ، ولم يقدر لهم سلوك طريقِ خاصةِ هذه الأمة ، الذين ورثوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم العلم والإيمان ، وهم أهل حقائق الإيمان والقرآن ، ـ كما قدمناه ـ وأهل الفهم لكتاب الله والعلم والفهم لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأتباع هذا العلم بالأحوال والأعمال المناسبة لذلك ، كما جاءت به الرسالة .

ولهذا كان الشيخ « أبو عمرو بن الصلاح » يقول ـ فيما رأيته بخطه ـ : أبو حامد كثر القول فيه ومنه .

فأما هذه الكتب ـ يعنى المخالفة للحق ـ فلا يلتفت إليها . وأما الرجل فيسكت عنه ، ويفوض أمره إلى الله .

ومقصوده أنه لا يذكر بسوء ، لأن عفو الله عن الناسى والمخطىء وتوبة المذنب تأتى على كل ذنب ، وذلك من أقرب الأشياء إلى هذا وأمثاله ، ولأن مغفرة الله بالحسنات منه ومن غيره ، وتكفيره الذنوب بالمصائب تأتى على محقق الذنوب ، فلا يقدم الإنسان على انتفاء ذلك فى حق معين إلا ببصيرة ، لا سيما مع كثرة الإحسان والعلم الصحيح ، والعمل الصالح والقصد الحسن . وهو يميل إلى الفلسفة ، لكنه أظهرها فى قالب التصوف والعبارات الإسلامية .

ولهذا فقد رد عليه علماء المسلمين ، حتى أخص أصحابه أبو بكر بن العربى ، فانه قال : « شيخنا أبو حامد دخل فى بطن الفلاسفة ، ثم أراد أن يخرج منهم فما قدر » .

وقد حكى عنه من القول بمذاهب الباطنية ما يوجد تصديق ذلك فى كتبه . ورد عليه أبو عبد الله المازرى فى كتاب أفرده ، ورد عليه أبو بكر الطرطوشى ورد عليه أبو الحسن المرغينانى رفيقه ، رد عليه كلامه فى مشكاة الأنوار ونحوه ، ورد عليه الشيخ أبو البيان ، والشيخ أبو عمرو بن الصلاح ، وحذر من كلامه فى ذلك هو وأبو زكريا النواوى وغيرهما ، ورد عليه ابن عقيل ، وابن الجوزى وأبو محمد المقدسى وغيرهم .

وهذا باب واسع ، فإن الخارجين عن طريقة السابقين الأولين من

المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان لهم فى كلام الرسول ثلاث طرق : طريقة التخييل، وطريقة التأويل ، وطريقة التجهيل .

(فأهل التخييل) هم الفلاسفة والباطنية ، الذين يقولون : إنه خيل أشياء ، لا حقيقة لها فى الباطن ، وخاصية النبوة عندهم التخييل .

(وطريقة التأويل) طريقة المتكلمين من الجهمية والمعتزلة وأتباعهم ، يقولون : إن ما قاله له تأويلات تخالف ما دل عليه اللفظ ، وما يفهم منه ، وهو - وإن كان لم يبين مراده ولا بين الحق الذى يجب اعتقاده - فكان مقصوده أن هذا يكون سبباً للبحث بالعقل ، حتى يعلم الناس الحق بعقولهم ، ويجتهدوا فى تأويل ألفاظه إلى ما يوافق قولهم ليثابوا على ذلك ، فلم يكن قصده لهم البيان والهداية ، والإرشاد والتعليم ، بل قصده التعمية والتلبيس ، ولم يعرفهم الحق حتى ينالوا الحق بعقلهم ، ويعرفوا حينئذ أن كلامه لم يقصد به البيان ، فيجعلون حالهم فى العلم مع عدمه خيراً من حالهم مع وجوده .

وأولئك المتقدمون كابن سينا وأمثاله ، ينكرون على هؤلاء ، ويقولون : ألفاظه كثيرة صريحة لا تقبل التأويل ، لكن كان قصده التخييل ، وأن يعتقد الناس الأمر على خلاف ما هو عليه .

(وأما الصنف الثالث) الذين يقولون : إنهم أتباع السلف ، فيقولون : إنه لم يكن الرسول يعرف معنى ما أنزل عليه من هذه الآيات ، ولا أصحابه

يعلمون معنى ذلك ، بل لازم قولهم : أنه هو نفسه لم يكن يعرف معنى ما تـكلم به من أحاديث الصفات ، بل يتكلم بكلام لا يعرف معناه ، والذين ينتحلون مذهب السلف يقولون : إنهم لم يكونوا يعرفون معانى النصوص ، بل يقولون ذلك فى الرسول . وهذا القول من أبطل الأقوال ، ومما يعتمدون عليه من ذلك ما فهموه من قوله تعالى : (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ) ، ويظنون أن التأويل هو المعنى الذى يسمونه هم تأويلا ، وهو مخالف للظاهر .

ثم هؤلاء قد يقولون : تجرى النصوص على ظاهرها ، وتأويلها لا يعلمه إلا الله ، ويريدون بالتأويل : ما يخالف الظاهر ، وهذا تناقض منهم . وطائفة يريدون بالظاهر ألفاظ النصوص فقط ، والطائفتان غالطتان فى فهم الآية .

وذلك أن لفظ « التأويل » قد صار بسبب تعدد الاصطلاحات ، له ثلاث معان :ـ

(أحدها) : أن يراد بالتأويل حقيقة ما يؤول إليه الكلام ، وإن وافق ظاهره . وهذا هو المعنى الذى يراد بلفظ التأويل فى الكتاب والسنة ، كقوله تعالى : (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ) ، ومنه قول عائشة : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا ولك الحمد ، اللهم اغفر لى ، يتأول القرآن » .

(والثانى) يراد بلفظ التأويل : « التفسير » وهو اصطلاح كثير من المفسرين ، ولهذا قال مجاهد ـ إمام أهل التفسير ـ : إن « الراسخين فى العلم » يعلمون تأويل المتشابه ، فإنه أراد بذلك تفسيره وبيان معانيه ، وهذا مما يعلمه الراسخون.

(والثالث) أن يراد بلفظ « التأويل » : صرف اللفظ عن ظاهره الذى يدل عليه ظاهره إلى ما يخالف ذلك ، لدليل منفصل يوجب ذلك. وهذا التأويل لا يكون إلا مخالفاً لما يدل عليه اللفظ ويبينه . وتسمية هذا تأويلا لم يكن فى عرف السلف ، وإنما سمى هذا وحده تأويلا طائفة من المتأخرين الخائضين فى الفقه وأصوله والكلام ، وظن هؤلاء أن قوله تعالى : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يراد به هذا المعنى ، ثم صاروا فى هذا التأويل على طريقين : قوم يقولون : إنه لا يعلمه إلا الله . وقوم يقولون : إن الراسخين فى العلم يعلمونه ، وكلا الطائفتين مخطئة .

فإن هذا التأويل فى كثير من المواضع ـ أو أكثرها وعامتها ـ من باب تحريف الكلم عن مواضعه ، من جنس تأويلات القرامطة والباطنية . وهذا هو التأويل الذى اتفق سلف الأمة وأئمتها على ذمه ، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض ، ورموا فى آثارهم بالشهب .

وقد صنف الإمام أحمد كتابا فى الرد على هؤلاء ، وسماه : « الرد على

الزنادقة والجهمية ، فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله » فعاب أحمد عليهم أنهم يفسرون القرآن بغير ما هو معناه . ولم يقل أحمد ولا أحد من الأئمة : إن الرسول لم يكن يعرف معانى آيات الصفات وأحاديثها ، ولا قالوا : إن الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم يعرفوا تفسير القرآن ومعانيه .

كيف ؟ وقد أمر الله بتدبر كتابه ، فقال تعالى : (كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ) ، ولم يقل : بعض آياته ، وقال : (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ) ، وقال : (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ) ، وأمثال ذلك فى النصوص التى تبين أن الله يحب أن يتدبر الناس القرآن كله ، وأنه جعله نوراً وهدى لعباده ، ومحال أن يكون ذلك مما لا يفهم معناه ، وقد قال أبو عبدالرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن - عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود - أنهم قالوا : « كنا إذا تعلمنا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم نجاوزها حتى نتعلم ما فيها من العلم والعمل » قالوا : « فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً » وهذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : أن من يقول فى الرسول وبيانه للناس مما هو من قول الملاحدة ، فكيف يكون قوله فى السلف ؟ حتى يدعى اتباعه ، وهو مخالف للرسول والسلف عند نفسه وعند طائفته ، فإنه قد أظهر من قول النفاة ما كان الرسول يرى عدم إظهاره ، لما فيه من فساد الناس . وأما عند أهل العلم والإيمان فلا .

وقول النفاة باطل باطناً وظاهراً ، والرسول صلى الله عليه وسلم ومتبعوه منزهون عن ذلك ، بل مات صلى الله عليه وسلم وتركنا على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك . وأخبرنا أن : « كل ما حدث بعده من محدثات الأمور فهو بدعة ، وكل بدعة ضلالة » .

وربما أنشد بعض أهل الكلام بيت مجنون بني عامر :

وكل يدعى وصلا لليلى ✻ وليلى لا تقر لهم بذا كا

فمن قال من الشعر ما هو حكمة ، أو تمثل ببيت من الشعر فيما تبين له أنه حق كان قريباً . أما إثبات الدعوى بمجرد كلام منظوم من شعر أو غيره فيقال لصاحبه : ينبغى أن تبين أن السلف لا يقرون بمن انتحلتهم . وهذا ظاهر فيما ذكره هو وغيره ممن يقولون عن السلف ما لم يقولوه ، ولم ينقله عنهم أحد له معرفة بحالهم وعدل فيما نقل ، فإن الناقل لا بد أن يكون عالماً عدلا .

فإن فرض أن أحداً نقل مذهب السلف كما يذكره ، فإما أن يكون قليل المعرفة بآثار السلف ، كأبى المعالى ، وأبى حامد الغزالى ، وابن الخطيب وأمثالهم ، ممن لم يكن لهم من المعرفة بالحديث ما يعدون به من عوام أهل الصناعة ، فضلا عن خواصها ، ولم يكن الواحد من هؤلاء يعرف البخارى ومسلماً وأحاديثهما إلا بالسماع ، كما يذكر ذلك العامة ، ولا يميزون بين الحديث الصحيح المتواتر

عند أهل العلم بالحديث ، وبين الحديث المفترى المكذوب ، وكتبهم أصدق شاهد بذلك ففيها عجائب .

وتجد عامة هؤلاء الخارجين عن منهاج السلف من المتكلمة والمتصوفة يعترف بذلك ، إما عند الموت وإما قبل الموت ، والحكايات فى هذا كثيرة معروفة .

هذا أبو الحسن الأشعرى : نشأ فى الاعتزال أربعين عاما يناظر عليه ، ثم رجع عن ذلك وصرح بتضليل المعتزلة وبالغ فى الرد عليهم .

وهذا أبو حامد الغزالى [مع فرط ذكائه وتألهه ومعرفته بالكلام والفلسفة ، وسلوكه طريق الزهد والرياضة والتصوف ، ينتهى فى هذه المسائل إلى الوقف والحيرة ، ويحيل فى آخر أمره على طريقة أهل الكشف ، وإن كان بعد ذلك رجع إلى طريقة أهل الحديث] ، وصنف « إلجام العوام عن علم الكلام » .

[وكذلك أبو عبد الله محمد بن عمر الرازى قال فى كتابه الذى صنفه فى أقسام اللذات] : « لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفى عليلا ، ولا تروى غليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن : [أقرأ فى الإثبات (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) ، (إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ) ، وأقرأ فى النفى (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ) ، (وَلَا يُحِيطُونَ

بِهِۦ عِلۡمًا) ، (هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا)، ثم قال: ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى] وكان يتمثل كثيراً:

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعى العالمين ضلال
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وهذا إمام الحرمين ترك ما كان ينتحله ويقرره، واختار مذهب السلف. وكان [يقول: «يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام! فلو أنى عرفت أن الكلام يبلغ بى إلى ما بلغ ما اشتغلت به»، وقال عند موته: «لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت فيما نهونى عنه. والآن: إن لم يتداركنى ربى برحمته فالويل لابن الجوينى، وها أنذا أموت على عقيدة أمى - أو قال -: عقيدة عجائز نيسابور».

وكذلك قال أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الشهرستانى: «أخبر أنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم»]، وكان ينشد:

لعمرى لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفى بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن، أو قارعاً سن نادم

وابن الفارض - من متأخرى الاتحادية - صاحب القصيدة التائية المعروفة «بنظم السلوك» وقد نظم فيها الاتحاد نظماً رائق اللفظ، فهو أخبث من لحم

خنزير فى صينية من ذهب . وما أحسن تسميتها بنظم الشكوك ! الله أعلم بها وبما اشتملت عليه وقد نفقت كثيرا وبالغ أهل العصر فى تحسينها والاعتداد بمـا فيها من الاتحاد ـ لما حضرته الوفاة أنشد :

إن كان منزلتى فى الحب عندكم ما قد لقيت فقد ضيعت أيامى
أمنية ظفرت نفسى بها زمناً واليوم أحسبها أضغاث أحلام

ولقد كان من أصول الإيمان : أن يثبت الله العبد بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، كما قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ * يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ) .

والـكلمة : أصل العقيدة . فإن الاعتقاد هو الكلمة التى يعتقدها المرء ، وأطيب الـكلام والعقائد : كلمة التوحيد واعتقاد أن لا إله إلا الله . وأخبث الكلام والعقائد : كلمة الشرك ، وهو اتخاذ إله مع الله . فإن ذلك باطل لا حقيقة له ولهذا قال سبحانه : (مَا لَهَا مِن قَرَارٍ) ولهذا كان كلما بحث الباحث وعمل العامل على هذه الـكلمات والعقائد الخبيثة لا يزداد إلا ضلالا وبعداً عن الحق وعلماً ببطلانها ، كما قال تعالى : (وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ *

أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ) .

فذكر سبحانه مثلين : —

(أحدهما) : مثـــل الكفر والجهل المركب الذى يحسبه صاحبه موجوداً ، وفى الواقع يكون خيالا معدوماً كالسراب ، وأن القلب عطشان إلى الحق كعطش الجسد إلى المـاء . فإذا طلب ما ظنه ماءً وجده سراباً ، ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب . وهكذا تجد عامة هؤلاء الخارجين عن السنة والجماعة .

(والمثل الثانى) : مثل الكفر والجهل البسيط الذى لا يتبين فيه صاحبه حقاً ولا يرى فيه هدى ، والكفر المركب مستلزم للبسيط ، وكل كفر فلا بد فيه من جهل مركب .

فضرب الله سبحانه المثلين بذلك ليبين حال الاعتقاد الفاسد، ويبين حال عدم معرفة الحق- وهو يشبه حال المغضوب عليهم والضالين- حال المصمم على الباطل حتى يحل به العذاب ، وحال الضال الذى لا يرى طريق الهدى .

فنسأل الله العظيم أن يثبتنا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، وأن يرزقنا الاعتصام بالكتاب والسنة .

ومن أمثلة ما ينسبه كثير من أتباع المشايخ والصوفية إلى المشايخ الصادقين : من الكذب والمحال ، أو يكون من كلامهم المتشابه الذى تأولوه على غير تأويله أو يكون من غلطات بعض الشيوخ وزلاتهم ، أو من ذنوب بعضهم وخطئهم مثل : كثير من البدع والفجور الذى يفعله بعضهم بتأويل سائغ أو بوجه غير سائغ ، فيعفى عنه أو يتوب منه أو يكون له حسنات يغفر له بها ، أو مصائب يكفر عنه بها ، أو يكون من كلام المتشبهين بأولياء الله من ذوى الزهادات والعبادات والمقامات ، وليس هو من أولياء الله المتقين ، بل من الجاهلين الظالمين المعتدين ، أو المنافقين أو الكافرين .

وهذا كثير ملأ العالم ، تجد كل قوم يدعون من الاختصاص بالأسرار والحقائق ما لا يدعى المرسلون ، وأن ذلك عند خواصهم ، وأن ذلك لا ينبغى أن يقابل إلا بالتسليم ، ويحتجون لذلك بأحاديث موضوعة ، وتفسيرات باطلة . مثل قولهم عن عمر : « إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتحدث هو وأبو بكر بحديث وكنت كالزنجى بينهما » ، فيجعلون عمر مع النبي صلى الله عليه وسلم وصديقه كالزنجى ، وهو حاضر يسمع الكلام . ثم يدعى أحدهم أنه علم ذلك بما قذف فى قلبه ، ويدعى كل منهم : أن ذلك هو ما يقوله من الزور والباطل ، ولو ذكرت ما فى هذا الباب من أصناف الدعاوى الباطلة لطال .

فمنهم من يجعل للشيخ قصائد يسميها « جنيب القرآن » ، ويكون وجده بها وفرحه بمضمونها أعظم من القرآن ، ويكون فيها من الكذب والضلال أمور .

ومنهم من يجعل له قصائد فى الاتحاد ، وأنه خالق جميع الخلق ، وأنه خلق السموات والأرض ، وأنه يسجد له ويعبد .

ومنهم من يصف ربه فى قصائده بما نقل فى الموضوعات من أصناف التمثيل والتكييف والتجسيم ، التى هى كذب مفترى وكفر صريح : مثل موا كلته ومشاربته ، وبماشاته ومعانقته ، ونزوله إلى الأرض وقعوده فى بعض رياض الأرض ، ونحو ذلك . ويجعل كل منهم ذلك من الأسرار المخزونة والعلوم المصونة التى تكون لخواص أولياء الله المتقين .

ومن أمثلة ذلك : أنك تجد عند الرافضة والمتشيعة ومن أخذ عنهم مِنْ دعوى علوم الأسرار والحقائق التى يدعون أخذها عن أهل البيت ، إما من العلوم الدينية ، وإما مِن علم الحوادث الكائنة ما هو عندهم من أجل الأمور التى يجب التواصى بكتمانها ، والإيمان بما لا يعلم حقيقته من ذلك . وجميعها كذب مختلق وإفك مفترى .

فإن هذه الطائفة « الرافضة » من أكثر الطوائف كذباً وادعاء للعلم المكتوم ، ولهذا انتسبت إليهم الباطنية والقرامطة .

وهؤلاء خرج أولهم فى زمن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وصاروا يدعون أنه خص بأسرار من العلوم والوصية ، حتى كان يسأله عن ذلك خواص أصحابه ، فيخبرهم بانتفاء ذلك . ولما بلغه أن ذلك قد قيل كان يخطب الناس وينفى ذلك عن نفسه .

وقد خرَّج أصحاب الصحيح كلام عليٍّ هذا من غير وجه ، مثل ما فى الصحيح عن « أبى جحيفة » قال : « سألت علياً هل عندكم شىء ليس فى القرآن ؟ فقال : لا ، والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، ما عندنا إلا ما فى القرآن ، إلا فهما يعطيه الله الرجل فى كتابه وما فى هذه الصحيفة . قلت : وما فى الصحيفة ؟ قال : العقل ، وفكاك الأسير ، وأن لا يقتل مسلم بكافر » ، ولفظ البخارى « هل عندكم شىء من الوحى غير ما فى كتاب الله ؟ قال : لا ، والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، ما أعلمه إلا فهما يعطيه الله رجلا فى القرآن » .

وفى الصحيحين عن إبراهيم التيمى عن أبيه ـ وهذا من أصح إسنادٍ على وجه الأرض ـ عن على قال : « ما عندنا شىء إلا كتاب الله ، وهذه الصحيفة عن النبى صلى الله عليه وسلم : المدينة حرام ما بين عَير إلى ثور » ، وفى رواية لمسلم « خطبنا على بن أبى طالب فقال : من زعم أن عندنا كتاباً نقرؤه إلا كتاب الله وما فى هذه الصحيفة ـ قال : وصحيفته معلقة فى قراب سيفه ـ فقد كذب ، فيها أسنان الإبل وأشياء من الجراحات ، وفيها قال النبى صلى الله عليه وسلم : المدينة حرام » الحديث .

وأما الكذب والأسرار التى يدعونها عن جعفر الصادق : فمن أكبر الأشـــياء [كذباً] حتى يقال : ما كذب على أحد ما كذب على جعفر رضى الله عنه .

ومن هذه الأمور المضافة كتاب « الجفر » ، الذى يدعون أنه كتب فيه

الحوادث ، والجفر ولد الماعز . يزعمون أنه كتب ذلك فى جلده ، وكذلك كتاب « البطاقة » الذى يدعيـــه ابن الحلى ونحوه من المغـاربة ، ومثل كتاب : « الجدول » فى الهلال ، و « الهفت » عن جعفر وكثير من تفسير القرآن وغيره .

ومثل كتاب « رسائل إخوان الصفا » الذى صنفه جماعة فى دولة بنى بويه ببغداد ، وكانوا من الصابئة المتفلسفة المتحنفة ، جمعوا بزعمهم بين دين الصابئة المبدلين ، وبين الحنيفية ، وأتوا بكلام المتفلسفة وبأشياء من الشريعة ، وفيه من الكفر والجهل شىء كثير ، ومع هذا فإن طائفة من الناس — من بعض أكابر قضاة النواحى — يزعم أنه من كلام جعفر الصادق . وهذا قول زنديق وتشنيع جاهل .

ومثل ما يذكره بعض العامة من ملاحم « ابن غنضب » ؛ ويزعمون أنه كان معلماً للحسن والحسين . وهذا شىء لم يكن فى الوجود باتفاق أهل العلم ، وملاحم « ابن غنضب » إنما صنفها بعض الجهال فى دولة نور الدين ونحوها ، وهو شعر فاسد يدل على أن ناظمه جاهل .

وكذلك عامة هذه الملاحم المروية بالنظم ونحوه ، عامتها من الأكاذيب ، وقد أحدث فى زماننا من القضاة والمشايخ غير واحدة منها ، وقد قررت بعض هؤلاء على ذلك ، بعد أن ادعى قدمها ، وقلت له : بل أنت صنفتها ، ولبستها

على بعض ملوك المسلمين لما كان المسلمون محاصرى عكة ، وكذلك غيره من القضاة وغيرهم لبسوا على غير هذا الملك .

وباب الكذب فى الحوادث الكونية أكثر منه فى الأمور الدينية ، لأن تشوف الذين يغلبون الدنيا على الدين إلى ذلك أكثر ، وإن كان لأهل الدين إلى ذلك تشوف ، لكن تشوفهم إلى الدين أقوى ، وأولئك ليس لهم من الفرقان بين الحق والباطل من النور ما لأهل الدين . فلهذا كثر الكذابون فى ذلك ، ونفق منه شىء كثير ، وأكلت به أموال عظيمة بالباطل ، وقتلت به نفوس كثيرة من المتشوفة إلى الملك ونحوها .

ولهذا ينوعون طرق الكذب فى ذلك ويتعمدون الكذب فيه : تارة بالإحالة على الحركات والأشكال الجسمانية الإلهية من حركات الأفلاك والكواكب . والشهب والرعود ، والبروق والرياح ، وغير ذلك ، وتارة بما يحدثونه هم من الحركات والأشكال، كالضرب بالرمل والحصى والشعير ، والقرعة باليد ونحو ذلك ، مما هو من جنس الاستقسام بالأزلام ؛ فإنهم يطلبون علم الحوادث بما يفعلونه من هذا الاستقسام بها، سواء كانت قداحا أو حصى ، أو غير ذلك مما ذكره أهل العلم بالتفسير .

فكل ما يحدثه الإنسان بحركة من تغيير شىء من الأجسام ليستخرج به علم ما يستقبله فهو من هذا الجنس ؛ بخلاف الفأل الشرعى ، وهو الذى كان

يعجب النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أن يخرج متوكلا على الله ، فيسمع الكلمة الطيبة : « وكان يعجبه الفأل ، ويكره الطيرة » ، لأن الفأل تقوية لما فعله بإذن الله والتوكل عليه ، والطيرة معارضة لذلك ، فيكره للإنسان أن يتطير ، وإنما تضر الطيرة من تطير ، لأنه أضر نفسه . فأما المتوكل على الله فلا .

وليس المقصود ذكر هذه الأمور وسبب إصابتها تارة وخطئها تارات . وانما الغرض : أنهم يتعمدون فيها كذبا كثيرا ، من غير أن تكون قد دلت على ذلك دلالة ، كما يتعمد خلق كثير الكذب فى الرؤيا ، التى منها الرؤيا الصالحة ، وهى جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ، وكما كانت الجن تخلط بالكلمة تسمعها من السماء مائة كذبة ، ثم تلقيها إلى الكهان . ولهذا ثبت فى صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم السلمى قال : قلت : « يا رسول الله ! إنى حديث عهد بجاهلية وقد جاء الله بالإسلام ، وإن منا رجالا يأتون الكهان . قال : فلا تأتهم . قال : قلت : ومنا رجال يتطيرون . قال : ذاك شيء يجدونه فى صدورهم ، فلا يصدهم . قال : قلت : ومنا رجال يخطون . قال : كان نبي من الأنبياء يخط ، فمن وافق خطه فذاك » .

فإذا كان ما هو من أجزاء النبوة ومن أخبار الملائكة ما قد يتعمد فيه الكذب الكثير فكيف بما هو فى نفسه مضطرب لا يستقر على أصل ؟ فلهذا تجد عامة من فى دينه فساد يدخل فى الأكاذيب الكونية ، مثل أهل الاتحاد . فإن ابن عربى ـ فى كتاب « عنقاء مغرب » وغيره ـ أخبر بمستقبلات كثيرة ،

عامتها كذب ، وكذلك ابن سبعين ، وكذلك الذين استخرجوا مدة بقاء هذه الأمة من حساب الجمل من حروف المعجم الذى ورثوه من اليهود ، ومن حركات الكواكب الذى ورثوه من الصابئة ؛ كما فعل أبو نصر الكندى ، وغيره من الفلاسفة ؛ وكما فعل بعض من تكلم فى تفسير القرآن من أصحاب الرازى ؛ ومن تكلم فى تأويل وقائع النساك من المائلين إلى التشيع .

وقد رأيت من أتباع هؤلاء طوائف يدعون أن هذه الأمور من الأسرار المخزونة والعلوم المصونة ، وخاطبت فى ذلك طوائف منهم ، وكنت أحلف لهم أن هذا كذب مفترى ، وأنه لا يجرى من هذه الأمور شىء ، وطلبت مباهلة بعضهم ـ لأن ذلك كان متعلقا بأصول الدين ـ ، وكانوا من الاتحادية الذين يطول وصف دعاويهم .

فإن شيخهم الذى هو عارف وقته وزاهده عندهم : كانوا يزعمون أنه هو المسيح الذى ينزل ، وأن معنى ذلك نزول روحانية عيسى عليه السلام ، وأن أمه اسمها مريم ، وأنه يقوم بجمع الملل الثلاث ، وأنه يظهر مظهرا أكمل من مظهر محمد وغيره من المرسلين . ولهم مقالات من أعظم المنكرات يطول ذكرها ووصفها.

ثم إن من عجيب الأمر : أن هؤلاء المتكلمين المدعين لحقائق الأمور العلمية والدينية المخالفين للسنة والجماعة يحتج كل منهم بما يقع له من حديث

موضوع ، أو مجمل لا يفهم معناه ، وكلما وجد أثرا فيه إجمال نزله على رأيه ، فيحتج بعضهم بالمكذوب ، مثل المكذوب المنسوب إلى عمر « كنت كالزنجى » ومثل ما يروونه من « سر المعراج » ، وما يروونه من « أن أهل الصفة سمعوا المناجاة من حيث لا يشعر الرسول . فلما نزل الرسول أخبروه ، فقال : من أين سمعتم ؟ فقالوا : كنا نسمع الخطاب » .

حتى إنى لما بينت لطائفة - تمشيخوا وصاروا قدوة للناس - : أن هذا كذب ما خلقه الله قط . قلت : ويبين لك ذلك أن المعراج كان بمكة بنص القرآن وبإجماع المسلمين ، والصفة إنما كانت بالمدينة ، فمن أين كان بمكة أهل صفة ؟ .

وكذلك احتجاجهم بأن أهل الصفة قاتلوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مع المشركين لما انتصروا وزعموا أنهم مع الله ، ليحتجوا بذلك على متابعة الواقع سواء كان طاعة لله أو معصية ، وليجعلوا حكم دينه هو ما كان ، كما قال الذين أشركوا : (لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا) ، وأمثال هذه الموضوعات كثيرة .

وأما المجملات : فمثل احتجاجهم بنهى بعض الصحابة عن ذكر بعض خفى العلم ، كقول على رضى الله عنه : « حدثوا الناس بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله ؟ » وقول عبد الله بن مسعود :

« ما من رجل يحدث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم » ، وقول عبد الله بن عباس فى تفسير الآيات : « ما يؤمنك أنى لو أخبرتك بتفسيرها كفرت ، وكفرك بها تكذيبك بها » .

وهذه الآثار حق ، لكن ينزل كل منهم ذاك الذى لم يحدث به على ما يدعيه هو من الأسرار والحقائق ، التى إذا كشفت وجدت من الباطل والكفر والنفاق ، حتى إن أبا حامد الغزالى « فى منهاج القاصدين » وغيره ، هو وأمثاله تمثل بما يروى عن على بن الحسين أنه قال :

يارب جوهر علم لو أبوح به ... لقيل لى : أنت ممن يعبد الوثنا
ولا ستحل رجال مسلمون دمى ... يرون أقبح ما يأتونه حسنا

فإذا كانت هذه طرق هؤلاء الذين يدعون من التحقيق وعلوم الأسرار ماخرجوا به عن السنة والجماعة ، وزعموا أن تلك العلوم الدينية أو الكونية مختصة بهم، فآمنوا بمجملها ومتشابهها ، وأنهم منحوا من حقائق العبادات وخالص الديانات ما لم يمنح الصدر الأول حفاظ الإسلام وبدور الملة ، ولم يتجرؤوا عليها برد وتكذيب ، مع ظهور الباطل فيها تارة وخفائه أخرى . فمن المعلوم أن العقل والدين يقتضيان أن جانب النبوة والرسالة أحق بكل تحقيق وعلم ومعرفة ، وإحاطة بأسرار الأمور وبواطنها . هذا لا ينازع فيه مؤمن . ونحن الآن فى مخاطبة من فى قلبه إيمان .

وإذا كان الأمر كذلك فأعلم الناس بذلك أخصهم بالرسول ، وأعلمهم بأقواله ، وأفعاله ، وحركاته ، وسكناته ، ومدخله ، ومخرجه ، وباطنه ، وظاهره ، وأعلمهم بأصحابه وسيرته وأيامه ، وأعظمهم بحثا عن ذلك وعن نقلته ، وأعظمهم تدينا به واتباعا له واقتداء به . وهؤلاء هم أهل السنة والحديث حفظا له ، ومعرفة بصحيحه وسقيمه ، وفقها فيه وفهما يؤتيه الله إياه فى معانيه ، وإيمانا وتصديقا . وطاعة وانقيادا واقتداء واتباعا مع ما يقترن بذلك من قوة عقلهم وقياسهم وتمييزهم ، وعظيم مكاشفاتهم ومخاطباتهم . فإنهم أسد الناس نظرا وقياسا ورأيا ، وأصدق الناس رؤيا وكشفا .

أفلا يعلم من له أدنى عقل ودين أن هؤلاء أحق بالصدق والعلم والإيمان والتحقيق ممن يخالفهم ، وأن عندهم من العلوم ما ينكرها الجاهل والمبتدع ، وأن الذى عندهم هو الحق المبين ، وأن الجاهل بأمرهم والمخالف لهم هو الذى معه من الحشو ما معه ، ومن الضلال كذلك . وهذا باب يطول شرحه .

فإن النفوس لها من الأقوال والأفعال ما لا يحصره إلا ذو الجلال .

والأقوال إخبارات ، وانشاءات كالأمر ، والنهى .

فأحسن الحديث وأصدقه كتاب الله . خبره أصدق الخبر ، وبيانه أوضح البيان ، وأمره أحكم الأمر ، (فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ) وكل

من اتبع كلاما أو حديثا ـ مما يقال : إنه يلهمه صاحبه ، ويوحى إليه ، أو أنه ينشئه ويحدثه مما يعارض به القرآن ـ فهو من أعظم الظالمين ظلما .

ولهذا لما ذكر الله سبحانه قول الذين ما قدروا الله حق قدره ، حيث أنكروا الإنزال على البشر ، ذكر المتشبهين به المدعين لمماثلته من الأقسام الثلاثة . فإن المماثل له : إما أن يقول : إن الله أوحى إلى ، أو يقول : أوحى إلى، وألقى إلى ، وقيل لى ، ولا يسمى القائل . أو يضيف ذلك إلى نفسه ، ويذكر أنه هو المنشئ له .

ووجه الحصر : أنه إما أن يحذف الفاعل أو يذكره ، وإذا ذكره فإما أن يجعله من قول الله ، أو من قول نفسه . فإنه إذا جعله من كلام الشياطين لم يقبل منه ، وما جعله من كلام الملائكة فهو داخل فيما يضيفه إلى الله ، وفيما حذف فاعله ، فقال تعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ) .

وتدبر كيف جعل الأولين فى حيز الذى جعله وحيا من الله ولم يسم الموحى ؟ فإنهما من جنس واحد فى ادعاء جنس الإنباء ، وجعل الآخر فى حيز الذى ادعى أن يأتى بمثله ، ولهذ قال : (مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا) ، ثم قال : (وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ) ، فالمفترى للكذب والقائل : أوحى إلى ولم يوح إليه شيء : من جملة الاسم الأول ، وقد قرن به الاسم الآخر ، فهؤلاء الثلاثة المدعون لشبه النبوة . وقد تقدم قبلهم المكذب للنبوة .

فهذا يعم جميع أصول الكفر التى هى تكذيب الرسل أو مضاهاتهم ، كمسيلمة الكذاب وأمثاله .

وهذه هى « أصول البدع » التى نردها نحن فى هذا المقام ، لأن المخالف للسنة يرد بعض ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو يعارض قول الرسول بما يجعله نظيراً له : من رأى أو كشف أو نحو ذلك.

فقد تبين أن الذين يسمون هؤلاء وأئمتهم حشوية هم أحق بكل وصف مذموم يذكرونه ، وأئمة هؤلاء أحق بكل علم نافع وتحقيق ، وكشف حقائق واختصاص بعلوم لم يقف عليها هؤلاء الجهال ، المنكرون عليهم ، المكذبون لله ورسوله .

فإن [نبزهم] بالحشوية : إن كان لأنهم يروون الأحاديث بلا تمييز ؛ فالمخالفون لهم أعظم الناس قولا لحشو الآراء والكلام الذى لا تعرف صحته ، بل يعلم بطلانه ، وإن كان : لأن فيهم عامة لا يميزون ؛ فما من فرقة من تلك الفرق إلا ومن أتباعها من أجهل الخلق وأكفرهم ، وعوام هؤلاء هم عمار المساجد بالصلوات وأهل الذكر والدعوات ، وحجاج البيت العتيق ، والمجاهدون فى سبيل الله ، وأهل الصدق والأمانة وكل خير فى العالم . فقد تبين لك أنهم أحق بوجوه الذم ، وأن هؤلاء أبعد عنها ، وأن الواجب على الخلق أن يرجعوا إليهم ؛ فيما اختصهم الله به من الوراثة النبوية التى لا توجد إلا عندهم .

وأيضاً فينبغي النظر فى الموسومين بهذا الاسم وفى الواسمين لهم به : أيهما أحق ؟ وقد علم أن هذا الاسم مما اشتهر عن النفاة ممن هم مظنة الزندقة ، كما ذكر العلماء ـ كأبي حاتم وغيره ـ أن علامة الزنادقة تسميتهم لأهل الحديث حشوية .

ونحن نتكلم بالأسماء التى لا نزاع فيها ، مثل : لفظ « الإثبات ، والنفى » فنقول :

من المعلوم أن هذا من تلقيب بعض الناس لأهل الحديث الذين يقرونه على ظاهره . فكل من كان عنه أبعد كان أعظم ذماً بذلك : كالقرامطة ، ثم الفلاسفة ، ثم المعتزلة ، وهم يذمون بذلك المتكلمة الصفاتية من الكلابية والكرامية ، والأشعرية ، والفقهاء ، والصوفية وغيرهم . فكل من اتبع النصوص وأقرها سموه بذلك ، ومن قال بالصفات العقلية مثل : العلم والقدرة ، دون الخبرية ، ونحو ذلك ، سمى مثبتة الصفات الخبرية حشوية ، كما يفعل أبو المعالى الجوينى ، وأبو حامد الغزالى ونحوهما .

ولطريقة أبى المعالى كان أبو محمد يتبعه فى فقهه وكلامه لكن أبو محمد كان أعلم بالحديث وأتبع له من أبى المعالى وبمذاهب الفقهاء . وأبو المعالى أكثر اتباعاً للكلام ، وهما فى العربية متقاربان .

وهؤلاء يعيبون منازعهم ، إما لجمعه حشو الحديث من غير تمييز بين صحيحه وضعيفه . أو لكون اتباع الحديث فى مسائل الأصول من مذهب

الحشو : لأنها مسائل علمية ، والحديث لا يفيد ذلك ؛ لأن اتباع النصوص مطلقاً فى المباحث الأصولية الكلامية حشو ، لأن النصوص لا تفى بذلك ؛ فالأمر راجع إلى أحـد أمرين : إما ريب فى الإسناد أو فى المتن : إما لأنهم يضيفون إلى الرسول ما لم يعلم أنه قاله كأخبار الآحاد ويجعلون مقتضاها العلم ، وإما لأنهم يجعلون ما فهموه من اللفظ معلوماً وليس هو بمعلوم ، لمـا فى الأدلة اللفظية من الاحتمال .

ولا ريب أن هذا عمـدة كل زنديق ومنافق يبطل العلم بمـا بعث الله به رسوله . تارة يقول : لا نعلم أنهم قالوا ذلك ، وتارة يقول : لا نعلم ما أرادوا بهذا القول . ومتى انتفى العلم بقولهم أو بمعناه : لم يستفد من جهتهم علم ، فيتمكن بعد ذلك أن يقول ما يقول من المقالات ، وقد أمن على نفسه أن يعارَض بآثار الأنبياء ؛ لأنه قد وكل ثغرها بذينك الداحين الدافعين لجنود الرسول عنه ، الطاعنين لمن احتج بها .

وهذا القدر بعينه هو عين الطعن فى نفس النبوة ؛ وإن كان يقر بتعظيمهم وكمالهم : إقرار من لا يتلقى من جهتهم علما ، فيكون الرسول عنده بمنزلة خليفة : يعطى السكة و الخطبة رسماً ولفظاً ، كتابة وقولا ، من غير أن يكون له أمر أونهى مطاع . فله صورة الإمامة بمـا جعل له من السكة والخطبة ، وليس له حقيقتها .

وهذا القدر ـ وإن استجازه كثير من الملوك ـ لعجز بعض الخلفـاء عن

القيام بواجبات الإمارة من الجهاد والسياسة ، كما يفعل ذلك كثير من نواب الولاة لضعف مستنيبه وعجزه؟ فيتركب من تقدم ذى المنصب والبيت وقوة نائبه صلاح الأمر ، أو فعل ذلك لهوى ورغبة فى الرئاسة ولطائفته ، دون من هو أحق بذلك منه ، وسلك مسلك المتغلبين بالعدوان - فمن المعلوم أن المؤمن بالله ورسوله لا يستجيز أن يقول فى الرسالة : إنها عاجزة عن تحقيق العلم وبيانه ، حتى يكون الإقرار بها مع تحقيق العلم الإلهى من غيرها موجبا لصلاح الدين ، ولا يستجيز أن يتعدى عليها بالتقدم بين يدى الله ورسوله ، ويقدم علمه وقوله على علم الرسول وقوله ، ولا يستجيز أن يسلط عليها التأويلات العقلية ، ويدعى أن ذلك من كمال الدين ، وأن الدين لا يكون كاملا إلا بذلك .

وأحسن أحواله : أن يدعى أن الرسول [كان] عالما بأن ما أخبر به له تأويلات وتبيان غير ما يدل عليه ظاهر قوله ومفهومه ، وأنه ما ترك ذلك إلا لأنه ما كان يمكنه البيان بين أولئك الأعراب ونحوهم ، وأنه وكل ذلك إلى عقول المتأخرين ، وهذا هو الواقع منهم .

فإن المتفلسفة تقول : إن الرسل لم يتمكنوا من بيان الحقائق لأن إظهارها يفسد الناس ، ولا تحتمل عقولهم ذلك ، ثم قد يقولون : إنهم عرفوها . وقد يقول بعضهم : لم يعرفوها . أو أنا أعرف بها منهم ، ثم يبينونها هم بالطرق القياسية الموجودة عندهم . ولم يعقلوا أنه إن كان العلم بها ممكنا فهو ممكن لهم ، كما يدعون أنه ممكن لهم ، وإلا فلا سبيل لهم إلى معرفتها بإقرارهم . وكذلك التعبير

وبيان العلم بالخطاب والكتاب إن لم يكن ممكناً فلا يمكنكم ذلك وأنتم تتكلمون وتكتبون علمكم فى الكتب . وإن كان ذلك ممكنا فلا يصح قولكم : « لم يمكن الرسل ذلك » .

وإن قلتم : يمكن الخطاب بها مع خاصة الناس دون عامتهم — وهذا قولهم — فمن المعلوم : أن علم الرسل يكون عند خاصتهم كما يكون علمكم عند خاصتكم . ومن المعلوم : أن كل من كان بكلام المتبوع وأحواله وبواطن أموره وظواهرها أعلم وهو بذلك أقوم : كان أحق بالاختصاص به . ولا ريب أن أهل الحديث أعلم الأمة وأخصها بعلم الرسول ، وعلم خاصته : مثل الخلفاء الراشدين وسائر العشرة .

ومثل : أبى بن كعب ، وعبدالله بن مسعود ، ومعاذ بن جبل ، وعبدالله بن سلام ، وسلمان الفارسى ، وأبى الدرداء ، وعبادة بن الصامت ، وأبى ذر الغفارى ؛ وعمار بن ياسر ؛ وحذيفة بن اليمان . ومثل سعد بن معاذ ؛ وأسيد بن حضير ، وسعد بن عبادة ، وعباد بن بشر ، وسالم مولى أبى حذيفة ، وغير هؤلاء : ممن كان أخص الناس بالرسول وأعلمهم بباطن أموره وأتبعهم لذلك .

فعلماء الحديث أعلم الناس بهؤلاء وببواطن أمورهم ، وأتبعهم لذلك. فيكون عندهم العلم : علم خاصة الرسول وبطانته ، كما أن خواص الفلاسفة يعلمون علم

أئمتهم ، وخواص المتكلمين يعلمون علم أئمتهم ، وخواص القرامطة والباطنية يعلمون علم أئمتهم ، وكذلك أئمة الإسلام مثل أئمة العلماء ، فإن خاصة كل إمام أعلم بباطن أموره مثل مالك بن أنس : فإن ابن القاسم لما كان أخص الناس به وأعلمهم بباطن أمره اعتمد أتباعه على روايته ، حتى إنه تؤخذ عنه مسائل السر التي رواها ابن أبي الغمر ، وإن طعن بعض الناس فيها ، وكذلك أبو حنيفة : فأبو يوسف ومحمد وزفر أعلم الناس به ، وكذلك غيرهما .

وقد يكتب العالم كتابا أو يقول قولا فيكون بعض من لم يشافهه به أعلم بمقصوده من بعض من شافهه به ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « فرب مبلغ أوعى من سامع » ، لكن بكل حال لا بد أن يكون المبلغ من الخاصة العالمين بحال المبلغ عنه ، كما يكون في أتباع الأئمة من هو أفهم لنصوصهم من بعض أصحابهم .

ومن المستقر في أذهان المسلمين : أن ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء هم الذين قاموا بالدين علما وعملا ودعوة إلى الله والرسول ، فهؤلاء أتباع الرسول حقاً وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي زكت ، فقبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، فزكت في نفسها وزكى الناس بها . وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين والقوة على الدعوة ، ولذلك كانوا ورثة الأنبياء الذين قال الله تعالى فيهم : (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ)

فالأيدى القوة فى أمر الله، والأبصار البصائر فى دين الله ، فبالبصائر يدرك الحق ويعرف ، وبالقوة يتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه .

فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم والفقه فى الدين والبصر والتأويل ؛ ففجرت من النصوص أنهار العلوم ، واستنبطت منها كنوزها ، ورزقت فيها فهما خاصا ، كما قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقد سئل : « هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء دون الناس ؟ فقال : لا ؛ والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، إلا فهما يؤتيه الله عبداً فى كتابه .

فهذا الفهم هو بمنزلة الكلأ والعشب الذى أنبتته الأرض الطيبة . وهو الذى تميزت به هذه الطبقة عن الطبقة الثانية ؛ وهى التى حفظت النصوص ، فكان همها حفظها وضبطها ؛ فوردها الناس وتلقوها بالقبول ؛ واستنبطوا منها واستخرجوا كنوزها واتجروا فيها ؛ وبذروها فى أرض قابلة للزرع والنبات ؛ ورووها كل بحسبه . (قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ) .

وهؤلاء الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم : « نضر الله امرءا سمع مقالتى فوعاها ، ثم أداها كما سمعها ؛ فرب حامل فقه وليس بفقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » .

وهذا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما حبر الأمة ؛ وترجمان القرآن . مقدار ما سمعه من النبى صلى الله عليه وسلم لا يبلغ نحو العشرين حديثاً الذى

يقول فيه : « سمعت ورأيت » وسمع الكثير من الصحابة ، وبورك له فى فهمه والاستنباط منه ، حتى ملأ الدنيا علماً وفقهاً ، قال أبو محمد بن حزم : وجمعت فتواه فى سبعة أسفار كبار ، وهى بحسب ما بلغ جامعها ، وإلا فعلم ابن عباس كالبحر ، وفقهه واستنباطه وفهمه فى القرآن بالموضع الذى فاق به الناس ، وقد سمعوا ما سمع ، وحفظوا القرآن كما حفظه ، ولكن أرضه كانت من أطيب الأراضى وأقبلها للزرع ، فبذر فيها النصوص ، فأنبتت من كل زوج كريم ، و (ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ) .

وأين تقع فتاوى ابن عباس ، وتفسيره ، واستنباطه من فتاوى أبى هريرة وتفسيره ؟ وأبو هريرة أحفظ منه ؛ بل هو حافظ الأمة على الإطلاق : يؤدى الحديث كما سمعه ويدرسه بالليل درساً ؛ فكانت همته مصروفة إلى الحفظ وتبليغ ما حفظه كما سمعه . وهمة ابن عباس : مصروفة إلى التفقه ، والاستنباط ، وتفجير النصوص ، وشق الأنهار منها واستخراج كنوزها .

وهكذا ورثتهم من بعدهم : اعتمدوا فى دينهم على استنباط النصوص ، لا على خيال فلسفى ، ولا رأى قياسى ، ولا غير ذلك من الآراء المبتدعات . لا جرم كانت الدائرة والثناء الصدق ، والجزاء العاجل والآجل : لورثة الأنبياء التابعين لهم فى الدنيا والآخرة . فإن المرء على دين خليله ، (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ) .

وبكل حال : فهم أعلم الأمة بحديث الرسول ، وسيرته ومقاصده وأحواله .

ونحن لا نعنى بأهل الحديث المقتصرين على سماعه ، أو كتابته أو روايته ، بل نعنى بهم : كل من كان أحق بحفظه ومعرفته وفهمه ظاهراً وباطناً ، واتباعه باطناً وظاهراً ، وكذلك أهل القرآن .

وأدنى خصلة فى هؤلاء : محبة القرآن والحديث ، والبحث عنهما وعن معانيهما والعمل بما علموه من موجبهما . ففقهاء الحديث أخبر بالرسول من فقهاء غيرهم ، وصوفيتهم أتبع للرسول من صوفية غيرهم ، وأمراؤهم أحق بالسياسة النبوية من غيرهم ، وعامتهم أحق بموالاة الرسول من غيرهم .

ومن المعلوم : أن المعظمين للفلسفة والكلام المعتقدين لمضمونهما هم أبعد عن معرفة الحديث ، وأبعد عن اتباعه من هؤلاء . هذا أمر محسوس ، بل إذا كشفت أحوالهم وجدتهم من أجهل الناس بأقواله صلى الله عليه وسلم وأحواله ، وبواطن أموره وظواهرها ، حتى لتجد كثيراً من العامة أعلم بذلك منهم ، ولتجدهم لا يميزون بين ما قاله الرسول وما لم يقله ، بل قد لا يفرقون بين حديث متواتر عنه ، وحديث مكذوب موضوع عليه .

وإنما يعتمدون فى موافقته على ما يوافق قولهم سواء كان موضوعاً أو غير موضوع ، فيعدلون إلى أحاديث يعلم خاصة الرسول بالضرورة اليقينية أنها مكذوبة عليه ، عن أحاديث يعلم خاصته بالضرورة اليقينية أنها قوله ، وهم

لا يعلمون مراده ، بل غالب هؤلاء لا يعلمون معانى القرآن ، فضلا عن الحديث ، بل كثير منهم لا يحفظون القرآن أصلا . فمن لا يحفظ القرآن ، ولا يعرف معانيه ، ولا يعرف الحديث ولا معانيه ، من أين يكون عارفا بالحقائق المأخوذة عن الرسول ؟!

وإذا تدبر العاقل وجد الطوائف كلها كلما كانت الطائفة إلى الله ورسوله أقرب كانت بالقرآن والحديث أعرف وأعظم عناية ، وإذا كانت عن الله وعن رسوله أبعد كانت عنهما أنأى ! حتى تجد فى أئمة علماء هؤلاء من لا يميز بين القرآن وغيره ، بل ربما ذكرت عنده آية ، فقال : لا نسلم صحة الحديث ! وربما قال : لقوله عليه السلام كذا ، وتكون آية من كتاب الله . وقد بلغنا من ذلك عجائب ، وما لم يبلغنا أكثر .

وحدثنى : ثقة أنه تولى مدرسة مشهد الحسين بمصر بعض أئمة المتكلمين رجل يسمى شمس الدين الأصبهانى شيخ الأيكى ، فأعطوه جزءاً من الربعة فقرأ : (بسم الله الرحمن الرحيم المص)حتى قيل له : ألف لام ميم صاد .

فتأمل هذه الحكومة العادلة ! ليتبين لك أن الذين يعيبون أهل الحديث ويعدلون عن مذهبهم جهلة زنادقة منافقون بلا ريب . ولهذا لما بلغ الإمام أحمد عن « ابن أبى قتيلة » أنه ذكر عنده أهل الحديث بمكة ، فقال : قوم سوء . فقام الإمام أحمد ـ وهو ينفض ثوبه ، ويقول : زنديق، زنديق، زنديق . ودخل بيته . فإنه عرف مغزاه .

وعيب المنافقين للعلماء بما جاء به الرسول قديم ، من زمن المنافقين الذين كانوا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

وأما أهل العلم فكانوا يقولون : هم «الأبدال» لأنهم أبدال الأنبياء وقائمون مقامهم حقيقة ، ليسوا من المعدمين الذين لا يعرف لهم حقيقة ، كل منهم يقوم مقام الأنبياء فى القدر الذى ناب عنهم فيه : هذا فى العـــلم والمقال ، وهذا فى العبادة والحال ، وهذا فى الأمرين جميعاً . وكانوا يقولون : هم الطائفة المنصورة إلى قيام الساعة ، الظاهرون على الحق . لأن الهدى ودين الحق الذى بعث الله به رسله معهم . وهو الذى وعد الله بظهوره على الدين كله ، وكفى بالله شهيداً .

فصـــــل

وتلخيص النكتة : أن الرسل إما أنهم علموا الحقائق الخبرية والطلبية ، أو لم يعلموها ، وإذا علموها : فإما أنه كان يمكنهم بيانها بالكلام والكتاب ، أو لا يمكنهم ذلك ، وإذا أمكنهم ذلك البيان : فإما أن يمكن للعامة وللخاصة ، أو للخاصة فقط .

فإن قال : إنهم لم يعلموها ، وإن الفلاسفة والمتكلمين أعلم بها منهم ، وأحسن بياناً لها منهم ؛ فلا ريب أن هذا قول الزنادقة المنافقين . وسنتكلم معهم بعد هذا ؛ إذ الخطاب هنا لبيان أن هذا قول الزنادقة ، وأنه لا يقوله إلا منافق أو جاهل .

وإن قال : إن الرسل مقصدهم صلاح عموم الخلق ، وعموم الخلق لا يمكنهم فهم هذه الحقائق الباطنة ، فخاطبوهم بضرب الأمثال لينتفعوا بذلك ، وأظهروا الحقائق العقلية فى القوالب الحسية ؛ فتضمن خطابهم عن الله وعن اليوم الآخر : من التخييل والتمثيل للمعقول بصورة المحسوس ما ينتفع به عموم الناس فى أمر الإيمان بالله وبالمعاد . وذلك يقرر فى النفوس من عظمة الله وعظمة اليوم الآخر ما يحض النفوس على عبادة الله ، وعلى الرجاء والخوف ؛ فينتفعون

بذلك ، وينالون السعادة بحسب إمكانهم واستعدادهم ؛ إذ هذا الذى فعلته الرسل هو غاية الإمكان فى كشف الحقائق لعموم النوع البشرى ، ومقصود الرسل : حفظ النوع البشرى ، وإقامة مصلحة معاشه ومعاده .

فمعلوم : أن هذا قول حذاق الفلاسفة ، مثل الفارابى وابن سينا وغيرهما ، وهو قول كل حاذق وفاضل من المتكلمين فى القدر الذى يخالف فيه أهل الحديث .

فالفارابى يقول : « إن خاصة النبوة جودة تخييل الأمور المعقولة فى الصور المحسوسة » ، أو نحو هذه العبارة .

وابن سينا يذكر هذا المعنى فى مواضع ، ويقول : « ما كان يمكن موسى ابن عمران مع أولئك العبرانيين ، ولا يمكن محمد مع أولئك العرب الجفاة ، أن يبينا لهم الحقائق على ما هى عليه ، فإنهم كانوا يعجزون عن فهم ذلك ، وإن فهموه على ما هو عليه انحلت عزماتهم عن اتباعه ، لأنهم لا يرون فيه من العلم ما يقتضى العمل » .

وهذا المعنى يوجد فى كلام أبى حامد الغزالى وأمثاله ، ومن بعده : طائفة منه فى الإحياء وغير الإحياء ، وكذلك فى كلام الرازى .

وأما الإتحادية ونحوهم من المتكلمين : فعليه مدارهم ، ومبنى كلام البـــاطنية والقرامطة عليه ، لـكن هؤلاء ينـكرون ظواهر الأمور العملية

والعلمية جميعاً ، وأما غير هؤلاء فلا ينكرون العمليات الظاهرة المتواترة ، لكن قد يجعلونها لعموم الناس لا لخصوصهم ، كما يقولون مثل ذلك فى الأمور الخبرية .

ومدار كلامهم : على أن الرسالة متضمنة لمصلحة العموم علما وعملا . وأما الخاصة فلا . وعلى هذا يدور كلام أصحاب « رسائل إخوان الصفا » وسائر فضلاء المتفلسفة .

ثم منهم من يوجب اتباع الأمور العملية من الأمور الشرعية ، وهؤلاء كثيرون فى متفقهتهم ومتصوفتهم وعقلاء فلاسفتهم . وإلى هنا كان ينتهى علم ابن سينا ، إذ تاب والتزم القيام بالواجبات الناموسية . فإن قدماء الفلاسفة كانوا يوجبون اتباع النواميس التى وضعها أكابر حكماء البلاد ، فلأن يوجبوا اتباع نواميس الرسل أولى . فإنهم — كما قال ابن سينا — : « اتفق فلاسفة العالم على أنه لم يقرع العالم ناموس أفضل من هذا الناموس المحمدى » .

وكل عقلاء الفلاسفة متفقون على أنه أكمل وأفضل النوع البشرى ، وأن جنس الرسل أفضل من جنس الفلاسفة المشاهير ، ثم قد يزعمون أن الرسل والأنبياء حكماء كبار ، وأن الفلاسفة الحكماء أنبياء صغار ، وقد يجعلونهم صنفين . وليس هذا موضع شرح ذلك . فقد تكلمنا عليه فى غير هذا الموضع .

وإنما الغرض : أن هؤلاء الأساطين من الفلاسفة والمتكلمين غاية

ما يقولون : هذا القول ، ونحن ذكرنا الأمر على وجه التقسيم العقلى الحاصر ، لئلا يخرج عنه قسم ، ليتبين أن المخالف لعلماء الحديث علما وعملا : إما جاهل ، وإما منافق ، والمنافق جاهل وزيادة ، كما سنبينه إن شاء الله . والجاهل هنا فيه شعبة نفاق ، وإن كان لا يعلم بها فالمنكر لذلك جاهل منافق .

فقلنا : إن من زعم أنه وكبار طائفته أعلم من الرسل بالحقائق ، وأحسن بياناً لها : فهذا زنديق منافق إذا أظهر الإيمان بهم باتفاق المؤمنين . وسيجىء الكلام معه .

وإن قال : إن الرسل كانوا أعظم علماً وبياناً ، لكن هذه الحقائق لا يمكن علمها ، أو لا يمكن بيانها مطلقاً ، أو يمكن الأمران للخاصة .

قلنا : فحينئذ لا يمكنكم أنتم ما عجزت عنه الرسل من العلم والبيان .

إن قلتم : لا يمكن علمها .

قلنا : فأنتم وأكابركم لا يمكنكم علمها بطريق الأولى .

وإن قلتم : لا يمكنهم بيانها .

قلنا : فأنتم وأكابركم لا يمكنكم بيانها .

وإن قلتم : يمكن ذلك للخاصة دون العامة .

قلنا : فيمكن ذلك من الرسل للخاصة دون العامة .

فإن ادعوا أنه لم يكن فى خاصة أصحاب الرسل من يمكنهم فهم ذلك : جعلوا السابقين الأولين دون المتأخرين فى العلم والإيمان . وهذا من مقالات الزنادقة ؛ لأنه قد جعل بعض الأمم الأوائل من اليونان والهند ونحوهم أكمل عقلا وتحقيقاً للأمور الإلهية وللعبادية من هذه الأمة . فهذا من مقالات المنافقين الزنادقة ، إذ المسلمون متفقون على أن هذه الأمة خير الأمم وأكملهم ، وأن أكمل هذه الأمة وأفضلها هم سابقوها .

وإذا سلم ذلك فأعلم الناس بالسابقين وأتبعهم لهم : هم أهل الحديث وأهل السنة . ولهذا قال الإمام أحمد فى رسالة عبدوس بن مالك : « أصول السنة عندنا : التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والاقتداء بهم ، وترك البدع ، وكل بدعة ضلالة . والسنة عندنا : آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، والسنة تفسر القرآن ، وهى دلائل القرآن ، أى دلالات على معناه .

ولهذا ذكر العلماء : أن الرفض أساس الزندقة ، وأن أول من ابتدع الرفض إنما كان منافقاً زنديقاً ، وهو عبد الله بن سبأ ، فإنه إذا قدح فى السابقين الأولين فقد قدح فى نقل الرسالة ، أو فى فهمها ، أو فى اتباعها . فالرافضة تقدح تارة فى علمهم بها ، وتارة فى اتباعهم لها — وتحيل ذلك على أهل البيت وعلى المعصوم الذى ليس له وجود فى الوجود .

والزنادقة من الفلاسفة والنصيرية وغيرهم : يقدحون تارة فى النقل : وهو

قول جهالهم . وتارة يقدحون فى فهم الرسالة : وهو قول حذاقهم ، كما يذهب إليه أكابر الفلاسفة والاتحادية ونحوهم . حتى كان التلسانى مرة مريضا فدخل عليه شخص ومعه بعض طلبة الحديث ، فأخذ يتكلم على قاعدته فى الفكر : أنه حجاب ، وأن الأمر مداره على الكشف ، وغرضه كشف الوجود المطلق ، فقال ذلك الطالب : فما معنى قول أم الدرداء : « أفضل عمل أبى الدرداء : التفكر ؟ » ، فتبرم بدخول مثل هذا عليه ، وقال للذى جاء به : كيف يدخل على مثل هذا ؟ ثم قال : أتدرى يابنى ما مثل أبى الدرداء وأمثاله ؟ مثلهم : مثل أقوام سمعوا كلاما وحفظوه لنا ، حتى نكون نحن الذين نفهمه ونعرف مراد صاحبه ، ومثل بريد حمل كتابا من السلطان إلى نائبه ، أو نحو ذلك ؛ فقد طال عهدى بالحكاية ، حدثنى بها الذى دخل عليه وهو ثقة يعرف ما يقول فى هذا . وكان له فى هذه الفنون جولان كثير .

وكذلك ابن سينا ، وغيره : يذكر من التنقص بالصحابة ما ورثه من أبيه وشيعته القرامطة ؛ حتى تجدهم إذا ذكروا فى آخر الفلسفة حاجة النوع الإنسانى إلى الإمامة عرضوا بقول الرافضة الضلال ، لكن أولئك يصرحون من السب بأكثر مما يصرح به هؤلاء .

ولهذا تجد بين « الرافضة » « والقرامطة » « والاتحادية » اقتران واشتباه . يجمعهم أمور .

منها : الطعن فى خيار هذه الأمة ، وفيما عليه أهل السنة والجماعة ، وفيما

استقر من أصول الملة وقواعد الدين ، ويدعون باطنا امتازوا به واختصوا به عمن سواهم ، ثم هم مع ذلك متلاعنون ، متباغضون مختلفون ، كما رأيت وسمعت من ذلك ما لا يحصى ، كما قال الله عن النصارى : (وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ) ، وقال عن اليهود : (وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُ) .

وكذلك المتكلمون المخلطون الذين يكونون تارة مع المسلمين — وإن كانوا مبتدعين ـ وتارة مع الفلاسفة الصابئين . وتارة مع الكفار المشركين . وتارة يقابلون بين الطوائف وينتظرون لمن تكون الدائرة . وتارة يتحيرون بين الطوائف . وهذه الطائفة الأخيرة قد كثرت فى كثير ممن انتسب إلى الإسلام من العلماء والأمراء وغيرهم ، لا سيما لما ظهر المشركون من الترك على أرض الإسلام بالمشرق فى أثناء المائة السابعة . وكان كثير ممن ينتسب إلى الإسلام فيه من النفاق والردة ما أوجب تسليط المشركين وأهل الكتاب على بلاد المسلمين .

فتجد أبا عبد الله الرازى يطعن فى دلالة الأدلة اللفظية على اليقين ، وفى إفادة الأخبار للعلم . وهذان هما مقدمتا الزندقة ، كما قدمناه . ثم يعتمد فيما أقر به من أمور الإسلام على ما علم بالاضطرار من دين الإسلام ، مثل العبادات والمحرمات الظاهرة ، وكذلك الإقرار بمعاد الأجساد ـ بعد الاطلاع على التفاسير والأحاديث ـ يجعل العلم بذلك مستفادا من أمور كثيرة ؛ فلا يعطل تعطيل

الفلاسفة ؛ الصابئين ، ولا يقر إقرار الحنفاء العلماء المؤمنين . وكذلك « الصحابة » وإن كان يقول بعدالتهم فيما نقلوه وبعلمهم فى الجملة ، لكن يزعم فى مواضع : أنهم لم يعلموا شبهات الفلاسفة وما خاضوا فيه ، إذ لم يجد مأثوراً عنهم التكلم بلغة الفلاسفة ، ويجعل هذا حجة له فى الرد على من زعم [1] .

وكذلك هذه المقالات لا تجدها إلا عند أجهل المتكلمين فى العلم وأظلمهم من هؤلاء المتكلمة والمتفلسفة والمتشيعة والاتحادية فى « الصحابة » مثل قول كثير من العلماء والمتأمرة : أنا أشجع منهم ، وإنهم لم يقاتلوا مثل العدو الذى قاتلناه ، ولا باشروا الحروب مباشرتنا ، ولا ساسوا سياستنا ، وهذا لا تجده إلا فى أجهل الملوك وأظلمهم .

فإنه إن أراد أن نفس ألفاظهم ، وما يتوصلون به إلى بيان مرادهم من المعانى لم يعلموه : فهذا لا يضرهم ؛ إذ العلم بلغات الأمم ليس مما يجب على الرسل وأصحابهم ، بل يجب منه ما لا يتم التبليغ إلا به ؛ فالمتوسطون بينهم من التراجمة يعلمون لفظ كل منهما ومعناه . فإن كان المعنيان واحداً كالشمس والقمر ، وإلا علموا ما بين المعنيين من الاجتماع والافتراق ، فينقل لكل منهما مراد صاحبه ؛ كما يصور المعانى ويبين ما بين المعنيين من التماثل ، والتشابه ، والتقارب .

---

(١) بياض بالاصل قدر ثلاث كلمات .

(فالصحابة) كانوا يعلمون ما جاء به الرسول . وفيما جاء به بيان الحجة على بطلان كفر كل كافر ، وبيان ذلك بقياس صحيح أحق وأحسن بياناً من مقاييس أولئك الكفار ، كما قال تعالى : (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) ، أخبر سبحانه أن الكفار لا يأتونه بقياس عقلى لباطلهم إلا جاءه الله بالحق ، وجاءه من البيان والدليل ، وضرب المثل بما هو أحسن تفسيراً وكشفاً وإيضاحا للحق من قياسهم .

وجميع ما تقوله الصابئة والمتفلسفة وغيرهم من الكفار - من حكم أو دليل - يندرج فيما علمه الصحابة .

وهذه الآية ذكرها الله تعالى بعد قوله : (وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا * وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا) فبين أن من هجر القرآن فهو من أعداء الرسول ، وأن هذه العداوة أمر لا بد منه ، ولا مفر عنه ، ألا ترى إلى قوله تعالى : (وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا) .

والله تعالى قد أرسل نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم إلى جميع العالمين، وضرب الأمثال فيما أرسله به لجميعهم، كما قال تعالى: (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) فأخبر أنه ضرب لجميع الناس فى هذا القرآن من كل مثل.

ولا ريب أن الألفاظ فى المخاطبات تكون بحسب الحاجات ، كالسلاح فى المحاربات . فإذا كان عدو المسلمين — فى تحصنهم وتسلحهم — على صفة غير الصفة التى كانت عليها فارس والروم : كان جهادهم بحسب ما توجبه الشريعة التى مبناها على تحرى ما هو لله أطوع وللعبد أنفع ، وهو الأصلح فى الدنيا والآخرة .

وقد يكون الخبير بحروبهم أقدر على حربهم ممن ليس كذلك ، لا لفضل قوته وشجاعته ، ولكن لمجانسته لهم ، كما يكون الأعجمى المتشبه بالعرب ـ وهم خيار العجم ـ أعلم بمخاطبة قومه الأعاجم من العربى ، وكما يكون العربى المتشبه بالعجم ـ وهم أدنى العرب ـ أعلم بمخاطبة العرب من العجمى .

فقد جاء فى الحديث : « خيار عجمكم : المتشبهون بعربكم . وشرار عربكم المتشبهون بعجمكم » .

ولهذا لما حاصر النبى صلى الله عليه وسلم الطائف رماهم بالمنجنيق ؛ وقاتلهم قتالا لم يقاتل غيرهم مثله فى المزاحفة : كيوم بدر وغيره ، وكذلك لما حوصر المسلمون عام الخندق اتخذوا من الخندق ما لم يحتاجوا إليه فى غير الحصار . وقيل : إن سلمان أشار عليهم بذلك ، فسلموا ذلك له ، لأنه طريق إلى فعل ما أمر الله به ورسوله .

وقد قررنا فى قاعدة « السنة والبدعة » : أن البدعة فى الدين هى ما لم يشرعه

الله ورسوله ، وهو ما لم يأمر به أمر إيجاب ولا استحباب . فأما ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب ، وعلم الأمر به بالأدلة الشرعية : فهو من الدين الذى شرعه الله ، وإن تنازع أولو الأمر فى بعض ذلك . وسواء كان هذا مفعولا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم أو لم يكن ، فما فعل بعده بأمره - من قتال المرتدين ، والخوارج المارقين ، وفارس والروم والترك ، وإخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب وغير ذلك - هو من سنته .

ولهذا كان عمر بن عبد العزيز يقول : « سن رسول الله صلى الله عليه وسلم سنناً : الأخذ بها تصديق لكتاب الله ، واستكمال لطاعة الله ، وقوة على دين الله . ليس لأحد تغييرها ولا النظر فى رأى من خالفها ؛ من اهتدى بها فهو مهتد . ومن استنصر بها فهو منصور . ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً » .

فسنة خلفائه الراشدين : هى مما أمر الله به ورسوله ، وعليه أدلة شرعية مفصلة ليس هذا موضعها .

فكما أن الله بين فى كتابه مخاطبة أهل الكتاب ، وإقامة الحجة عليهم بما بينه من أعلام رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبما فى كتبهم من ذلك ، وما حرفوه وبدلوه من دينهم ، وصدق بما جاءت به الرسل قبله ؛ حتى إذا سمع ذلك الكتابى العالم المنصف وجد ذلك كله من أبين الحجة وأقوم البرهان .

والمناظرة والمحاجة لا تنفع إلا مع العدل والإنصاف ، وإلا فالظالم يجحد الحق الذى يعلمه : وهو المسفسط والمقرمط ، أو يمتنع عن الاستماع والنظر فى طريق العلم : وهو المعرض عن النظر والاستدلال . فكما أن الإحساس الظاهر لا يحصل للمعرض ولا يقوم للجاحد ، فكذلك الشهود الباطن لا يحصل للمعرض عن النظر والبحث . بل طالب العلم يجتهد فى طلبه من طرقه . ولهذا سمى مجتهداً ، كما يسمى المجتهد فى العبادة وغيرها مجتهداً ، كما قال بعض السلف : « ما المجتهد فيكم إلا كاللاعب فيهم » ، وقال أبى بن كعب وابن مسعود : « اقتصاد فى سنة ، خير من اجتهاد فى بدعة » ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » ، وقال معاذ بن جبل ، ويروى مرفوعا وهو محفوظ عن معاذ : « عليكم بالعلم . فإن تعليمه حسنة ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة » ، فجعل الباحث عن العلم مجاهداً فى سبيل الله .

ولما كانت المحاجة لا تنفع إلا مع العدل ، قال تعالى : (وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ) ، فالظالم ليس علينا أن نجادله بالتى هى أحسن .

وإذا حصل من مسلمة أهل الكتاب الذين علموا ما عندهم بلغتهم وترجموا لنا بالعربية انتفع بذلك فى مناظرتهم ومخاطبتهم ، كما كان عبد الله بن سلام ،

وسلمان الفارسى ، وكعب الأحبار ، وغيرهم ، يحدثون بما عندهم من العلم ، وحينئذ يستشهد بمـا عندهم على موافقة ما جاء به الرسول ، ويكون حجة عليهم من وجه ، وعلى غيرهم من وجه آخر ، كما بيناه فى موضعه .

والألفاظ العبرية تقارب العربية بعض المقاربة ، كماتتقارب الأسماء فى الاشتقاق الأكبر . وقد سمعت ألفاظ التوراة بالعبرية من مسلمة أهل الكتاب فوجدت اللغتين متقاربتين غاية التقارب ، حتى صرت أفهم كثيراً من كلامهم العبرى بمجرد المعرفة بالعربية .

والمعانى الصحيحة إما مقاربة لمعانى القرآن ، أو مثلها ، أو بعينها ، وإن كان فى القرآن من الألفاظ والمعانى خصائص عظيمة .

فإذا أراد المجادل منهم أن يذكر ما يطعن فى القرآن بنقل أو عقل ، مثل أن ينقل عما فى كتبهم عن الأنبياء ما يخالف ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، أو خلاف ما ذكره الله فى كتبهم ، كزعمهم للنبى صلى الله عليه وسلم أن الله أمرهم بتحميم الزانى دون رجمه : أمكن للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يطلبوا التوراة ومن يقرؤها بالعربية ويترجمها من ثقات التراجمة ، كعبد الله ابن سلام ونحوه ، لمـا قال لحبرهم : « ارفع يدك عن آية الرجم » فإذا هى تلوح . ورجم النبى صلى الله عليه وسلم الزانيين منهما ، بعد أن قام عليهم الحجة من كتابهم . وذلك أنه موافق لما أنزل الله عليه من الرجم ، وقال : « اللهم إنى

أول من أحيا أمرك إذ أماتوه » ، ولهذا قال ابن عباس - فى قوله : (إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟) قال - : محمد صلى الله عليه وسلم ، من النبيين الذين أسلموا ، وهو لم يحكم الا بما أنزل الله عليه ، كما قال : (وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ) .

وكذلك يمكن أن يقرأ من نسخة مترجمة بالعربية ، قد ترجمها الثقات بالخط واللفظ العربيين يعلم بهما ما عندهم ، بواسطة المترجمين الثقات من المسلمين ، أو بمن يعلم خطهم منا : كزيد بن ثابت ونحوه لما أمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يتعلم ذلك ، والحديث معروف فى السنن ، وقد احتج به البخارى فى (باب ترجمة الحاكم ، وهل يجوز ترجمان ؟) ، قال : وقال خارجة ابن زيد [بن ثابت] عن زيد بن ثابت : « أن النبى أمره أن يتعلم كتاب اليهود ، حتى كتبت للنبي صلى الله عليه وسلم [كتبه] ، وأقرأته كتبهم إذا كتبوا إليه » .

والمكاتبة بخطهم والمخاطبة بلغتهم : من جنس واحد ، وإن كانا قد يجتمعان وقد ينفرد أحدهما عن الآخر ، مثل كتابة اللفظ العربى بالخط العبرى وغيره من خطوط الأعاجم ، وكتابة اللفظ العجمى بالخط العربى ، وقيل : يكتفى بذلك . ولهذا قال سبحانه : (كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) .

فأمرنا أن نطلب منهم إحضار التوراة وتلاوتها إن كانوا صادقين فى نقل

ما يخالف ذلك ، فإنهم كانوا : (يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ) و (يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ)
ويكذبون فى كلامهم وكتابهم . فلهذا لا تقبل الترجمة إلا من ثقة .

فإذا احتج أحدهم على خلاف القرآن برواية عن الرسل المتقدمين ، مثل الذى يروى عن موسى أنه قال : « تمسكوا بالسبت ما دامت السموات والأرض » ، أمكننا أن نقول لهم : فى أى كتاب هذا ؟ أحضروه — وقد علمنا أن هذا ليس فى كتبهم وإنما هو مفترى مكذوب ، وعندهم النبوات التى هى مئتان وعشرون ، و (كتاب المثنوى) الذى معناه المثناة ، وهى التى جعلها عبد الله بن عمرو فينا من أشراط الساعة ، فقال : « لا تقوم الساعة حتى يقرأ فيهم بالمثناة ، ليس أحد يغيرها ، قيل : وما المثناة ؟ قال : ما استكتب من غير كتاب الله » .

وكذلك إذا سئلوا عما فى الكتاب من ذكر أسماء الله وصفاته لتقام الحجة عليهم وعلى غيرهم ، بموافقة الأنبياء المتقدمين لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فحرفوا الكلم عن مواضعه : أمكن معرفة ذلك ، كما تقدم .

وإن ذكروا حجة عقلية فهمت أيضاً مما فى القرآن بردها إليه : مثل إنكارهم للنسخ بالعقل ، حتى قالوا : لاينسخ ما حرمه ، ولا ينهى عما أمر به . فقال تعالى : (سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا)

قال البراء بن عازب ـ [كما] فى الصحيحين ـ « هم اليهود » فقـــال سبحانه : (قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

فذكر ما فى النسخ من تعليق الأمر بالمشيئة الإلهية ، ومن كون الأمر الثانى قد يكون أصلح وأنفع ، فقوله : (يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) بيان للأصلح الأنفع ، وقوله : (مَنْ يَشَاءُ) رد للأمر إلى المشيئة .

وعلى بعض ما فى الآية اعتماد جميـــع المتكلمين حيث قالوا : التكليف إما تابع لمحض المشيئة ، كما يقوله قوم ، أو تابع للمصلحة ، كما يقوله قوم . وعلى التقديرين فهو جائز .

ثم إنه سبحانه بين وقوع النسخ بتحريم الحلال فى التوراة ، بأنه أحل لإسرائيل أشياء ثم حرمها فى التوراة ، وأن هذا كان تحليلا شرعياً بخطاب ، لم يكونوا استباحوه بمجرد البقاء على الأصل ، حتى لا يكون رفعه نسخاً ، كما يدعيه قوم منهم ، وأمر بطلب التوراة فى ذلك . وهكذا وجدناه فيها ، كما حدثنا بذلك مسلمة أهل الكتاب فى غير موضع .

وهكذا مناظرة الصابئة الفلاسفة ، والمشركين ، ونحوهم ، فإن الصابئ الفيلسوف إذا ذكر ما عند قدماء الصابئة الفلاسفة من الكلام ـ الذى عرب وترجم بالعربية وذكره ـ إما صِرفاً ، وإما على الوجه الذى تصرف فيه متأخروهم بزيادة أو نقصان ، وبسط واختصار ، ورد بعضه وإتيان بمعان

أخر ، ليست فيه ونحو ذلك ـ فإن ذكر مالا يتعلق بالدين ، مثل مسائل «الطب» و « الحساب » المحض التي يذكرون فيها ذلك ، وكتب من أخذ عنهم ، مثل : محمد بن زكريا الرازى ، وابن سينا ونحوهم من الزنادقة الأطباء ما غايته : انتفاع بآثار الكفار والمنافقين فى أمور الدنيا ، فهذا جائز . كما يجوز السكنى فى ديارهم ، ولبس ثيابهم وسلاحهم ، وكما تجوز معاملتهم على الأرض ، كما عامل النبي صلى الله عليه وسلم يهود خيبر ، وكما استأجر النبي صلى الله عليه وسلم هو ، وأبو بكر لما خرجا من مكة مهاجرين «ابن أريقط» ـ رجلا من بنى الدِّيل ـ هادياً خريتاً ، والخريت الماهر بالهداية ، وائتمناه على أنفسهما ودوابهما ، وواعداه غار ثور صبح ثالثة ، وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلمهم وكافرهم ، وكان يقبل نصحهم . وكل هذا فى الصحيحين ، وكان أبو طالب ينصر النبي صلى الله عليه وسلم ويذب عنه مع شركه ، وهذا كثير .

فإن المشركين وأهل الكتاب فيهم المؤتمن ، كما قال تعالى : (وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا) ، ولهذا جاز ائتمان أحدهم على المال ، وجاز أن يستطب المسلم الكافر إذا كان ثقة ، نص على ذلك الأئمة كأحمد وغيره ، إذ ذلك من قبول خبرهم فيما يعلمونه من أمر الدنيا وائتمان لهم على ذلك ، وهو جائز إذا لم يكن فيه مفسدة راجحة ، مثل ولايته على المسلمين وعلوه عليهم ونحو ذلك .

فأخذ علم الطب من كتبهم مثل الاستدلال بالكافر على الطريق واستطبابه ،

بل هذا أحسن . لأن كتبهم لم يكتبوها لمعين من المسلمين حتى تدخل فيها الخيانة وليس هناك حاجة إلى أحد منهم بالخيانة ، بل هى مجرد انتفاع بآثارهم ، كالملابس والمساكن والمزارع والسلاح ونحو ذلك .

وإن ذكروا ما يتعلق « بالدين » فإن نقلوه عن الأنبياء كانوا فيه كأهل الكتاب وأسوأ حالا ، وإن أحالوا معرفته على القياس العقلى فإن وافق ما فى القرآن فهو حق ، وإن خالفه ففى القرآن بيان بطلانه بالأمثال المضروبة ، كما قال تعالى : (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) ، ففى القرآن الحق ، والقياس البين الذى يبين بطلان ما جاءوا به من القياس ، وإن كان ما يذكرونه مجملا فيه الحق - وهو الغالب على الصابئة المبدلين ، مثل « أرسطو » وأتباعه ، وعلى من اتبعهم من الآخرين - قُبل الحق ورد الباطل ، والحق من ذلك لا يكون بيان صفة الحق فيه كبيان صفة الحق فى القرآن . فالأمر فى هذا موقوف على معرفة القرآن ومعانيه وتفسيره وترجمته .

والترجمة والتفسير « ثلاث طبقات » :

(أحدها) : ترجمة مجرد اللفظ ، مثل نقل اللفظ بلفظ مرادف ، ففى هذه الترجمة تريد أن تعرف أن الذى يعنى بهذا اللفظ عند هؤلاء هو بعينه الذى يعنى باللفظ عند هؤلاء . فهذا علم نافع . إذ كثير من الناس يقيد المعنى باللفظ ، فلا يجرده عن اللفظين جميعا .

(والثانى) : ترجمة المعنى وبيانه ، بأن يصور المعنى للمخاطب ، فتصوير المعنى له وتفهيمه إياه قدر زائد على ترجمة اللفظ ، كما يشرح للعربى كتابا عربيا قد سمع ألفاظه العربية ، لكنه لم يتصور معانيه ولا فهمها ، وتصوير المعنى يكون بذكر عينه أو نظيره ، إذ هو تركيب صفات من مفردات يفهمها المخاطب يكون ذلك المركبُ صور ذلك المعنى : إما تحديداً وإما تقريبا .

(الدرجة الثالثة) : بيان صحة ذلك وتحقيقه بذكر الدليل والقياس الذى يحقق ذلك المعنى ، إما بدليل مجرد وإما بدليل يبين علة وجوده .

وهنا قد يحتاج إلى ضرب أمثلة ومقاييس تفيده التصديق بذلك المعنى ، كما يحتاج فى « الدرجة الثانية » إلى أمثلة تصور له ذلك المعنى . وقد يكون نفس تصوره مفيدا للعلم بصدقه . وإذا كفى تصور معناه فى التصديق به لم يحتج إلى قياس ، ومثل ، ودليل آخر .

فإذا عرف القرآن هذه المعرفة : فالكلام الذى يوافقه أو يخالفه من كلام أهل الكتاب والصابئين والمشركين لا بد فيه من الترجمة للفظ والمعنى أيضاً . وحينئذ فالقرآن فيه تفصيل كل شىء ، كما قال تعالى : (مَاكَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ) ، وقال (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ) .

ومعلوم أن الأمة مأمورة بتبليغ القرآن لفظه ومعناه ، كما أمر بذلك

الرسول ولا يكون تبليغ رسالة الله إلا كذلك ، وأن تبليغه إلى العجم قد يحتاج إلى ترجمة لهم ، فيترجم لهم بحسب الإمكان . والترجمة قد تحتاج إلى ضرب أمثال لتصوير المعانى ، فيكون ذلك من تمام الترجمة .

وإذا كان من المعلوم : أن أكثر المسلمين ، بل أكثر المنتسبين منهم إلى العلم ، لا يقومون بترجمة القرآن وتفسيره وبيانه ؛ فلأن يعجز غيرهم عن ترجمة ما عنده وبيانه أولى بذلك . لأن عقل المسلمين أكمل ، وكتابهم أقوم قيلا ، وأحسن حديثاً ، ولغتهم أوسع ، لا سيما إذا كانت تلك المعانى غير محققة ؛ بل فيها باطل كثير . فإن ترجمة المعانى الباطلة وتصويرها صعب . لأنه ليس لها نظير من الحق من كل وجه .

فإذا سئلنا عن كلام يقولونه : هل هو حق أو باطل ؟ ومن أين يتبين الحق فيه والباطل .

قلنا : ـ من القول ـ بالحجة والدليل ؛ كما كان المشركون وأهل الكتاب يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مسائل ، أو يناظرونه ، وكما كانت الأمم تجادل رسلها . إذ كثير من الناس يدعى موافقة الشريعة للفلسفة .

(مثال ذلك) : إذا ذكروا « العقول العشرة » ، « والنفوس التسعة » ، وقالوا : إن العقل الأول هو الصادر الأول عن الواجب بذاته ، وأنه من لوازم ذاته ومعلول له ، وكذلك الثانى عن الأول ، وإن لكل فلك عقلا ونفسا .

قيل : قولكم « عقل ، ونفس » لغة لكم ، فلا بد من ترجمتها ، وإن كان اللفظ عربياً فلا بد من ترجمة المعنى .

فيقولون : « العقل » هو الروح المجردة عن المادة — وهى الجسد وعلائقها — سموه عقلا ويسمونه مفارقاً ، ويسمون تلك : المفارقات للمواد ؛ لأنها مفارقة للأجساد ؛ كما أن روح الإنسان إذا فارقت جسده كانت مفارقة للمادة التى هى الجسد . «والنفس»: هى الروح المدبرة للجسم ، مثل نفس الإنسان إذا كانت فى جسمه . فمتى كانت فى الجسم كانت محركة له . فإذا فارقته صارت عقلا محضاً : أى يعقل العلوم من غير تحريك بشىء من الأجسام ، فهذه العقول والنفوس .

وهذا الذى ذكرناه من أحسن الترجمة عن معنى العقل والنفس ، وأكثرهم لا يحصلون ذلك .

قالوا : وأثبتنا لكل فلك نفساً : لأن الحركة اختيارية ، فلا تكون إلا لنفس . ولكل نفس عقلا : لأن العقل كامل لا يحتاج إلى حركة ، والمتحرك يطلب الكمال فلا بد أن يكون فوقه ما يشبه به ، وما يكون علة له . ولهذا كانت حركة أنفسنا للتشبه بما فوقنا من العقول . وكل ذلك تشبه بواجب الوجود بحسب الإمكان .

والأول لا يصدر عنه إلا عقل . لأن النفس تقتضى جسما ، والجسم فيه

كثرة ، والصادر عنه لا يكون إلا واحد. ولهم فى الصدور اختلاف كثير ليس هذا موضعه .

قيل لهم : أما إثباتكم أن فى السماء أرواحاً : فهذا يشبه ما فى القرآن وغيره من كتب الله ؛ ولكن ليست هى «الملائكة» ، كما يقول الذين يزعمون منكم أنهم آمنوا بما أنزل على الرسول ، وما أنزل من قبله . ويقولون : ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق بين الشريعة والفلسفة ، فإنهم قالوا : العقول والنفوس عند الفلاسفة : هى الملائكة عند الأنبياء ، وليس كذلك ، لكن تشبهها من بعض الوجوه .

فإن اسم الملائكة والملك يتضمن أنهم رسل الله ، كما قال تعالى : (جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا) ، وكما قال : (وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا) . فالملائكة رسل الله فى تنفيذ أمره الكونى الذى يدبر به السموات والأرض ، كما قال تعالى : (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ) ، وكما قال : (بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) ، وأمره الدينى الذى تنزل به الملائكة ، فإنه قال : (يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ) ، وقال تعالى : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ) ، وقال تعالى : (ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ) .

وملائكة الله لا يحصى عددهم إلا الله ، كما قال تعالى : (وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ

إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) .

وقيل لهم : الذى فى الكتاب والسنة ، من ذكر الملائكة وكثرتهم ، أمر لا يحصر ، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أطَّت السماء وحُقَّ لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا ملك قائم أو قاعد ، أو راكع ، أو ساجد » ، وقال الله تعالى : (تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ) .

فمن جعلهم عشرة ، أو تسعة عشر ، أو زعم أن التسعة عشر الذين على سقر : هم العقول والنفوس ؛ فهذا من جهله بما جاء عن الله ورسوله . وضلاله فى ذلك بين : إذ لم تتفق الأسماء فى صفة المسمى ولا فى قدره ، كما تكون الألفاظ المترادفة . وإنما اتفق المسميان فى كون كل منهما روحاً متعلقاً بالسموات .

وهذا من بعض صفات ملائكة السموات ، فالذى أثبتوه [هو] بعض

الصفات لبعض الملائكة ، وهو بالنسبة إلى الملائكة وصفاتهم وأقدارهم وأعدادهم فى غاية القلة ، أقل مما يؤمن به السامرة من الأنبياء بالنسبة إلى الأنبيـاء ؛ إذ هم لا يؤمنون بنبي بعد موسى ويوشع .

كيف ؟ وهم لم يثبتوا للملائكة من الصفة إلا مجرد ما علموه من نفوسهم مجرد العلم للعقول ، والحركة الارادية للنفوس .

ومن المعلوم أن الملائكة لهم من العلوم ، والأحوال ، والإرادات ، والأعمال ما لا يحصيه إلا ذو الجلال ، ووصفهم فى القرآن بالتسبيح والعبادة لله أكثر من أن يذكر هنا ، كما ذكر تعالى فى خطابه للملائكة ، وأمره لهم بالسجود لآدم .

وقوله تعالى : (فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ) ، وقوله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ) ، وقوله تعالى : (وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ * ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ)

وقوله تعالى : (ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ) ، وقوله تعالى : (ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ

لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟) . وقوله تعالى : (كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ) .

وقوله تعالى : (إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ) . وقوله تعالى : (إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟) . وقوله تعالى : (ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا) . وقال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا)

وقوله تعالى : (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ) ، وقوله تعالى : (ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ) وقوله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ) ، وقوله : (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ) وقوله تعالى : (قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ) ؛

وقوله تعالى : (فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ * بِأَيْدِى سَفَرَةٍ * كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ) .

وقوله تعالى : (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) وقوله تعالى : (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ)

وقوله تعالى : (مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) وقوله تعالى : (وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا * فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا * فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا) وقوله تعالى : (فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ

وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ * أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ — إلى قوله تعالى — وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ).

وفى الصحيحين عن جابر بن سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ؟ قال : يتمون الصف الأول ، ويتراصون فى الصف » ، وفى الصحيحين عن قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة فى حديث المعراج عن النبي صلى الله عليه وسلم — لما ذكر صعوده إلى السماء السابعة — قال : « فرفع لى البيت المعمور ؛ فسألت جبريل؟ فقال : هذا البيت المعمور ، يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك ؛ إذا خرجوا لم يعودوا آخر ما عليهم » .

وقال البخارى : وقال همام عن قتادة عن الحسن عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا أمّن القارئ فأمّنوا ، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » ، وفى الرواية الأخرى فى الصحيحين اذا قال : « آمين ، فإن الملائكة فى السماء تقول : آمين » .

وفى الصحيح أيضاً عن أبى صالح عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قال الإمام : سمع الله لمن حمده ، فقولوا : اللهم ربنا ولك الحمد فإنه من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » ؛ وفى

الصحيح عن عروة عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم : أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الملائكة تنزل فى العنان — وهو السحاب — فتذكر الأمر قضى فى السماء ، فتسترق الشياطين السمع ، فتسمعه ، فتوحيه إلى الكهان ، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم » .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن لله ملائكة سيارة فضلاء ، يتبعون مجالس الذكر . فإذا وجدوا مجلساً فيه ذكر قعدوا معهم ، وحف بعضهم بعضاً بأجنحتهم ، حتى يملؤوا ما بينهم وبين السماء الدنيا ، فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء ، فيسألهم الله — وهو أعلم — من أين جئتم ؟ فيقولون : جئنا من عند عباد لك فى الأرض يسبحونك ويكبرونك ، ويهللونك ويحمدونك ، ويسألونك . قال : وما يسألونى ؟ قالوا : يسألونك جنتك . قال : وهل رأوا جنتى ؟ قالوا : لا ، أى رب ، قال : فكيف لو رأوا جنتى ؟ قالوا : ويستجيرونك . قال : ومم يستجيروننى ؟ قالوا : من نارك . قال : وهل رأوا نارى ؟ قالوا : يا رب لا . قال : فكيف لو رأوا نارى ؟ قالوا : ويستغفرونك . قال فيقول : قد غفرت لهم ، وأعطيتهم ما سألوا ، وأجرتهم مما استجاروا ، قال : يقولون : رب فيهم فلان عبد خطّاء ، إنما مر فجلس معهم . قال : فيقول : وله قد غفرت ، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم » .

وفى الصحيحين عن عروة عن عائشة حدثته : أنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : «هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال : لقد لقيت من قومك ما لقيت : وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى ، فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فنادانى ، فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال ، فسلم على ، ثم قال : يا محمد ! فقال : ذلك فيما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال النبى صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا » .

وأمثال هذه الأحاديث الصحاح مما فيها ذكر الملائكة الذين فى السموات وملائكة الهواء والجبال وغير ذلك كثيرة .

وكذلك الملائكة المتصرفون فى أمور بنى آدم ، مثل قوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه — حديث الصادق المصدوق — إذ يقول : « ثم يبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات ، فيقال : اكتب رزقه ، وأجله ، وشقى أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح » وفى الصحيح حديث البراء بن عازب قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم لحسان : « اهجهم — أوهاجهم — وجبريل معك » ، وفى الصحيح أيضاً أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : « أجب عنى ، اللهم أيده

بروح القدس » ، وفى الصحيح عن أنس قال : « كأنى أنظر إلى غبار ساطع فى سكة بنى غنم موكب جبريل » ، وفى الصحيحين عن عائشة : أن الحارث بن هشام قال : « يا رسول الله ! كيف يأتيك الوحى ؟ قال : أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده على ، فيفصم عنى وقد وعيت ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا ، فيكلمنى ، فأعى ما يقول » .

وإتيان جبريل إلى النبى صلى الله عليه وسلم تارة فى صورة أعرابى ، وتارة فى صورة دحية الكلبى ، ومخاطبته وإقراؤه إياه كثيراً : أعظم من أن يذكر هنا .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الفجر والعصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ، ربهم — وهو أعلم بهم — كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون » .

وفى الصحيحين عن عائشة قالت : « حشوت للنبى صلى الله عليه وسلم وسادة فيها تماثيل ، كأنها نمرقة ، فجاء فقام ، وجعل يتغير وجهه ، فقلت : ما لنا يا رسول الله ؟ قال : ما بال هذه الوسادة ؟ قالت : وسادة جعلتها لك لتضطجع عليها ، قال : « أما علمت أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة ، إن من صنع الصور يعذب يوم القيامة يقال : أحيوا ما خلقتم » ، وفى الصحيحين

عن ابن عباس قال : سمعت أبا طلحة يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة تماثيل » .

وكذلك فى الصحيحين عن عبد الله بن عمر قال : « وعد النبي صلى الله عليه وسلم جبريل ، فقال : إنا لا ندخل بيتا فيه كلب ولا صورة » . وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الملائكة تصلى على أحدكم ما دام فى مصلاه الذى صلى فيه : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه ، ما لم يحدث » .

وأمثال هذه النصوص ، التى يذكر فيها من أصناف الملائكة وأوصافهم وأفعالهم: مايمنع أن تكون على مايذكرونه من «العقول» والنفوس» أوأن يكون جبريل هو « العقل الفعال » وتكون ملائكة الآدميين هى القوى الصالحة ، والشياطين هى القوى الفاسدة ، كما يزعم هؤلاء .

وأيضاً فزعمهم أن العقول والنفوس — التى جعلوها الملائكة ، وزعموا أنها معلولة عن الله صادرة عن ذاته صدور المعلول عن علته — هو قول بتولدها عن الله . وأن الله ولد الملائكة . وهذا مما رده الله ونزه نفسه عنه ، وكذب قائله ، وبين كذبه بقوله : (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ) ، وقال تعالى : (أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) ، وبقوله : (وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ

سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ) ،

وقوله تعالى : (وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ) ، وقال تعالى : (لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ) ، وقال تعالى : (وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا).

فأخبر أنهم معبدون . أى مذللون مصرفون ، مدينون مقهورون ، ليسوا كالمعلول المتولد تولدا لازما لا يتصور أن يتغير عن ذلك . وأخبر أنهم عباد لله ، لا يشبهون به كما يشبه المعلول بالعلة ، والولد بالوالد ، كما يزعمه هؤلاء الصابئون .

وقال تعالى : (وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ * بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ)

، فأخبر أنه يقتضى كل شيء بقوله « كن » لا بتولد المعلول عنه .

وكذلك قال سبحانه : (وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) .

فأخبر أن التولد لا يكون إلا عن أصلين ، كما تـكون النتيجة عن مقدمتين ، وكذلك سائر المعلولات المعلومة لا يحدث المعلول إلا باقتران ما تتم به العلة . فأما الشيء الواحد وحده فلا يكون علة ولا والداً قط ، لا يكون شيء فى هذا العالم إلا عن أصلين ، ولو أنهما الفاعل والقابل ، كالنار والحطب ، والشمس والأرض ، فأما الواحد وحده فلا يصدر عنه شيء ولا يتولد .

فبين القرآن أنهم أخطأوا طريق القياس فى العلة والتولد ، حيث جعلوا العالم يصدر عنه بالتعليل والتولد . وكذلك قال : (وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) ؟ خلاف قولهم : إن الصادر عنه واحد . وهذا وفاء بما ذكره الله تعالى من قوله : (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) ، اذ قد تـكفل بذلك فى حق كل من خرج عن اتباع الرسول ، فقال تعالى : (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) ، [فذكر] الوحدانية والرسالة إلى قوله : (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا) ، فكل من خرج عن اتبـاع الرسول فهو ظالم بحسب ذلك . والمبتدع ظالم بقدر ما خالف من سنته (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا * وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ

وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) .

وهؤلاء الصابئة قد أتوا بمثل ، وهو قولهم : « الواحد لا يصدر عنه ويتولد عنه إلا واحد ، والرب واحد فلا يصدر عنه إلا واحد يتولد عنه » فأتى الله بالحق وأحسن تفسيراً ، وبين أن الواحد لا يصدر عنه شيء، ولا يتولد عنه شيء أصلا ، وأنه لم يتولد عنه شيء ، ولم يصدر عنه شيء ، ولكن خلق كل شيء خلقا ، وأنه خلق من كل شيء زوجين اثنين . ولهذا قال مجاهد — وذكره البخارى فى صحيحه — فى الشفع والوتر : « أن الشفع هو الخلق ، فكل مخلوق له نظير ، والوتر هو الله الذى لا شبيه له » فقال : (أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ) .

وذلك أن الآثار الصادرة عن العلل والمتولدات فى الموجودات لا بد فيها من شيئين (أحدهما) : يكون كالأب . (والآخر) : يكون كالأم القابلة . وقد يسمون ذلك الفاعل والقابل كالشمس مع الأرض ، والنار مع الحطب ، فأما صدور شيء واحد عن شيء واحد ، فهذا لا وجود له فى الوجود أصلا .

وأما تشبيههم ذلك بالشعاع مع الشمس ، وبالصوت ـ كالطنين ـ مع الحركة والنقر ، فهو أيضاً حجة لله ورسوله والمؤمنين عليهم . وذلك : أن الشعاع إن

أريد به نفس ما يقوم بالشمس : فذلك صفة من صفاتها ، وصفات الخالق ليست مخلوقة ، ولا هى من العالم الذى فيه الكلام .

وإن أريد بالشعاع ما ينعكس على الأرض : فذلك لابد فيه من شيئين وهو الشمس التى تجرى مجرى الأب الفاعل ، والأرض التى تجرى مجرى الأم القابلة . وهى الصاحبة للشمس .

وكذلك الصوت لا يتولد إلا عن جسمين يقرع أحدهما الآخر ، أو يقلع عنه ، فيتولد الصوت الموجود فى أجسام العالم عن أصلين يقرع أحدهما الآخر ، أو يقلع عنه .

فمهما احتجوا به من القياس ، فالذى جاء الله به هو الحق وأحسن تفسيراً ، وأحسن بيانا وإيضاحا للحق وكشفا له .

وأيضا فجعلها علة تامة لما تحتها ، ومؤكدة له ، وموجبة له حتى يجعلونها مبادئنا ، ويجعلونها لنا كالآباء والأمهات ، وربما جعلوا العقل هو الأب ، والنفس هى الأم . وربما قال بعضهم : « الوالدان » العقل والطبيعة ، كما قال صاحب الفصوص فى قول نوح (ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ) أى من كنت نتيجة عنهما ، وهما العقل والطبيعة . وحتى يسمونها الأرباب والآلهة الصغرى ، ويعبدونها . وهو كفر مخالف لما جاءت به الرسل .

وبهذا وصف بعض السلف الصابئة بأنهم يعبدون الملائكة . وكذلك فى الكتب المعربة عن قدمائهم : أنهم كانوا يسمونها الآلهة والأرباب الصغرى ، كما كانوا يعبدون الكواكب أيضاً .

والقرآن ينفى أن تكون أربابا ، أو أن تكون آلهة ، ويكون لها غير ما للرسول الذى لا يفعل إلا بعد أمر مرسله ، ولا يشفع إلا بعد أن يؤذن له فى الشفاعة . وقد رد الله ذلك على من زعمه من العرب والروم وغيرهم من الأمم ، فقال تعالى : (وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ) وقال تعالى : (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) ، وقال تعالى : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ * وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) .

وقد تقدم بعض الأحاديث فى صعق الملائكة إذا قضى الله بالأمر الكونى أو بالوحى الدينى .

وقال تعالى : (وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ) ، وقال تعالى : (بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ) الآية .

وقال تعالى : (وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا) ، وقال تعالى : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) ، نزلت الآية فى الذين يدعون الملائكة والنبيين .

واستقصاء القول فى ذلك ليس هذا موضعه .

فإن الله سبحانه بعث محمدا صلى الله عليه وسلم « بجوامع الكلم » . فالكلم التى فى القرآن جامعة محيطة ، كلية عامة لما كان متفرقاً منتشراً فى كلام غيره . ثم إنه يسمى كل شىء بما يدل على صفته المناسبة للحكم المذكور المبين ، وما يبين وجه دلالته .

فإن تنزيهه نفسه عن الولد والولادة واتخاذ الولد : أعم وأقوم من نفيه بلفظ العلة . فإن العلة أصلها التغيير ، كالمرض الذى يحيل البدن عن صحته ، والعليل ضد الصحيح . وقد قيل : إنه لا يقال « معلول » إلا فى الشرب ، يقال : شرب الماء علا بعد نهل ، وعللته إذا سقيته مرة ثانية .

وأما استعمال اسم « العلة » فى الموجب للشىء أو المقتضى له فهو من عرف أهل الكلام ، وهى ـ وإن كان بينهما وبين العلة اللغوية مناسبة من جهة التغير ـ فالمناسبة فى لفظ « التولد » أظهر . ولهذا كان فى الخطاب أشهر . يقول الناس :

هذا الأمر يتولد عنه كذا، وهذا يولد كذا، وقد تولد عن ذلك الأمر كيت وكيت: لكل سبب اقتضى مسبباً من الأقوال والأعمال، حتى أهل الطبائع يقولون: «الأركان والمولدات»، يريدون ما يتولد عن الأصول الأربعة - التراب، والماء، والهواء، والنار - من معدن، ونبات، وحيوان.

فنفيه سبحانه عن نفسه أن يلد شيئا اقتضى أن لا يتولد عنه شيء، ونفيه أن يتخذ ولدا يقتضى أنه لم يفعل ذلك بشيء من خلقه على سبيل التكريم، وأن العباد لا يصلح أن يتخذ شيئاً منهم بمنزلة الولد. وهذا يبطل دعوى من يدعى مثل ذلك فى المسيح وغيره، ومن يقول: (نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ)، ومن يقول: الفلسفة هى التشبه بالإله. فإن الولد يكون من جنس والده ويكون نظيراً له، وإن كان فرعا له. ولهذا كان هؤلاء القائلون بهذه المعانى من أعظم الخلق قولا بالتشبيه والتمثيل، وجعل الأنداد له والعدل والتسوية. ولهذا كانت الفلاسفة الذين يقولون بصدور العقول والنفوس عنه على وجه التولد والتعليل يجعلونها له أنداداً، ويتخذونها آلهة وأرباباً، بل قد لا يعبدون إلا إياها، ولا يدعون سواها، ويجعلونها هى المبدعة لما سواها مما تحتها.

فالحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك. و (تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا * ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا

وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا)[1]

فإن هؤلاء جعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم و « الجن » قد قيل : إنه يعم الملائكة ؛ كما قيل فى قوله : (وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا) وإن كان قد قيل فى سبب ذلك : زعم بعض مشركى العرب : أن الله صاهر إلى الجن فولدت الملائكة . فقد كانوا يعبدون الملائكة أيضاً ، كما عبدتها الصابئة الفلاسفة ، كما قال تعالى : (وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ) ، وقال تعالى : (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ) ؛ يعنى أن الملائكة لم تأمرهم بذلك ، وإنما أمرتهم بذلك الجن ، ليكونوا عابدين للشياطين التى تتمثل لهم ، كما يكون للأصنام شياطين .

وكما تنزل الشياطين على بعض من يعبد الكواكب ويرصدها ، حتى تنزل عليه صورة فتخاطبه . وهو شيطان من الشياطين .

ولهذا قال تعالى : (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ

---

(١) بهامش الأصل : هنــا متروك محل خمسة أسطر . قال في المسودة : يتلوه الوريقة ، ولم نجدها .

تَكُونُواْتَعۡقِلُونَ) وقال : (أَفَتَتَّخِذُونَهُۥوَذُرِّيَّتَهُۥٓأَوۡلِيَآءَمِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا) ، فهم وإن لم يقصدوا عبادة الشيطان وموالاته ، ولكنهم فى الحقيقة يعبدونه ويوالونه .

فقد تبين أن هؤلاء الفلاسفة الصابئة المبتدعة مؤمنون بقليل مما جاءت به الرسل فى أمر الملائكة ؛ فى صفتهم وأقدارهم .

وذلك : أن هؤلاء القوم إنما سلكوا سبيل الاستدلال بالحركات الفلكية والقياس على نفوسهم ؛ مع ما جحدوه وجهلوه من خلق الله وإبداعه .

وسبب ذلك : ما ذكره طائفة ممن جمع أخبارهم : أن أساطينهم الأوائل : كفيثاغورس ، وسقراط ، وأفلاطون ، كانوا يهاجرون إلى أرض الأنبياء بالشام ؛ ويتلقون عن لقمان الحكيم ومن بعده من أصحاب داود وسليمان ، وأن أرسطو لم يسافر إلى أرض الأنبياء ؛ ولم يكن عنده من العلم بأثارة الأنبياء ما عند سلفه . وكان عنده قدر يسير من الصابئية الصحيحة ، فابتدع لهم هذه التعاليم القياسية ، وصارت قانوناً مشى عليه أتباعه ، واتفق أنه قد يتكلم فى طبائع الأجسام ، أو فى صورة المنطق أحياناً بكلام صحيح .

« وأما الأولون » فلم يوجد لهم مذهب تام مبتدع ، بمنزلة مبتدعة المتكلمين فى المسلمين ، مثل : أبى الهذيل ، وهشام بن الحكم ، ونحوهما ، ممن وضع مذهباً

فى « أبواب أصول الدين » فاتبعه على ذلك طائفة . إذ كان أئمة المسلمين ـ مثل مالك ، وحماد بن زيد ، والثورى ، ونحوهم ـ إنما تكلموا بما جاءت به الرسالة وفيه الهدى والشفاء ، فمن لم يكن له علم بطريق المسلمين : يعتاض عنه بما عند هؤلاء . وهذا سبب ظهور البدع فى كل أمة ، وهو خفاء سنن المرسلين فيهم . وبذلك يقع الهلاك .

ولهذا كانوا يقولون : الاعتصام بالسنة نجاة ، قال مالك رحمه الله : « السنة مثل سفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها هلك » ، وهذا حق . فإن سفينة نوح إنما ركبها من صدق المرسلين واتبعهم ، وأن من لم يركبها فقد كذب المرسلين . واتباع السنة هو اتباع الرسالة التى جاءت من عند الله ، فتابعها بمنزلة من ركب مع نوح السفينة باطناً وظاهراً . والمتخلف عن اتباع الرسالة ، بمنزلة المتخلف عن اتباع نوح عليه السلام وركوب السفينة معه .

وهكذا إذا تدبر المؤمن العليم سائر مقالات الفلاسفة وغيرهم من الأمم التى فيها ضلال وكفر ، وجد القرآن والسنة كاشفان لأحوالهم ، مبينان لحقهم ، مميزان بين حق ذلك وباطله . والصحابة كانوا أعلم الخلق بذلك ، كما كانوا أقوم الخلق بجهاد الكفار والمنافقين ، كما قال فيهم عبد الله بن مسعود : « من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات ، فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة . أولئك أصحاب محمد : كانوا أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله

لصحبة نبيه وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم حقهم ، وتمسكوا بهديهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم » .

فأخبر عنهم بكمال بر القلوب ، مع كمال عمق العلم . وهذا قليل فى المتأخرين ، كما يقال : « من العجائب فقيه صوفى ، وعالم زاهد » ونحو ذلك . فإن أهل برّ القلوب وحسن الإرادة وصلاح المقاصد يحمدون على سلامة قلوبهم من الإرادات المذمومة ، ويقترن بهم كثيراً عدم المعرفة ، وإدراك حقائق أحوال الخلق التى توجب الذم للشر والنهى عنه ، والجهاد فى سبيل الله ، وأهل التعمق فى العلوم قد يدركون من معرفة الشرور والشبهات ما يوقعهم فى أنواع الغى والضلالات ، وأصحاب محمد كانوا أبر الخلق قلوباً وأعمقهم علماً .

ثم إن أكثر المتعمقين فى العلم من المتأخرين يقترن بتعمقهم التكلف المذموم من المتكلمين والمتعبدين : وهو القول والعمل بلا علم ، وطلب مالا يدرك . وأصحاب محمد كانوا — مع أنهم أكمل الناس علماً نافعاً وعملا صالحاً — أقل الناس تكلفاً ، يصدر عن أحدهم الكلمة والكلمتان من الحكمة أو من المعارف ، ما يهدى الله بها أمة ، وهذا من منن الله على هذه الأمة . وتجد غيرهم يحشون الأوراق من التكلفات والشطحات ، ما هو من أعظم الفضول المبتدعة ، والآراء المخترعة ، لم يكن لهم فى ذلك سلف إلا رعونات النفوس المتلقاة ممن ساء قصده فى الدين .

ويروى أن الله سبحانه قال للمسيح : « إنى سأخلق أمة أفضلها على كل أمة ، وليس لها علم ولا حلم ، فقال المسيح : أى رب ، كيف تفضلهم على جميع الأمم ، وليس لهم علم ولا حلم ؟ قال : أهبهم من علمى وحلمى » ، وهذا من خواص متابعة الرسول . فأيهم كان له أتبع كان فى ذلك أكمل ، كما قال تعالى : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ) .

وكذلك فى الصحيحين من حديث أبى موسى وعبد الله بن عمر « مثلنا ومثل الأمم قبلنا : كالذى استأجر أجراء ، فقال : من يعمل لى إلى نصف النهار على قيراط قيراط ؟ فعملت اليهود ؛ ثم قال . من يعمل لى إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ؟ فعملت النصارى . ثم قال : من يعمل لى إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ فعملت المسلمون . فغضبت اليهود والنصارى . وقالوا : نحن أكثر عملا وأقل أجراً ؟ قال : فهل ظلمتكم من حقكم شيئاً ؟ قالوا : لا ، قال : فهو فضلى أوتيه من أشاء » .

فدل الكتاب والسنة على أن الله يؤتى أتباع هذا الرسول من فضله ما لم يؤته لأهل الكتابين قبلهم ، فكيف بمن هو دونهم من الصابئة ؟ دع مبتدعة الصابئة من المتفلسفة ونحوهم .

ومن المعلوم : أن أهل الحديث والسنة أخص بالرسول واتباعه . فلهم من فضل الله وتخصيصه إياهم بالعلم والحلم وتضعيف الأجر ما ليس لغيرهم ، كما قال بعض السلف : « أهل السنة فى الإسلام كأهل الإسلام فى الملل » .

فهذا الكلام تنبيه على ما يظنه أهل الجهالة والضلالة من نقص الصحابة فى العلم والبيان ، أو اليد والسنان . وبسط هذا لا يتحمله هذا المقام .

والمقصود : التنبيه على أن كل من زعم بلسان حاله أو مقاله : أن طائفة غير أهل الحديث أدركوا من حقائق الأمور الباطنة الغيبية فى أمر الخلق والبعث والمبدأ والمعاد ، وأمر الإيمان بالله واليوم الآخر ، وتعرف واجب الوجود والنفس الناطقة والعلوم ، والأخلاق التى تزكو بها النفوس وتصلح وتكمل دون أهل الحديث ، فهو - إن كان من المؤمنين بالرسل - فهو جاهل ، فيه شعبة قوية من شعب النفاق ، وإلا فهو منافق خالص من الذين (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ) ، وقد يكون من (ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ) ، ومن (ٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) .

وقد يبين ذلك بالقياس العقلى الصحيح الذى لا ريب فيه — وإن كان ذلك ظاهراً بالفطرة لكل سليم الفطرة — فإنه متى كان الرسول أكمل الخلق وأعلمهم

بالحقائق وأقومهم قولا وحالا : لزم أن يكون أعلم الناس به أعلم الخلق بذلك ، وأن يكون أعظمهم موافقة له واقتداء به أفضل الخلق .

ولا يقال : هذه الفطرة يغيرها ما يوجد فى المنتسبين إلى السنة والحديث من تفريط وعدوان ، لأنه يقال : إن ذلك فى غيرهم أكثر ، والواجب مقابلة الجملة بالجملة فى المحمود والمذموم ، هذه هى المقابلة العادلة .

وإنما غير الفطرة قلة المعرفة بالحديث والسنة واتباع ذلك ، مع ما يوجد فى المخالفين لها من نوع تحقيق لبعض العلم ، وإحسان لبعض العمل . فيكون ذلك شبهة فى قبول غيره ، وترجيح صاحبه . ولا غرض لنا فى ذكر الأشخاص . وقد ذكر أبو محمد بن قتيبة فى أول كتاب « مختلف الحديث » وغيره من العلماء فى هذا الباب ما لا يحصى من الأمور المبينة لما ذكرناه .

وإنما المقصود : ذكر نفس الطريقة العلمية والعملية ، التى تعرف بحقائق الأمور الخبرية النظرية ، وتوصل إلى حقائق الأمور الإرادية العملية . فمتى كان غير الرسول قادراً على علم بذلك أو بيان له أو محبة لإفادة ذلك ؟ فالرسول أعلم بذلك وأحرص على الهدى ، وأقدر على بيانه منه . وكذلك أصحابه من بعده وأتباعهم .

وهذه صفات الكمال والعلم والإرادة والإحسان والقدرة عليه ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى دعاء الاستخارة :

« اللهم إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم . فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب » .

فعلمنا صلى الله عليه وسلم أن نستخير الله بعلمه ، فيعلمنا من علمه ما نعلم به الخير ، ونستقدره بقدرته ، فيجعلنا قادرين . إذ الاستفعال هو طلب الفعل ، كما قال فى الحديث الصحيح :

يقول الله تعالى : « يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى : كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم » .

فاستهداء الله طلب أن يَهدِيَنا ، واستطعامه طلب أن يطعمنا ، هذا قوت القلوب ، وهذا قوت الأجسام ، وكذلك استخارته بعلمه واستقداره بقدرته . ثم قال : «وأسألك من فضلك العظيم» ؛ فهذا السؤال من جوده ومَنِّـهِ ، وعطائه وإحسانه الذى يكون بمشيئته ورحمته وحنانه . ولهذا قال : « فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم » ولم يقل : إنى لا أرحم نفسى ؛ لأنه فى مقام الاستخارة يريد الخير لنفسه ويطلب ذلك . لكنه لا يعلمه ولا يقدر عليه ، إن لم يعلمه الله إياه ويقدره عليه .

فإذا كان الرسول أعلم الخلق بالحقائق الخبرية والطلبية ، وأحب الخلق للتعليم والهداية والإفادة ، وأقدر الخلق على البيان والعبارة : امتنع أن يكون مَن هو دونه أفاد خواصه معرفة الحقائق أعظم مما أفادها الرسول لخواصه ؛

فامتنع أن يكون عند أحد من الطوائف من معرفة الحقائق ماليس عند علماء الحديث .

وإذا لم يكن فى الطوائف من هو أعلم بالحقائق وأبين لها منه : وجب أن يكون كل ما يذمون به من جهل بعضهم هو فى طائفة المخالف الذام لهم أكثر . فيكون الذام لهم جاهلا ظالماً ، فيه شعبة نفاق ؛ إذا كان مؤمناً . وهذا هو المقصود .

ثم إن هذا الذى بيناه مشهود بالقلب ، أعلم ذلك فى كل أحد ممن أعرف مفصلا .

وهذه جملة يمكن تفصيلها من وجوه كثيرة ؛ لكن ليس هذا موضعه .

فصـــــل

وأما قول من قال ، إن الحشوية على ضر بين ، أحدهما : لا يتحاشى من الحشو والتشبيه والتجسيم . والآخر : تستر بمذهب السلف . ومذهب السلف إنما هو التوحيد والتنزيه ، دون التشبيه والتجسيم ، وكذا جميع المبتدعة يزعمون هذا فيهم ، كما قال القائل :

وكل يدعى وصـلاً لليلى وليـلى لا تقر لهم بذاكا

فهذا الـكلام فيه حق وباطل .

فمن الحق الذى فيه : ذم من يمثل الله بمخلوقاته ويجعل صفاته من جنس صفاتهم . وقد قال الله تعالى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) ، وقال تعالى : (وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) ، وقال : (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) .

وقد بسطنا القول فى ذلك ، وذكرنا الدلالات العقلية التى دل عليها كتاب الله فى نفى ذلك ، وبينا منه ما لم يذكره النفاة الذين يتسمون بالتنزيه ، ولا يوجد فى كتبهم ، ولا يسمع من أئمتهم ؛ بل عامة حججهم التى يذكرونها حجج ضعيفة . لأنهم يقصدون إثبات حق وباطل ، فلا يقوم على ذلك حجة مطردة

سليمة عن الفساد ، بخلاف من اقتصد فى قوله وتحرى القول السديد . فإن الله يصلح عمله ، كما قال تعالى : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) .

وفيه من الحق الإشارة إلى الرد على من انتحل مذهب السلف مع الجهل بمقالهم ، أو المخالفة لهم بزيادة أو نقصان . فتمثيل الله بخلقه والكذب على السلف من الأمور المنكرة ، سواء سمى ذلك حشواً أو لم يسم . وهذا يتناول كثيراً من غالية المثبتة الذين يروون أحاديث موضوعة فى الصفات مثل حديث « عرق الخيل » و « نزوله عشية عرفة على الجمل الأورق حتى يصافح المشاة ويعانق الركبان » ، « وتجليه لنبيه فى الأرض » ، أو « رؤيته له على كرسى بين السماء والأرض » ، أو « رؤيته إياه فى الطواف » أو « فى بعض سكك المدينة » ، إلى غير ذلك من الأحاديث الموضوعة .

فقد رأيت من ذلك أموراً من أعظم المنكرات والكفران . وأحضر لى غير واحد من الناس من الأجزاء والكتب ما فيه من ذلك ما هو من الافتراء على الله وعلى رسوله . وقد وضع لتلك الأحاديث أسانيد ؛ حتى إن منهم من عمد إلى كتاب صنفه «الشيخ أبو الفرج المقدسى» فيما يمتحن به السنى من البدعى. فجعل ذلك الكتاب مما أوحاه الله إلى نبيه ليلة المعراج ، وأمره أن يمتحن به الناس فمن أقرّ به فهو سنى ، ومن لم يقر به فهو بدعى ، وزادوا فيه على الشيخ أبى الفرج أشياء لم يقلها هو ولا عاقل. والناس المشهورون قد يقول أحدهم من المسائل

والدلائل ما هو حق أو فيه شبهة حق . فإذا أخذ الجهـال ذلك فغيروه صار فيه من الضلال ما هو من أعظم الإفك والمحال .

والمقصود : أن كلامه فيه حق وفيه من الباطل أمور :ـ

(أحدها) قوله : « لا يتحاشى من الحشو والتجسيم » ذم للنـاس بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان . والذى مدحه زين وذمه شين : هو الله . والأسماء التى يتعلق بها المدح والذم من الدين : لا تـكون إلا من الأسماء التى أنزل الله بها سلطانه ، ودل عليها الـكتاب والسنة أو الإجماع ، كالمؤمن ، والكافر والعالم ، والجاهل ، والمقتصد ، والملحد .

فأما هذه « الألفاظ الثلاثة » فليست فى كتاب الله ، ولا فى حديث عن رسول الله ، ولا نطق بها أحد من سلف الأمة وأئمتها لا نفياً ولا إثباتاً .

وأول من ابتدع الذم بها « المعتزلة » الذين فارقوا جمـاعة المسلمين ، فاتباع سبيل المعـتزلة دون سبيل سلف الأمة ترك للقول السديد الواجب فى الدين ، واتباع لسبيل المبتـــدعة الضالين . وليس فيها ما يوجد عن بعض السلف ذمه إلا لفظ « التشبيه » ، فلو اقتصر عليه لكان له قدوة من السلف الصالح ، ولو ذكر الأسماء التى نفاها الله فى القرآن مثل لفظ « الـكفؤ والند ، والسمى » وقال : « منهم من لا يتحاشى من التمثيل ونحوه » : لكان قد ذم بقول نفاه الله فى كتابه ، ودل القرآن على ذم قائله ثم ينظر : هل قائله موصوف بما وصفه به من الذم أم لا ؟ .

فأما الأسماء التى لم يدل الشرع على ذم أهلها ولا مدحهم فيحتاج فيها إلى مقامين : —

(أحدهما) : بيان المراد بها . (والثانى) : بيان أن أولئك مذمومون فى الشريعة .

والمعترض عليه له أن يمنع المقامين ، فيقول : لا نسلم أن الذين عنيتهم داخلون فى هذه الأسماء التى ذممتها ، ولم يقم دليل شرعى على ذمها ، وإن دخلوا فيها . فلا نسلم أن كل من دخل فى هذه الأسماء فهو مذموم فى الشرع .

(الوجه الثانى) : أن هذا الضرب الذى قلت : « إنه لا يتحاشى من الحشو والتشبيه والتجسيم » إما أن تدخل فيه مثبتة الصفات الخبرية التى دل عليها الكتاب والسنة ، أو لا تدخلهم . فإن أدخلتهم كنت ذاماً لكل من أثبت الصفات الخبرية . ومعلوم أن هذا مذهب عامة السلف ، ومذهب أئمة الدين .

بل أئمة المتكلمين يثبتون الصفات الخبرية فى الجملة . وإن كان لهم فيها طرق كأبى سعيد بن كلاب ، وأبى الحسن الأشعرى ، وأئمة أصحابه : كأبى عبد الله ابن مجاهد ، وأبى الحسن الباهلى ، والقاضى أبى بكر بن الباقلانى ، وأبى إسحق الإسفرائينى ، وأبى بكر بن فورك ، وأبى محمد بن اللبان ، وأبى على بن شاذان ، وأبى القاسم القشيرى ، وأبى بكر البيهقى ، وغير هؤلاء . فما من هؤلاء إلا من

يثبت من الصفات الخبرية ما شاء الله تعالى . وعماد المذهب عنهم : إثبات كل صفة فى القرآن .

وأما الصفات التى فى الحديث : فمنهم من يثبتها ومنهم من لا يثبتها .

فإذا كنت تذم جميع أهل الإثبات من سلفك وغيرهم ، لم يبق معك إلا الجهمية : من المعتزلة ، ومن وافقهم على نفى الصفات الخبرية : من متأخرى الأشعرية ونحوهم . ولم تذكر حجة تعتمد .

فأى ذم لقوم فى أنهم لا يتحاشون مما عليه سلف الأمة وأئمتها وأئمة الذام لهم ؟

وإن لم تدخل فى اسم « الحشوية » من يثبت الصفات الخبرية ، لم ينفعك هذا الكلام ، بل قد ذكرت أنت فى غير هذا الموضع هذا القول .

وإذا كان الكلام لا يخرج به الإنسان عن أن يذم نفسه ، أو يذم سلفه - الذين يقر هو بإمامتهم ، وأنهم أفضل ممن اتبعهم - كان هو المذموم بهذا الذم على التقديرين . وكان له نصيب من الخوارج الذين قال النبى صلى الله عليه وسلم لأولهم : « لقد خبت وخسرت ، إن لم أعدل » ، يقول : إذا كنت مقراً بأنى رسول الله ، وأنت تزعم أنى أظلم ، فأنت خائب خاسر . وهكذا من ذم من يقر بأنهم خيار الأمة وأفضلها ، وأن طائفته إنما تلقت العلم والإيمان منهم . هو خائب خاسر فى هذا الذم . وهذه حال الرافضة فى ذم الصحابة .

(الوجه الثالث) قوله : « والآخر يتستر بمذهب السلف » ، إن أردت بالتستر الاستخفاء بمذهب السلف ؛ فيقال : ليس مذهب السلف مما يتستر به إلا فى بلاد أهل البدع ؛ مثل بلاد الرافضة والخوارج. فإن المؤمن المستضعف هناك قد يكتم إيمانه واستنانه ؛ كما كتم مؤمن آل فرعون إيمانه ؛ وكما كان كثير من المؤمنين يكتم إيمانه. حين كانوا فى دار الحرب.

فإن كان هؤلاء فى بلد أنت لك فيه سلطان ـ وقد تستروا بمذهب السلف ـ فقد ذممت نفسك ؛ حيث كنت من طائفة يستر مذهب السلف عندهم ؛ وإن كنت من المستضعفين المسترين بمذهب السلف فلا معنى لذم نفسك . وإن لم تكن منهم ولا من الملأ فلا وجه لذم قوم بلفظ « التستر ».

وإن أردت بالتستر : أنهم يجتنون به ، ويتقون به غيرهم ، ويتظاهرون به ، حتى إذا خوطب أحدهم قال : أنا على مذهب السلف — وهذا الذى أراده . والله أعلم — فيقال له : لا عيب على من أظهر مذهب السلف وانتسب اليه واعتزى إليه ، بل يجب قبول ذلك منه بالاتفاق. فإن مذهب السلف لا يكون إلا حقاً . فإن كان موافقاً له باطناً وظاهراً : فهو بمنزلة المؤمن الذى هو على الحق باطناً وظاهراً . وإن كان موافقاً له فى الظاهر فقط دون الباطن : فهو بمنزلة المنافق . فتقبل منه علانيته وتوكل سريرته إلى الله . فإنا لم نؤمر أن ننقب عن قلوب الناس ولا نشق بطونهم .

وأما قوله : « مذهب السلف إنما هو التوحيد والتنزيه دون التجسيم والتشبيه » .

فيقال له : لفظ « التوحيد ، والتنزيه ، والتشبيه ، والتجسيم » ألفاظ قد دخلها الاشتراك ، بسبب اختلاف اصطلاحات المتكلمين وغيرهم . وكل طائفة تعني بهذه الأسماء ما لا يعنيه غيرهم .

فالجهمية من المعتزلة وغيرهم يريدون « بالتوحيد والتنزيه » : نفي جميع الصفات ، « وبالتجسيم والتشبيه » : إثبات شيء منها ، حتى إن من قال : « إن الله يرى » أو « إن له علما » فهو عندهم مشبه مجسم .

وكثير من المتكلمة الصفاتية يريدون بالتوحيد والتنزيه : نفي الصفات الخبرية أو بعضها ، وبالتجسيم والتشبيه إثباتها أو بعضها .

والفلاسفة تعني بالتوحيد : ما تعنيه المعتزلة وزيادة ، حتى يقولون : ليس له إلا صفة سلبية أو إضافية ، أو مركبة منهما .

والاتحادية تعني بالتوحيد : أنه هو الوجود المطلق ، ولغير هؤلاء فيه اصطلاحات أخرى .

وأما التوحيد الذي بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب : فليس هو متضمنا شيئاً من هذه الاصطلاحات ، بل أمر الله عباده أن يعبدوه وحده لا يشركوا

به شيئا فلا يكون لغيره نصيب فيما يختص به من العبادة وتوابعها ـ هذا فى العمل . وفى القول : هو الإيمان بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله .

فإن كنت تعنى أن مذهب السلف : هو التوحيد بالمعنى الذى جاء به الكتاب والسنة : فهذا حق . وأهل الصفات الخبرية لا يخالفون هذا .

وإن عنيت أن مذهب السلف : هو التوحيد والتنزيه الذى يعنيه بعض الطوائف : فهذا يعلم بطلانه كل من تأمل أقوال السلف الثابتة عنهم ، الموجودة فى كتب آثارهم ؛ فليس فى كلام أحد من السلف كلمة توافق ما تختص به هذه الطوائف ، ولا كلمة تنفى الصفات الخبرية .

ومن المعلوم : أن مذهب السلف إن كان يعرف بالنقل عنهم فليرجع فى ذلك إلى الآثار المنقوله عنهم ، وإن كان إنما يعرف بالاستدلال المحض بأن يكون كل من رأى قولا عنده هو الصواب قال : « هذا قول السلف ، لأن السلف لا يقولون إلا الصواب ، وهذا هو الصواب » ، فهذا هو الذى يجرئ المبتدعة على أن يزعم كل منهم : أنه على مذهب السلف ، فقائل هذا القول قد عاب نفسه بنفسه حيث انتحل مذهب السلف بلا نقل عنهم ، بل بدعواه : أن قوله هو الحق .

وأما أهل الحديث : فإنما يذكرون مذهب السلف بالنقول المتواترة ،

يذكرون من نقل مذهبهم من علماء الإسلام ، وتارة يروون نفس قولهم فى هذا الباب ، كما سلكناه فى جواب الاستفتاء .

فإنا لما أردنا أن نبين مذهب السلف ذكرنا طريقين :

أحدهما : أنا ذكرنا ما تيسر من ذكر ألفاظهم ، ومن روى ذلك من أهل العلم بالأسانيد المعتبرة .

والثانى : أنا ذكرنا من نقل مذهب السلف من جميع طوائف المسلمين من طوائف الفقهاء الأربعة ، ومن أهل الحديث والتصوف ، وأهل الكلام كالأشعرى وغيره .

فصار مذهب السلف منقولا بإجماع الطوائف وبالتواتر ، لم نثبته بمجرد دعوى الإصابة لنا والخطأ لمخالفنا ، كما يفعل أهل البدع .

ثم لفظ « التجسيم » لا يوجد فى كلام أحد من السلف لا نفياً ولا إثباتاً فكيف يحل أن يقال : مذهب السلف نفى التجسيم أو إثباته ، بلا ذكر لذلك اللفظ ولا لمعناه عنهم ؟ ! .

وكذلك لفظ « التوحيد » بمعنى نفى شىء من الصفات لا يوجد فى كلام أحد من السلف .

وكذلك لفظ « التنزيه » بمعنى نفى شىء من الصفات الخبرية لا يوجد فى كلام أحد من السلف .

نعم لفظ « التشبيه » موجود فى كلام بعضهم وتفسيره معه ، كما قد كتبناه عنهم وأنهم أرادوا بالتشبيه تمثيل الله بخلقه ، دون نفى الصفات التى فى القرآن والحديث .

وأيضا فهذا الكلام لو كان حقا فى نفسه لم يكن مذكورا بحجة تتبع . وإنما هو مجرد دعوى على وجه الخصومة التى لا يعجز عنها من يستجيز ويستحسن أن يتكلم بلا علم ولا عدل .

ثم إنه يدل على قلة الخبرة بمقالات النـاس من أهل السنة والبدعة ، فإنه قال : « وكذا جميع المبتدعة يزعمون أنهم على مذهب السلف » ، فليس الأمر كذلك ، بل الطوائف المشهورة بالبدعة ، كالخوارج والروافض لا يدعون أنهم على مذهب السلف ، بل هؤلاء يكفرون جمهور السلف . فالرافضة تطعن فى أبى بكر ، وعمر ، وعامة السابقين الأولين من المهـاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، وسائر أئمة الإسلام . فكيف يزعمون أنهم على مذهب السلف ولكن ينتحلون مذهب أهل البيت كذباً وافتراء .

وكذلك الخوارج قد كفروا عثمان ، وعلياً ، وجمهور المسلمين من الصحابة والتابعين ، فكيف يزعمون أنهم على مذهب السلف ؟ .

(الوجه الرابع) أن هذا الاسم ليس له ذكر فى كتاب الله ولا سنة رسوله ولا كلام أحد من الصحابة والتابعين ، ولا من أئمة المسلمين ، ولا شيخ أو عالم

مقبول عنـــد عموم الأمة . فإذا لم يكن ذلك لم يكن فى الذم به لا نص ولا إجماع ، ولا ما يصلح تقليده للعامة . فإذا كان الذم بلا مستند للمجتهد ولا للمقلدين عموما كان فى غاية الفساد والظلم ؛ إذ لو ذم به بعض من يصلح لبعض العامة تقليده لم يكن له أن يحتج به ؛ إذ المقلد الآخر لمن يصلح له تقليده لا يذم به .

ثم مثل أبى محمد وأمثاله لم يكن يستحل أن يتكلم فى كثير من فروع الفقه بالتقليد ، فكيف يجوز له التكلم فى أصول الدين بالتقليد ؟

والنكتة : أن الذام به إما مجتهد وإما مقلد ، أما المجتهد فلا بد له من نص أو إجماع ، أو دليل يستنبط من ذلك . فإن الذم والحمد من الأحكام الشرعية . وقد قدمنا بيان ذلك . وذكرنا أن الحمـــد والذم ، والحب والبغض ، والوعد والوعيد ، والموالاة والمعاداة ، ونحو ذلك من أحكام الدين : لا يصلح إلا بالأسماء التى أنزل الله بها سلطانه . فأما تعليق ذلك بأسماء مبتدعة فلا يجوز ، بل ذلك من باب شرع دين لم يأذن به الله . وأنه لا بد من معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله .

والمعتزلة أيضاً تفسق من الصحابة والتابعين طوائف ، وتطعن فى كثير منهم وفيما رووه من الأحاديث التى تخالف آراءهم وأهواءهم ، بل تكفر أيضاً من يخالف أصولهم التى انتحلوها من السلف والخلف ، فلهم من الطعن فى علماء

السلف وفى علمهم ما ليس لأهل السنة والجماعة . وليس انتحال مذهب السلف من شعائرهم وإن كانوا يقررون خلافة الخلفاء الأربعة . ويعظمون من أئمة الإسلام وجمهورهم ما لا يعظمه أولئك فلهم من القدح فى كثير منهم ما ليس هذا موضعه . « وللنظام » من القدح فى الصحابة ما ليس هذا موضعه .

وإن كان من أسباب انتقاص هؤلاء المبتدعة للسلف ما حصل فى المنتسبين إليهم من نوع تقصير وعدوان ، وما كان من بعضهم من أمور اجتهادية الصواب فى خلافها ، فإن ما حصل من ذلك صار فتنة للمخالف لهم : ضل به ضلالا كبيراً :

فالمقصود هنا : أن المشهورين من الطوائف- بين أهل السنة والجماعة- العامة بالبدعة ليسوا منتحلين للسلف ، بل أشهر الطوائف بالبدعة : الرافضة ، حتى إن العامة لا تعرف من شعائر البدع إلا الرفض ، والسنى فى اصطلاحهم : من لا يكون رافضيا . وذلك لأنهم أكثر مخالفة للأحاديث النبوية ولمعانى القرآن ، وأكثر قدحا فى سلف الأمة وأئمتها ، وطعنا فى جمهور الأمة من جميع الطوائف فلما كانوا أبعد عن متابعة السلف كانوا أشهر بالبدعة .

فعلم أن شعار أهل البدع : هو ترك انتحال اتباع السلف . ولهذا قال الإمام أحمد فى رسالة عبدوس بن مالك : « أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم » .

وأما متكلمة أهل الإثبات من الكلابية، والكرامية، والأشعرية؛ مع الفقهاء والصوفية. وأهل الحديث: فهؤلاء فى الجملة لا يطعنون فى السلف؛ بل قد يوافقونهم فى أكثر جمل مقالاتهم، لكن كل من كان بالحديث من هؤلاء أعلم، كان بمذهب السلف أعلم وله أتبع. وإنما يوجد تعظيم السلف عند كل طائفة بقدر استنانها، وقلة ابتداعها.

أما أن يكون انتحال السلف من شعائر أهل البدع: فهذا باطل قطعا. فإن ذلك غير ممكن إلا حيث يكثر الجهل ويقل العلم.

يوضح ذلك: أن كثيراً من أصحاب أبى محمد من أتباع أبى الحسن الأشعرى يصرحون بمخالفة السلف — فى مثل مسألة الإيمان. ومسألة تأويل الآيات والأحاديث — يقولون: «مذهب السلف: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص. وأما المتكلمون من أصحابنا: فمذهبهم كيت وكيت»، وكذلك يقولون: «مذهب السلف: أن هذه الآيات والأحاديث الواردة فى الصفات لا تتأول. والمتكلمون يريدون تأويلها إما وجوبا وإما جوازاً»، ويذكرون الخلاف بين السلف و بين أصحابهم المتكلمين. هذا منطوق ألسنتهم ومسطور كتبهم.

أفلا عاقل يعتبر؟ ومغرور يزدجر؟: أن السلف ثبت عنهم ذلك حتى بتصريح المخالف، ثم يحدث مقالة تخرج عنهم. أليس هذا صريحاً: أن السلف كانوا ضالين عن التوحيد والتنزيه وعلمه المتأخرون؟! وهذا فاسد بضرورة العلم الصحيح والدين المتين.

وأيضاً فقد ينصر المتكلمون أقوال السلف تارة وأقوال المتكلمين تارة ، كما يفعله غير واحد مثل أبى المعالى الجوينى ، وأبى حامد الغـــزالى ، والرازى وغيرهم . ولازم المذهب الذى ينصرونه تارة أنه هو المعتمد . فلا يثبتون على دين واحد ، وتغلب عليهم الشكوك . وهذا عادة الله فيمن أعرض عن الـكتاب والسنة .

وتارة يجعلون إخوانهم المتأخرين أحذق وأعلم من السلف ، ويقولون : « طريقة السلف أسلم ، وطريقة هـؤلاء أعلم وأحـكم » ، فيصفون إخوانهم بالفضيلة فى العـــلم والبيان ، والتحقيق والعرفان ، والسلف بالنقص فى ذلك والتقصير فيه ، أو الخطأ والجهل . وغايتهم عندهم : أن يقيموا أعذارهم فى التقصير والتفريط .

ولا ريب أن هـذا شعبة من الرفض ، فإنه وإن لم يكن تـكفيراً للسلف ـ كما يقوله من يقوله من الرافضة والخوارج ـ ولا تفسيقـاً لهم ـ كما يقوله من يقوله من المعتزلة والزيدية وغيرهم ـ كان تجهيلا لهم وتخطئة وتضليلا، ونسبة لهم إلى الذنوب والمعاصى ، وإن لم يكن فسقاً فزَعْماً : أن أهل القرون المفضولة فى الشريعة أعلم وأفضل من أهل القرون الفاضلة .

ومن المعلوم بالضرورة لمن تدبر الـكتاب والسنة ، وما اتفق عليه أهـل السنة والجماعة من جميع الطوائف : أن خير قرون هذه الأمة ـ فى الأعمـال والأقوال ، والاعتقاد وغيرها من كل فضيلة أن خـيرها ـ : القرن الأول ، ثم

الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم . كما ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه ، وأنهم أفضل من الخلف فى كل فضيلة : من علم ، وعمل ، وإيمان ، وعقل ، ودين ، وبيان ، وعبادة ، وأنهم أولى بالبيان لكل مشكل . هذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم بالضرورة من دين الاسلام ، وأضله الله على علم ؛ كما قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات . فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد : أبر هذه الأمة قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم ، وتمسكوا بهديهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم » ، وقال غيره : « عليكم بآثار من سلف فإنهم جاءوا بما يكفى وما يشفى ، ولم يحدث بعدهم خير كامن لم يعلموه » .

هذا ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه . حتى تلقوا ربكم » ، فكيف يحدث لنا زمان فيه الخير فى أعظم المعلومات وهو معرفة الله تعالى ؟ هذا لا يكون أبداً .

وما أحسن ماقال الشافعى رحمه الله فى رسالته : « هم فوقنا فى كل علم وعقل ودين وفضل ، وكل سبب ينال به علم أو يدرك به هدى ، ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا » !

وأيضاً فيقال لهؤلاء الجهمية الكلابية - كصاحب هذا الكلام أبى محمد وأمثاله - كيف تدعون طريقة السلف ، وغاية ما عند السلف : أن يكونوا

موافقين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فإن عامة ما عند السلف من العلم والإيمان : هو ما استفادوه من نبيهم صلى الله عليه وسلم : الذى أخرجهم الله به من الظلمات إلى النور، وهداهم به إلى صراط العزيز الحميد . الذى قال الله فيه : (هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ) ، وقال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ) ، وقال تعالى : (لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ) وقال تعالى : (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ) .

وأبو محمد وأمثاله قد سلكوا مسلك الملاحدة الذين يقولون : إن الرسول لم يبين الحق فى باب التوحيد ، ولا بين للناس ما هو الأمر عليه فى نفسه ، بل أظهر للناس خلاف الحق ، والحق : إما كتمه وإما أنه كان غير عالم به .

فإن هؤلاء الملاحدة من المتفلسفة ومن سلك سبيلهم من المخالفين لما جاء به الرسول فى الأمور العلمية ، كالتوحيد والمعاد وغير ذلك ، يقولون : إن الرسول أحكم الأمور العملية المتعلقة بالأخلاق والسياسة المنزلية والمدنية ،

وأتى بشريعة عملية هى أفضل شرائع العالم، ويعترفون بأنه لم يقرع العالم ناموس أفضل من ناموسه ولا أكمل منه . فإنهم رأوا حسن سياسته للعالم وما أقامه من سنن العدل ومحاه من الظلم .

وأما الأمور العلمية التى أخبر بها ـ من صفات الرب وأسمائه وملائكته وكتبه ورسله ، واليوم الآخر والجنة والنار ـ فلما رأوها تخالف ما هم عليه صاروا فى الرسول فريقين :

فغلاتهم يقولون : إنه لم يكن يعرف هذه المعارف ؛ وإنما كان كماله فى الأمور العملية : العبادات والأخلاق . وأما الأمور العلمية : فالفلاسفة أعلم بها منه ؛ بل ومن غيره من الأنبياء . وهؤلاء يقولون : إن علياً كان فيلسوفا ، وأنه كان أعلم بالعلميات من الرسول ، وأن هارون كان فيلسوفا ، وكان أعلم بالعلميات من موسى .

وكثير منهم يعظم فرعون ويسمونه أفلاطون القبطى، ويدعون أن صاحب مدين الذى تزوج موسى ابنته ـ الذى يقول بعض الناس إنه شعيب ـ يقول هؤلاء : إنه أفلاطون أستاذ أرسطو ، ويقولون : إن أرسطو هو الخضر ـ إلى أمثال هذا الكلام الذى فيه من الجهل والضلال ما لا يعلمه إلا ذو الجلال .

أقل ما فيه جهلهم بتواريخ الأنبياء . فإن أرسطو باتفاقهم كان وزيراً

للإسكندر بن فيلبس المقدونى الذى تؤرخ به اليهود والنصارى التاريخ الرومى .
وكان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة .

وقد يظنون أن هذا هو «ذوالقرنين» المذكور فى القرآن ، وأن أرسطو كان وزيراً لذى القرنين المذكور فى القرآن وهذا جهل . فإن هذا الإسكندر بن فيلبس لم يصل إلى بلاد الترك ولم يبن السد ، وإنما وصل إلى بلاد الفرس .

وذو القرنين المذكور فى القرآن وصل إلى شرق الأرض وغربها وكان متقدماً على هذا ، يقال : إن اسمه الإسكندر بن دارا ، وكان موحداً مؤمناً ؛ وذاك مشركا : كان يعبد هو وقومه الكواكب والأصنام ، ويعانون السحر ، كما كان أرسطو وقومه من اليونان مشركين يعبدون الأصنام ، ويعانون السحر ، ولهم فى ذلك مصنفات ، وأخبارهم مشهورة ، وآثارهم ظاهرة بذلك . فأين هذا من هذا ؟! .

والمقصود هنا : بيـــان مايقوله هؤلاء الفلاسفة البـاطنية فيما جاء به الرسول .

و (الفريق الثـانى منهم) يقولون : إن الرسول كان يعلم الحق الثـابت فى نفس الأمر فى التوحيد والمعاد ، ويعرف أن الرب ليس له صفة ثبوتية ، وأنه لا يرى ولا يتكلم ، وأن الأفلاك قديمة أزلية لم تزل ولا تزال ، وأن الأبدان لا تقوم ، وأنه ليس لله ملائكة هم أحياء ناطقون ينزلون بالوحى

من عنده ويصعدون إليه ، ولكن يقول بما عليه هؤلاء الباطنية فى الباطن ، لكن ما كان يمكنه إظهار ذلك للعامة . لأن هذا إذا ظهر لم تقبله عقولهم وقلوبهم بل ينكرونه وينفرون منه . فأظهر لهم من التخييل والتمثيل ما ينتفعون به فى دينهم وإن كان فى ذلك تلبيس عليهم وتجهيل لهم ، واعتقادهم الأمر على خلاف ما هو عليه ، لما فى ذلك من المصلحة لهم .

ويجعلون أئمة الباطنية - كبنى عبيد بن ميمون القداح الذين ادعوا أنهم من ولد محمد بن إسمعيل بن جعفر ، ولم يكونوا من أولاده ، بل كان جدهم يهودياً ربيباً لمجوسى وأظهروا التشيع . ولم يكونوا فى الحقيقة على دين واحد من الشيعة: لا الإمامية ، ولا الزيدية ، بل ولا الغالية الذين يعتقدون إلهية على ، أو نبوته ، بل كانوا شراً من هؤلاء كلهم .

ولهذا كثر تصانيف علماء المسلمين فى كشف أسرارهم وهتك أستارهم ، وكثر غزو المسلمين لهم . وقصصهم معروفة . وابن سينا وأهل بيته كانوا من أتباع هؤلاء على عهد حاكمهم المصرى . ولهذا دخل ابن سينا فى الفلسفة .

وهؤلاء يجعلون محمد بن إسمعيل هو الإمام المكتوم ، وأنه نسخ شرع محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، ويقولون : إن هؤلاء الإسماعيلية كانوا أئمة معصومين ، بل قد يقولون : إنهم أفضل من الأنبياء ، وقد يقولون : إنهم آلهة يعبدون .

ولهذا أرسل الحاكم غلامه « هشتكين » الدرزى إلى وادى تيم الله بن ثعلبة

بالشام ؛ فأضل أهل تلك الناحية ، و بقاياه فيهم إلى اليوم يقولون بإلهية الحاكم وقد أخرجهم عن دين الإسلام ، فلا يرون الصلوات الخمس ولا صيام شهر رمضان ، ولا حج البيت الحرام ، ولا تحريم ما حرمه الله ورسوله ، من الميتة والدم ولحم الخنزير والخمر وغير ذلك .

وهؤلاء يدعون المستجيب لهم أولا إلى التشيع ، والتزام ماتوجبه الرافضة وتحريم ما يحرمونه ؛ ثم بعد هذا ينقلونه درجة بعد درجة حتى ينقلونه فى الآخر إلى الانسلاخ من الإسلام ، وأن المقصود : هو معرفة أسرارهم ، وهو العلم الذى به تكمل النفس ، كما تقوله الفلاسفة الملاحدة . فمن حصل له هذا العلم وصل إلى الغاية ، وسقطت عنه العبادات التى تجب على العامة ، كالصلوات الخمس ، وصيام رمضان ، وحج البيت ، وحلت له المحرمات التى لا تحل لغيره .

فهؤلاء يجعلون الرسول صلى الله عليه وسلم ـ إذا عظموه وقالوا : كان كاملا فى العلم ـ من جنس رءوسهم الملاحدة ، وأنه كان يظهر للعامة خلاف ما يبطنه للخاصة . وقد بينا من فساد أقوالهم فى غير هذا الموضع ما لا يناسبه هذا المقام .

فإن المقصود هنا : أن هؤلاء النفاة للعلو وللصفات الخبرية ، كصاحب اللمعة وأمثاله يقولون فى الرسول من جنس قول هؤلاء : إن الذى أظهره ليس هو الحق الثابت فى نفس الأمر ، لأن ذلك ما كان يمكنه إظهاره للعامة . فإذا

كانوا يقولون هذا فى الرسول نفسه فكيف قولهم فى أتباعه «من سلف الأمة» من الصحابة والتابعين ؟ .

ومن كان هذا أصل قوله فى الرسول والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار : كان مخالفا لهم لا موافقاً ، لا سيما إذا أظهر النفى الذى كان الرسول وخواص أصحابه عنده يبطنونه ولا يظهرونه . فإنه يكون مخالفا لهم أيضا .

وهذا المسلك يراه عامة النفاة ، كابن رشد الحفيد وغيره . وفى كلام أبى حامد الغزالى من هذا قطعة كبيرة . وابن عقيل وأمثاله قد يقولون أحيانا هذا ، لكن ابن عقيل الغالب عليه إذا خرج عن السنة أن يميل إلى التجهم والاعتزال فى أول أمره ؛ بخلاف آخر ما كان عليه . فقد خرج إلى السنة المحضة .

وأبو حامد يميل إلى الفلسفة ، لكنه أظهرها فى قالب التصوف والعبارات الإسلامية ، ولهذا رد عليه علماء المسلمين حتى أخص أصحابه أبو بكر بن العربى ، فإنه قال : « شيخنا أبو حامد دخل فى بطن الفلاسفة ، ثم أراد أن يخرج منهم فما قدر » ، وقد حكى عنه من القول بمذاهب الباطنية ما يوجد تصديق ذلك فى كتبه ، ورد عليه العلماء المذكورون قبل .

فصـــــل

ثم قال المعترض : قال أبو الفرج بن الجوزى فى الرد على الحنابلة : « إنهم أثبتوا لله سبحانه عيناً ، وصورة ، ويميناً ، وشمالاً ، ووجهاً زائداً على الذات ، وجبهة ، وصدراً ، ويدين ، ورجلين ، وأصابع ، وخنصراً ، ونخذاً ، وساقاً ، وقدماً ، وجنباً ، وحقواً ، وخلفاً ، وأماماً ، وصعوداً ، ونزولا ، وهرولة ، وعجباً ؛ لقد كملوا هيئة البدن ! وقالوا : يحمل على ظاهره ، وليست بجوارح ، ومثل هؤلاء لا يحدثون ، فإنهم يكابرون العقول ، وكأنهم يحدثون الأطفال » .

قلت : الكلام على هذا فيه أنواع :ـ

(الأول) : بيان ما فيه من التعصب بالجهل والظلم قبل الكلام فى المسألة العلمية .

(الثانى) : بيان أنه رد بلا حجة ولا دليل أصلا .

(الثالث) : بيان ما فيه من ضعف النقل والعقل .

أما « أولا » : فإن هذا المصنف الذى نقل منه كلام أبى الفرج لم يصنفه

فى الرد على الحنابلة كما ذكر هذا ، وإنما رد به ـ فيما ادعاه ـ على بعضهم . وقصد أبى عبد الله بن حامد والقاضى أبى يعلى وشيخه أبى الحسن بن الزاغونى ومن تبعهم ؛ وإلا فجنس الحنابلة لم يتعرض أبو الفرج للرد عليهم ، ولا حكى عنهم ما أنكره ؛ بل هو يحتج فى مخالفته لهؤلاء بكلام كثير من الحنبلية ، كما يذكره من كلام التميميين : مثل رزق الله التميمى ، وأبى الوفا بن عقيل . ورزق الله كان يميل إلى طريقة سلفه ، كجده أبى الحسن التميمى ، وعمه أبى الفضل التميمى ، والشريف أبى على بن أبى موسى هو صاحب أبى الحسن التميمى ، وقد ذكر عنه أنه قال : « لقد خرى القاضى أبو يعلى على الحنابلة خرية لا يغسلها المـاء » !

وسنتكلم على هذا بما ييسره الله ، متحرين للـكلام بعلم وعدل . ولا حول ولا قوة إلا بالله : فما زال فى الحنبلية من يكون ميله إلى نوع من الإثبات الذى ينفيه طائفة أخرى منهم ، ومنهم من يمسك عن النفى والإثبـات جميعاً . ففيهم جنس التنازع الموجود فى سائر الطوائف ، لـكن نزاعهم فى مسائل الدِّق ؛ وأما الأصول الـكبار فهم متفقون عليها ، ولهذا كانوا أقل الطوائف تنازعاً وافتراقاً ، لـكثرة اعتصامهم بالسنة والآثار ، لأن للإمام أحمد فى باب أصول الدين من الأقوال المبينة لـمـا تنازع فيه الناس ما ليس لغيره . وأقواله مؤيدة بالـكتاب والسنة واتباع سبيل السلف الطيب . ولهذا كان جميع من ينتحل السنة من طوائف الأمة ـ فقهائها ومتكلمتها وصوفيتها ـ ينتحلونه .

ثم قد يتنازع هؤلاء فى بعض المسائل . فإن هـذا أمر لابد منه فى العـالم ، والنبي صلى الله عليه وسلم قد أخبر بأن هذا لابد من وقوعه ، وأنه لما سأل ربه أن لا يلقى بأسهم بينهم منع ذلك . فلا بد فى الطوائف المنتسبة إلى السنة والجماعة من نوع تنازع ، لـكن لابد فيهم من طائفـة تعتصم بالـكتاب والسنة ، كما أنه لابد أن يكون بين المسلمين تنازع واختلاف ، لـكنه لا يزال فى هـــذه الأمة طائفة قائمة بالحق لا يضرها من خالفها ولا من خذلها حتى تقوم الساعة .

ولهذا لمـا كان أبو الحسن الأشعرى وأصحابه منتسبين إلى السنة والجماعة : كان منتحلا للإمام أحمد ، ذاكراً أنه مقتد به متبع سبيـله . وكان بين أعيان أصحابه من الموافقة والمؤالفة لـكثير من أصحاب الإمام أحمد ماهو معروف ،حتى إن أبا بكر عبد العزيز يذكر من حجج أبى الحسن فى كلامه مثل مايذكر من حجج أصحابه ، لأنه كان عنده من متكلمة أصحابه .

وكان من أعظم المائلين إليهم التميميون : أبو الحسن التميمى ، وابنـه ، وابن ابنه ، ونحوهم ؛ وكان بين أبى الحسن التميمى وبين القاضى أبى بكر بن الباقلانىمن المودة والصحبة ما هو معروف مشهور . ولهذا اعتمد الحافظ أبو بكر البيهقى فى كتابه الذى صنفه فى مناقبالإمام أحمد — لما ذكر اعتقاده — اعتمد على مانقله من كلام أبى الفضل عبد الواحد بن أبى الحسنالتميمى . وله فىهذا الباب مصنف ذكر فيه من اعتقاد أحمد ما فهمه ؛ ولم يذكر فيه ألفاظه ، وإنما ذكر جمل الاعتقاد بلفظ نفسه ، وجعل يقول : « وكان أبو عبـد الله » . وهو بمنزلة من يصنف

كتاباً فى الفقه على رأى بعض الأئمة ، ويذكر مذهبه بحسب ما فهمه ورآه ، وإن كان غيره بمذهب ذلك الإمام أعلم منه بألفاظه وأفهم لمقاصده ؛ فإن الناس فى نقل مذاهب الأئمة قد يكونون بمنزلتهم فى نقل الشريعة . ومن المعلوم : أن أحدهم يقول: حكم الله كذا ، أو حكم الشريعة كذا بحسب ما اعتقده عن صاحب الشريعة ، بحسب ما بلغه وفهمه ، وإن كان غيره أعلم بأقوال صاحب الشريعة وأعماله وأفهم لمراده .

فهذا أيضاً من الأمور التى يكثر وجودها فى بنى آدم. ولهذا قد تختلف الرواية فى النقل عن الأئمة ، كما يختلف بعض [أهل] الحديث فى النقل عن النبى صلى الله عليه وسلم ، لكن النبى صلى الله عليه وسلم معصوم . فلا يجوز أن يصدر عنه خبران متناقضان فى الحقيقة . ولا أمران متناقضان فى الحقيقة إلا وأحدهما ناسخ والآخر منسوخ . وأما غير النبى صلى الله عليه وسلم فليس بمعصوم . فيجوز أن يكون قد قال خبرين متناقضين . وأمرين متناقضين ولم يشعر بالتناقض.

لكن إذا كان فى المنقول عن النبى صلى الله عليه وسلم ما يحتاج إلى تمييز ومعرفة — وقد تختلف الروايات حتى يكون بعضها أرجح من بعض .والناقلون لشريعته بالاستدلال بينهم اختلاف كثير- لم يستنكر وقوع نحو من هذا فى غيره ؛ بل هو أولى بذلك . لأن الله قد ضمن حفظ الذكر الذى أنزله على رسوله ، ولم يضمن حفظ ما يؤثر عن غيره . لأن ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة هو هدى الله الذى جاء من عند الله ، وبه يعرف سبيله وهو حجته على عباده ؛

فلو وقع فيه ضلال لم يبين لسقطت حجة الله فى ذلك ، وذهب هداه ، وعميت سبيله ؛ إذ ليس بعد هذا النبي نبي آخر ينتظر ليبين للناس ما اختلفوا فيه ؛ بل هذا الرسول آخر الرسل . وأمته خير الأمم . ولهذا لا يزال فيها طائفة قائمة على الحق بإذن الله . لا يضرها من خالفها ولا من خذلها . حتى تقوم الساعة .

الوجه الثاني

أن أبا الفرج نفسه متناقض فى هذا الباب : لم يثبت على قدم النفى ولا على قدم الإثبات ؛ بل له من الكلام فى الإثبات نظما ونثراً ما أثبت به كثيراً من الصفات التى أنكرها فى هذا المصنف . فهو فى هذا البـــاب مثل كثير من الخائضين فى هذا الباب من أنواع الناس يثبتون تارة ، وينفون أخرى فى مواضع كثيرة من الصفات ، كما هو حال أبى الوفاء بن عقيل وأبى حامد الغزالى .

الوجه الثالث

أن باب الإثبات ليس مختصاً بالحنبلية ، ولا فيهم من الغلو ما ليس فى غيرهم ؛ بل من استقرأ مذاهب الناس وجد فى كل طائفة من الغلاة فى النفى والإثبات مالا يوجد مثله فى الحنبلية ، ووجد من مال منهم إلى نفى باطل أو إثبات باطل ،

فإنه لا يسرف إسراف غيرهم من المائلين إلى النفى والإثبات، بل تجد فى الطوائف من زيادة النفى الباطل والإثبات الباطل ما لا يوجد مثله فى الحنبلية . وإنما وقع الاعتداء فى النفى والإثبات فيهم مما دب إليهم من غيرهم الذين اعتدوا حدود الله بزيادة فى النفى والإثبات ، إذ أصل السنة مبناها على الاقتصاد والاعتدال دون البغى والاعتداء .

وكان علم «الإمام أحمد، وأتباعه» له من الكمال والتمام ، على الوجه المشهور بين الخاص والعام ، ممن له بالسنة وأهلها نوع إلمام ، وأما أهل الجهل والضلال : الذين لا يعرفون ما بعث الله به الرسول ، ولا يميزون بين صحيح المنقول وصريح المعقول ، وبين الروايات المكذوبة والآراء المضطربة : فأولئك جاهلون قدر الرسول ، والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين نطق بفضلهم القرآن ، فهم بمقادير الأئمة المخالفين لهؤلاء أولى أن يكونوا جاهلين ، إذ كانوا أشبه بمن شاق الرسول واتبع غير سبيل المؤمنين من أهل العلم والإيمان ، وهم فى هذه الأحوال إلى الكفر أقرب منهم للإيمان :

تجد أحدهم يتكلم فى « أصول الدين وفروعه » بكلام من كأنه لم ينشأ فى دار الإسلام ، ولا سمع ما عليه أهل العلم والإيمان ، ولا عرف حال سلف هذه الأمة ، وما أوتوه من كمال العلوم النافعة والأعمال الصالحة ، ولا عرف مما بعث الله به نبيه ما يدله على الفرق بين الهدى والضلال ، والغى والرشاد .

وتجد وقيعة هؤلاء فى « أئمة السنة وهداة الأمة » من جنس وقيعة الرافضة ومن معهم من المنافقين فى أبى بكر ، وعمر ، وأعيان المهاجرين والأنصار ؛ ووقيعة اليهود والنصارى ومن تبعهم من منافقى هذه الأمة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووقيعة الصابئة والمشركين من الفلاسفة وغيرهم فى الأنبياء والمرسلين وقد ذكر الله فى كتابه من كلام الكفار والمنافقين فى الأنبياء والمرسلين وأهل العلم والإيمان ما فيه عبرة للمعتبر ، وبينة للمستبصر ، وموعظة للمتهوك المتحير .

وتجد عامة أهل الكلام ومن أعرض عن جادة السلف ـ إلا من عصم الله ـ يعظمون أئمة الاتحاد ، بعد تصريحهم فى كتبهم بعبارات الاتحاد ، ويتكلفون لها محامل غير ما قصدوه . ولهم فى قلوبهم من الإجلال والتعظيم ، والشهادة بالإمامة والولاية لهم ، وأنهم أهل الحقائق : ما الله به عليم .

هذا ابن عربى يصرح فى فصوصه : أن الولاية أعظم من النبوة ؛ بل أكمل من الرسالة ! ومن كلامه :

مقام النبـــوة فى برزخ فويق الرسـول ودون الولى

وبعض أصحابه يتأول ذلك بأن ولاية النبى أفضل من نبوته ، وكذلك ولاية الرسـول أفضل من رسالته ، أو يجعلون ولايته حاله مع الله ، ورسالته حاله مع الخلق وهذا من بليغ الجهل .

فإن الرسول إذا خاطب الخلق وبلغهم الرسالة لم يفارق الولاية ، بل هو ولى

الله فى تلك الحال ، كما هو ولى الله فى سائر أحواله ، فإنه ولى الله ليس عدواً له فى شىء من أحواله . وليس حاله فى تبليغ الرسالة دون حاله اذا صلى ودعا الله وناجاه .

وأيضاً : فما يقول هذا المتكلف فى قول هذا المعظم : إن النبي صلى الله عليه وسلم لبنة من فضة ، وهو لبنتان من ذهب وفضة ، ويزعم أن لبنة محمد صلى الله عليه وسلم هى العلم الظاهر ، ولبنتاه : الذهب علم الباطن ، والفضة علم الظاهر ، وأنه يتلقى ذلك بلا واسطة ؛ ويصرح فى فصوصه : أن رتبة الولاية أعظم من رتبة النبوة ، لأن الولى يأخذ بلا واسطة والنبي بواسطة ، فالفضيلة التى زعم أنه امتاز بها على النبي صلى الله عليه وسلم أعظم عنده مما شاركه فيه .

وبالجملة : فهو لم يتبع النبي صلى الله عليه وسلم فى شىء ، فإنه أخذ بزعمه عن الله ما هو متابعه فيه فى الظاهر ، كما يوافق المجتهد المجتهد والرسول الرسول فليس عنده من اتباع الرسول والتلقى عنه شىء أصلا ، لا فى الحقائق الخبرية ، ولا فى الحقائق الشرعية .

وأيضاً : فإنه لم يرض أن يكون معه كموسى مع عيسى ، وكالعالم مع العالم فى الشرع الذى وافقه فيه ، بل ادعى أنه يأخذ ما أقره عليه من الشرع من الله فى الباطن ، فيكون أخذه للشرع عن الله أعظم من أخذ الرسول .

وأما ما ادعى امتيازه به عنه وافتقار الرسول إليه ـ وهو موضع اللبنة الذهبية ـ فزعم أنه يأخذه عن المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى به إلى الرسول .

فهذا كما ترى فى حال هذا الرجل ، وتعظيم بعض المتأخرين له .

وصرح الغزالى بأن قتل من ادعى أن رتبة الولاية أعلى من رتبة النبوة أحب اليه من قتل مائة كافر ، لأن ضرر هذا فى الدين أعظم .

ولا نطيل الكلام فى هذا المقام لأنه ليس المقصود هنا .

وأيضاً فأسماء الله وأسماء صفاته عنـــدهم شرعية سمعية ، لا تطلق بمجرد الرأى ، فهم فى الامتناع من هذه الأسمـاء أحق بالعذر ممن امتنع من تسمية صفاته أعراضاً .

وذلك أن الصفات التى لنا : منها ما هو عرض كالعلم والقدرة ، ومنها ماهو جسم وجوهر قائم بنفسه ، كالوجه واليد ، وتسمية هذه جوارح وأعضاء أخص من تسميتها أجساماً ، لمـا فى ذلك من معنى الاكتساب والانتفاع والتصرف ، وجواز التفريق والبعضية .

الوجه الرابع

أن هذا السؤال لا يختص بهؤلاء ، بل إثبات جنس هذه الصفات قد اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها ، من أهل الفقه والحديث والتصوف والمعرفة ، وأئمة أهل الكلام من الكلابية والكرامية والأشعرية ، كل هؤلاء يثبتون لله صفة الوجه واليد ونحو ذلك .

وقد ذكر الأشعرى فى كتاب المقالات أن هذا مذهب أهل الحديث ، وقال : إنه به يقول .

فقال فى (جملة مقالة أهل السنة وأصحاب الحديث) : « جملة مقالة أهل السنة وأصحاب الحديث : الإقرار بكذا وكذا ، وأن الله على عرشه استوى ، وأن له يدين بلا كيف ، كما قال : (خَلَقْتُ بِيَدَىَّ) ، وكما قال : (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ) ، وأن له عينين بلا كيف ، كما قال : (تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا) ، وأن له وجهاً ، كما قال : (وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ) .

وقد قدمنا فيما تقدم أن جميع أئمة الطوائف هم من أهل الإثبات ، وما من شىء ذكره أبو الفرج وغيره مما هو موجود فى الحنبلية ـ سواء كان الصواب فيه مع المثبت أو مع النافى ، أو كان فيه تفصيل ـ إلا وذلك موجود فيما شاء الله

من أهل الحديث والصوفية ، والمالكية والشافعية ، والحنفية ونحوهم ؛ بل هو موجود فى الطوائف التى لا تنتحل السنة والجماعة ، والحديث ، ولا مذهب السلف مثل الشيعة وغيرهم ، ففيهم فى طرفى الإثبات والنفى ما لا يوجد فى هذه الطوائف .

وكذلك فى أهل الكتابين - أهل التوراة والإنجيل - توجد هذه المذاهب المتقابلة فى النفى والإثبات ، وكذلك الصابئة من الفلاسفة وغيرهم لهم تقابل فى النفى والإثبات ، حتى إن منهم من يثبت ما لا يثبته كثير من متكلمة الصفاتية ، ولكن جنس الإثبات على المتبعين للرسل أغلب : من الذين آمنوا واليهود والنصارى والصابئة المهتدين ، وجنس النفى على غير المتبعين للرسل أغلب : من المشركين والصابئة المبتدعة .

وقد ذكرنا فى غير هذا الجواب ، مذهب سلف الأمة وأئمتها بألفاظها وألفاظ من نقل ذلك من جميع الطوائف : بحيث لا يبقى لأحد من الطوائف اختصاص بالإثبات .

ومن ذلك : ما ذكره شيخ الحرمين : أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرجى فى كتابه الذى سماه « الفصول فى الأصول عن الأئمة الفحول ، إلزاماً لذوى البدع والفضول » وكان من أئمة الشافعية — ذكر فيه من كلام الشافعى ، ومالك ، والثورى ، وأحمد بن حنبل ، والبخارى — صاحب الصحيح —

وسفيان بن عيينة ، وعبد الله بن المبارك ، والأوزاعى ، والليث بن سعد ، وإسحق بن راهوية فى أصول السنة ما يعرف به اعتقادهم .

وذكر فى تراجمهم ما فيه تنبيه على مراتبهم ومكانتهم فى الإسلام ، وذكر « أنه اقتصر فى النقل عنهم - دون غيرهم - لأنهم هم المقتدى بهم والمرجوع شرقاً وغرباً إلى مذاهبهم ، ولأنهم أجمع لشرائط القدوة والإمامة من غيرهم ، وأكثر لتحصيل أسبابها وأدواتها : من جودة الحفظ والبصيرة ، والفطنة والمعرفة بالكتاب ، والسنة ، والإجماع والسند والرجال ، والأحوال ، ولغات العرب ، ومواضعها ، والتاريخ ، والناسخ ، والمنسوخ ، والمنقول ، والمعقول ، والصحيح ، والمدخول فى الصدق ، والصلابة ، وظهور الأمانة ، والديانة : ممن سواهم » .

قال : « وإن قصر واحد منهم فى سبب منها جبر تقصيره قرب عصره من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، باينوا هؤلاء بهذا المعنى من سواهم فإن غيرهم من الأئمة - وإن كانوا فى منصب الإمامة - لكن أخلوا ببعض ما أشرت إليه مجملا من شرائطها ، إذ ليس هذا موضعاً لبيانها » .

قال : « ووجه ثالث لا بد من أن نبين فيه ، فنقول : إن فى النقل عن هؤلاء إلزاماً للحجة على كل من ينتحل مذهب إمام يخالفه فى العقيدة ، فإن أحدهما لا محالة يضلل صاحبه ، أو يبدعه، أو يكفره ، فانتحال مذهبه - مع مخالفته

له فى العقيدة ـ مستنكر والله شرعا وطبعاً ، فمن قال : أنا شافعى الشرع ، أشعرى الاعتقاد ، قلنا له : هذا من الأضداد ، لا بل من الارتداد ، إذ لم يكن الشافعى أشعرى الاعتقاد . ومن قال : أنا حنبلى فى الفروع ، معتزلى فى الأصول ، قلنا : قد ضللت إذاً عن سواء السبيل فيما تزعمه ، إذ لم يكن أحمد معتزلى الدين والاجتهاد » .

قال : « وقد افتتن أيضاً خلق من المالكية بمذاهب الأشعرية ، وهذه والله سبة وعار ، وفلتة تعود بالوبال والنكال وسوء الدار ، على منتحل مذاهب هؤلاء الأئمة الكبار ، فإن مذهبهم ما رويناه : من تكفيرهم : الجهمية ، والمعتزلة والقدرية والواقفية ، وتكفيرهم اللفظية » .

وبسط الكلام فى مسألة اللفظ ، إلى أن قال ـ : « فأما غير ما ذكرناه من الأئمة : فلم ينتحل أحد مذهبهم ، فلذلك لم نتعرض للنقل عنهم » .

قال : « فإن قيل : فهلا اقتصرتم إذاً على النقل عمن شاع مذهبه وانتحل اختياره من أصحاب الحديث ، وهم الأئمة : الشافعى ، ومالك ، والثورى ، وأحمد ، إذ لا نرى أحداً ينتحل مذهب الأوزاعى والليث وسائرهم ؟ .

ـ قلنا : لأن من ذكرناه من الأئمة ـ سوى هؤلاء ـ أرباب المذاهب فى الجملة ، إذ كانوا قدوة فى عصرهم ، ثم اندرجت مذاهبهم الآخرة تحت مذاهب الأئمة المعتبرة . وذلك أن ابن عيينة كان قدوة ، ولكن لم يصنف فى

الذى كان يختاره من الأحكام، وإنما صنف أصحابه، وهم الشافعى، وأحمد وإسحق، فاندرج مذهبه تحت مذاهبهم.

وأما الليث بن سعد فلم يقم أصحابه بمذهبه، قال الشافعى: «لم يرزق الأصحاب» إلا أن قوله يوافق قول مالك أو قول الثورى لا يخطئهما؛ فاندرج مذهبه تحت مذهبهما.

وأما الأوزاعى فلا نرى له فى أعم المسائل قولا إلا ويوافق قول مالك، أو قول الثورى أو قول الشافعى: فاندرج اختياره أيضاً تحت اختيار هؤلاء. وكذلك اختيار إسحق يندرج تحت مذهب أحمد لتوافقهما.

قال: «فإن قيل: فمن أين وقعت على هذا التفصيل والبيان فى اندراج مذاهب هؤلاء تحت مذاهب الأئمة؟ قلت: من التعليقة للشيخ أبى حامد الإسفرائينى، التى هى ديوان الشرائع، وأم البدائع: فى بيان الأحكام، ومذاهب العلماء الأعلام، وأصول الحجج العظام؛ فى المختلف والمؤتلف.

قال: «وأما اختيار أبى زرعة، وأبى حاتم فى الصلاة والأحكام - مما قرأته وسمعته من مجموعيهما - فهو موافق لقول أحمد ومندرج تحته وذلك مشهور. وأما البخارى فلم أر له اختياراً، ولكن سمعت محمد بن طاهر الحافظ يقول: استنبط البخارى فى الاختيارات مسائل موافقة لمذهب أحمد وإسحق.

فلهذه المعانى نقلنا عن الجماعة الذين سميناهم، دون غيرهم، إذ هم أرباب

المذاهب فى الجملة ، ولهم أهلية الاقتداء بهم لحيازتهم شرائط الإمامة ، وليس من سواهم فى درجتهم ، وإن كانوا أئمة كبراء قد ساروا بسيرهم .

ثم ذكر بعد ذلك (الفصل الثانى عشر) : فى ذكر خلاصة تحوى مناصيص الأئمة بعد أن أفرد لكل منهم فصلا — قال : « لما تتبعت أصول ما صح لى روايته ، فعثرت فيها بما قد ذكرت من عقائد الأئمة ، فرتبتها عند ذلك على ترتيب الفصول التى أثبتها ، وافتتحت كل « فصل » بنيف من المحامد ، يكون لإمامتهم إحدى الشواهد، داعية إلى اتباعهم ، ووجوب وفاقهم ، وتحريم خلافهم وشقاقهم، فإن اتباع من ذكرناه من الأئمة فى الأصول فى زماننا بمنزلة اتباع الإجماع الذى يبلغنا عن الصحابة والتابعين ، إذ لا يسع مسلما خلافه ، ولا يعذر فيه ، فإن الحق لا يخرج عنهم ، لأنهم الأدلاء ، وأرباب مذاهب هذه الأمة ، والصدور والسادة، والعلماء القادة ، أولوا الدين والديانة ، والصدق والأمانة، والعلم الوافر، والاجتهاد الظاهر ولهذا المعنى اقتدوا بهم فى الفروع ، فجعلوهم فيها وسائل بينهم وبين الله ، حتى صاروا أرباب المذاهب فى المشارق والمغارب ، فليرضوا كذلك بهم فى الأصول فيما بينهم وبين ربهم وبما نصوا عليه ودعوا إليه » .

قال : « فإنا نعلم قطعاً أنهم أعرف قطعاً بما صح من معتقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده ، لجودة معارفهم وحيازتهم شرائط الإمامة ولقرب عصرهم من الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، كما بيناه فى أول الكتاب » .

قال : « ثم أردت — ووافق مرادى سؤال بعض الإخوان — أن أذكر خلاصة مناصيصهم متضمنة بعض ألفاظهم . فإنها أقرب إلى الحفظ ، وهى اللباب لما ينطوى عليه الكتاب ، فاستعنت بمن عليه التكلان . وقلت : إن الذى آثرناه من مناصيصهم يجمعه فصلان :ـ أحدهما : فى بيان السنة وفضلها . والثانى : فى هجران البدعة وأهلها .

أما الفصل الأول : فاعلم أن «السنة» طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتسنن بسلوكها وإصابتها . وهى « أقسام ثلاثة » : أقوال ، وأعمال ، وعقائد . فالأقوال : نحو الأذكار والتسبيحات المأثورة . والأفعال : مثل سنن الصلاة والصيام والصدقات المذكورة ، ونحو السير المرضية ، والآداب المحكية ، فهذان القسمان فى عداد التأكيد والاستحباب ، واكتساب الأجر والثواب . والقسم الثالث : سنة العقائد ، وهى من الإيمان إحدى القواعد » .

قال : « وها أناذا أذكر بعون الله خلاصة ما نقلته عنهم مفرقا ، وأضيف إليه ما دون فى كتب الأصول مما لم يبلغنى عنهم مطلقا ، وأرتبها مرشحة . وببعض مناصيصهم موشحة ، بأوجز لفظ على قدر وسعى ، ليسهل حفظه على من يريد أن يعى ، فأقول :

ليعلم المستن أن سنة العقائد على «ثلاثة أضرب» : ضرب يتعلق بأسماء الله ، وذاته ، وصفاته . وضرب يتعلق برسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه ومعجزاته ، وضرب يتعلق بأهل الإسلام فى أولاهم وأخراهم .

أما الضرب الأول : فلنعتقد أن لله أسماء وصفات قديمة غير مخلوقة ، جاء بها كتابه ، وأخبر بها الرسول أصحابه ، فيما رواه الثقات ، وصححه النقاد الأثبات ودل القرآن المبين ، والحديث الصحيح المتين على ثبوتها .

قال رحمه الله تعالى : « وهي أن الله تعالى أول لم يزل ، واخر لا يزال ، أحد قديم وصمد كريم ، عليم حليم عليٌّ عظيم ، رفيع مجيد ، وله بطش شديد ، وهو يبدئ ويعيد ، فعال لما يريد ، قوى قدير ، منيع نصير ، (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) إلى سائر أسمائه وصفاته من النفس ، والوجه ، والعين ، والقدم ، واليدين ، والعلم ، والنظر ، والسمع ، والبصر ، والإرادة ، والمشيئة ، والرضى ، والغضب ، والمحبة والضحك ، والعجب ، والاستحياء ، والغيرة ، والكراهة ، والسخط ، والقبض ، والبسط ، والقرب ، والدنو ، والفوقية والعلو والكلام ، والسلام ، والقول ، والنداء والتجلي واللقاء ، والنزول ، والصعود ، والاستواء ، وأنه تعالى فى السماء ، وأنه على عرشه بائن من خلقه.

قال مالك : إن الله فى السماء وعلمه فى كل مكان » ، وقال عبد الله بن المبارك « نعرف ربنا فوق سبع سمواته على العرش بائنا من خلقه ، ولا نقول كما قالت الجهمية : إنه ههنا ـ وأشار إلى الأرض » ، وقال سفيان الثورى : (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ) قال : « علمه » ، قال الشافعى : إنه على عرشه فى سمائه بقرب من خلقه كيف شاء » ، قال أحمد : « إنه مستو على العرش عالم بكل مكان » ، وإنه ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا كيف شاء ، وإنه يأتى يوم القيامة كيف شاء ،

وإنه يعلو على كرسيه ، والإيمان بالعرش والكرسى وما ورد فيهما من الآيات والأخبار .

وأن الكلم الطيب يصعد إليه ، وتعرج الملائكة والروح إليه ، وأنه خلق آدم بيديه ، وخلق القلم وجنة عدن وشجرة طوبى بيديه ، وكتب التوراة بيديه وأن كلتا يديه يمين . وقال ابن عمر : « خلق الله بيديه أربعة أشياء آدم ، والعرش والقلم ، وجنة عدن ، وقال لسائر الخلق : كن فكان » ، وأنه يتكلم بالوحى كيف يشاء ، قالت عائشة رضى الله عنها : « لشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فىَّ بوحى يتلى » .

وأن القرآن كلام الله بجميع جهاته منزل غير مخلوق ، ولا حرف منه مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، قال عبد الله بن المبارك : « من كفر بحرف من القرآن فقد كفر ، ومن قال : لا أؤمن بهذه اللام فقد كفر » وأن الكتب المنزلة على الرسل مائة ـ وأربعة كتب ـ كلام الله غير مخلوق ، قال أحمد : وما فى اللوح المحفوظ وما فى المصاحف وتلاوة الناس وكيفما يقرأ وكيفما يوصف ، فهو كلام الله غير مخلوق » ، قال البخارى : « وأقول : فى المصحف قرآن وفى صدور الرجال قرآن ، فمن قال غير هذا يستتاب ، فإن تاب وإلا فسبيله سبيل الكفر » .

قال وذكر الشافعى المعتقد بالدلائل ، فقال « لله أسماء وصفات جاء بها

كتابه، وأخبر بها نبيه أمته ، لا يسع أحداً من خلق الله قامت عليه الحجة ردها - إلى أن قال - نحو إخبار الله سبحانه إيانا أنه سميع بصير، وأن له يدين لقوله : (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ) ، وأن له يميناً بقوله : (وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) ، وأن له وجهاً لقوله : (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) ، وقوله : (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) ، وأن له قدماً لقوله : « حتى يضع الرب فيها قدمه » يعنى جهنم .

وأنه يضحك من عبده المؤمن لقوله صلى الله عليه وسلم للذى قتل فى سبيل الله : « إنه لقى الله وهو يضحك إليه » ، وأنه يهبط كل ليلة إلى سماء الدنيا ، لخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، وأنه ليس بأعور ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ذكر الدجال فقال : « إنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور » ، وأن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة بأبصارهم ، كما يرون القمر ليلة البدر ، وأن له إصبعاً لقوله صلى الله عليه وسلم : « ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن » .

قال : « وسوى ما نقله الشافعى أحاديث جاءت فى الصحاح والمسانيد ، وتلقتها الأمة بالقبول والتصديق ، نحو ما فى الصحيح من حديث الذات ، وقوله : « لا شخص أغير من الله » ، وقوله : « أتعجبون من غيرة سعد ؟ والله لأنا أغير من سعد ، والله أغير منى » ، وقوله : « ليس أحد أحب إليه المدح من الله ، ولذلك مدح نفسه ، وليس أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم

الفواحش ما ظهر منها وما بطن » ، وقوله : « يد الله ملأى » ، وقوله : « بيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع » وقوله : « إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين ، وتكون السموات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك » .

ونحوه قوله : « ثلاث حثيات من حثيات الرب » ، وقوله : « لما خلق آدم مسح ظهره بيمينه » ، وقوله فى حديث أبى رزين : قلت : يا رسول الله ، فما يفعل ربنا بنا إذا لقيناه ؟ قال : تعرضون عليه بادية له صفحاتكم ، لا يخفى عليه منكم خافية ، فيأخذ ربك بيده غرفة من الماء ، فينضح قبلكم ، فلعمر إلهك ما يخطىء وجه أحدكم منها قطرة » أخرجه أحمد فى المسند .

وحديث : « القبضة التى يخرج بها من النار قوماً لم يعملوا خيراً قط ، قد عادوا حمما ، فيلقيهم فى نهر من أنهار الجنة يقال له : نهر الحياة » .

ونحو الحديث : « رأيت ربى فى أحسن صورة » ، ونحو قوله : « خلق آدم على صورته » ، وقوله : يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه » ، وقوله : « كلم أباك كفاحا » ، وقوله : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ، ليس بينه وبينه ترجمان يترجم له » ، وقوله : « يتجلى لنا ربنا يوم القيامة ضاحكا » .

وفى حديث المعراج فى الصحيح : « ثم دنا الجبار رب العزة ، فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى » ، وقوله : « كتب كتاباً ، فهو عنده فوق العرش

إن رحمتى سبقت غضبى » ، وقوله : « لا تزال جهنم يلقى فيها ، وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه ـ وفى رواية : رجله ـ فينزوى بعضها إلى بعض ، وتقول : قَدِ قَدِ » وفى رواية « قط قط بعزتك » .

ونحو قوله : « فيأتيهم الله فى صورته التى يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ' فيقولون : أنت ربنا » ، وقوله : « يحشر الله العباد ، فيناديهم بصوت يسمعه مَن بعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك ، أنا الديان» .

إلى غيرها من الأحاديث ، هالتنا أو لم تهلنا ، بلغتنا أو لم تبلغنا ، اعتقادنا فيها ، وفى الآى الواردة فى الصفات : أنا نقبلها ولا نحرفها ولا نكيفها ، ولا نعطلها ولا نتأولها ، وعلى العقول لا نحملها ، وبصفات الخلق لا نشبهها ، ولا نعمل رأينـــا وفكرنا فيها ، ولا نزيد عليها ولا ننقص منها ، بل نؤمن بها ونكل علمها إلى عالمها ، كما فعل ذلك السلف الصالح ، وهم القدوة لنا فى كل علم .

روينا عن إسحاق أنه قال : « لا نزيل صفة ممـا وصف الله بها نفسه ، أو وصفه بها الرسول عن جهتها ، لا بكلام ولا بإرادة ، إنما يلزم المسلم الأداء ويوقن بقلبه أن ما وصف الله به نفسه فى القرآن إنما هى صفاته ، ولا يعقل نبي مرسل ، ولا ملك مقرب تلك الصفات إلا بالأسماء التى عرفهم الرب عز وجل . فأما أن يدرك أحد من بنى آدم تلك الصفات ، فلا يدركه أحد ـ الحديث إلى آخره » .

وكما روينا عن مالك ، والأوزاعى ، وسفيان ؛ والليث وأحمد بن حنبل أنهم قالوا فى الأحاديث فى الرؤية والنزول : « أمروها كما جاءت » .

وكما روى عن محمد بن الحسن - صاحب أبى حنيفة - أنه قال فى الأحاديث التى جاءت : « إن الله يهبط إلى السماء الدنيا » ؛ ونحو هذا من الأحاديث : إن هذه الأحاديث قد رواها الثقات ، فنحن نرويها ونؤمن بها . ولا نفسرها » .

انتهى كلام الكرجى رحمه الله تعالى .

والعجب أن هؤلاء المتكلمين ، إذا احتج عليهم بما فى الآيات والأحاديث من الصفات قال : قالت الحنابلة : إن الله : كذا وكذا ، بما فيه تشنيع وترويج لباطلهم ، والحنابلة اقتفوا أثر السلف ، وساروا بسيرهم ، ووقفوا بوقوفهم ، بخلاف غيرهم والله الموفق .

النوع الثاني

أن هذا الكلام ليس فيه من الحجة والدليل ما يستحق أن يخاطب به أهل العلم . فإن الرد بمجرد الشتم والتهويل لا يعجز عنه أحد . والإنسان لو أنه يناظر المشركين ، وأهل الكتاب : لكان عليه أن يذكر من الحجة ما يبين به الحق الذى معه ، والباطل الذى معهم . فقد قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه

وسلم : (ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ) ،
وقال تعالى : (وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ) .

فلو كان خصم من يتكلم بهذا الكلام - سواء كان المتكلم به أبو الفرج أو غيره ، من أشهر الطوائف بالبدع كالرافضة - لكان ينبغى أن يذكر الحجة ، ويعدل عما لا فائدة فيه ، إذ كان فى مقام الرد عليهم ، دع والمنازعون له — كما ادعاه — هم عند جميع الناس أعلم منه بالأصول والفروع . وهو فى كلامه ورده لم يأت بحجة أصلا ، لا حجة سمعية ، ولا عقلية . وإنما اعتمد تقليد طائفة من أهل الكلام - قد خالفها أكثر منها من أهل الكلام - فقلدهم فيما زعموا أنه حجة عقلية ، كما فعل هذا المعترض .

ومن يرد على الناس بالمعقول إن لم يبين حجة عقلية ، وإلا كان قد أحال الناس على المجهولات ، كمعصوم الرافضة ، وغوث الصوفية .

فأما قوله : « إن مثل هؤلاء لا يحدثون » فيقال له : قد بعث الله الرسل إلى جميع الخلق ليدعوهم إلى الله . فمن الذى أسقط الله مخاطبته من الناس ؟ دع من تعرف أنت وغيرك ممن فضلهم الله ما ليس هذا موضعه . ولو أراد سفيه أن يرد على الراد بمثل رده لم يعجز عن ذلك .

وكذلك قوله : « إنهم يكابرون العقول » . فنقول : المكابرة للعقول ،

إما أن تكون فى إثبات ما أثبتوه ، وإما أن تكون فى تناقضهم بجمع[1] من إثبات هذه الأمور ونفى الجوارح .

أما الأول : فباطل . فإن المجسمة المحضة التى تصرح بالتجسيم المحض ، وتغلو فيه لم يقل أحد قط : إن قولها مكابرة للعقول ، ولا قال أحد : إنهم لا يخاطبون ؛ بل الذين ردوا على غالية المجسمة ـ مثل هشام بن الحكم وشيعته ـ لم يردوا عليهم من الحجج العقلية إلا بحجج تحتاج إلى نظر واستدلال . والمنازع لهم ـ وإن كان مبطلا فى كثير مما يقوله ـ فقد قابلهم بنظير حججهم ، ولم يكونوا عليه بأظهر منه عليهم ، إذ مع كل طائفة حق وباطل .

وإذا كان مثل « أبى الفرج بن الجوزى » إنما يعتمد فى نفى هذه الأمور على ما يذكره نفاة النظار فأولئك لا يكادون يزعمون فى شىء من النفى والاثبات أنه مكابرة للعقول ؛ حتى جاحدوا الصانع الذين هم أجهل الخلق وأضلهم وأكفرهم ، وأعظمهم خلافا للعقول لا يزعم أكثر هؤلاء الذين انتصر بهم أبو الفرج : أن قولهم مكابرة للعقول ، بل يزعمون أن العلم بفساد قولهم إنما يعلم بالنظر والاستدلال .

وهذا القول ـ وإن كان يقوله جل هؤلاء النفاة من أهل الكلام ـ فليس هو طريقة مرضية . لكن المقصود : أن هؤلاء النفاة لا يزعمون أن العلم بفساد

---

(١) كذا بالأصل ولعله بجمعهم بين إثبات .

قول المثبتة معلوم بالضرورة ولا أن قولهم مكابرة للعقل ، وإن شنعوا عليهم بأشياء ينفر عنها كثير من الناس فذاك ليستعينوا بنفرة النافرين على دفعهم ، وإخماد قولهم ؛ لا لأن نفور النافرين عنهم يدل على حق أو باطل ، ولا لأن قولهم مكابرة للعقل ، أو معلوم بضرورة العقل ، أو ببديهته فساده . هذا لم أعلم أحداً من أئمة النفاة أهل النظر يدعيه فى شيء من أقواله المثبتة ، وإن كان فيها من الغلو ما فيها .

ومن المعلوم أن مجرد نفور النافرين ، أو محبة الموافقين لا يدل على صحة قول ولا فساده إلا إذا كان ذلك بهدى من الله ، بل الاستدلال بذلك هو استدلال باتباع الهوى بغير هدى من الله . فإن اتباع الإنسان لما يهواه هو أخذ القول والفعل الذى يحبه ، ورد القول والفعل الذى يبغضه بلا هدى من الله قال تعالى : (وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ) ، وقال : (فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ) وقال تعالى لداود : (وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ) ، وقال تعالى : (فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) ، وقال تعالى : (قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ) ، وقال تعالى : (وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا

ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ) .

فمن اتبع أهواء النـاس بعد العلم الذى بعث الله به رسوله وبعد هدى الله الذى بينه لعبـاده : فهو بهذه المثابة . ولهذا كان السلف يسمون أهل البدع والتفرق ـ المخالفين للكتاب والسنة ـ أهل الأهواء : حيث قبلوا ما أحبوه ، وردوا ما أبغضوه بأهوائهم بغير هدى من الله .

وأما قول المعترض عن أبى الفرج : « وكأنهم يخاطبون الأطفال » فلم تخاطب الحنابلة إلا بمـا ورد عن الله ورسوله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان ، الذين هم أعرف بالله وأحكامه ، وسلمنا لهم أمر الشريعة ، وهم قدوتنا فيما أخبروا عن الله وشرعه . وقد أنصف من أحال عليهم ، وقد شاقق من خرج عن طريقتهم وادعى أن غيرهم أعلم بالله منهم ، أو أنهم علموا وكتموا ، وأنهم لم يفهموا ما أخبروا به ، أو أن عقل غيرهم فى (باب معرفة الله) أتم ، وأكمل ، وأعلم مما نقلوه ، وعقلوه ، وقد قدمنا ما فيه كفاية فى هذا الباب ، والله الموفق .
(وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ) .

قال شيخ الإسلام

رحمه الله وقدس سره :-

فصـــــل

(الأقوال نوعان) : أقوال ثابتة عن الأنبياء ، فهى معصومة ؛ يجب أن يكون معناها حقاً ، عرفه من عرفه وجهـــله من جهله ، والبحث عنها إنمـا هو عمـا أرادته الأنبياء ؛ فمن كان مقصوده معرفة مرادهم من الوجه الذى يعرف مرادهم فقد سلك طريق الهدى ، ومن قصد أن يجعل ما قالوه تبعاً له ؛ فإن وافقه قبله وإلا رده ، وتـكلف له من التحريف ما يسميه تأويلا ، مع أنه يعلم بالضرورة أن كثيراً من ذلك أو أكثره لم ترده الأنبياء ، فهو محرف للكلم عن مواضعه ، لا طالبٌ لمعرفة التأويل الذى يعرفه الراسخون فى العلم .

النوع الثـانى : ماليس منقولا عن الأنبياء ، فمن سواهم ليس معصوما ، فلا يقبل كلامه ولا يرد إلا بعد تصور مراده ، ومعرفة صلاحه من فساده ،

فمن قال من أهل الكلام : إنه لا يفعل الأشياء بالأسباب ؛ بل يفعل عندها لا بها ، ولا يفعل لحكمة ، ولا فى الأفعال المأمور بها ما لأجله كانت حسنة ، ولا المنهى عنها ما لأجله كانت سيئة ، فهذا مخالف لنصوص القرآن والسنة وإجماع الأمة من السلف .

وأول من قاله فى الإسلام جهم بن صفوان الذى أجمعت الأمة على ضلالته ؛ فإنه أول من أنكر الأسباب والطبائع ، كما أنه أول من ظهر عنه القول بنفى الصفات ، وأول من قال بخلق كلام الله وإنكار رؤيته فى الآخرة .

ونصوص الكتاب والسنة فى إبطال هذا كثيرة جداً كقوله : (قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ) فسلب النار طبيعتها . وقوله : (لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا) وقوله : (حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا) فأخبر أن الرياح تقل السحاب أى تحمله فجعل هذا الجماد فاعلا بطبعه . وقال : (ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ) فجعلها فاعلة بطبعها . وقوله : (فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) وهو الكثير المنفعة ، والزوج الصنف .

والأدلة فى ذلك كثيرة ، يخبر فيها أنه يخلق بالأسباب والحكم ، وأخبر أنه قائم بالقسط ، وأنه لا يظلم الناس شيئاً ، فلا يضع شيئاً فى غير موضعه ، ولا يسوى بين مختلفين ، ولا يفرق بين متماثلين ، كما قال : (أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ) الآية . وقال : (أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ) الآية وقال : (أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ)

الآية . وقال : ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ الآية ، وغيرها كثير.

وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ﴾ الآية . فدلت هذه الآية وغيرها : على أن ما أمرهم به هو معروف فى نفسه تعرفه القلوب ، فهو مناسب لهـا مصلح لفسادها ؛ ليس معنى كونه معروفا أنه مأمور به إذ هذا قدر مشترك ، فعلم أن ما يأمر به رسوله مختص ، وما نهى عنه مختص بأنه منكر محذور ، وما يحله مختص بأنه طيب ، وما يحرمه مختص بأنه خبيث ، ومثل هذا كثير فى القرآن وغيره من الكتب ، كالتوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

قال شيخ الإسلام
رحمه الله تعالى :

الاستدال بكون الشيء بدعة على كراهيته : (قاعدة عظيمة عامة) ، وتمامها بالجواب عما يعارضها .

فإن من الناس من يقول : البدع تنقسم إلى قسمين ، لقول عمر : نعمت البدعة ، وبأشياء أحدثت بعده صلى الله عليه وسلم ؛ وليست مكروهة : للأدلة من الإجماع والقياس .

وربما ضم إلى ذلك من لم يحكم أصول العلم ما عليه كثير من الناس من العادة؛ بمنزلة من إذا قيل لهم : (تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ) .

وما أكثر من يحتج به من المنتسبين إلى علم أو عبادة ، بحجج ليست من أصول العلم ، وقد يبدى ذووا العلم له مستنداً من الأدلة الشرعية ؛ والله يعلم أن قوله لها وعمله بها : ليس مستنداً إلى ذلك ؛ وإنما يذكرها دفعاً لمن يناظره .

والمجادلة المحمودة : إنما هي إبداء المدارك التي هي مستند الأقوال والأعمال

وأما إظهار غير ذلك : فنوع من النفاق فى العلم والعمل ، وهذه « قاعدة » دلت عليها السنة والإجماع مع الكتاب ، قال الله تعالى : (أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ) .

فمن ندب إلى شيء يتقرب به إلى الله ، أو أوجبه بقوله أو فعله ، من غير أن يشرعه الله : فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله ، ومن اتبعه فى ذلك : فقد اتخذ شريكا لله شرع فى الدين ما لم يأذن به الله ، وقد يغفر له لأجل تأويل إذا كان مجتهداً : الاجتهاد الذى يعفى معه عن المخطئ ؛ لكن لا يجوز اتباعه فى ذلك كما قال تعالى : (ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ) .

فمن أطاع أحداً فى دين لم يأذن الله به : من تحليل ، أو تحريم، أو استحباب أو إيجاب : فقد لحقه من هذا الذم نصيب ، كما يلحق الآمر الناهى . ثم قد يكون كل منهما معفوا عنه . فيتخلف الذم لفوات شرطه ، أو وجود مانعه . وإن كان المقتضى له قائما ، ويلحق الذم من تبين له الحق ؛ فتركه أو قصر فى طلبه فلم يتبين له ، أو أعرض عن طلبه ، لهوى أو كسل ونحو ذلك .

وأيضاً : فإن الله عاب على المشركين شيئين : —

« أحدهما » : أنهم أشركوا به ما لم ينزل به سلطاناً .

« الثانى » : تحريمهم ما لم يحرمه الله ، كما بينه صلى الله عليه وسلم فى حديث

عياض عن مسلم ، وقال تعالى : (سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٍ) فجمعوا بين الشرك والتحريم ، والشرك يدخل فيه كل عبادة لم يأذن الله بها ، فإن المشركين يزعمون أن عبادتهم إما واجبة ؛ وإما مستحبة : ثم منهم من عبد غير الله ليتقرب به إلى الله ، ومنهم من ابتدع دينا عبد به الله ، كما أحدثت النصارى من العبادات .

وأصل الضلال فى أهل الأرض إنما نشأ من هذين،إما اتخاذ دين لم يشرعه الله ، أو تحريم مالم يحرمه .

ولهذا كان الأصل الذى بنى عليه أحمد وغيره مذاهبهم : أن الأعمال « عبادات وعادات » ؛ فالأصل فى العبادات لا يشرع منهـــا إلا ما شرعه الله ؛ والأصل فى العادات لا يحظر منها إلا ما حظره الله ، وهذه المواسم المحدثة إنما نهى عنها لمـا أحدث فيها من الدين الذى يتقرب به .

سئل شيخ الإسلام

أحمد بن تيمية - قدس الله روحه -

عن رجل قال : —

إذا كان المسلمون مقلدين ، والنصارى مقلدين ، واليهود مقلدين : فكيف وجه الرد على النصارى واليهود ، وإبطال مذهبهم والحالة هذه ؟ وما الدليل القاطع على تحقيق حق المسلمين ، وإبطال باطل الكافرين ؟ .

فأجاب – رضى الله عنه :

الحمد لله : هذا القائل كاذب ضال فى هذا القول ، وذلك أن التقليد المذموم هو قبول قول الغير بغير حجة ، كالذين ذكر الله عنهم أنهم (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا) قال تعالى : (أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) وقال : (إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ) ونظائر هذا فى القرآن كثير .

فمن اتبع دين آبائه وأسلافه لأجل العادة التى تعودها ، وترك اتباع الحق

الذى يجب اتباعه : فهذا هو المقلد المذموم ، وهـــذه حال اليهود والنصارى ؛ بل أهل البدع والأهواء فى هذه الأمة : الذين اتبعوا شيوخهم ورؤساءهم فى غير الحق ، كما قال تعالى: (يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا * وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا * رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا) وقال تعالى : (وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا) إلى قوله : (خَذُولًا) .

وقال تعالى : (إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ) إلى قوله : (وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ) وقال تعالى : (وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ) إلى قوله : (إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ) وأمثال ذلك مما فيه بيان أن من أطاع مخلوقا فى معصية الله : كان له نصيب من هذا الذم والعقاب .

والمطيع للمخلوق فى معصية الله ورسوله : إما أن يتبع الظن ؛ وإما أن يتبع ما يهواه ، وكثير يتبعهما .

وهذه حال كل من عصى رسول الله : من المشركين وأهل الكتاب ؛ من اليهود والنصارى ، ومن أهل البدع والفجور من هذه الأمة ، كما قال تعالى :

(إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ) إلى قوله : (وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ) و « السلطان » هو الكتاب المنزل من عند الله وهو الهدى الذى جاءهم من عند الله كما قال تعالى : (أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ) وقال : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ) إلى قوله : (بِبَٰلِغِيهِ).

وقال لبنى آدم : (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى) إلى قوله : (وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ).

وبيان ذلك : أن الشخص إما أن يبين له أن ما بعث الله به رسوله حق ، ويعدل عن ذلك إلى اتباع هواه ، أو يحسب أن ما هو عليه من ترك ذلك هو الحق ، فهذا متبع للظن ، والأول متبع لهواه[1] اجتماع الأمرين : قال تعالى فى صفة الأولين : (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ) وقال تعالى : (وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ) وقال تعالى : (ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ) إلى قوله : (لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ).

وقال تعالى فى صفة الأخسرين : (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا)

---

(١) بياض بالاصل .

الآية ، وقال : (أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ) .

فالأول : حال المغضوب عليهم الذين يعرفون الحق ولا يتبعونه ، كما هو موجود فى اليهود .

والثانى : حال الذين يعملون بغير علم ، قال تعالى : (وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍ) وقال تعالى : (وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِ) .

وكل من يخالف الرسل هو مقلد متبع لمن لا يجوز له اتباعه ، وكذلك من اتبع الرسول بغير بصيرة ولا تبين ، وهو الذى يسلم بظاهره من غير أن يدخل الإيمان إلى قلبه ، كالذى يقال له فى القبر : ما ربك ؟ وما دينك ؟ وما نبيك ؟ . فيقول : هاه ، هاه ، لا أدرى . سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته ـ هو مقلد ـ فيضرب بمرزبة من حديد ، فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعها الإنسان لصعق ؛ أى لمات .

وقد قال تعالى : (قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ) فمن لم يدخل الإيمان فى قلبه وكان مسلماً فى الظاهر : فهو من المقلدين المذمومين .

فإذا تبين أن المقلد مذموم — وهو من اتبع هوى من لا يجوز اتباعه — كالذى يترك طاعات رسل الله ، ويتبع ساداته وكبرائه ، أو يتبع الرسول ظاهراً

من غير إيمان فى قلبه : تبين أن اليهود والنصارى كلهم مقلدون تقليداً مذموماً ، وكذلك المنافقون من هذه الأمة .

وأما أهل البدع : ففيهم بر وفجور ، وبيان ذلك من وجوه .

أحدها : أن اليهود والنصارى الذين يزعمون أنهم يتبعون موسى وعيسى صلى الله عليهما وسلم : إنما يتبعونهم لأجل أنهم رسل الله ، وما من طريق تثبت بها نبوة موسى وعيسى إلا ومحمد صلى الله عليه وسلم أولى وأحرى .

مثال ذلك : إذا قال اليهود والنصارى : قد ثبت بالنقل المتواتر أن موسى وعيسى مع دعواه النبوة ظهرت على يديه الآيات الدالة على صدقه ، وأنه جاء من الدين والشريعة ما يعلم أنه لم يجئ به مفتر كذاب — ظهرت على يديه الآيات الدالة على صدقه — وإنما يجيء به مع دعوى النبوة نبي صادق . قيل له : كل من هاتين الطريقتين دليل يثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بطريق الأولى .

فإنه من المعلوم أن الذين نقلوا ما دعا إليه محمد صلى الله عليه وسلم من الدين والشريعة ، ونقلوا ما جاء به من الآيات المعجزات : أعظم من الذين نقلوا مثل ذلك عن موسى وعيسى ، وما جاء به من هذين النوعين : أعظم مما جاء به موسى وعيسى ؛ بل من نظر بعقله فى هذا الوقت إلى ما عند المسلمين من العلم النافع ، والعمل الصالح ، وما عند اليهود والنصارى : علم أن بينهما

من الفرق أعظم مما بين العرم والعرق[1] .

فإن الذى عند المسلمين : من توحيد الله ومعرفة أسمائه وصفاته ، وملائكته وأنبيائه ورسله ، ومعرفة اليوم الآخر ، وصفة الجنة والنار ، والثواب والعقاب ، والوعد والوعيد : أعظم وأجل بكثير مما عند اليهود والنصارى . وهذا بين لكل من يبحث عن ذلك .

وما عند المسلمين من العبادات الظاهرة والباطنة : مثل الصلوات الخمس ؛ وغيرها من الصلوات ؛ والأذكار والدعوات : أعظم وأجل مما عند أهل الكتاب . وما عندهم من الشريعة فى المعاملات ، والمناكحات والأحكام والحدود والعقوبات : أعظم وأجل مما عند أهل الكتاب .

فالمسلمون فوقهم فى كل علم نافع ، وعمل صالح ، وهذا يظهر لكل أحد بأدنى نظر ، لا يحتاج إلى كثير سعى .

والمسلمون متفقون على أن كل هدى وخير يحصل لهم : فإنما حصل بنبيهم صلى الله عليه وسلم ؛ فكيف يمكن مع هذا أن يكون موسى وعيسى نبيين ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ليس بنبي ؟ ! وأن اليهود والنصارى على الحق ؟ .

---

(١) هكذا بالأصل .

فماهم عليه من الهدى ودين الحق : أعظم مما عند اليهود والنصارى ؛ وذلك إنما تلقوه من نبيهم .

وهذا القدر يعترف به كل عاقل - من اليهود والنصارى - يعترفون بأن دين المسلمين حق ، وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن من أطاعه منهم دخل الجنة ، بل يعترفون بأن دين الإسلام خير من دينهم ؛ كما أطبقت على ذلك الفلاسفة ، كما قال ابن سينا وغيره : أجمع فلاسفة العالم على أنه لا يقرع العالم ناموس أعظم من هذا الناموس ؛ لكن من لم يتبعه يعلل نفسه بأنه لا يجب عليه اتباعه ؛ لأنه رسول إلى العرب الأميين دون أهل الكتاب ؛ لأنه إن كان دينه حقا فديننا أيضاً حق ، والطريق إلى الله تعالى متنوعة ، ويشبهون ذلك بمذاهب الأئمة ، فإنه وإن كان أحد المذاهب يرجح على الآخر ، فأهل المذاهب الأخر ليسوا كفاراً ولا من أهل الكتاب .

هذه الشبهة التي يضل بها المتكايسون من أهل الكتاب ، والمتفلسفة ونحوهم ، وبطلانها ظاهر ؛ فإنه كما علم علماً ضروريا متواتراً أنه دعا المشركين إلى الإيمان ، فقد علم بمثل ذلك أنه دعا أهل الكتاب إلى الإيمان به ، وأنه جاهد أهل الكتاب كما جاهد المشركين ؛ فجاهد بني قينقاع ، وبني النضير ، وقريظة ، وأهل خيبر ، وهؤلاء كلهم يهود ، وسبى ذريتهم ونساءهم ، وغنم أموالهم ، وأنه غزا النصارى عام تبوك بنفسه وبسراياه ؛ حتى قتل في محاربتهم زيد بن محمد

مولاه الذى كان تبناه ، وجعفر وغيرهما من أهله ، وأنه ضرب الجزية على نصارى نجران .

وكذلك خلفاؤه الراشدون من بعده : جاهدوا أهل الكتاب ، وقاتلوا من قاتلهم ، وضربوا الجزية على من أعطاها منهم عن يدوهم صاغرون .

وهذا القرآن الذى يعرف كل أحد أنه الكتاب الذى جاء به : مملوء من دعوة أهل الكتاب إلى اتباعه ، ويكفر من لم يتبعه منهم ، ويذمه ويلعنه ؛ والوعيد له كما فى تكفير من لم يتبعه من المشركين وذمه ، والوعيد كما قال تعالى : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم) الآية وفى القرآن من قوله يا أهل الكتاب ! يا بنى اسرائيل : ما لا يحصى إلا بكلفة .

وقال تعالى : (لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ) الآية . إلى قوله : (خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ) ومثل هذا فى القرآن كثير جداً . وقد قال تعالى : (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) وقال تعالى : (وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ) .

واستفاض عنه صلى الله عليه وسلم : « فضلت على الأنبياء بخمس » ذكر فيها أنه قال : « كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى النـاس عامة » بل تواتر عنه صلى الله عليه وسلم أنه بعث إلى الجن والإنس ؛ فإذا علم بالاضطرار بالنقل المتواتر ـ الذى تواتر كما تواتر ظهور دعوته ـ أنه دعا أهل الكتاب إلى

الإيمان به ، وأنه حكم بكفر من لم يؤمن به منهم ، وأنه أمر بقتالهم حتى يسلموا ، أو يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون ، وأنه قاتلهم بنفسه وسراياه ، وأنه ضرب الجزية عليهم ، وقتل مقاتلتهم ، وسبي ذراريهم ، وغنم أموالهم . لحاصر بنى قينقاع ، ثم أجلاهم إلى أذرعات ، وحاصر بنى النضير ، ثم أجلاهم إلى خيبر ؛ وفى ذلك أنزل الله سورة الحشر .

ثم حاصر بنى قريظة لما نقضوا العهد ، وقتل رجالهم ، وسبي حريمهم ، وأخذ أموالهم ، وقد ذكره الله تعالى فى سورة الأحزاب ؛ وقاتل أهل خيبر حتى فتحها ، وقتل من قتل من رجالهم ، وسبي من سبي من حريمهم ، وقسم أرضهم بين المؤمنين ، وقد ذكرها الله تعالى فى سورة الفتح ؛ وضرب الجزية على النصارى ، وفيهم أنزل الله سورة آل عمران ؛ وغزا النصارى عام تبوك ، وفيها أنزل الله سورة براءة .

وفى عامة السور المدنية ؛ مثل البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، وغير ذلك من السور المدنية ، من دعوة أهل الكتاب ، وخطابهم ، ما لا تتسع هذه الفتوى لعشره .

ثم خلفاؤه بعده أبو بكر وعمر ، ومن معهما من المهاجرين والأنصار ، الذى يعلم أنهم كانوا أتبع الناس له ، وأطوعهم لأمره ، وأحفظهم لعهده ؛ وقد غزوا الروم كما غزوا فارس ، وقاتلوا أهل الكتاب كما قاتلوا المجوس ، فقاتلوا من قاتلهم ، وضربوا الجزية على من أداها منهم عن يدوهم صاغرون .

ومن الأحاديث الصحيحة عنه قوله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده لا يسمع بى من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ، ثم لا يؤمن بى : إلا دخل النار » .

قال سعيد بن جبير : تصديق ذلك فى كتاب الله تعالى : (وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ) ومعنى الحديث متواتر عنه ، معلوم بالاضطرار ، فإذا كان الأمر كذلك : لزم بأنه رسول الله إلى كل الطوائف ؛ فإنه يقرر بأنه رسول الله إلى أهل الكتاب وغيرهم ؛ فإن رسول الله لا يكذب ، ولا يقاتل الناس على طاعته بغير أمر الله ، ولا يستحل دماءهم ، وأموالهم ، وديارهم بغير إذن الله.

فمن قال : إن الله أمره بذلك وفعله ، ولم يكن الله أمره بذلك : كان كاذبا مفتريا ظالما : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ) وكان مع كونه ظالما مفتريا : من أعظم المريدين علواً فى الأرض وفساداً ، وكان أشر من الملوك الجبابرة الظالمين ؛ فإن الملوك الجبابرة الذين يقاتلون الناس على طاعتهم : لا يقولون إنا رسل الله إليكم ، ومن أطاعنا دخل الجنة ، ومن عصانا دخل النار ؛ بل فرعون وأمثاله لا يدخلون فى مثل هذا ولا يدخل فى هذا إلا نبى صادق ، أو متنبئ كذاب ؛ كمسيلمة والأسود وأمثالهما .

فإذا علم أنه نبى كيف ما كان : لزم أن يكون ما أخبر به عن الله حقا ، وإذا كان رسول الله وجبت طاعته فى كل ما يأمر به ، كما قال تعال : (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ) وإذا أخبر أنه رسول الله إلى أهل الكتاب ،

وأنه تجب عليهم طاعته : كان ذلك حقا ؛ ومن أقر بأنه رسول الله ، وأنكر أن يكون مرسلا إلى أهل الكتاب ، بمنزلة من يقول : إن موسى كان رسولا ، ولم يكن يجب أن يدخل أرض الشام ، ولا يخرج بنى إسرائيل من مصر ، وأن الله لم يأمره بذلك ، وأن الله لم يأمره بالسبت ، ولا أنزل عليه التوراة ، ولا كلمه على الطور ، ومن يقول إن عيسى كان رسول الله ، لم يبعث إلى بنى اسرائيل ، ولا كان يجب على بنى إسرائيل طاعته ، وأنه ظلم اليهود ، وأمثال ذلك من المقالات ، التى هى أكفر المقالات .

ولهذا قال تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ) إلى قوله : (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ) الآية . وقال لبنى إسرائيل : (أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖ) إلى قوله : (وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ) .

فهذه الطريقة الواضحة البينة القاطعة : يبين بها لكل مسلم ويهودى ونصرانى أن دين المسلمين هو الحق ، دون اليهود والنصارى ؛ فإنها مبنية على مقدمتين :—

(إحداهما) : أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ورسالته ، وهدى أمته أبين وأوضح ، تعلم بكل طريق تعلم بها نبوة موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام وزيادة ؛ فلا يمكن القول بأنهما نبيين دونه لأجل ذلك ؛ وإن شاء الرجل استدل على ذلك بنفس الدعوة ، وما جاء به ، وإن شاء بالكتاب الذى بعث به وإن شاء

بما عليه أمته ، وإن شاء بما بعث به من المعجزات ، فكل طريق من هذه الطرق إذا تبين بها نبوة موسى وعيسى : كانت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بها أبين وأكمل .

(والمقدمة الثانية) : أنه أخبر أن رسالته عامة إلى أهل الأرض ، من المشركين وأهل الكتاب ، وأنه لم يكن مرسلا إلى بعض الناس دون بعض ، وهذا أمر معلوم بالضرورة والنقل المتواتر ، والدلائل القطعية .

وأما اليهود والنصارى : فأصل دينهم حق ، كما قال تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) لكن كل من الدينين مبدل منسوخ ؛ فإن اليهود بدلوا وحرفوا ، ثم نسخ بقية شريعتهم بالمسيح صلى الله عليه وسلم .

ونفس الكتب التي بأيدي اليهود والنصارى - مثل نبوة الأنبياء ، وهي أكثر من عشرين نبوة وغيرها - تبين أنهم بدلوا وأن شريعتهم تنسخ ، وتبين صحة رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فإن فيها من الأعلام والدلائل على نبوة خاتم المرسلين : ما قد صنف فيه العلماء مصنفات ، وفيها أيضا من التناقض والاختلاف ما يبين أيضا وقوع التبديل ، وفيها من الأخبار من نحو بعدها ما يبين أنها منسوخة ؛ فعندهم ما يدل على هذه المطالب . وقد ناظرنا غير واحد

من أهل الكتاب وبينالهم ذلك ، وأسلم من علمائهم وخيارهم طوائف ، وصاروا يناظرون أهل دينهم ، ويبينون ما عندهم من الدلائل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ولكن هذه الفتيا لا تحتمل غير ذلك .

وهذا من الحكمة فى إبقاء أهل الكتاب بالجزية ؛ إذ عندهم من الشواهد والدلائل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وعندهم من الشواهد على ما أخبر به من الإيمان بالله واليوم الآخر : ما يبين أن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء بالدين الذى بعثت به الرسل قبله ، وأخبر من توحيد الله وصفاته بمثل ما أخبرت به الأنبياء قبله . قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ﴾ وقوله : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾ .

والنبى صلى الله عليه وسلم لم يشك ولم يسأل ؛ ولكن هذا حكم معلق بشرط ، والمعلق بالشرط يعدم عند عدمه ، وفى ذلك سعة لمن شك ، أو أراد أن يحتج ، أو يزداد يقينا .

فصـــــل

فهذه الطريقة بينة فى مناظرة أهل الكتاب ، وأما إن كان المخاطب لا يقر بنبوة نبي من الأنبياء ، لا موسى ، ولا عيسى ، ولا غيرهما : فللمخاطبة طرق

منها : أن نسلك فى الكلام بين أهل الملل وغيرهم - من المشركين والصابئين والمتفلسفة والبراهمة وغيرهم - نظير الكلام بين المسلمين وأهل الكتاب .

فنقول : من المعلوم لكل عاقل له أدنى نظر وتأمل : أن أهل الملل أكمل فى العلوم النافعة ، والأعمال الصالحة ؛ ممن ليس من أهل الملل ؛ فما من خير يوجد عند غير المسلمين من أهل الملل : إلا عند المسلمين ما هو أكمل منه ، وعند أهل الملل ما لا يوجد عند غيرهم ، وذلك أن العلوم والأعمال نوعان :-

(نوع) يحصل بالعقل : كعلم الحساب والطب ، وكالصناعة من الحياكة والخياطة والتجارة ونحو ذلك . فهذه الأمور عند أهل الملل كما هى عند غيرهم ؛ بل هم فيها أكمل ، فإن علوم المتفلسفة - من علوم المنطق والطبيعة والهيئة ، وغير ذلك - من متفلسفة الهند واليونان ، وعلوم فارس والروم ؛ لما صارت إلى المسلمين : هذبوها ونقحوها ؛ لكمال عقولهم ، وحسن ألسنتهم ، وكان

كلامهم فيها أتم وأجمع وأبين ، وهذا يعرفه كل عاقل وفاضل ؛ وأما مالا يعلم بمجرد العقل كالعلوم الإلهية ، وعلوم الديانات : فهذه مختصة بأهل الملل ، وهذه منها ما يمكن أن يقام عليه أدلة عقلية ؛ فالآيات الكتابية مستنبطة من الرسالة . فالرسل هدوا الخلق وأرشدوهم إلى دلالة العقول عليها ، فهى عقلية شرعية ، فليس لمخالف الرسول أن يقول هذه لم تعلم إلا بخبرهم ؛ فإثبات خبرهم بها دور ؛ بل يقال بعد التهم وإرشادهم ، وتبيينهم للمعقول : صارت معلومة بالعقل والأمثال المضروبة ، والأقيسة العقلية .

وبهذه العلوم : يعلم صحة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبطلان قول من خالفوه .

(النوع الثانى) : ما لا يعلم إلا بخبر الرسل ، فهذا يعلم بوجوه : —

منها : اتفاق الرسل على الإخبار به من غير تواطؤ ولا اتفاق بينهم ، فإن المخبر إما أن يكون صادقاً خبره مطابقاً لمخبره ، وإما أن لا يكون ، وإذا لم يكن خبره مطابقاً لمخبره : فإما أن يكون متعمداً للكذب ، وإما أن يكون مخطئاً ، فإذا قدر عدم الخطأ والتعمد : كان خبره صدقاً لا محالة .

ومعلوم أنه إذا أخبر واحد عن علوم طويلة فيها تفاصيل كثيرة : لا يمكن فى العادة خطؤهم ، وأخبر غيره قبل ذلك مع الجزم بأنهما لم يتواطئا ، ولا يمكن أن يقال إنه يمكن الكذب فى مثل ذلك : أفاد خبرهما العلم ، وإن لم يعلم

حالهما ، فلو ناجى رجلا بحضرة رجال وحدث بحديث طويل ، فيه أسرار تتعلق به فى رجل بتلك الأمور الأسرار . ثم جاء آخر قد علمنا أنه لم يتفق مع المخبر الأول ، فأخبر عن تلك المناجاة والأسرار مثل ما أخبر به الأول : جزمنا قطعاً بصدقهما .

ومعلوم أن موسى أخبر بما أخبر به قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، وقبل أن يبعث المسيح .

ومعلوم أيضاً لكل من كان عالماً بحال محمد صلى الله عليه وسلم : أنه نشأ بين قوم أميين ، لا يقرءون كتاباً ولا يعلمون علوم الأنبياء ، وأنه لم يكن عندهم من يعلم ما فى التوراة والإنجيل ، ونبوة الأنبياء .

وقد أخبر محمد صلى الله عليه وسلم من توحيد الله وصفاته ، وأسمائه وملائكته وعرشه وكرسيه ، وأنبيائه ورسله ، وأخبارهم وأخبار مكذبيهم : بنظير ما يوجد فى كتب الأنبياء ، من التوراة وغيرها .

فمن تدبر التوراة والقرآن : علم أنهما جميعاً يخرجان من مشكاة واحدة ، كما ذكر ذلك النجاشى ، وكما قال ورقة بن نوفل : هذا هو الناموس الذى كان يأتى موسى .

ولهذا قرن الله تعالى بين التوراة والقرآن فى مثل هذا فى قوله : (لَوْلَآ

أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ) الى قوله :
(إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) وقالت الجن : (إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) الآية . وقال : (أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ
وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً) وقال : (وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ)
إلى قوله : (وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) .

فهذه الطريقة : كل من علم ما جاء به موسى والنبيون قبله وبعده ، وما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم : علم علماً يقيناً أنهم كلهم مخبرون عن الله ، صادقون فى الإخبار ، وأنه يمتنع — والعياذ بالله — خلاف الصدق من خطأ وكذب .

ومن الطرق : الطرق الواضحة القاطعة المعلومة إلى قيام الساعة بالتواتر من أحوال أتباع الأنبياء ، وأحوال من كذبهم وكفربهم ،حال نوح وقومه ، وهود وقومه ، وصالح وقومه ، وحال إبراهيم وقومه ، وحال موسى وفرعون ، وحال محمد صلى الله عليه وسلم وقومه .

وهذا الطريق قد بينها الله فى غير موضع من كتابه كقوله : (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ) الى قوله : (فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ) وقال :
(وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ *

وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ) إلى قوله : (فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ) إلى قوله : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا) وقوله (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) وقال (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) .

فبين أنه تارك آثار القوم المعذبين للمشاهدة ، ويستدل بذلك على عقوبة الله لهم ، وقال تعالى : (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ) الآيتين . فذكر طريقتين يعلم بهما ذلك .

(أحدهما) : ما يعاين ويعقل بالقلوب .

(والثانى) : ما يسمع . فإنه قد تواتر عند كل أحد حال الأنبياء ، ومصدقهم ومكذبهم ، وعاينوا من آثارهم ما دل على أنه سبحانه عاقب مكذبهم وانتقم منه ، وأنهم كانوا على الحق الذى يحبه ويرضاه ، وأن من كذبهم كان على الباطل الذى يغضب الله على أهله ، وأن طاعة الرسل طاعة لله ، ومعصيتهم معصية لله .

ومن الطرق أيضاً أن يعلم ما تواتر من معجزاتهم الباهرة ، وآياتهم القاهرة ، وأنه يمتنع أن تكون المعجزة على يد مدعى النبوة وهو كذاب ، من غير تناقض ، ولا تعارض ، كما هو مبسوط ؛ فى غير هذا الموضع .

ومن الطرق أن الرسل جاءوا من العلوم النافعة ، والأعمال الصالحة بما هو معلوم عند كل عاقل لبيب ، ولا ينكره إلا جاهل غاو .

وهذه الفتيا لا تسع البسط الكثير ، فإذا تبين صدقهم وجب التصديق فى كل ما أخبروا به . ووجب الحكم بكفر من آمن ببعض وكفر ببعض . والله سبحانه وتعالى أعلم . والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

سئل شيخ الإسلام
أبو العباس بن تيمية ـ قدس الله روحه :ـ

عن « الروح » هل هى قديمة ، أو مخلوقة ؟ وهل يبدع من يقول بقدمها أم لا ؟ وما قول أهل السنة فيها وما المراد بقوله عز وجل : (قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي)؟ هل المفوض إلى الله تعالى أمر ذاتها ، أو صفاتها ، أو مجموعهما ؟ بينوا ذلك من الكتاب والسنة .

فأجاب رضي الله عنه :ـ

الحمد لله رب العالمين . روح الآدمى مخلوقة ، مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة ، وقد حكى إجماع العلماء على أنها مخلوقة غير واحد من أئمة المسلمين ، مثل « محمد بن نصر المروزى » الإمام المشهور ، الذى هو أعلم أهل زمانه بالإجماع والاختلاف ، أو من أعلمهم .

وكذلك « أبو محمد بن قتيبة » قال فى « كتاب اللقط » لمـا تكلم على خلق الروح قال : النسم الأرواح . قال : وأجمع الناس على أن الله خالق الجثة ،

وبارئ النسمة أى خالق الروح . وقال أبو إسحاق بن شاقلا فيما أجاب به فى هذه المسألة ، سألت رحمك الله عن الروح مخلوقة أو غير مخلوقة ، قال : هذا مما لا يشك فيه من وفق للصواب ، إلى أن قال : والروح من الأشياء المخلوقة ، وقد تكلم فى هذه المسألة طوائف من أكابر العلماء والمشايخ ، وردوا على من يزعم أنها غير مخلوقة .

وصنف الحافظ أبو عبد الله بن منده فى ذلك كتاباً كبيراً فى « الروح والنفس » وذكر فيه من الأحاديث والآثار شيئاً كثيراً ؛ وقبله الإمام محمد بن نصر المروزى وغيره ، والشيخ أبو يعقوب الخراز ، وأبو يعقوب النهرجورى ، والقاضى أبو يعلى ، وغيرهم ؛ وقد نص على ذلك الأئمة الكبار ، واشتد نكيرهم على من يقول ذلك فى روح عيسى بن مريم ، لا سيما فى روح غيره كما ذكره أحمد فى كتابه فى الرد على « الزنادقة والجهمية » فقال فى أوله :

الحمد لله الذى جعل فى كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى ، يحيون بكتاب الله الموتى ، ويبصرون بنور الله أهل العمى ؛ فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ! وكم من ضال تائه قد هدوه ! فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم ! ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، الذين عقدوا ألوية البدعة ، وأطلقوا عقال الفتنة ؛ فهم مختلفون فى الكتاب ؛ مخالفون للكتاب ؛ متفقون على مخالفة الكتاب ؛ يقولون على الله ؛ وفى الله ؛ وفى كتاب

الله بغير علم ، يتكلمون بالمتشابه من الكلام ، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم ، فنعوذ بالله من فتن المضلين ، وتكلم على ما يقال : إنه متعارض من القرآن إلى أن قال : « وكذلك الجهم وشيعته ، دعوا الناس إلى المتشابه من القرآن والحديث ، وأضلوا بشراً كثيرا فكان مما بلغنا من أمر الجهم عدو الله : أنه كان من أهل خراسان من أهل الترمذ ، وكان صاحب خصومات وكلام ، كان أكثر كلامه فى الله ، فلقى أناساً من المشركين يقال لهم (السمنية) فعرفوا الجهم فقالوا له نكلمك فإن ظهرت حجتنا عليك دخلت فى ديننا ، وإن ظهرت حجتك علينا : دخلنا فى دينك .

فكان مما كلموا به الجهم أن قالوا : ألست تزعم أن لك إلها ؟ قال الجهم : نعم : فقالوا له : فهل رأيت إلهك ؟ قال : لا . قالوا : فهل سمعت كلامه ؟ قال : لا . قالوا : فهل شممت له رائحة ؟ قال : لا . قالوا له : فوجدت له مجساً ؟ قال : لا . قالوا : فما يدريك أنه إله ؟ قال : فتحير الجهم ، فلم يدر من يعبد أربعين يوما ، ثم إنه استدرك حجة مثل حجة زنادقة النصارى وذلك أن زنادقة النصارى يزعمون أن الروح الذى فى عيسى هو روح الله ، من ذاته ، فإذا أراد أن يحدث أمراً دخل فى بعض خلقه ، فتكلم على لسان خلقه ، فيأمر بما شاء ، وينهى عما شاء ، وهو روح غائب عن الأبصار .

فاستدرك الجهم حجة مثل هذه الحجة ، فقال للسمنى : ألست تزعم أن فيك روحا ؟ قال نعم . قال : فهل رأيت روحك ؟ قال : لا . قال : فهل سمعت

كلامه ؟ قال : لا . قال : فوجدت له حساً ومجساً ؟ قال : لا . قال : كذلك الله ، لا يرى له وجه ، ولا يسمع له صوت ، ولا يشم له رائحة ، وهو غائب عن الأبصار ، ولا يكون فى مكان دون مكان.

وساق الإمام أحمد الكلام فى « القرآن » و « الرؤية » وغير ذلك ، إلى أن قال : ثم إن الجهم ادعى أمراً ، فقال : إنا وجدنا آية فى كتاب الله تدل على القرآن أنه مخلوق ، فقلنا : أى آية ؟ قال : قول الله : (إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ) وعيسى مخلوق .

فقلنا إن الله منعك الفهم فى القرآن ، عيسى تجرى عليه ألفاظ لا تجرى على القرآن ، لأنه يسميه مولودا ، وطفلا ، وصبيا ، وغلاما ، يأكل ويشرب ، وهو مخاطب بالأمر والنهى ، يجرى عليه الوعد والوعيد ، ثم هو من ذرية نوح ومن ذرية إبراهيم ، ولا يحل لنا أن نقول فى القرآن ما نقول فى عيسى ، هل سمعتم الله يقول فى القرآن ما قال فى عيسى ؟ ولكن المعنى فى قول الله : (إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ) فالكلمة التى ألقاها إلى مريم حين قال له : كن ، فكان عيسى بكن ، وليس عيسى هو الكن ، ولكن بالكن كان ، فالكن من الله قول ، وليس الكن مخلوقا .

وكذب النصارى والجهمية على الله فى أمر عيسى ، وذلك أن الجهمية قالوا : عيسى روح الله وكلمته ، إلا أن الكلمة مخلوقة ، وقالت النصارى :

عيسى روح الله من ذات الله ، وكلمة الله من ذات الله ، كما يقال : إن هذه الخرقة من هذا الثوب .

وقلنا نحن : إن عيسى بالكلمة كان ، وليس هو الكلمة . قال : وقول الله : وروح منه يقول من أمره كان الروح فيه ، كقوله : (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ) ، يقول من أمره ، وتفسير روح الله : أنها روح بكلمة الله ، خلقها الله ، كما يقال : عبد الله ، وسماء الله ، فقد ذكر الإمام أحمد : أن زنادقة النصارى هم الذين يقولون : إن روح عيسى من ذات الله ، وبين أن إضافة الروح إليه إضافة ملك وخلق، كقولك : عبدالله ، وسماء الله، لا إضافة صفة إلى موصوف ، فكيف بأرواح سائر الآدميين ؟ وبين أن هؤلاء الزنادقة الحلولية يقولون بأن الله إذا أراد أن يحدث أمراً دخل فى بعض خلقه .

وقال الشيخ أبو سعيد الخراز ، أحد أكابر المشايخ الأئمة من أقران الجنيد ، فيما صنفه فى أن الأرواح مخلوقة ، وقد احتج بأمور منها : لو لم تكن مخلوقة لما أقرت بالربوبية . وقد قال لهم حين أخذ الميثاق ـ وهم أرواح فى أشباح : كالذر ـ (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ) وإنما خاطب الروح مع الجسد ، وهل يكون الرب إلا لمربوب ؟ قال : ولأنهـــا لو لم تكن مخلوقة ما كان على النصارى لوم فى عبادتهم عيسى ، ولا حين قالوا : إنه ابن الله ، وقالوا : هو الله .

قال : ولأنه لو كان الروح غير مخلوق ما دخلت النار ، ولأنها لو كانت غير مخلوقة لما حجبت عن الله ، ولا غيبت فى البدن ولا ملكها ملك الموت ، ولما كانت صورة توصف ؛ ولأنها لو لم تكن مخلوقة لم تحاسب ولم تعذب ، ولم تتعبد ولم تخف ، ولم ترج . ولأن أرواح المؤمنين تتلألأ وأرواح الكفار سود مثل الحمم .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر ترتع فى الجنة ، وتأوى فى فناء العرش . وأرواح الكفار فى برهوت » .

وقال الشيخ أبو يعقوب النهرجورى : هذه الأرواح من أمر الله مخلوقة . خلقها الله من الملكوت ، كما خلق آدم من التراب ، وكل عبد نسب روحه إلى ذات الله أخرجه ذلك إلى التعطيل ، والذين نسبوا الأرواح إلى ذات الله هم أهل الحلول الخارجون إلى الإباحة ، وقالوا إذا صفت أرواحنا من أكدار نفوسنا فقد اتصلنا ؛ وصرنا أحراراً ، ووضعت عنا العبودية ، وأبيح لنا كل شيء من اللذات من النساء ، والأموال وغير ذلك . وهم زنادقة هذه الأمة وذكر عدة مقالات لها وللزنادقة .

قلت : واعلم أن القائلين بقدم الروح صنفان :

(صنف) من الصابئة الفلاسفة ، يقولون : هى قديمة أزلية لكن ليست من

ذات الرب ، كما يقولون ذلك : فى العقول ، والنفوس الفلكية ، ويزعم من دخل من أهل الملل فيهم أنها هى الملائكة .

(وصنف) من زنادقة هذه الأمة وضلالها ـ من المتصوفة والمتكلمة والمحدثة يزعمون أنها من ذات الله ، وهؤلاء أشر قولا من أولئك ، وهؤلاء جعلوا الآدمى نصفين : نصف لاهوت ، وهو روحه . ونصف ناسوت ، وهو جسده : نصفه رب ونصفه عبد .

وقد كفر الله النصارى بنحو من هذا القول فى المسيح ، فكيف بمن يعم ذلك فى كل أحد ؟ حتى فى فرعون : وهامان ، وقارون ! وكلما دل على أن الإنسان عبد مخلوق مربوب ، وأن الله ربه وخالقه ومالكه وإلهه ، فهو يدل على أن روحه مخلوقة .

فإن الإنسان عبارة عن البدن والروح معاً ، بل هو بالروح أخص منه بالبدن ، وإنما البدن مطية للروح ، كما قال أبو الدرداء . إنما بدنى مطيتى ، فإن رفقت بها بلغتنى ، وإن لم أرفق بها لم تبلغنى . وقد رواه ابن منده وغيره عن ابن عباس قال : لا تزال الخصومة يوم القيامة بين الخلق حتى تختصم الروح والبدن ، فتقول الروح للبدن : أنت عملت السيئات : فيقول البدن للروح : أنت أمرتنى ، فيبعث الله ملكا يقضى بينهما ، فيقول : إنما مثلكما كمثل مقعد وأعمى دخلا بستانا ، فرأى المقعد فيه ثمراً معلقاً ، فقال للأعمى : إنى أرى ثمراً ولكن

لا أستطيع النهوض إليه ، وقال الأعمى : لكنى أستطيع النهوض إليه ولكنى لا أراه ؛ فقال له المقعد : تعال فاحملنى حتى أقطفه ؛ فحمله وجعل يأمره فيسير به إلى حيث يشاء فقطع الثمرة ؛ قال « الملك » : فعلى أيهما العقوبة ؟ فقالا عليهما جميعاً قال فكذلك أنتما .

وأيضاً فقد استفاضت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم بأن الأرواح تقبض ، وتنعم وتعذب ، ويقال لها : اخرجى أيتها الروح الطيبة كانت فى الجسد الطيب : اخرجى أيتها الروح الخبيثة ، كانت فى الجسد الخبيث ، ويقال للأولى أبشرى بروح وريحان ، ويقال للثانية : أبشرى بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج . وأن أرواح المؤمنين تعرج إلى السماء ، وأن أرواح الكفار لا تفتح لها أبواب السماء .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن شقيق عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : «إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها ، قال حماد فذكر من طيب ريحها وذكر المسك ؛ قال فيقول أهل السماء : روح طيبة جاءت من قبل الأرض صلى الله عليك ، وعلى جسد كنت تعمرينه ؛ فينطلق به إلى ربه ؛ ثم يقول : انطلقوا به إلى آخر الأجل ؛ قال : وإن الكافر إذا خرجت روحه قال حماد وذكر من نتنها وذكر لعناً ، فيقول أهل السماء : روح خبيثة جاءت من قبل الأرض ، قال فيقال : انطلقوا به إلى آخر الأجل . قال أبو هريرة رضى الله عنه فلما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم النتن رد على أنفه ريطة كانت عليه .

وفى حديث المعراج الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى آدم ، وأرواح بنيه عن يمينه وشماله ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلما علونا السماء فإذا رجل عن يمينه أسودة ، وعن شماله أسودة ، قال فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى ، قال : مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح ، قال قلت : ياجبريل ! من هذا ؟ قال : هذا آدم صلى الله عليه وسلم ، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسم بنيه ، فأهل اليمين أهل الجنة ، والأسودة التى عن شماله أهل النار ، فإذا نظر قبل يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى .

وقد ثبت أيضاً أن أرواح المؤمنين والشهداء وغيرهم فى الجنة ، قال الإمام أحمد فى رواية حنبل أرواح الكفار فى النار ، وأرواح المؤمنين فى الجنة ، والأبدان فى الدنيا ، يعذب الله من يشاء ، ويرحم بعفوه من يشاء ، وقال عبد الله بن أحمد : سألت أبى عن أرواح الموتى : أتكون فى أفنية قبورها ؟ أم فى حواصل طير ؟ أم تموت كما تموت الأجساد ؟ فقال قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه قال : « نسمة المؤمن إذا مات طائر تعلق فى شجر الجنة ، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه » .

وقد روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال : أرواح المؤمنين فى أجواف طير خضر كالزرازير ، يتعارفون فيها ويرزقون من ثمرها ، قال : وقال بعض الناس : أرواح الشهداء فى أجواف طير خضر ، تأوى إلى قناديل فى الجنة معلقة بالعرش.

وقد روى مسلم فى صحيحه عن مسروق قال : سألنا عبد الله — يعنى ابن

مسعود — عن هذه الآية : (وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ) ، فقال : أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن أرواحهم فى جوف طير خضر ، لهـا قناديل معلقة بالعرش ، تسرح فى الجنة حيث تشاء ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ فقالوا : أى شيء نشتهى ونحن نسرح فى الجنة حيث نشاء ؟ — ففعل بهم ذلك ثلاث مرات — فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا : يارب نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا » .

وقد قال الله تعالى : (يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ * ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً * فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي * وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي) ، فخاطبها بالرجوع إلى ربهـا ، وبالدخول فى عباده ودخول جنته ، وهذا تصريح بأنها مربوبة . والنفس هنـا هى الروح التى تقبض ، وإنما تتنوع صفاتها ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح ـ لمـا ناموا عن صلاة الفجر فى السفر ـ قال : « إن الله قبض أرواحنا حيث شاء ، وردها حيث شاء ـ وفى رواية ـ قبض أنفسنا حيث شاء » وقال تعالى : (ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ) والمقبوض المتوفى هى الروح ، كما فى صحيح مسلم عن أم سلمة قالت : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على أبى سلمة وقد شق بصره ، فأغمضه ، ثم قال : « إن الروح إذا قبض تبعه البصر فضج ناس من أهله فقال :

لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير ، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون ، ثم قال : «اللهم اغفر لأبى سلمة وارفع درجته فى المهديين ، واخلفه فى عقبه فى الغابرين، واغفر لنا وله يارب العالمين وافسح له فى قبره ، ونور له فيه».

وروى مسلم أيضاً عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ألم تروا أن الإنسان إذا مات شخص بصره »! قالوا : بلى . قال : «فكذلك حين يتبع بصره نفسه» فسماه تارة روحاً ، وتارة نفساً .

وروى أحمد بن حنبل ، وابن ماجة . عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا حضرتم موتاكم فاغمضوا البصر ؛ فإن البصر يتبع الروح ، وقولوا خيراً ، فإنه يؤمن على ما يقول أهل الميت» .

ودلائل هذا الأصل وبيان مسمى« الروح والنفس» وما فيه من الاشتراك كثير لا يحتمله هذا الجواب ، وقد بسطناه فى غير هذا الموضع .

فقد بان بما ذكرناه أن من قال : إن أرواح بنى آدم قديمة غير مخلوقة ، فهو من أعظم أهل البدع الحلولية ، الذين يجر قولهم إلى التعطيل ، بجعل العبد هو الرب وغير ذلك من البدع الكاذبة المضلة .

وأما قوله تعالى : (قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي) فقد قيل إن الروح هنا ليس هو روح الآدمى ، وإنما هو ملك فى قوله[1] (يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗا)

(١) نسخة أو ما ذكر في قوله يوم يقوم الروح الخ .

وقوله : (تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ) وقوله : (تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم) . وقيل : بل هو روح الآدمى ، والقولان مشهوران ، وسواء كانت الآية تعمهما ، أو تتناول أحدهما ، فليس فيها مايدل على أن الروح غير مخلوقة لوجهين :

أحدهما أن الأمر فى القرآن يراد به المصدر تارة ، ويراد به المفعول تارة أخرى وهو المأمور به ؛ كقوله تعالى : (أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) ، وقوله : (وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا) وهـذا فى لفظ غير الأمر ؛ كلفظ الخلق والقدرة والرحمة والكلمة وغير ذلك . ولو قيل إن الروح بعض أمر الله أو جزء من أمر الله . ونحو ذلك مما هو صريح فى أنها بعض أمر الله ؛ لم يكن المراد بلفظ الأمر إلا المأمور به لا المصدر ؛ لأن الروح عين قائمة بنفسها ؛ تذهب وتجئ وتنعم وتعذب ، وهذا لا يتصور أن يكون مسمى مصدر أمر يأمر أمراً . وهذا قول سلف الأمة وأئمتها وجمهورها .

ومن قال من المتكلمين إن الروح عرض قائم بالجسم ؛ فليس عنده مصدر أمر يأمر أمراً .

والقرآن إذا سمى أمر الله فالقرآن كلام « الله » والكلام اسم مصدر كلم يكلم تكليما وكلاماً ، وتكلم تكلماً وكلاماً . فإذا سمى أمراً بمعنى المصدر كان ذلك مطابقاً ، لا سيما والكلام نوعان : أمر وخبر .

أما الأعيان القائمة بأنفسها فلا تسمى أمراً لا بمعنى المفعول به وهو المأمور به كما سمى المسيح كلمة لأنه مفعول بالكلمة، وكما يسمى المقدور قدرة والجنة رحمة ، والمطر رحمة ، فى مثل قوله : (فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ) ، وفى قول النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه أنه قال للجنة : « أنت رحمتى أرحم بك من شئت » ، وقوله : إن الله خلق الرحمة - يوم خلقها - مائة رحمة ، ونظائر ذلك كثيرة ، وهذا جواب أبى سعيد الخراز ، قال : فإن قيل : قد قال تعالى : (قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى) وأمره منه قيل أمره تعالى هو المأمور به المكون بتكوين المكون له .

وكذلك قال ابن قتيبة فى (كتاب المشكل) : أقسام الروح ، فقال : هى روح الأجسام التى يقبضها الله عند الممات ، والروح جبريل . قال تعالى : (نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ) ، وقال : (وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ) : أى جبريل . والروح فيما ذكره المفسرون ملك عظيم من ملائكة الله تعالى ، يقوم وحده فيكون صفا ، وتقوم الملائكة صفاً ، وقال تعالى : (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى) ، قال : ونسب الروح إلى الله لأنه بأمره ، أو لأنه بكلمته .

والوجه الثانى : أن لفظة (من) فى اللغة قد تكون لبيان الجنس ، كقولهم . باب من حديد . وقد تكون لابتداء الغاية ، كقولهم . خرجت من مكة فقوله تعالى . (قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى) ليس نصاً فى أن الروح بعض الأمر ، ومن

جنسه ، بل قد تكون لابتداء الغاية إذ كونت بالأمر ، وصدرت عنه ، وهذا معنى جواب الإمام أحمد فى قوله . وروح منه حيث قال : (وَرُوحٌ مِّنْهُ) يقول : من أمره كان الروح منه كقوله : (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ) ، ونظير هذا أيضاً قوله . (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ) .

فإذا كانت المسخرات والنعم من الله ، ولم تكن بعض ذاته بل منه صدرت ، لم يجب أن يكون معنى قوله فى المسيح . روح منه . أنها بعض ذات الله . ومعلوم أن قوله : (روح منه) أبلغ من قوله : (ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) فإذا كان قوله وروح منه لا يمنع أن يكون مخلوقاً ، ولا يوجب أن يكون بعضاً له ، فقوله : (ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) أولى بأن لا يمنع أن يكون مخلوقاً ولا يوجب أن يكون ذلك بعضاً له بل ولا بعضاً من أمره .

وهذا الوجه يتوجه إذا كان الأمر هو الأمر الذى هو صفة من صفات الله ، فهذان الجوابان كل منهما مستقل ، ويمكن أن يجعل منهما جواب مركب ، فيقال : قوله : (ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) إما أن يراد بالأمر المأمور به ، أو صفة لله تعالى ، وإن أريد به الأول أمكن أن تكون الروح بعض ذلك ، فتكون مخلوقة . وإن أريد بالأمر صفة (الله) كان قوله الروح من أمر ربى كقوله وروح منه ، وقوله : جميعاً منه ونحو ذلك .

وإنما نشأت الشبهة حيث ظن الظان أن الأمر صفة لله قديمة ، وأن روح

بنى آدم بعض تلك الصفة ، ولم تدل الآية على واحد من المقدمتين ، والله سبحانه أعلم .

وقد يجىء اسم الروح فى القرآن بمعنى آخر ، كقوله : (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا) وقوله : (كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ) ، ونحو ذلك . فالقرآن الذى أنزله الله كلامه ولكن ليس الكلام فى هذا مما يتعلق بالسؤال .

وأما قول السائل هل المفوض إلى الله أمر ذاتها أو صفاتها أو مجموعهما ؟ فليس هذا من خصائص الكلام فى الروح ؛ بل لا يجوز لأحد أن يقفو ما ليس له به علم ، ولا يقول على الله ما لا يعلم . قال تعالى : (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا) . وقال تعالى : (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) وقال تعالى: (أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ) وقد قالت الملائكة لما قال لهم : (أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ) وقد قال موسى للخضر : (هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا) وقال الخضر لموسى لما نقر العصفور فى البحر : ما نقص علمى وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر .

وليس فى الكتاب والسنة أن المسلمين نهوا أن يتكلموا فى الروح بما دل عليه الكتاب والسنةلا فى ذاتها ولا فى صفاتها ، وأما الكلام بغير علم فذلك محرم فى كل شيء ، ولكن قد ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم كان فى بعض سكك المدينة ، فقال بعضهم . سلوه عن الروح . وقال بعضهم لا تسألوه فيسمعكم ما تكرهون ، قال فسألوه وهو متكئ على العسيب ، فأنزل الله هذه الآية .

فبين بذلك أن ملك الرب عظيم ، وجنوده ، وصفة ذلك ، وقدرته أعظم من أن يحيط به الآدميون ، وهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلا فلا يظن من يدعى العلم أنه يمكنه أن يعلم كل ما سئل عنه ولا كل ما فى الوجود ، فما يعلم جنود ربك إلا هو .

سئل الشيخ رحمه الله :

عن قائل يقول : إن لم يتبين لى حقيقة ماهية الجن وكنه صفاتهم ; وإلا فلا أتبع العلماء فى شىء .

فأجاب :

أما كونه لم يتبين له كيفية الجن وماهياتهم ; فهذا ليس فيه إلا إخباره بعدم علمه لم ينكر وجودهم ; إذ وجودهم ثابت بطرق كثيرة غير دلالة الكتاب والسنة فإن من الناس من رآهم ، وفيهم من رأى من رآهم ، وثبت ذلك عنده بالخبر واليقين .

ومن الناس من كلمهم وكلموه ، ومن الناس من يأمرهم وينهاهم ويتصرف فيهم : وهذا يكون للصالحين وغير الصالحين ، ولو ذكرت ما جرى لى ولأصحابى معهم : لطال الخطاب .

وكذلك ما جرى لغيرنا ; لكن الاعتماد على الأجوبة العلمية يكون على ما يشترك الناس فى علمه . لا يكون بما يختص بعلمه المجيب ، إلا أن يكون الجواب لمن يصدقه فيما يخبر به .

سئل الشيخ رحمه الله :

عن الجان المؤمنين : هل هم مخاطبون « بفروع الإسلام » كالصوم ، والصلاة ، وغير ذلك من العبادات ؟ أوهم مخاطبون بنفس التصديق لا غير ؟

فأجاب :

لا ريب أنهم مأمورون بأعمال زائدة على التصديق ، ومنهيون عن أعمال غير التكذيب ، فهم مأمورون بالأصول والفروع بحسبهم ، فإنهم ليسوا مماثلى الإنس فى الحد والحقيقة ، فلا يكون ما أمروا به ونهوا عنه مساويا لما على الإنس فى الحد ، لكنهم مشاركون الإنس فى جنس التكليف بالأمر والنهى ، والتحليل والتحريم . وهذا ما لم أعلم فيه نزاعاً بين المسلمين .

وكذلك لم يتنازعوا أن أهل الكفر والفسوق والعصيان منهم يستحقون لعذاب النار ، كما يدخلها من الآدميين ، لكن تنازعوا فى أهل الإيمان منهم ؛ فذهب الجمهور من أصحاب مالك والشافعى وأحمد وأبى يوسف ومحمد : إلى أنهم يدخلون الجنة . وروى فى حديث رواه الطبرانى « أنهم يكونون فى ربض الجنة. يراهم الإنس من حيث لا يرونهم » .

وذهب طائفة منهم أبو حنيفة - فيما نقل عنه - إلى أن المطيعين منهم يصيرون ترابا كالبهائم ، ويكون ثوابهم النجاة من النار .

وهل فيهم رسل أم ليس فيهم إلا نذر؟ على قولين :

فقيل : فيهم رسل لقوله تعالى : (يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) .

وقيل : الرسل من الإنس ، والجن فيهم النذر ، وهذا أشهر ، فإنه أخبر عنهم باتباع دين محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنهم (وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ) الآية قالوا وقوله : (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) كقوله : (يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ) وإنما يخرج من المالح ، وكقوله : (وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا) والقمر فى واحدة.

وأما التكليف بالأمر والنهى والتحليل والتحريم : فدلائله كثيرة ، مثل ما فى مسلم عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أتانى داعى الجن ، فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن، فانطلقوا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ، وسألوه الزاد فقال : لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم ، أوفر ما يكون ، وكل بعرة علف لدوابكم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تستنجوا بالعظم والروث[1] » وذلك لئلا يفسد عليهم طعامهم وعلفهم ، وهذا يبين أنما أباح لهم من ذلك ما ذكر اسم الله عليه دون ما لم يذكر اسم الله عليه .

---

(١) الحديث روى فى صحيح مسلم جـ ١ ص ٣٣٢ رقم ٤٥٠

وقال تعالى : (وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ) إلى قوله . (إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ) فأخبر عن الشيطان أنه يخاف الله ، والعقوبة إنما تكون على ترك مأمور أو فعل محظور ، وليس هو هنا التصديق .

وأيضاً فإبليس الذى هو أبو الجن . لم تكن معصيته تكذيبا ، فإن الله أمره بالسجود ، وقد علم أن الله أمره ، ولم يكن بينه وبين الله رسول يكذبه ، ولما امتنع عن السجود لآدم عاقبه الله العقوبة البليغة ؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا سجد ابن آدم اعتزل الشيطان يبكى » الحديث .

وقد قال تعالى فى قصة سليمان : (وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ) إلى قوله . (عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ) وقد جعل فى ذلك ما أمرهم به من طاعة سليمان ، وقد قال تعالى عن إبليس . إنه عصى ولم يقل كذب ، وقد قال تعالى . عن الجن . (يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ) إلى قوله . (وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ) الآية . فأمروا بإجابة داعى الله ، الذى هو الرسول . والإجابة والاستجابة هى طاعة الأمر والنهى ، وهى العبادة التى خلق لها الثقلان ؛ كما قال تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) .

ومن قال « إن العبادة » هى المعرفة الفطرية الموجودة فيها ، وأن ذلك هو الإيمان وهو داخل فى الثقلين فقط : فإن ذلك لو كان كذلك لم يكن فى الثقلين كافر ، والله أخبر بكفر إبليس وغيره من الجن والإنس ، وقد قال تعالى :

(لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) وأخبر أنه يملؤها منه ومن أتباعه وهذا يبين أنه لا يدخلها إلا من اتبعه ، فعلم أن من يدخلها من الكفار والفساق من أتباع إبليس ; ومعلوم أن الكفار ليسوا بمؤمنين ، ولا عارفين الله معرفة يكونون بها مؤمنين .

ولكن اللام لبيان الجملة الشرعية ، المتعلقة بالإرادة الشرعية ، كما فى قوله تعالى : (يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ) وقوله (يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ) الآية .

وقد تكون لبيان العاقبة الكونية كما فى قوله : (فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ) الآية ; وهذا كقوله تعالى : (وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ) أى خلق قوماً للاختلاف ، وقوماً للرحمة ، وقال : (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ) فاللام فى قوله تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) وإن كانت هى اللام فى هذه الآية فإن مدلولها لام إرادة الفاعل ومقصوده ، ولهذا تنقسم فى كتاب الله إلى إرادة دينية ، وإرادة كونية ; كما تنقسم فى كتاب الله تعالى الكلمات ، والأمر والحكم والقضاء ، والتحريم والإذن ، وغير ذلك .

وأيضاً فقوله تعالى : (يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا) إلى قوله : (وَشَهِدُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ

كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ) . فبين أن الثقلين جميعاً تلت عليهم الرسل آيات الله ، ولهذا لما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة على الصحابة قال « للجن كانوا » الحديث . دعاهم إلى طاعة الله لما فيه من الأمر والنهى ؛ لا إلى مجرد حديث لا طاعة معه ، فإن مثل هذا التصديق ، كان مع إبليس ، فلم يغن عنه من الله شيئاً .

والدلائل الدالة على هذا الأصل ، وما فى الحديث والآثار : من كون الجن يحجون ويصلون ويجاهدون ، وأنهم يعاقبون على الذنب : كثيرة جداً .

وقد قال تعالى فيما أخبر عنهم (وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا) قالوا مذاهب شتى مسلمين ، ويهود ونصارى ، وشيعة ، وسنة .

فأخبر أن منهم الصالحون ، ومنهم دون الصالحين ، فيكون: إما مطيعاً فى ذلك فيكون مؤمناً ، وإما عاصياً فى ذلك فيكون كافراً ، ولا ينقسم مؤمن إلى صالح وإلى غير صالح ، فإن غير الصالح لا يعتقد صلاحه لترك الطاعات ، فالصالح هو القائم بما وجب عليه ؛ ودون الصالح لا بد أن يكون عاصيا فى بعض ما أمر به ، وهو قسم غير الكافر ، فإن الكافر لا يوصف بمثل ذلك ؛ وهذا يبين أن فيهم من يترك بعض الواجبات ، والله أعلم .

سئل رحمه الله :-

عن حديث النبي صلى الله عليه وسلم : « إن النطفة تكون أربعين يوما نطفة ، ثم أربعين يوما علقة ، ثم أربعين مضغة ، ثم يكون التصوير والتخطيط والتشكيل » ثم ورد عن حذيفة بن أسيد : « أنه إذا مر للنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله تعالى إليها ملكا فصورها ، وخلق سمعها وبصرها ، وجلدها ولحمها ، وعظامها ، ثم يقول يارب ! أذكر ، أم أنثى ؟ شقي أم سعيد ؟ فما الرزق وما الأجل ؟ » وذكر الحديث ، فما الجمع بين الحديثين ؟؟ .

فأجاب :—

الحمد لله رب العالمين : أما الحديث الأول فهو فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو الصادق المصدوق : «إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد . فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع

فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » .

وفى طريق آخر : وفى رواية . «ثم يبعث الله ملكا ويؤمر بأربع كلمات ، ويقال اكتب عمله ، وأجله ، ورزقه ، وشقى أوسعيد . ثم ينفخ فيه الروح» فهذا الحديث الصحيح ليس فيه ذكر التصوير متى يكون ؛ لكن فيه أن الملك يكتب رزقه وأجله ، وعمله وشقى أو سعيد . قبل نفخ الروح وبعد أن يكون مضغة .

وحديث أنس بن مالك الذى فى الصحيح يوافق هذا وهو مرفوع قال : « إن الله عز وجل وكل بالرحم ملكا فيقول : أى رب نطفة ! أى رب علقة ! أى رب مضغة ! فإذا أراد الله أن يقضى خلقها قال الملك : أى رب ! ذكر أم أنثى ؟ شقى أو سعيد ؟ فما الرزق فما الأجل ؟ فيكتب كذلك فى بطن أمه » .

فبين فى هذا أن الكتابة تكون بعد أن يكون مضغة .

وأما حديث حذيفة بن أسيد فهو من أفراد مسلم ، ولفظه . « سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : «إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة . بعث الله إليها ملكا ، فصورها ، وخلق سمعها وبصرها ، وجلدها ولحمها وعظامها . ثم يقول يارب أذكر أم أنثى ؟ فيقضى ربك ما شاء ، ويكتب الملك ؛ ثم يقول يا رب رزقه ؟ فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك ؛ ثم يقول . يا رب أجله ؟ فيقضى

ربك ما شاء ويكتب الملك ؛ ثم يخرج الملك بالصحيفة فى يده ، فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص » .

فهذا الحديث فيه أن تصويرها بعد اثنتين وأربعين ليلة ، وأنه بعد تصويرها وخلق سمعها وبصرها ، وجلدها ولحمها وعظامها ، يقول الملك يا رب ! أذكر أم أنثى ؟ ومعلوم أنها لا تكون لحما وعظاما حتى تكون مضغة . فهذا موافق لذلك الحديث فى أن كتابة الملك تكون بعد ذلك ، إلا أن يقال : المراد تقدير اللحم والعظام .

وقد روى هذا الحديث بألفاظ فيها إجمال بعضها أبين من بعض ؛ فمن ذلك ما رواه مسلم أيضا عن حذيفة ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن النطفة تكون فى الرحم أربعين ليلة ، ثم يتسور عليها الذى يخلقها فيقول : يا رب ! أذكر ، أم أنثى ؟ فيجعله الله ذكراً ، أو أنثى . ثم يقول : يا رب ! سوى ، أو غير سوى ؟ فيجعله الله تعالى سوياً أو غير سوى ثم يقول : يارب ! ما أجله وخلقه ؟ ثم يجعله الله شقياً أو سعيداً » .

فهذا فيه بيان أن كتابة رزقه وأجله ، وشقاوته وسعادته : بعد أن يجعله ذكراً أو أنثى ، وسويا ، أو غير سوى .

وفى لفظ لمسلم قال : « يدخل الملك على النطفة بعد ماتستقر فى الرحم بأربعين ليلة أو بخمس وأربعين ليلة . فيقول : يا رب ! أشقى ، أو سعيد ؟ فيكتب . يا رب ! أذكر ، أم أنثى ؟ فيكتب رزقه ، ويكتب عمله ، وأثره ، وأجله ؛

ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص ، فهذا اللفظ فيه تقديم كتابة السعادة والشقاوة ؛ ولكن يشعر بأن ذلك يكتب بحيث مضت الأربعون .

ولكن هذا اللفظ لم يحفظه رواته كما حفظ غيره .

ولهذا شك أبعد الأربعين ، أو خمس وأربعين ؟ وغيره إنما ذكر أربعين ، أواثنين وأربعين . وهو الصواب ؛ لأن من ذكر اثنين وأربعين ذكر طرفى الزمان ، ومن قال أربعين حذفهما ، ومثل هذا كثير فى ذكر الأوقات ، فقدم المؤخر وأخر المقدم . أو يقال : إنه لم يذكر ذلك بحرف (ثم) فلا تقتضى ترتيبا ، وإنما قصد أن هذه الأشياء تكون بعد الأربعين .

وحينئذ فيقال : أحد الأمرين لازم ؛ إما أن تكون هذه الأمور عقيب الأربعين ، ثم تكون عقب المائة والعشرين ؛ ولا محذور فى الكتابة مرتين ؛ ويكون المكتوب (أولا) فيه كتابة الذكر والأنثى . أو يقال : إن ألفاظ هذا الحديث لم تضبط حق الضبط .

ولهذا اختلفت رواته فى ألفاظه ؛ ولهذا أعرض البخارى عن روايته ، وقد يكون أصل الحديث صحيحاً ، ويقع فى بعض ألفاظه اضطراب ، فلا يصلح حينئذ أن يعارض بها ما ثبت فى الحديث الصحيح المتفق عليه ؛ الذى لم تختلف ألفاظه ؛ بل قد صدقه غيره من الحديث الصحيح ؛ فقد تلخص الجواب أنما عارض الحديث المتفق عليه : إما أن يكون موافقا له فى الحقيقة ؛ وإما أن يكون

غير محفوظ ، فلا معارضة ، ولا ريب أن ألفاظه لم تضبط ، كما تقدم ذكر الاختلاف فيها ؛ وأقربها اللفظ الذى فيه تقدم التصوير على تقدير الأجل والعمل ، والشقاوة والسعادة ، وغاية ما يقال فيه إنه يقتضى أنه قد يخلق فى الأربعين الثانية ، قبل دخوله فى الأربعين الثالثة ، وهذا لا يخالف الحديث الصحيح ، ولا نعلم أنه باطل ؛ بل قد ذكر النساء: أن الجنين يخلق بعد الأربعين ، وأن الذكر يخلق قبل الأنثى .

وهذا يقدم على قول من قال من الفقهاء : إن الجنين لا يخلق فى أقل من واحد وثمانين يوما ، فإن هذا إنما بنوه على أن التخليق إنما يكون إذا صار مضغة ، ولا يكون مضغة إلا بعد الثمانين ؛ والتخليق ممكن قبل ذلك ، وقد أخبر به من أخبر من النساء ، ونفس العلقة يمكن تخليقها . والله أعلم وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :ـ

رداً لقول من قال : كل مولود على ما سبق له فى علم الله أنه سائر إليه [1] :ـ

معلوم أن جميع المخلوقات بهذه المشابة ؛ فجميع البهائم هى مولودة على ما سبق فى علم الله لها ؛ وحينئذ فيكون كل مخلوق مخلوقا على الفطرة .

وأيضا : فلو كان المراد ذلك لم يكن لقوله فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه معنى : فإنهما فعلا به ماهو الفطرة التى ولد عليها ، فلا فرق بين التهويد والتنصير . ثم قال : فتمثيله صلى الله عليه وسلم بالبهيمة التى ولدت جمعاء ؛ ثم جدعت : يبين أن أبويه غيرا ما ولد عليه .

ثم يقال : وقولكم خلقوا خالين من المعرفة والإنكار ، من غير أن تكون الفطرة تقتضى واحداً منهما ؛ بل يكون القلب كاللوح الذى يقبل كتابة الإيمان والكفر ، وليس هو لأحدهما أقبل منه للآخر ، فهذا قول فاسد جداً .

---

(١) لم نجدها إلا مختصرة .

فحينئذ لا فـــرق بالنسبة إلى الفطرة بين المعرفة والإنـكار ، والتهويد والتنصير ، والإسلام ؛ وإنما ذلك بحسب الأسباب . فكان ينبغي أن يقال : فأبواه يسلمانه ويهودانه وينصرانه ؛ فلما ذكر أن أبويه يكفرانه ، وذكر الملل الفاسدة دون الإسلام : علم أن حكمه فى حصول سبب مفصل غير حكم الـكفر .

ثم قال : ففي الجملة كل ما كان قابلا للمدح والذم على السواء ، لا يستحق مدحا ولا ذما ، والله تعالى يقول : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا) .

وأيضا : فالنبي صلى الله عليه وسلم شبهها بالبهيمة المجتمعة الخلق ، وشبـه ما يطرأ عليها من الـكفر بجدع الأنف ، ومعلوم أن كمالها محمود ، ونقصها مذموم ، فـكيف تـكون قبل النقص لا محمودة ولا مذمومة ؟ والله أعلم .

سئل عن قوله صلى الله عليه وسلم :-

« كل مولود يولد على الفطرة » ما معنـــاه ؟ : أراد فطرة الخلق أم فطرة الإسلام ؟. وفى قوله : « الشقى من شقى فى بطن أمه» الحديث . هل ذلك خاص أو عام . وفى البهائم والوحوش هل يحييها الله يوم القيامة أم لا ؟ .

فأجاب : الحمد لله . أما قوله صلى الله عليـه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » : فالصواب أنهـا فطرة الله التى فطر النـــاس عليها ، وهى فطرة الإسلام ، وهى الفطرة التى فطرهم عليها يوم قال : (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى) . وهى السلامة من الاعتقادات الباطلة ، والقبول للعقائد الصحيحة .

فإن حقيقة «الإسلام» أن يستسلم لله ؛ لا لغيره ، وهو معنى لا إله إلا الله ، وقد ضرب رسول الله صلى الله عليـه وسلم مثل ذلك فقال : « كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟» : بين أن سلامة القلب من النقص كسلامة البدن ، وأن العيب حادث طارىء .

وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن الله : « إنى خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين وحرمت

عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا » . ولهذا ذهب الإمام أحمد رضى الله عنه فى المشهور عنه : إلى أن الطفل متى مات أحد أبويه الكافرين حكم بإسلامه ؛ لزوال الموجب للتغيير عن أصل الفطرة . وقد روى عنه ، وعن ابن المبارك ، وعنهما : أنهم قالوا « يولد على ما فطر عليه من شقاوة وسعادة » وهذا القول لا ينافى الأول ، فإن الطفل يولد سليما ، وقد علم الله أنه سيكفر ، فلا بد أن يصير إلى ما سبق له فى أم الكتاب ، كما تولد البهيمة جمعاء وقد علم الله أنها ستجدع .

وهذا معنى ما جاء فى صحيح مسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغلام الذى قتله الخضر : « طبع يوم طبع كافراً ، ولو ترك لأرهق أبويه طغياناً وكفراً » يعنى طبعه الله فى أم الكتاب ، أى كتبه وأثبته كافراً ؛ أى أنه إن عاش كفر بالفعل .

ولهذا لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن يموت من أطفال المشركين وهو صغير قال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » أى الله يعلم من يؤمن منهم ومن يكفر لو بلغوا . ثم إنه قد جاء فى حديث إسناده مقارب عن أبى هريرة رضى الله عنه : عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كان يوم القيامة فإن الله يمتحنهم ويبعث إليهم رسولا فى عرصة القيامة ، فمن أجابه أدخله الجنة ومن عصاه أدخله النار » فهنالك يظهر فيهم ما علمه الله سبحانه ، ويجزيهم على ما ظهر من العلم وهو إيمانهم وكفرهم ؛ لا على مجرد العلم.

وهذا أجود ما قيل فى أطفال المشركين ، وعليه تتنزل جميع الأحاديث .

ومثل الفطرة مع الحق: مثل ضوء العين مع الشمس ، وكل ذى عين لو ترك بغير حجاب لرأى الشمس ، والاعتقادات الباطلة العارضة من تهود وتنصر وتمجس : مثل حجاب يحول بين البصر ورؤية الشمس . وكذلك أيضاً كل ذى حس سليم يحب الحلو ، إلا أن يعرض فى الطبيعة فساد يحرفه حتى يجعل الحلو فى فمه مراً .

ولا يلزم من كونهم مولودين على الفطرة أن يكونوا حين الولادة معتقدين للإسلام بالفعل ، فإن الله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً ، ولكن سلامة القلب وقبوله وإرادته للحق : الذى هو الإسلام ، بحيث لو ترك من غير مغير ، لما كان إلا مسلماً .

وهذه القوة العلمية العملية التى تقتضى بذاتها الإسلام ما لم يمنعها مانع : هى فطرة الله التى فطر الناس عليها .

وأما الحديث المذكور : فقد صح عن ابن مسعود أنه كان يقول : « الشقى من شقى فى بطن أمه ، والسعيد من وعظ بغيره » وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهو الصادق المصدوق ـ « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ،

ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات ، فيقال : اكتب رزقه وأجله ، وعمله وشقى أو سعيد . ثم ينفخ فيه الروح » .

وهذا عام فى كل نفس منفوسة ، قد علم الله سبحانه — بعلمه الذى هو صفة له — الشقى من عباده والسعيد ، وكتب سبحانه ذلك فى اللوح المحفوظ ، ويأمر الملك أن يكتب حال كل مولود ، ما بين خلق جسده ونفخ الروح فيه ، إلى كتب أُخر يكتبها الله ليس هذا موضعها . ومن أنكر العلم القديم فى ذلك فهو كافر .

وأما البهائم فجميعها يحشرها الله سبحانه ، كما دل عليه الكتاب والسنة . قال تعالى : (وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) وقال تعالى : (وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ) وقال تعالى : (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ) وحرف (إذا) إنما يكون لما يأتى لا محالة .

والأحاديث فى ذلك مشهورة ، فإن الله عز وجل يوم القيامة يحشر البهائم ويقتص لبعضها من بعض ، ثم يقول لها : كونى تراباً . فتصير تراباً . فيقول الكافر حينئذ (يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا) ومن قال إنها لا تحيا فهو مخطئ فى ذلك أقبح خطأ ، بل هو ضال أو كافر والله أعلم .

وقال أيضاً رحمه الله :ـ

« كل مولود يولد على الفطرة » ؛ فإنه سبحانه فطر القلوب على أن ليس في محبوباتها ومراداتها ما تطمئن إليه ، وتنتهي إليه إلا الله ؛ وإلا فكلما أحبه المحب يجد من نفسه أن قلبه يطلب سواه ، ويحب أمراً غيره يتألهه ويصمد إليه ، ويطمئن إليه ويرى ما يشبهه من أجناسه ؛ ولهذا قال : (أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ) .

قال شيخ الإسلام قدس الله روحه :

فصل

ذكر الله الحفظة الموكلين ببني آدم ، الذين يحفظونهم ويكتبون أعمالهم : في مواضع من كتابه. قال تعالى : (وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ)(وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ) .

وقال تعالى : (سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ * لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ) .

وقال تعالى : (كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) .

وقال تعالى : (وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ * ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ * إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) وقال تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) وقال تعالى : (وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ

لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) .

وقال تعالى : (وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) وقال تعالى : (وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) وقال تعالى : (وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ) ه وقال تعالى [1]

(١) بياض بالأصل .

سئل شيخ الإسلام :

هل الملائكة الموكلون بالعبد هم الموكلون دائما ، أم كل يوم ينزل الله إليه ملكين غير أولئك ؟ وهل هو موكل بالعبد ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ؟ وقوله عز وجل : (وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ) فما معنى الآية ؟ !

فأجاب :ـ

الحمد لله : الملائكة أصناف ؛ منهم من هو موكل بالعبد دائما . ومنهم ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار ، ويجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ؛ فيسألهم — وهو أعلم بهم — كيف تركتم عبادى؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون ، ومنهم ملائكة فضل عن كتاب الناس يتبعون مجالس الذكر .

(وأعمال العباد) تجمع جملة و تفصيلا ، فترفع أعمال الليل قبل أعمال النهار ، وأعمال النهار قبل أعمال الليل ، تعرض الأعمال على الله فى كل يوم اثنين وخميس ، فهذا كله مما جاءت به الأحاديث الصحيحة ، وأما أنه كل يوم تبدل عليه الملكان : فهذا لم يبلغنا فيه شىء . والله أعلم .

سئل عن قوله صلى الله عليه وسلم :-

« إذا هم العبد بالحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة » الحديث . فإذا كان الهم سراً بين العبد وبين ربه فكيف تطلع الملائكة عليه ؟ .

فأجاب :-

الحمد لله : قد روى عن سفيان بن عيينة فى جواب هذه المسألة قال : « إنه إذا هم بحسنة شم الملك رائحة طيبة ، وإذا هم بسيئة شم رائحة خبيثة » .

والتحقيق : أن الله قادر أن يعلم الملائكة بما فى نفس العبد كيف شاء ، كما هو قادر على أن يطلع بعض البشر على ما فى الإنسان .

فإذا كان بعض البشر قد يجعل الله له من الكشف ما يعلم به أحياناً ما فى قلب الإنسان : فالملك الموكل بالعبد أولى بأن يعرفه الله ذلك .

وقد قيل فى قوله تعالى : (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) أن المراد به الملائكة : والله قد جعل الملائكة تلقى فى نفس العبد الخواطر ، كما قال عبد الله ابن مسعود : « إن للملك لمة [وللشيطان لمة] فلمة الملك تصديق بالحق ووعد

بالخير ، ولمة الشيطان تـكذيب بالحق وإيعاد بالشر» . وقد ثبت عنه فى الصحيح أنه قال : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الملائـكة ، وقرينه من الجن » قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : « وأنا ، إلا أن الله قد أعاننى عليه ، فلا يأمرنى إلا بخير » .

فالسيئة التى يهم بها العبد إذا كانت من إلقاء الشيطان : علم بها الشيطان .

والحسنة التى يهم بها العبد إذا كانت من إلقاء الملك : علم بها الملك أيضاً بطريق الأولى ، وإذا علم بها هذا الملك : أمكن علم الملائكة الحفظة لأعمال بنى آدم .

سئل عن عرض الأديان عند الموت : ـ

هل لذلك أصل فى الكتاب والسنة أم لا ؟ وقوله صلى الله عليه وسلم : « إنكم لتفتنون فى قبوركم » ما المراد بالفتنة ؟ وإذا ارتد العبد ـ والعياذ بالله ـ هل يجازى بأعماله الصالحة قبل الردة أم لا ؟ أفتونا مأجورين !! .

فأجاب :ـ

الحمد لله رب العالمين :

أما عرض الأديان على العبد وقت الموت فليس هو أمرا عاما لكل أحد ولا هو أيضاً منتفياً عن كل أحد ، بل من الناس من تعرض عليه الأديان قبل موته ؛ ومنهم من لا تعرض عليه ، وقد وقع ذلك لأقوام . وهذا كله من فتنة المحيا والممات التى أمرنا أن نستعيذ منها فى صلاتنا :

منها : ما فى الحديث الصحيح « أمرنا النبى صلى الله عليه وسلم أن نستعيذ فى صلاتنا من أربع : من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال » . ولكن وقت الموت أحرص ما يكون الشيطان على إغواء بنى آدم ؛ لانه وقت الحاجة .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « الأعمال بخواتيمها » وقال صلى الله عليه وسلم : « إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن العبد ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ؛ فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » .

ولهذا روى : «أن الشيطان أشد ما يكون على ابن آدم حين الموت ، يقول لأعوانه : دونكم هذا فإنه إن فاتكم لن تظفروا به أبداً » .

وحكاية عبد الله بن أحمد بن حنبل مع أبيه وهو يقول : لا ، بعد . لا ، بعد : مشهورة .

ولهذا يقال : إن من لم يحج يخاف عليه من ذلك ، لما روى أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من ملك زاداً أو راحلة تبلغه إلى بيت الله الحرام ولم يحج : فليمت إن شاء يهودياً ، وإن شاء نصرانياً » .

قال الله تعالى : (وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ) قال عكرمة لما نزلت هذه الآية : (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ) قالت اليهود والنصارى نحن مسلمون . فقال الله لهم : (وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ) فقالوا لا نحجه ، فقال الله تعالى : (وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ) .

وأما الفتنة فى القبور فهى الامتحان والاختبار للميت ، حين يسأله الملكان ، فيقولان له : ما كنت تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم « محمد » ؟ فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ، فيقول المؤمن : الله ربى ، والإسلام دينى ومحمد نبيي . ويقول : هو محمد رسول الله ، جاءنا بالبينات والهدى فآمنا به واتبعناه . فينتهرانه انتهارة شديدة ـ وهى آخر فتنه التى يفتن بها المؤمن ـ فيقولان له : كما قالا أولا .

وقد تواترت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فى هذه الفتنة من حديث البراء بن عازب ، وأنس بن مالك ، وأبى هريرة وغيرهم رضى الله عنهم ؛ وهى عامة للمكلفين ؛ إلا النبيين فقد اختلف فيهم . وكذلك اختلف فى غير المكلفين ، كالصبيان والمجانين . فقيل : لا يفتنون ، لأن المحنة إنما تكون للمكلفين ، وهذا قول القاضى وابن عقيل .

وعلى هذا فلا يلقنون بعد الموت . وقيل يلقنون ويفتنون أيضاً ، وهذا قول أبى حكيم ، وأبى الحسن بن عبدوس ، ونقله عن أصحابه ، وهو مطابق لقول من يقول : إنهم يكلفون يوم القيامة ، كما هو قول أكثر أهل العلم، وأهل السنة ، من أهل الحديث والكلام . وهو الذى ذكره أبو الحسن الأشعرى رضى الله عنه عن أهل السنة ، واختاره ، وهو مقتضى نصوص الإمام أحمد .

وأما « الردة عن الإسلام » بأن يصير الرجل كافراً مشركا ، أو كتابياً ،

فإنه إذا مات على ذلك حبط عمله باتفاق العلماء ، كما نطق بذلك القرآن فى غير موضع . كقوله : (وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ) وقوله : (وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ) وقوله : (وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) وقوله : (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) .

ولكن تنازعوا فيما : إذا ارتد ، ثم عاد إلى الإسلام . هل تحبط الأعمال التى عملها قبل الردة أم لا تحبط إلا إذا مات مرتداً ؟ على قولين مشهورين ؛ هما قولان فى مذهب الإمام أحمد ، والحبوط : مذهب أبى حنيفة ومالك . والوقوف : مذهب الشافعى .

وتنازع الناس أيضاً فى «المرتد» . هل يقال كان له إيمان صحيح يحبط بالردة؟ أم يقال بل بالردة تبينا أن إيمانه كان فاسداً ؟ وأن الإيمان الصحيح لا يزول ألبتة ؟ على قولين لطوائف الناس ، وعلى ذلك يبنى قول المستثنى : أنا مؤمن - إن شاء الله - هل يعود الاستثناء إلى كمال الإيمان ؟ أو يعود إلى الموافاة فى المآل والله أعلم .

وسئل :-

هل جميع الخلق حتى - الملائكة - يموتون ؟

فأجاب :-

الذى عليه أكثر الناس : أن جميع الخلق يموتون حتى الملائكة ، وحتى عزرائيل ملك الموت. وروى فى ذلك حديث مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم. والمسلمون واليهود والنصارى متفقون على إمكان ذلك وقدرة الله عليه ؛ وإنما يخالف فى ذلك طوائف من المتفلسفة ، أتباع « أرسطو » وأمثالهم ، ومن دخل معهم من المنتسبين إلى الإسلام ، أو اليهود ، والنصارى : كأصحاب « رسائل إخوان الصفا » وأمثالهم ، ممن زعم أن « الملائكة » هى العقول والنفوس ، وأنه لا يمكن موتها بحال ، بل هى عندهم آلهة وأرباب لهذا العالم .

والقرآن وسائر الكتب : تنطق بأن الملائكة عبيد مدبرون ، كما قال سبحانه : (لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا) . وقال تعالى : (وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ)

وقال : (وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ) .

والله سبحانه قادر على أن يميتهم ثم يحييهم ، كما هو قادر على إماتة البشر والجن ثم إحيائهم . وقد قال سبحانه : (وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) .

وقد ثبت فى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم من غير وجه وعن غير واحد من الصحابة أنه قال : « إن الله إذا تكلم بالوحى أخذ الملائكة مثل الغشى » وفى رواية « إذا سمعت الملائكة كلامه صعقوا » وفى رواية « سمعت الملائكة كجر السلسلة على الصفوان فيصعقون فإذا فزع عن قلوبهم » أى أزيل الفزع عن قلوبهم «قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق فينا دون : الحق! الحق !» فقد أخبر فى هذه الأحاديث الصحيحة أنهم يصعقون صعق الغشى ؛ فإذا جاز عليهم صعق الغشى جاز صعق الموت ؛ وهؤلاء المتفلسفة لا يجوزون لا هذا ولا هذا ؛ وصعق الغشى هو مثل صعق موسى عليه السلام ، قال تعالى : (فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا) .

والقرآن قد أخبر بثلاث نفخات :

نفخة الفزع ذكرها فى سورة النمل فى قوله : (وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ) .

ونفخة الصعق والقيام ذكرهما فى قوله : (وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ).

وأما الاستثناء فهو متناول لمن فى الجنة من الحور العين ، فإن الجنة ليس فيها موت ، ومتناول لغيرهم . ولا يمكن الجزم بكل من استثناه الله ، فإن الله أطلق فى كتابه .

وقد ثبت فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد موسى آخذاً بساق العرش ، فلا أدرى هل أفاق قبلى أم كان ممن استثناه الله ؟ » وهذه الصعقة قد قيل إنها رابعة ، وقيل إنها من المذكورات فى القرآن .

وبكل حال : النبى صلى الله عليه وسلم قد توقف فى موسى ، وهل هو داخل فى الاستثناء فيمن استثناه الله أم لا ؟ فإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم لم يخبر بكل من استثنى الله : لم يمكنا نحن أن نجزم بذلك ، وصار هذا مثل العلم بوقت الساعة وأعيان الأنبياء ، وأمثال ذلك مما لم يخبر به ، وهذا العلم لا ينال إلا بالخبر . والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

قال شيخ الإسلام
تقي الدين أبو العباس أحمـــد بن تيمية ـ
رحمه الله :ـ

فصـــــل

مذهب سائر المسلمين بل وسائر أهل الملل إثبات « القيـامة الـكبرى » ، وقيام الناس من قبورهم ، والثواب والعقاب : هناك ، وإثبات الثواب والعقاب فى البرزخ ـ ما بين الموت إلى يوم القيامة ـ هذا قول السلف قاطبة وأهل السنة والجماعة ؛ وإنمـا أنـكر ذلك فى البرزخ قليل من أهل البدع .

لـكن من أهل الـكلام من يقول : هذا إنما يكون على البدن فقط ، كأنه ليس عنده نفس تفارق البدن ؛ كقول من يقول ذلك من المعتزلة والأشعرية .

ومنهم من يقول : بل هو على النفس فقط . بناء على أنه ليس فى البرزخ عذاب على البدن ولا نعيم ، كما يقول ذلك ابن ميسرة ، وابن حزم .

ومنهم من يقول : بل البدن ينعم ويعذب بلا حياة فيه ، كما قاله طائفة من أهل الحديث ، وابن الزاغونى يميل إلى هذا فى مصنفه فى حياة الأنبياء فى قبورهم، وقد بسط الكلام على هذا فى مواضع .

والمقصود هنا : أن كثيراً من أهل الكلام ينكر أن يكون للنفس وجود بعد الموت ولا ثواب ولا عقاب ، ويزعمون أنه لم يدل على ذلك القرآن والحديث ، كما أن الذين أنكروا عذاب القبر والبرزخ مطلقاً زعموا أنه لم يدل على ذلك القرآن ، وهو غلط ؛ بل القرآن قد بين فى غير موضع بقاء النفس بعد فراق البدن ، وبين النعيم والعذاب فى البرزخ .

وهو سبحانه وتعالى فى السورة الواحدة يذكر «القيامة الكبرى» و «الصغرى» كما فى سورة الواقعة ، فإنه ذكر فى أولها القيامة الكبرى ، وأن الناس يكونون أزواجاً ثلاثة ، كما قال تعالى : (إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا * وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً) .

ثم إنه فى آخرها ذكر القيامة الصغرى بالموت ، وأنهم ثلاثة أصناف بعد الموت ، فقال : (فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ *

فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ)، فهذا فيه أن النفس تبلغ الحلقوم وأنهم لا يمكنهم رجعها ، وبين حال المقربين وأصحاب اليمين والمكذبين حينئذ .

وفى سورة القيامة : ذكر أيضا القيامتين فقال : (لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ) ، ثم قال : (وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ) : وهى نفس الإنسان .

وقد قيل : إن النفس تكون لوامة وغير لوامة ، وليس كذلك . بل نفس كل إنسان لوامة ، فإنه ليس بشر إلا يلوم نفسه ويندم إما فى الدنيا وإما فى الآخرة ، فهذا إثبات النفس . ثم ذكر معاد البدن فقال : (أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ * بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ * بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ * يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ) . ووصف حال القيامة إلى قوله : (تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ) .

ثم ذكر الموت فقال : (كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ) ، وهذا إثبات للنفس وأنها تبلغ التراقى كما قال هناك : (بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ) ، والتراقى متصلة بالحلقوم.

ثم قال : (وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ) يرقيها ، وقيل : من صاعد يصعد بها إلى الله ؟ والأول أظهر ؛ لأن هذا قبل الموت ، فإنه قال : (وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ) فدل على أنهم يرجونه ويطلبون له راقياً يرقيه ، وأيضاً فصعودها لا يفتقر إلى طلب من يرقى بها ، فإن لله ملائكة يفعلون ما يؤمرون ، والرقية أعظم الأدوية فإنها دواء

روحانى ؛ ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فى صفة المتوكلين : « لا يسترقون » والمراد أنه يخاف الموت ، ويرجو الحياة بالراقى ؛ ولهذا قال :(وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ)

ثم قال : (وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ) فدل على نفس موجودة قائمة بنفسها تساق إلى ربها ، والعرض القائم بغيره لا يساق ، ولا بدن الميت ، فهذا نص فى إثبات نفس تفارق البدن تساق إلى ربها ، كما نطقت بذلك الأحاديث المستفيضة فى قبض روح المؤمن وروح الكافر .

ثم ذكر بعد هذا صفة الكافر بقوله مع هذا الوعيد الذى قدمه : (فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ) وليس المراد أن كل نفس من هذه النفوس كذلك .

وكذلك سورة « ق » هى فى ذكر وعيد القيامة ، ومع هذا قال فيها : (وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ) ، ثم قال بعد ذلك : (وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ) ، فذكر القيامتين : الصغرى والكبرى ، وقوله : (وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ) أى جاءت بما بعد الموت من ثواب وعقاب ، وهو الحق الذى أخبرت به الرسل ، ليس مراده أنها جاءت بالحق الذى هو الموت ؛ فإن هذا مشهور لم ينازع فيه ، ولم يقل أحد : إن الموت باطل حتى يقال : جاءت بالحق .

وقوله : (ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ) ، فالإنسان وإن كره الموت فهو يعلم أنه تلاقيه ملائكته ، وهذا كقوله : (وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ) واليقين

ما بعد الموت ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أما عثمان بن مظعون فقد جاءه اليقين من ربه » ، وإلا فنفس الموت ـ مجرد عما بعده ـ أمر مشهور لم ينازع فيه أحد حتى يسمى يقيناً .

وذكر عذاب القيامة والبرزخ معاً في غير موضع : ذكره في قصة آل فرعون فقال : (وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) ، وقال في قصة قوم نوح : (مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا) مع إخبار نوح لهم بالقيامة في قوله : (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا) .

وقد ذكرنا في غير موضع : أن الرسل قبل محمد أنذروا بالقيامة الكبرى تكذيباً لمن نفى ذلك من المتفلسفة ، وقال عن المنافقين : (سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ) ، قال غير واحد من العلماء : المرة الأولى في الدنيا والثانية في البرزخ ، (ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ) في الآخرة .

وقال تعالى في الأنعام : (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ * وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ) ، وهذه صفة حال الموت وقوله :

(أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ) دل على وجود النفس التى تخرج من البدن ، وقوله : (ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ) دل على وقوع الجزاء عقب الموت .

وقال تعالى فى الأنفال : (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ) وهذا ذوق له بعد الموت .

وقد ثبت فى الصحيحين من غير وجه : أن النبى صلى الله عليه وسلم لما أتى المشركين يوم بدر فى القليب ناداهم : « يا فلان ! يا فلان ! هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فقد وجدت ماوعدنى ربى حقا» . وهذا دليل على وجودهم وسماعهم ، وأنهم وجدوا ما وعدوه بعد الموت من العذاب ، وأما نفس قتلهم فقد علمه الأحياء منهم .

وقال تعالى فى سورة النساء : (إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا) ، وهذا خطاب لهم إذا توفتهم الملائكة ، وهم لا يعاينون الملائكة إلا وقد يئسوا من الدنيا ، ومعلوم أن البدن لم يتكلم لسانه ؛ بل هو شاهد : يعلم أن الذى يخاطب الملائكة هو النفس ، والمخاطب لا يكون عرضاً .

وقال تعالى فى النحل : (ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ

مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ) ، **وهذا إلقاء للسلم إلى حين الموت ، وقول للملائكة ما كنا نعمل من سوء وهذا إنما يكون من النفس .**

وقد قال فى النحل : (ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) ، **وقال فى السجدة :** (إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ) ، **وقد ذكروا أن هذا التنزل عند الموت .**

وقال تعالى فى سورة آل عمران : (وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) ، **وقال قبل ذلك فى سورة البقرة :** (وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ) .

وأيضاً فقال تعالى : (ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) ، **وهذا**

بيان لكون النفس تقبض وقت الموت ؛ ثم منها ما يمسك فلا يرسل إلى بدنه : وهو الذى قضى عليه الموت ، ومنها ما يرسل إلى أجل مسمى . وهذا إنما يكون فى شىء يقوم بنفسه ، لا فى عرض قائم بغيره ، فهو بيان لوجود النفس المفارقة بالموت .

والأحاديث الصحيحة توافق هذا ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم : « باسمك ربى وضعت جنبي وبك أرفعه ، فإن أمسكت نفسى فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » . وقال ـ لما ناموا عن صلاة الصبح ـ : « إن الله قبض أرواحنا حيث شاء » .

وقال تعالى : (وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ) ، فهذا توف لها بالنوم إلى أجل الموت الذى ترجع فيه إلى الله ، وإخبار [أن] الملائكة تتوفاها بالموت ثم يردون إلى الله ، والبدن وما يقوم به من الأعراض لا يرد ، إنما يرد الروح .

وهو مثل قوله فى يونس : (وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ) ، وقال تعالى : (إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ) ، وقال تعالى : (يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً

مَرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي * وَٱدْخُلِي جَنَّتِي) ، وقال تعـالى : (قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) ، وتوفى الملك إنمـا يكون لمـا هو موجود قائم بنفسه ، وإلا فالعرض القائم بغيره لا يتوفى ، فالحياة القائمة بالبدن لا تتوفى ، بل تزول وتعدم كما تعدم حركته وإدراكه .

وقال تعالى فى المؤمنين: (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) ، فقوله : (ٱرْجِعُونِ) طلب لرجع النفس الى البدن ، كما قال فى الواقعة : (فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) ، وهو يبين أن النفس موجودة تفارق البدن بالموت ، قال تعالى : (إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) . آخره .

والحمد لله رب العالمين . وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

سئل شيخ الاسلام رحمه الله :

عن « الروح المؤمنة » أن الملائكة تتلقاها وتصعد بها الى السماء التي فيها الله .

فأجاب :

أما الحديث المذكور فى « قبض روح المؤمن ، وأنه يصعد بها إلى السماء التى فيها الله » : فهذا حديث معروف جيد الإسناد ، وقوله «فيها الله» بمنزلة قوله تعالى : (ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ) ، وبمنزلة ما ثبت فى الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجارية معاوية بن الحكم : « أين الله » قالت : فى السماء ، قال : « من أنا » قالت أنت رسول الله . قال : « أعتقها فإنها مؤمنة » .

وليس المراد بذلك أن السماء تحصر الرب وتحويه ، كما تحوى الشمس والقمر وغيرهما ، فإن هذا لا يقوله مسلم ، ولا يعتقده عاقل ، فقد قال سبحانه وتعالى : (وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ) والسموات فى الكرسى كحلقة ملقاة فى أرض فلاة ، والكرسى فى العرش كحلقة ملقاة فى أرض فلاة ، والرب

سبحانه فوق سمواته ، على عرشه ، بائن من خلقه ؛ ليس فى مخلوقاته شىء من ذاته ، ولا فى ذاته شىء من مخلوقاته .

وقال تعالى : (وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ) وقال: (فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ) وقال : (يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ) وليس المراد أنهم فى جوف النخل ، وجوف الأرض ؛ بل معنى ذلك أنه فوق السموات ، وعليها ، بائن من المخلوقات ، كما أخبر فى كتابه عن نفسه أنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش .

وقال : (يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ) وقال تعالى : (تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ) وقال : (بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ). وأمثال ذلك فى الكتاب والسنة وجواب هذه المسألة مبسوط فى غير هذا الموضع .

سئل هل يتكلم الميت في قبره؟ :-

فقال : وأما سؤال السائل هل يتكلم الميت فى قبره فجوابه أنه يتكلم ، وقد يسمع أيضاً من كلمه ؛ كما ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنهم يسمعون قرع نعالهم » وثبت عنه فى الصحيح أن الميت يسأل فى قبره ؛ فيقال له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك ؟ فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت، فيقول : الله ربى ، والإسلام دينى ، ومحمد نبيي. ويقال له:ما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول المؤمن : هو عبد الله ورسوله ، جاءنا بالبينات والهدى فآمنا به واتبعناه ، وهذا تأويل قوله تعالى : (يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ) .

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنها نزلت فى عذاب القبر ، وكذلك يتكلم المنافق فيقول : آه ، آه ، لا أدرى ! سمعت الناس يقولون شيئا فقلته ؛ فيضرب بمرزبة من حديد ، فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان .

وثبت عنه فى الصحيح أنه قال : «لولا أن لا تدافنوا لسألت الله أن يسمعكم عذاب القبر مثل الذى أسمع » وثبت عنه فى الصحيح أنه نادى المشركين يوم بدر : لمـا ألقاهم فى القليب . وقال : «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» . والآثار فى هذا كثيرة منتشرة ، والله أعلم .

سئل شيخ الإسلام

رحمه الله تعالى :

عن سؤال منكر ونكير الميت إذا مات تدخل الروح فى جسده ويجلس ويجاوب منكراً ونكيراً ، فيحتاج موتاً ثانياً ؟ !

فأجاب :ـ

عود الروح إلى بدن الميت فى القبر ليس مثل عودها إليه فى هـــذه الحياة الدنيا ؛ وإن كان ذاك قد يكون أكمل من بعض الوجوه ، كما أن النشأة الأخرى ليست مثل هذه النشأة ؛ وإن كانت أكمل منها ، بل كل موطن فى هذه الدار وفى البرزخ والقيامة : له حكم يخصه ؛ ولهذا أخبر النبى صلى الله عليه وسلم : أن الميت يوسع له فى قبره ويسأل ونحو ذلك ، وإن كان التراب قد لا يتغير فالأرواح تعاد إلى بدن الميت وتفارقه .

وهل يسمى ذلك موتا ؟ فيه قولان .

قيل يسمى ذلك موتا . وتأولوا على ذلك قوله تعالى : (رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ) : قيل إن الحياة الأولى فى هذه الدار ، والحياة الثانية فى القبر .

والموتة الثانية فى القبر، والصحيح أن هذه الآية كقوله : (وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) فالموتة الأولى قبل هذه الحياة ، والموتة الثانية بعد هذه الحياة. وقوله تعالى : (ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) بعد الموت . قال تعالى : (مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ) وقال : (قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ) .

فالروح تتصل بالبدن متى شاء الله تعالى ، وتفارقه متى شاء الله تعالى ، لا يتوقت ذلك بمرة ولا مرتين ، والنوم أخو الموت .

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول إذا أوى إلى فراشه : « باسمك اللهم أموت وأحيا » وكان إذا استيقظ يقول : « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » فقد سمى النوم موتا ، والاستيقاظ حياة .

وقد قال تعالى : (ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) فبين أنه يتوفى الأنفس على نوعين : فيتوفاها حين الموت ، ويتوفى الأنفس التى لم تمت بالنوم ثم إذا ناموا فمن مات فى منامه أمسك نفسه ، ومن لم يمت أرسل نفسه .

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أوى إلى فراشه قال : «باسمك ربى وضعت جنبي وبك أرفعه ، فإن أمسكت نفسى فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » .

والنائم يحصل له فى منامه لذة وألم ، وذلك يحصل للروح والبدن ، حتى

إنه يحصل له فى منامه من يضربه ؛ فيصبح والوجع فى بدنه ، ويرى فى منامه أنه أطعم شيئاً طيباً فيصبح وطعمه فى فمه وهذا موجود . فإذا كان النائم يحصل لروحه وبدنه من النعيم والعذاب ما يحس به ـ والذى إلى جنبه لا يحس به ـ حتى قد يصيح النائم من شدة الألم ؛ أو الفزع الذى يحصل له ويسمع اليقظان صياحه ، وقد يتكلم إما بقرآن ، وإما بذكر ، وإما بجواب .

واليقظان يسمع ذلك وهو نائم ، عينه مغمضة ، ولو خوطب لم يسمع ، فكيف ينكر حال المقبور الذى أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أنه يسمع قرع نعالهم ؟ وقال : « ما أنتم أسمع لما أقول منهم » .

والقلب يشبه القبر ؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لما فاتته صلاة العصر يوم الخندق : « ملأ الله أجوافهم وقبورهم ناراً » وفى لفظ : «قلوبهم وقبورهم ناراً» وفرق بينهما فى قوله : (بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ) وهذا تقريب وتقرير لإمكان ذلك .

ولا يجوز أن يقال : ذلك الذى يجده الميت من النعيم والعذاب — مثلما — يجده النائم فى منامه ؛ بل ذلك النعيم والعذاب أكمل وأبلغ وأتم . وهو نعيم حقيقى وعذاب حقيقى ، ولكن يذكر هذا المثل لبيان إمكان ذلك ، إذا قال السائل : الميت لا يتحرك فى قبره ، والتراب لا يتغير ، ونحو ذلك ، مع أن هذه المسألة لها بسط يطول ، وشرح لا تحتمله هذه الورقة ، والله أعلم . وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

وسئل :-

عن الصغير ، وعن الطفل إذا مات . هل يمتحن ؟ إلخ

[(١)] الوقوف فيهم وأن يقال : الله أعلم بما كانوا عاملين ، ولبسطه موضع آخر . وإذا مات الطفل فهل يمتحن فى قبره ويسأله منكر ونكير ؟ فيه قولان فى مذهب أحمد وغيره .

أحدهما : أنه لا يمتحن ، وأن المحنة إنما تكون على من كلف فى الدنيا ، قاله طائفة منهم القاضى أبو يعلى وابن عقيل .

والثانى : أنهم يمتحنون ذكره أبو حكيم الهمدانى، وأبو الحسن بن عبدوس ، ونقله عن أصحاب الشافعى . وعلى هذا التفصيل « تلقين الصغير والمجنون » من قال إنه يمتحن فى القبر لقنه ، ومن قال لا يمتحن لم يلقنه . وقد روى مالك وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أنه صلى الله عليه وسلم صلى على طفل . فقال : « اللهم قه عذاب القبر وفتنة القبر » وهذا القول موافق لقول من قال : إنهم يمتحنون فى الآخرة ، وإنهم مكلفون يوم القيامة ، كما هو قول أكثر أهل العلم

---

(١) سقط أول الجواب .

وأهل السنة من أهل الحديث والكلام ، وهو الذى ذكره أبو الحسن الأشعرى عن أهل السنة واختاره ،وهو مقتضى نصوص الإمام أحمد والله أعلم .

وإذا دخل أطفال المؤمنين الجنة فأرواحهم وأرواح غيرهم من المؤمنين فى الجنة . وإن كانت درجاتهم متفاضلة ، والصغار يتفاضلون بتفاضل آبائهم ، وتفاضل أعمالهم ـ إذا كانت لهم أعمال ـ فإن إبراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم ليس هو كغيره ، والأطفال الصغار يثابون على ما يفعلونه من الحسنات ، وإن كان القلم مرفوعا عنهم فى السيئات ، كما ثبت فى الصحيح: أن النبى صلى الله عليه وسلم رفعت إليه امرأة صبياً من محفة فقالت : ألهذا حج؟ قال : «نعم . ولك أجر» رواه مسلم فى صحيحه .

وفى السنن أنه قال «مروهم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع» وكانوا يصومون الصغار يوم عاشوراء وغيره ، فالصبي يثاب على صلاته وصومه ، وحجه وغير ذلك من أعماله ، ويفضل بذلك على من لم يعمل كعمله ، وهذا غير ما يفعل به إكراماً لأبويه ، كما أنه فى النعم الدنيوية قد ينتفع بما يكسبه وبما يعطيه أبواه ، ويتميز بذلك على من ليس كذلك.

وأرواح المؤمنين فى الجنة ، كما جاءت بذلك الآثار ، وهو كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « نسمة المؤمن تعلق من الجنة » أى تأكل ولم يوقت فى ذلك وقت قبل يوم القيامة .

والأرواح مخلوقة بلا شك ، وهى لا تعدم ولا تفنى ؛ ولـكن موتها مفارقة الأبدان ، وعند النفخة الثانية تعاد الارواح إلى الأبدان .

وأهل الجنة الذين يدخلونها على صورة أبيهم آدم عليه السلام، طول أحدهم ستون ذراعا . كما ثبت ذلك فى الأحاديث الصحيحة .

وقد قال بعض الناس : إن أطفال الـكفار يكونون خدم أهل الجنة ، ولا أصل لهذا القول .

وقد ثبت فى الصحيحين أن الجنة يبقى فيها فضل عن أهل الدنيا ، فينشئ الله لها خلقاً آخر فيسكنهم الجنة ، فإذا كان يسكن من ينشئه من الجنة من غير ولد آدم فى فضول الجنة فـكيف بمن دخلها من ولد آدم وأسكن فى غير فضولها ؟ فليسوا أحق بأن يكونوا من أهل الجنة ، ممن ينشأ بعد ذلك ويسكن فضولها.

وأما الورود المذكور فى قوله تعالى : (وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) فقد فسره النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح ، رواه مسلم فى صحيحه عن جابر : « بأنه المرور على الصراط» والصراط هو الجسر ، فلا بد من المرور عليه لـكل من يدخل الجنة ، من كان صغيراً فى الدنيا ومن لم يكن .

(والولدان) الذين يطوفون على أهل الجنة : خلق من خلق الجنة ليسوا من أبناء الدنيا ، بل أبناء أهل الدنيا إذا دخلوا الجنة كمل خلقهم كأهل الجنة ، على صورة آدم ، أبناء ثلاث وثلاثين فى طول ستين ذراعا ، كما تقدم . وقد روى أن العرض سبعة أذرع . والله أعلم .

سئل الشيخ رحمه الله :

عن الصغير هل يحيا ويسأل أو يحيا ولا يسأل ؟ وبماذا يسأل عنه ؟ وهل يستوى فى الحياة ، والسؤال من يكلف ومن لا يكلف ؟

فأجاب :-

الحمد لله رب العالمين . أما من ليس مكلفاً كالصغير والمجنون فهل يمتحن فى قبره ويسأله منكر ونكير ؟ على قولين للعلماء .

أحدهما : أنه يمتحن وهو قول أكثر أهل السنة ، ذكره أبو الحسن بن عبدوس عنهم ، وذكره أبو حكيم النهروانى وغيرهما .

والثانى : أنه لا يمتحن فى قبره ، كما ذكره القاضى أبو يعلى ، وابن عقيل وغيرهما . قالوا لأن المحنة إنما تكون لمن يكلف فى الدنيا .

ومن قال بالأول: يستدل بما فى الموطأ عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم صلى على صغير لم يعمل خطيئة قط ، فقال : «اللهم قه عذاب القبر وفتنة القبر » وهذا يدل على أنه يفتن .

وأيضاً : فهذا مبنى على أن أطفال الـكفار الذين لم يكلفوا فى الدنيا يكلفون فى الآخرة ، كما وردت بذلك أحاديث متعـددة ، وهو القول الذى حكاه أبو الحسن الأشعرى عن أهل السنة والجماعة ، فإن النصوص عن الأئمة كالإمام أحمد وغيره : الوقف فى أطفـــال المشركين ، كما ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سئل عنهم فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » .

وثبت فى صحيح البخارى من حديث سمرة أن منهم من يدخل الجنة. وثبت فى صحيح مسلم أن الغلام الذى قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً، فإن كان الأطفال وغيرهم فيهم شقى وسعيد: فإذا كان ذلك لا متحانهم فى الدنيا لم يمنع امتحانهم فى القبور ؛ لـكن هذا مبنى على أنه لا يشهد لـكل معين من أطفال المؤمنين بأنه فى الجنة ، وإن شهد لهم مطلقا ، ولو شهد لهم مطلقاً . فالطفل الذى ولد بين المسلمين قد يكون منافقا بين مؤمنين . والله أعلم .

سئل شيخ الإسلام :-

قدس الله روحه

وهو بمصر — عن « عذاب القبر » . هل هو على النفس ، والبدن أو على النفس ، دون البدن ؟ والميت يعذب فى قبره حياً أم ميتاً ؟ وإن عادت الروح إلى الجسد أم لم تعد ، فهل يتشاركان فى العذاب والنعيم؟ أو يكون ذلك على أحدهما دون الآخر ؟

فأجاب - رضى الله عنه :

وجعل جنة الفردوس منقلبه ومثواه آمين .

الحمد لله رب العالمين . بل العذاب والنعيم على النفس ، والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة والجماعة ، تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن ، وتعذب متصلة بالبدن والبدن متصل بها ، فيكون النعيم والعذاب عليهما فى هذه الحال مجتمعتين ، كما يكون للروح منفردة عن البدن .

وهل يكون العذاب والنعيم للبدن بدون الروح ؟ هذا فيه قولان مشهوران

لأهل الحديث والسنة والكلام ، وفى المسألة أقوال شاذة ليست من أقوال أهل السنة والحديث ؛ قول من يقول : إن النعيم والعذاب لا يكون إلا على الروح ؛ وأن البدن لا ينعم ولا يعذب . وهذا تقوله « الفلاسفة » المنكرون لمعاد الأبدان ؛ وهؤلاء كفار بإجماع المسلمين .

ويقوله كثير من « أهل الكلام » من المعتزلة وغيرهم الذين يقولون : لا يكون ذلك فى البرزخ ، وإنما يكون عند القيام من القبور .

وقول من يقول : إن الروح بمفردها لا تنعم ولا تعذب ، وإنما الروح هى الحياة ، وهذا يقوله طوائف من أهل الكلام من المعتزلة ، وأصحاب أبى الحسن الأشعرى ، كالقاضى أبى بكر ، وغيرهم ؛ وينكرون أن الروح تبقى بعد فراق البدن . وهذا قول باطل ؛ خالفه الأستاذ أبو المعالى الجوينى وغيره ؛ بل قد ثبت فى الكتاب والسنة ، واتفاق سلف الأمة أن الروح تبقى بعد فراق البدن ، وأنها منعمة أو معذبة .

« والفلاسفة » الإلهيون يقولون بهذا ؛ لكن ينكرون معاد الأبدان ، وهؤلاء يقرون بمعاد الأبدان ؛ لكن ينكرون معاد الأرواح ، ونعيمها وعذابها بدون الأبدان ؛ وكلا القولين خطأ وضلال ، لكن قول الفلاسفة أبعد عن أقوال أهل الإسلام ، وإن كان قد يوافقهم عليه من يعتقد أنه متمسك بدين الإسلام ، بل من يظن أنه من أهل المعرفة والتصوف ، والتحقيق والكلام .

والقول الثالث : الشاذ . قول من يقول إن البرزخ ليس فيه نعيم ولا عذاب ، بل لا يكون ذلك حتى تقوم القيامة الكبرى ، كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة ، ونحوهم ، الذين ينكرون عذاب القبر ونعيمه ، بناء على أن الروح لا تبقى بعد فراق البدن ، وأن البدن لا ينعم ولا يعذب .

فجميع هؤلاء الطائفتين ضلال فى أمر البرزخ ، لكنهم خير من الفلاسفة؛ لأنهم يقرون بالقيامة الكبرى .

فإذا عرفت هذه الأقوال الثلاثة الباطلة فليعلم أن مذهب « سلف الأمة وأئمتها » أن الميت إذا مات يكون فى نعيم أو عذاب ، وأن ذلك يحصل لروحه ولبدنه ، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة ، وأنها تتصل بالبدن أحياناً ، فيحصل له معها النعيم والعذاب .

ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى أجسادها ، وقاموا من قبورهم لرب العالمين .

ومعاد الأبدان متفق عليه عند المسلمين ، واليهود ، والنصارى . وهذا كله متفق عليه عند علماء الحديث والسنة .

وهل يكون للبدن دون الروح نعيم أو عذاب ؟ أثبت ذلك طائفة منهم ، وأنكره أكثرهم .

ونحن نذكر ما يبين ما ذكرناه ، فأما أحاديث عذاب القبر ومسألة منكر ونكير فكثيرة متواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، مثل ما فى الصحيحين عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ بقبرين فقال : « إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير ، أما أحدهما : فكان يمشى بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله » ثم دعا بجريدة رطبة فشقها نصفين ، ثم غرز فى كل قبر واحدة . فقالوا يا رسول الله لم فعلت هذا ؟ قال : « لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا » .

وفى صحيح مسلم عن زيد بن ثابت قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حائط لبنى النجار على بغلة ـ ونحن معه ـ إذ جالت به ، فكادت تلقيه ، فإذا أقبر ستة أو خمسة ، أو أربعة . فقال « من يعرف هذه القبور » ؟ فقال رجل أنا . قال : « فتى هؤلاء ؟ » قال : ماتوا فى الإشراك . فقال : « إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها ، فلو لا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذى أسمع منه » ثم أقبل علينا بوجهه فقال : « تعوذوا بالله من عذاب القبر » قالوا : نعوذ بالله من عذاب القبر . قال : « تعوذوا بالله من عذاب النار » قالوا : نعوذ بالله من عذاب النار . قال : « تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن » قالوا : نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن . قال : « تعوذوا بالله من فتنة الدجال » قالوا : نعوذ بالله من فتنة الدجال .

وفى صحيح مسلم وسائر السنن عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن النبي

صلى الله عليه وسلم قال : « إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير فليقل : أعوذ بالله من أربع : من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال » .

وفى صحيح مسلم وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن « اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات » .

وفى صحيح البخارى ومسلم عن أبى أيوب الأنصارى قال : خرج النبى صلى الله عليه وسلم وقد وجبت الشمس . فقال : « يهود يعذبون فى قبورهم » .

وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت : دخلت على عجوز من عجائز يهود المدينة ، فقالت : إن أهل القبور يعذبون فى قبورهم . قالت : فكذبتها ولم أنعم أن أصدقها ، قالت : فخرجت فدخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ! عجوز من عجائز أهل المدينة دخلت علىّ فزعمت أن أهل القبور يعذبون فى قبورهم . فقال : « صدقت . إنهم يعذبون عذاباً يسمعه البهائم كلها » ، فما رأيته بعد فى صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر .

وفى صحيح أبى حاتم البستى عن أم مبشر رضى الله عنها قالت : دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا فى حائط وهو يقول : « تعوذوا بالله من عذاب

القبر » فقلت : يا رسول الله ! للقبر عذاب ؟ فقال : « إنهم ليعذبون فى قبورهم عذاباً تسمعه البهائم » .

قال بعضهم : ولهذا السبب يذهب النـاس بدوابهم إذا مغلت إلى قبور اليهود ، والنصارى والمنافقين ، كالإسماعيلية والنصيرية ، وسائر القرامطة : من بنى عبيد وغيرهم ، الذين بأرض مصر والشام وغيرهما ؛ فإن أهل الخيل يقصدون قبورهم لذلك ، كما يقصدون قبور اليهود والنصارى . والجهال تظن أنهم من ذرية فاطمة ، وأنهم من أولياء الله ، وإنما هو من هذا القبيل . فقد قيل : إن الخيل إذا سمعت عذاب القبر حصلت لها من الحرارة ما يذهب بالمغل . والحديث فى هذا كثير لا يتسع له هذا السؤال .

وأحاديث المسألة كثيرة أيضاً ، كما فى الصحيحين والسنن عن البراء بن عازب رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المسلم إذا سئل فى قبره شهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ؛ فذلك قول الله تعالى : (يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ) وفى لفظ : « نزلت فى عذاب القبر يقال له من ربك ؟ فيقول : ربى الله ، ودينى الإسلام ، ونبيي محمد . وذلك قول الله تعالى : (يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ) .

وهذا الحديث قد رواه أهل السنن والمسانيد مطولا ، كما فى سنن أبى داود

وغيره عن البراء بن عازب رضى الله عنه ، قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة رجل من الأنصار . فانتهينا إلى القبر ولما يلحد ، فجلس النبي صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله ، كأنما على رءوسنا الطير ، وفى يده عود ينكت به الأرض ، فرفع رأسه فقال : « استعيذوا بالله من عذاب القبر » مرتين أو ثلاثا . وذكر صفة قبض الروح وعروجها إلى السماء ، ثم عودها إليه . إلى أن قال : « وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حين يقال له يا هذا ! من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ .

وفى لفظ : « فيأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله . فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : دينى الإسلام . فيقولان : ما هذا الرجل الذى أرسل فيكم ؟ قال : فيقول : هو رسول الله . فيقولان : وما يدريك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله وآمنت به ، وصدقت به ، فذلك قول الله:(يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ) قال : « فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى ، فافرشوا له فى الجنة وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابا إلى الجنة» قال : «فيأتيه من روحها وطيبها » قال : « ويفسح له مد بصره »قال : «وإن الكافر» فذكر موته . وقال: «وتعاد روحه إلى جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك؟فيقول هاه ، هاه ، لاأدرى. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه . هاه ، لا أدرى ؟فينادى مناد من السماء أن كذب عبدى فافرشوا له من النار ، وألبسوه من النار ،

وافتحوا له بابا إلى النار » قال : « ويأتيه من حرها وسمومها » قال : « ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه » قال : « ثم يقيض له أعمى أبكم معه مرزبة من حديد لو ضرب بها جبل لصار ترابا » قال : « فيضربه بها ضربة يسمعها ما بين المشرق والمغرب إلا الثقلين فيصير ترابا . ثم تعاد فيه الروح » .

فقد صرح الحديث بإعادة الروح إلى الجسد ، وباختلاف أضلاعه ، وهذا بين فى أن العذاب على الروح والبدن مجتمعين .

وقد روى مثل حديث البراء فى قبض الروح والمسألة ، والنعيم والعذاب ، رواه أبو هريرة ، وحديثه فى المسند وغيره ، ورواه أبو حاتم بن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه : عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الميت إذا وضع فى قبره يسمع خفق نعالهم إذا ولوا عنه مدبرين ، فإن كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه ، وكان الصيام عن يمينه ، وكانت الصدقة عن شماله ، وكان فعل الخير من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان عند رجليه ، فيأتيه الملكان من قبل رأسه ، فتقول الصلاة: ما قبلى مدخل . ثم يؤتى عن يمينه ، ويقول الصيام : ما قبلى مدخل . ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة : ما قبلى مدخل . ثم يؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة ، والمعروف والإحسان : ما قبلى مدخل !! فيقول له : إجلس . فيجلس قد مثلت له الشمس ، وقد أصغت للغروب . فيقول : دعونى حتى أصلى . فيقولون : إنك ستصلى . أخبرنا عما نسألك عنه ، أرأيتك هذا الرجل الذى كان فيكم ماتقولون فيه ؟ وماذا

تشهد به عليه ؟ فيقول : محمد · نشهد أنه رسول الله ، جاء بالحق من عند الله . فيقال له : على ذلك حييت ، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله . ثم يفتح له باب إلى الجنة . فيقال : هذا مقعدك ، وما أعد الله لك فيها ؛ فيزداد غبطة وسرورا ؛ ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعا ، وينور له فيه ، ويعاد الجسد لما بدئ منه ، وتجعل روحه نسم طير يعلق فى شجر الجنة » قال : « فذلك قوله تعالى : (يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ) .

وذكر فى الكافر ضد ذلك أنه قال : « يضيق عليه قبره إلى أن تختلف فيه أضلاعه ، فتلك المعيشة الضنك ، التى قال الله تعالى : (لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ) » هذا الحديث أخصر .

وحديث البراء المتقدم أطول ما فى السنن ، فإنهم اختصروه لذكر ما فيه من عذاب القبر ، وهو فى المسند وغيره بطوله . وهو حديث حسن ثابت يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيه : « إن العبد المؤمن إذا كان فى إقبال من الآخرة ، وانقطاع من الدنيا : نزلت إليه ملائكة بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، فيجلسون منه مد البصر ؛ ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه . فيقول : أيتها النفس الطيبة اخرجى إلى مغفرة ورضوان » قال : « فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين

حتى يأخذونها ، فيجعلونها فى ذلك الكفن وذلك الحنوط ، فيخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض » قال : « فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة ؟ ! فيقولون : فلان ابن فلان ، بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا، فينتهون به إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له فيفتح له قال : فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها ، حتى ينتهوا بها إلى السماء السابعة . فيقول : اكتبوا كتاب عبدى فى عليين ، وأعيدوه إلى الأرض ، فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى» قال : « فتعاد روحه فى جسده ، ويأتيه ملكان فيجلسانه» وذكر المسألة كما تقدم ، قال : « ويأتيه رجل حسن الوجه ، طيب الريح ، فيقول له : أبشر بالذى يسرك فهذا يومك الذى قد كنت توعد ، فيقول له : من أنت فوجهك الوجه الذى يجىء بالخير ؟ ! فيقول : أنا عملك الصالح . فيقول : رب ! أقم الساعة ، رب ! أقم الساعة ، رب ! أقم الساعة ، حتى أرجع إلى أهلى ومالى » قال : « وإن العبد الكافر إذا كان فى إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا : نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه ، معهم المسوح ، فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول أيتها النفس الخبيثة ، اخرجى إلى سخط الله وغضبه ، فتفرق فى أعضائه كلها ، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول ، فتتقطع معها العروق والعصب» قال : « فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها ، فيجعلونها فى تلك المسوح » قال : « فيخرج منها كأنتن ما يكون من جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ،

فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : فلان بن فلان ، بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا ، حتى ينتهوا إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون لها فلا يفتح لها » ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ) ثم يقول الله تعالى : اكتبوا كتابه فى سجين - فى الأرض السفلى - قال : «فتطرح روحه طرحا » ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) قال : « فتعاد روحه فى جسده ، فيأتيه ملكان فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه ، هاه ، لا أدرى» وساق الحديث كما تقدم إلى أن قال : « ويأتيه رجل قبيح الوجه منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذى يسوؤك ، هذا عملك الذى قد كنت توعد ، فيقول : من أنت فوجهك الوجه الذى لا يأتى بالخير ؟ قال : أنا عملك السوء . فيقول : رب لا تقم الساعة ثلاث مرات » .

فنى هذا الحديث أنواع من العلم :

منها : أن الروح تبقى بعد مفارقة البدن ، خلافا لضلال المتكلمين ، وأنها تصعد وتنزل خلافا لضلال الفلاسفة ، وأنها تعاد إلى البدن ، وأن الميت يسأل ، فينعم أو يعذب ، كما سأل عنه أهل السؤال ، وفيه أن عمله الصالح أو السيء يأتيه فى صورة حسنة أو قبيحة .

وفى الصحيحين عن قتادة عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى صلى الله

عليه وسلم قال : « إن العبد إذا وضع فى قبره ، وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع خفق نعالهم ، أتاه ملكان فيقررانه . فيقولان : ما كنت تقول فى هذا الرجل محمد ؟ فأما المؤمن فيقول أشهد أنه محمد عبد الله ورسوله » قال : « فيقول انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فيراهما كليهما » قال قتادة : وذكر لنا أنه يفسح له فى قبره سبعون ذراعا ، ويملأ عليه خضراً إلى يوم يبعثون » . ثم نرجع إلى حديث أنس ، ويأتيان الكافر والمنافق فيقولان: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ فيقول: لاأدرى كنت أقول كما يقول الناس . فيقول : لا دريت ولا تليت . ثم يضرب بمطارق من حديد بين أذنيه ، فيصيح صيحة فيسمعها من عليها غير الثقلين » .

وروى الترمذى وأبو حاتم فى صحيحه ـ وأكثر اللفظ له ـ عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا قبر أحدكم الإنسان : أتاه ملكان أسودان أزرقان ، يقال لهما منكر والآخر نكير . فيقولان له : ما كنت تقول فى هذا الرجل محمد ؟ فهو قائل : ما كان يقول ، فإن كان مؤمناً قال : هو عبد الله ورسوله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . فيقولان : إنا كنا لنعلم أنك تقول ذلك .

ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعاً ، وينور له فيه . ويقال له : نم . فيقول : أرجع إلى أهلى فأخبرهم . فيقولان له : نم . كنومة العروس : الذى لا يوقظه إلا أحب أهله إليه ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك . وإن كان منافقاً قال :

لا أدرى ، كنت أسمع الناس يقولون شيئاً فقلته . فيقولان : إنا كنا نعلم أنك تقول ذلك . ثم يقال للأرض : التئمى عليه ، فتلتئم عليه حتى تختلف فيها أضلاعه فلا يزال معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك » وهذا الحديث فيه اختلاف أضلاعه وغير ذلك مما يبين أن البدن نفسه يعذب .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا احتضر الميت أتتـه الملائكة بحريرة بيضاء . فيقولون : اخرجى كأطيب ريح المسك ، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً ، حتى يأتوا به باب السماء . فيقولون : ما أطيب هذا الريح متى جاءتكم من الأرض ؟ فيأتون به أرواح المؤمنين ، فلهم أشد فرحاً به من أحدكم بغائبه يقدم عليه ، يسألونه ماذا فعل فلان فيقولون دعوه فإنه فى غم الدنيا ، فإذا قال إنه أتاكم قالوا ذهب إلى أمه الهاوية . وأن الـكافر إذا احتضر أتته ملائكة العذاب بمسح . فيقولون : اخرجى مسخوطا عليك إلى عذاب الله ، فتخرج كأنتن جيفة ، حتى يأتوا به أرواح الـكفار » رواه النسائى والبزار ، ورواه مسلم مختصراً عن أبى هريرة رضى الله عنـــه . وعند الكافر ونتن رائحة روحه ، فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم ريطة كانت عليه على أنفه هكذا . والريطة : ثوب رقيق لين مثل الملاءة .

وأخرجه أبو حاتم فى صحيحه وقال : « إن المؤمن إذا حضره الموت حضرت ملائكة الرحمة ، فإذا قبضت نفسه جعلت فى حريرة بيضاء ، فتنطلق بها إلى باب السماء ، فيقولون ما وجدنا ريحاً أطيب من هذه الرائحة ، فيقال : دعوه

يستريح ، فإنه كان فى غم الدنيا . فيقال : ما فعل فلان ، ما فعلت فلانة ؟ وأما الكافر إذا قبضت روحه ذهب بها إلى الأرض تقول خزنة الأرض : ما وجدنا ريحاً أنتن من هذه، فيبلغ بها فى الأرض السفلى » ففى هذه الأحاديث ونحوها اجتماع الروح والبدن فى نعيم القبر وعذابه ، وأما انفراد الروح وحدها فقد تقدم بعض ذلك .

وعن كعب بن مالك رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنما نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة حتى يرجعه إلى جسده يوم يبعثه» رواه النسائى ورواه مالك والشافعى كلاهما . وقوله « يعلق » بالضم أى يأكل وقد نقل هذا فى غير هذا الحديث .

فقد أخبرت هذه النصوص أن الروح تنعم مع البدن الذى فى القبر - إذا شاء الله - وأنها تنعم فى الجنة وحدها ، وكلاهما حق .

وقد روى ابن أبى الدنيا فى كتاب ذكر الموت عن مالك بن أنس قال : « بلغنى أن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت » وهذا يوافق ماروى : «أن الروح قد تكون على أفنية القبور » كما قال مجاهد : إن الأرواح تدوم على القبور سبعة أيام يوم يدفن الميت لا تفارق ذلك ، وقد تعاد الروح إلى البدن فى غير وقت المسألة ، كما فى الحديث الذى صححه ابن عبد البر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من رجل يمر بقبر الرجل الذى كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام » .

وفى سنن أبى داود وغيره عن أوس بن أوس الثقفى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن خير أيامكم يوم الجمعة ، فأكثروا علىَّ من الصلاة يوم الجمعة ، وليلة الجمعة ؛ فإن صلاتكم معروضة على . قالوا : يا رسول الله ! كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ ! فقال : « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » .

وهذا الباب فيه من الأحاديث والآثار ما يضيق هذا الوقت عن استقصائه مما يبين أن الأبدان التى فى القبور تنعم وتعذب - إذا شاء الله ذلك - كما يشاء ، وأن الأرواح باقية بعد مفارقة البدن ، ومنعمة ومعذبة .

ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالسلام على الموتى ، كما ثبت فى الصحيح والسنن « أنه كان يعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقولوا : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لا حقون ، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية . اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم ، واغفر لنا ولهم » .

وقد انكشف لكثير من الناس ذلك حتى سمعوا صوت المعذبين فى قبورهم ، ورأوهم بعيونهم يعذبون فى قبورهم فى آثار كثيرة معروفة ، ولكن لا يجب ذلك أن يكون دائما على البدن فى كل وقت ؛ بل يجوز أن يكون فى حال دون حال .

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم ترك قتلى بدر ثلاثاً ، ثم أتاهم فقام عليهم فقال : « يا أبا جهل بن هشام ! يا أمية بن خلف ! يا عتبة بن ربيعة ! يا شيبة بن ربيعة ! أليس قد وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقاً » فسمع عمر رضى الله عنه قول النبي صلى الله عليه وسلم . فقال : يا رسول الله ! كيف يسمعون وقد جيفوا ؟ فقال : « والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا » ثم أمر بهم فسحبوا فألقوا فى قليب بدر .

وقد أخرجاه فى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم وقف على قليب بدر فقال « هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ » وقال « إنهم ليسمعون الآن ما أقول » فذكر ذلك لعائشة فقالت : وهم ابن عمر . إنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنهم ليعلمون الآن أن الذى قلت لهم هو الحق » ثم قرأت قوله تعالى (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ) حتى قرأت الآية .

وأهل العلم بالحديث والسنة : اتفقوا على صحة ما رواه أنس وابن عمر وإن كانا لم يشهدا بدراً ، فإن أنساً روى ذلك عن أبى طلحة ، وأبو طلحة شهد بدراً . كما روى أبو حاتم فى صحيحه عن أنس عن أبى طلحة رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش ، فقذفوا فى طوى من أطواء بدر ، وكان إذا ظهر على قوم أحب أن يقيم فى عرصتهم ثلاث ليال :

فلما كان اليوم الثالث : أمر براحلته فشد عليها فحركها ، ثم مشى وتبعه أصحابه . وقالوا : ما نراه ينطلق إلا لبعض حاجته ؛ حتى قام على شفاء الركى ؛ فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم ، يا فلان بن فلان ! أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً . فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ قال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ! ما تكلم من أجساد ولا أرواح فيها . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده ؛ ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » .

قال قتادة : أحياهم الله حتى سمعهم توبيخاً وتصغيراً ، ونقمة وحسرة وتنديماً . وعائشة تأولت فيما ذكرته كما تأولت أمثال ذلك .

والنص الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم مقدم على تأويل من تأول من أصحابه وغيره ، وليس فى القرآن ما ينفى ذلك فإن قوله : (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ) إنما أراد به السماع المعتاد ، الذى ينفع صاحبه ، فإن هذا مثل ضرب للكفار ، والكفار تسمع الصوت ، لكن لا تسمع سماع قبول بفقه واتباع ، كما قال تعالى : (وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً) .

فهكذا الموتى الذين ضرب لهم المثل ، لا يجب أن ينفى عنهم جميعُ السماع المعتاد أنواعَ السماع ، كما لم ينف ذلك عن الكفار ؛ بل قد انتفى عنهم السماع المعتاد الذى ينتفعون به ، وأما سماع آخر فلا ينفى عنهم .

وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما أن الميت يسمع خفق نعـالهم ، إذا ولوا مدبرين ، فهذا موافق لهذا ، فكيف يدفع ذلك ؟ ومن العلماء من قال : إن الميت فى قبره لا يسمع ما دام ميتاً ، كما قالت عائشة . واستدلت به من القرآن ، وأما إذا أحياه الله فإنه يسمع كما قال قتادة : أحياهم الله له . وإن كانت تلك الحيـاة لا يسمعون بها ، كما نحن لا نرى الملائكة والجن ، ولا نعلم ما يحس به الميت فى منامه ، وكما لا يعلم الإنسان ما فى قلب الآخر ، وإن كان قد يعلم ذلك من أطلعه الله عليه .

[وهذه] جملة يحصل بها مقصود السائل ، وإن كان لها من الشرح والتفصيل ما ليس هذا موضعه ، فإن ما ذكرناه من الأدلة البينة على ما سأل عنه ما لا يكاد مجموعاً . والله أعلم .

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

قال شيخ الإسلام

قدس الله روحه

سأل سائل : بماذا يخاطب الناس يوم البعث ؟ وهل يخاطبهم الله تعالى بلسان العرب ؟ وهل صح أن لسان أهـــل النار الفارسية وأن لسان أهل الجنة العربية ؟!

فأجبته بعد « الحمد لله رب العالمين » : لا يعلم بأى لغة يتكلم الناس يومئذ ، ولا بأى لغة يسمعون خطاب الرب جل وعلا ؛ لأن الله تعالى لم يخبرنا بشيء من ذلك ، ولا رسوله عليه الصلاة والسلام ، ولم يصح أن الفارسية لغة الجهنميين ولا أن العربية لغة أهل النعيم الأبدى ، ولا نعلم نزاعا فى ذلك بين الصحابة رضى الله عنهم ، بل كلهم يكفون عن ذلك ، لأن الكلام فى مثل هذا من فضول القول ، ولا قال الله تعالى لأصحاب الثرى ، ولـكن حدث فى ذلك خلاف بين المتأخرين .

فقال ناس : يتخاطبون بالعربية . وقال آخرون إلا أهل النار فإنهم يجيبون بالفارسية ، وهى لغتهم فى النار .

وقال آخرون : يتخاطبون بالسريانية ، لأنها لغة آدم ، وعنها تفرعت اللغات .

وقال آخرون : إلا أهل الجنة فإنهم يتكلمون بالعربية . وكل هذه الأقوال لا حجة لأربابها ، لا من طريق عقل ولا نقل ، بل هى دعاوى عارية عن الأدلة والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم .

سئل عن (الميزان) :

هل هو عبارة عن العدل ؟ أم له كفتان ؟

فأجاب : « الميزان » هو ما يوزن به الأعمال ، وهو غير العدل كما دل على ذلك الكتاب والسنة مثل قوله تعالى : (فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ) ، (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ) وقوله : (وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ) .

وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » وقال عن ساقى عبد الله بن مسعود : « لهما فى الميزان أثقل من أحد » وفى الترمذى وغيره حديث البطاقة ، وصححه الترمذى ، والحاكم ، وغيرهما فى الرجل الذى يؤتى به فينشر له تسعة وتسعون سجلا ، كل سجل منها مد البصر ، فيوضع فى كفة ، ويؤتى له ببطاقة فيها شهادة أن لا إله إلا الله . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « فطاشت السجلات وثقلت البطاقة » .

وهذا وأمثاله مما يبين أن الأعمال توزن بموازين تبين بها رجحان الحسنات على السيئات وبالعكس ، فهو ما به تبين العدل . والمقصود بالوزن العدل كموازين الدنيا .

وأما كيفية تلك الموازين فهو بمنزلة كيفية سائر ما أخبرنا به من الغيب .

قال الشيخ :

و (أطفال الكفار) أصح الأقوال فيهم : « الله أعلم بما كانوا عاملين » كما أجاب بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح ، وطائفة من أهل الحديث وغيرهم قالوا : إنهم كلهم فى النار . وذكر أنه من نصوص أحمد وهو غلط على أحمد .

وطائفة جزموا بأنهم كلهم فى الجنة ، واختار ذلك أبو الفرج ابن الجوزى وغيره ، واحتجوا بحديث فيه رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى إبراهيم الخليل وعنده أطفال المؤمنين ، قيل يا رسول الله ، وأطفال المشركين ؟ قال : « وأطفال المشركين » .

والصواب أن يقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » ولا نحكم لمعين منهم بجنة ولا نار ، وقد جاء فى عدة أحاديث: « أنهم يوم القيامة فى عرصات القيامة يؤمرون وينهون ، فمن أطاع دخل الجنة ، ومن عصى دخل النار » . وهذا هو الذى ذكره أبو الحسن الأشعرى عن (أهل السنة والجماعة) . والتكليف إنما ينقطع بدخول دار الجزاء ، وهى الجنة والنار .

وأما عرصات القيامة فيمتحنون فيها كما يمتحنون فى البرزخ. فيقال لأحدهم: من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ وقال تعالى : (يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ) الآية .

وقد ثبت فى الصحاح من غير وجه حديث تجلى الله لعباده فى الموقف ، إذا قيل : « ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون ؛ فيتبع المشركون آلهتهم ، ويبقى المؤمنون فيتجلى لهم الرب فى غير الصورة التى يعرفون فينكرونه ثم يتجلى لهم فى الصورة التى يعرفونها ، فيسجد له المؤمنون ، وتبقى ظهور المنافقين كقرون البقر ، يريدون السجود فلا يستطيعون » . وذكر قوله : (يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ) الآية . والكلام على هذه الأمور مبسوط فى غير هذا الموضع والله أعلم .

سئل عن (الكفار) :

هل يحاسبون يوم القيامة أم لا ؟

فأجاب :

هذه « المسألة » تنازع فيها المتأخرون من أصحاب أحمد ، وغيرهم ، فمن قال إنهم لا يحاسبون : أبو بكر عبد العزيز ، وأبو الحسن التميمى ، والقاضى أبو يعلى ، وغيرهم ، وممن قال : إنهم يحاسبون : أبو حفص البرمكى من أصحاب أحمد ، وأبو سليمان الدمشقى ، وأبو طالب المكى .

و (فصل الخطاب) أن الحساب يراد به عرض أعمالهم عليهم وتوبيخهم عليها ، ويراد بالحساب موازنة الحسنات بالسيئات .

فإن أريد بالحساب المعنى الأول فلا ريب أنهم يحاسبون بهذا الاعتبار .

وإن أريد المعنى الثانى فإن قصد بذلك أن الكفار تبقى لهم حسنات يستحقون بها الجنة فهذا خطأ ظاهر .

وإن أريد أنهم يتفاوتون فى العقاب ؛ فعقاب من كثرت سيآته أعظم من

عقاب من قلت سيآته ، ومن كان له حسنات خفف عنه العذاب ، كما أن أبا طالب أخف عذاباً من أبي لهب .

وقال تعالى : (ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ) ، وقال تعالى : (إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ) ، والنار دركات ، فإذا كان بعض الكفار عذابه أشد عذاباً من بعض ـ لكثرة سيئاته وقلة حسناته ـ كان الحساب لبيان مراتب العذاب ، لا لأجل دخولهم الجنة .

سئل شيخ الإسلام :

أبو العباس تقي الدين بن تيمية ـ قدس الله روحه

عن العبد المؤمن هل يكفر بالمعصية أم لا ؟

فأجاب :

لا يكفر بمجرد الذنب ، فإنه ثبت بالكتاب والسنة وإجماع السلف أن الزاني غير المحصن يجلد ولا يقتل ، والشارب يجلد ، والقاذف يجلد ، والسارق يقطع .

ولو كانوا كفاراً لكانوا مرتدين ووجب قتلهم ، وهذا خلاف الكتاب والسنة وإجماع السلف .

سئل :-

عن رجل مسلم يعمل عملا يستوجب أن يبنى له قصر فى الجنة ، ويغرس له غراس باسمه . ثم يعمل ذنوباً يستوجب بها النار ، فإذا دخل النار كيف يكون اسمه أنه فى الجنة وهو فى النار ؟!.

فأجاب :

إن تاب عن ذنوبه توبة نصوحاً : فإن الله يغفر له ، ولا يحرمه ما كان وعده ؛ بل يعطيه ذلك .

وإن لم يتب وزنت حسناته وسيئاته . فإن رجحت حسناته على سيئاته كان من أهل الثواب ، وإن رجحت سيئاته على حسناته كان من أهل العذاب .

وما أعد له من الثواب يحبط حينئذ بالسيئات ، التى زادت على حسناته ، كما أنه إذا عمل سيئات استحق بها النار، ثم عمل بعدها حسنات : تذهب السيئات والله أعلم .

وسئل :-

عن الشفاعة فى « أهل الكبائر » من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وهل يدخلون الجنة أم لا ؟ .

فأجاب :

إن أحاديث الشفاعة فى «أهل الكبائر» ثابتة متواترة عن النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وقد اتفق عليها السلف من الصحابة ، وتابعيهم بإحسان ، وأئمة المسلمين ؛ وإنما نازع فى ذلك أهل البدع من الخوارج ، والمعتزلة ، ونحوهم .

ولا يبقى فى النار أحد فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، بل كلهم يخرجون من النار ويدخلون الجنة ، ويبقى فى الجنة فضل . فينشئ الله لها خلقاً آخر يدخلهم الجنة ، كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم .

وسئل : -

عن «أطفال المؤمنين» هل يدومون على حالتهم التى ماتوا عليها ؟ أم يكبرون ويتزوجون ؟ وكذلك البنات هل يتزوجن ؟ .

الجواب :

الحمد لله .

إذا دخلوا الجنة دخلوها كما يدخلها الكبار ، على صورة أبيهم آدم ، طوله ستون ذراعاً فى عرض سبعة أذرع ، ويتزوجون كما يتزوج الكبار .

ومن مات من النساء ولم يتزوجن ، فإنها تزوج فى الآخرة .

وكذلك من مات من الرجال فإنه يتزوج فى الآخرة . والله تعالى أعلم .

سئل الشيخ رحمه الله :ـ

هل يتناسل أهل الجنة ؟ . «والولدان » هل هم ولدان أهل الجنة ؟ وما حكم الأولاد وأرواح أهل الجنة والنار إذا خرجت من الجسد ، هل تكون فى الجنة تنعم ؟ أم تكون فى مكان مخصوص إلى حيث يبعث الله الجسد ؟ وما حكم ولد الزنا إذا مات يكون من أهل الأعراف، أو فى الجنة ؟ وماالصحيح فى أولاد المشركين هل هم من أهل النار أو من أهل الجنة ؟ وهل تسمى الأيام فى الآخرة كما تسمى فى الدنيا مثل السبت والأحد ؟ ! .

فأجاب :ـ

«الولدان» الذين يطوفون على أهل الجنة خلق من خلق الجنة ؛ ليسوا بأبناء أهل الدنيا ، بل أبناء أهل الدنيا اذا دخلو الجنة يكمل خلقهم كأهل الجنة ، على صورة آدم أبناء ثلاث وثلاثين سنة ، فى طول ستين ذراعاً .

وقد روى أيضاً أن العرض سبعة أذرع .

وأرواح المؤمنين فى الجنة ، وأرواح الكافرين فى النار ؛ تنعم أرواح المؤمنين وتعذب أرواح الكافرين ، إلى أن تعاد إلى الأبدان .

و « ولد الزنا » إن آمن وعمل صالحاً دخل الجنة ، وإلا جوزى بعمله كما يجازى غيره ، والجزاء على الأعمال ، لا على النسب ، وإنما يذم ولد الزنا لأنه مظنة أن يعمل عملا خبيثاً ، كما يقع كثيراً . كما تحمد الأنساب الفاضلة لأنها مظنة عمل الخير ؛ فأما إذا ظهر العمل فالجزاء عليه ، وأكرم الخلق عند الله أتقاهم .

وأما « أولاد المشركين » فأصح الأجوبة فيهم جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما فى الصحيحين « ما من مولود إلا يولد على الفطرة » الحديث قيل يا رسول الله أرأيت من يموت من أطفال المشركين وهو صغير ؟ قال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » فلا يحكم على معين منهم لا بجنة ولا بنار . ويروى « أنهم يوم القيامة يمتحنون فى عرصات القيامة ، فمن أطاع الله حينئذ دخل الجنة ومن عصى دخل النار » .

ودلت الأحاديث الصحيحة أن بعضهم فى الجنة ، وبعضهم فى النار . والجنة ليس فيها شمس ولا قمر ، ولا ليل ولا نهار ، لكن تعرف البكرة والعشية بنور يظهر من قبل العرش ، والله أعلم .

وسئل رحمه الله :

عن رجل قيل له : إنه ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن أهل الجنة يأكلون ويشربون ، ويتمتعون ، ولا يبولون ولا يتغوطون » فقال : من أكل وشرب بال وتغوط . ثم قيل له : إن فى الجنة طيوراً إذا اشتهى صار قدامه على أى صورة أراد من الأطعمة وغيرها ، فقال : هذا فشار . هل بجحده هذا يكفر ويجب قتله أم لا ؟

فأجاب :ـ

الأكل والشرب فى الجنة ثابت بكتاب الله، وسنة رسوله، وإجماع المسلمين. وهو معلوم بالاضطرار من دين الإسلام ، وكذلك الطيور والقصور فى الجنة بلا ريب ، كما وصف ذلك فى الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذلك إن أهل الجنة لايبولون ولايتغوطون ولا يبصقون ، لم يخالف من المؤمنين بالله ورسوله أحد ، وإنما المخالف فى ذلك أحد رجلين : إما كافر ، وإما منافق.

أما الكافر فإن اليهود والنصارى ينكرون الأكل والشرب والنكاح فى

الجنة ، يزعمون أن أهل الجنة إنما يتمتعون بالأصوات المطربة والأرواح الطيبة مع نعيم الأرواح ، وهم يقرون مع ذلك بحشر الأجساد مع الأرواح ونعيمها وعذابها .

وأما طوائف من الكفار وغيرهم من الصابئة والفلاسفة ومن وافقهم فيقرون بحشر الأرواح فقط ، وأن النعيم والعذاب للأرواح فقط .

وطوائف من الكفار والمشركين وغيرهم ينكرون المعاد بالكلية ، فلا يقرون لا بمعاد الأرواح ؛ ولا الأجساد . وقد بين الله تعالى فى كتابه على لسان رسوله أمر معاد الأرواح، والأجساد ، ورد على الكافرين والمنكرين لشيء من ذلك بياناً فى غاية التمام ، والكمال .

وأما المنافقون من هذه الأمة الذين لا يقرون بألفاظ القرآن والسنة المشهورة فإنهم يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويقولون هذه أمثال ضربت لنفهم المعاد الروحانى ، وهؤلاء مثل القرامطة الباطنية الذين قولهم مؤلف من قول المجوس والصابئة ، ومثل المتفلسفة الصابئة المنتسبين إلى الإسلام ، وطائفة ممن ضاهوهم من كاتب ، أو متطبب ، أو متكلم ، أو متصوف كأصحاب «رسائل إخوان الصفا» وغيرهم، أو منافق . وهؤلاء كلهم كفار يجب قتلهم باتفاق أهل الإيمان ؛ فإن محمداً صلى الله عليه وسلم قد بين ذلك بياناً شافياً قاطعاً للعذر ،

وتواتر ذلك عند أمته خاصها وعامها ، وقد ناظره بعض اليهود فى جنس هذه المسألة وقال : يا محمد ! أنت تقول : إن أهل الجنة يأكلون ويشربون ومن يأكل ويشرب لابد له من خلاء . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « رشح كرشح المسك » .

ويجب على ولى الأمر قتل من أنكر ذلك ولو أظهر التصديق بألفاظه ، فكيف بمن ينكر الجميع ؟ والله أعلم .

سئل رحمه الله :-

هل أهل الجنة يأكلون ويشربون وينكحون بتلذذ كالدنيا ؟

وهل تبعث هذه الأجسام بعينها ؟

وهل عيسى حى أم ميت ؟

وهل إذا نزل يحكم بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم أم بشريعته الأولى أم تحدث له شريعة ؟

فأجاب رضى الله عنه :

أما أهل الجنة فيأكلون ، ويشربون ، وينكحون ، متنعمين بذلك بإجماع المسلمين كما نطق به الكتاب والسنة وإنما ينكر ذلك من ينكره من اليهود والنصارى .

وهذه الأجساد هى التى تبعث كما نطق به الكتاب والسنة .

وعيسى حى فى السماء لم يمت بعد . وإذا نزل من السماء لم يحكم إلا بالكتاب والسنة ؛ لا بشىء يخالف ذلك والله أعلم .

قال شيخ الإسلام - قدس الله روحه -

فصـــــل

وأفضل « الأنبياء » بعد محمد صلى الله عليه وسلم « إبراهيم الخليل » ، كما ثبت فى صحيح مسلم عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه خير البرية » .

وكذلك قال العلماء : منهم الربيع بن خيثم قال : لا أفضل على نبينا أحداً ، ولا أفضل على إبراهيم بعد نبينا أحداً .

سئل رحمه الله تعالى :

فيمن يقول : إن غير الأنبياء يبلغ درجتهم بحيث يأمنون مكر الله هل يأثم بهذا الاعتقاد ؟ .

فأجاب :

من اعتقد أن فى أولياء الله من لا يجب عليه اتباع المرسلين وطاعتهم فهو كافر ،يستتاب فإن تاب وإلا قتل ، مثل من يعتقد أن فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم من يستغنى عن متابعته كما استغنى الخضر عن متابعة موسى ، فإن موسى لم تـكن دعوته عامة ، بخلاف محمد صلى الله عليه وسلم فإنه مبعوث إلى كل أحد ، فيجب على كل أحد متابعة أمره ، وإذا كان من اعتقد سقوط طاعته عنه كافراً ؛ فـكيف من اعتقد أنه أفضل منه ؟ أو أنه يصير مثله .

وأما من اعتقد أن من الأولياء من يعلم أنه من أهل الجنة كما بشر غير واحد من الصحابة بالجنة ، وكما قد يعرف الله بعض الأولياء أنه من أهل الجنة فهذا لا يكفر .

ومع هذا فلا بد له من خشية الله تعالى ، والله أعلم .

سئل الشيخ رحمه الله :

عن رجل قال : إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من الكبائر ، دون الصغائر ، فكفره رجل بهذه ، فهل قائل ذلك مخطئ أو مصيب ؟ وهل قال أحد منهم بعصمة الأنبياء مطلقا ؟ وما الصواب فى ذلك ؟ .

فأجاب :

الحمد لله رب العالمين . ليس هو كافرا باتفاق أهل الدين ، ولا هذا من مسائل السب المتنازع فى استتابة قائله بلا نزاع ، كما صرح بذلك القاضى عياض وأمثاله مع مبالغتهم فى القول بالعصمة ، وفى عقوبة الساب ؛ ومع هذا فهم متفقون على أن القول بمثل ذلك ليس هو من مسائل السب والعقوبة ، فضلا أن يكون قائل ذلك كافراً ، أو فاسقاً ، فإن القول بأن الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام وجميع الطوائف ، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام ، كما ذكر « أبو الحسن الآمدى » أن هذا قول أكثر الأشعرية ، وهو أيضاً قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء ، بل هو لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول ، ولم ينقل عنهم ما يوافق القول[1] .

(١) بياض قدر ستة أسطر .

وإنما نقل ذلك القول فى العصر المتقدم عن الرافضة ، ثم عن بعض المعتزلة ، ثم وافقهم عليه طائفة من المتأخرين .

وعامة ما ينقل عن جمهور العلماء أنهم غير معصومين عن الإقرار على الصغائر ولا يقرون عليها ، ولا يقولون إنها لا تقع بحال ، وأول من نقل عنهم من طوائف الأمة القول بالعصمة مطلقا وأعظمهم قولا لذلك : الرافضة ؛ فإنهم يقولون بالعصمة حتى ما يقع على سبيل النسيان والسهو والتأويل .

وينقلون ذلك إلى من يعتقدون إمامته ، وقالوا بعصمة على ، والاثنى عشر ، ثم «الإسماعيلية» الذين كانوا ملوك القاهرة ، وكانوا يزعمون أنهم خلفاء علويون فاطميون ، وهم عند أهل العلم من ذرية عبيد الله القداح ، كانوا هم وأتباعهم يقولون بمثل هذه العصمة لأئمتهم ونحوهم ، مع كونهم كما قال فيهم أبو حامد الغزالى — فى كتابه الذى صنفه فى الرد عليهم — قال : ظاهر مذهبهم الرفض ، وباطنه الكفر المحض .

وقد صنف « القاضى أبو يعلى » وصف مذاهبهم فى كتبه ، وكذلك غير هؤلاء من علماء المسلمين ، فهؤلاء وأمثالهم من الغلاة القائلين بالعصمة ، وقد يكفرون من ينكر القول بها ، وهؤلاء الغالية هم كفار باتفاق المسلمين ، فمن كفر القائلين بتجويز الصغائر عليهم كان مضاهياً لهؤلاء الإسماعيلية ، والنصيرية ، والرافضة ، والاثنى عشرية ؛ ليس هو قول أحد من أصحاب أبى حنيفة ، ولا مالك ، ولا الشافعى ، ولا المتكلمين ـ المنتسبين إلى السنة المشهورين ـ كأصحاب

أبى محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب ، وأبى الحسن على بن إسماعيل الأشعرى ، وأبى عبد الله محمد بن كرام ، وغير هؤلاء . ولا أئمة التفسير ولا الحديث ، ولا التصوف . ليس التكفير بهذه المسألة قول هؤلاء ، فالمكفر بمثل ذلك يستتاب فإن تاب وإلا عوقب على ذلك عقوبة تردعه وأمثاله عن مثل هذا ، إلا أن يظهر منه ما يقتضى كفره وزندقته فيكون حكمه حكم أمثاله .

وكذلك المفسق بمثل هذا القول يجب أن يعزر بعد إقامة الحجة عليه ؛ فإن هذا تفسيق لجمهور أئمة الإسلام .

وأما التصويب والتخطئة فى ذلك فهو من كلام العلماء الحافظين من علماء المسلمين المنتسبين إلى السنة والجماعة . وتفصيل القول فى ذلك يحتاج إلى بسط طويل لا تحتمله هذا الفتوى . والله أعلم ؟ .

سئل رحمه الله تعالى :

عن رجلين تنازعا فى أمر نبي الله «عيسى بن مريم» — عليه السلام — فقال أحدهما : إن عيسى بن مريم توفاه الله ثم رفعه إليه ، وقال الآخر : بل رفعه إليه حيا . فما الصواب فى ذلك . وهل رفعه بجسده ، أو روحه أم لا ؟ وما الدليل على هذا وهذا ؟ وما تفسير قوله تعالى : (إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ) ؟ !

فأجاب :

الحمد لله . عيسى عليه السلام حى ، وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا وإماما مقسطا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية » وثبت فى الصحيح عنه « أنه ينزل على المنارة البيضاء شرقى دمشق ، وأنه يقتل الدجال » . ومن فارقت روحه جسده لم ينزل جسده من السماء ، وإذا أحيي فإنه يقوم من قبره .

وأما قوله تعالى : (إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) فهذا دليل على أنه لم يعن بذلك الموت ؛ إذ لو أراد بذلك الموت لكان عيسى فى ذلك كسائر المؤمنين ؛ فإن الله يقبض أرواحهم ويعرج بها إلى السماء ، فعلم أن ليس فى ذلك خاصية . وكذلك قوله : (وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا)، ولو

كان قد فارقت روحه جسده لكان بدنه فى الأرض كبدن سائر الأنبياء ، أو غيره من الأنبياء .

وقد قال تعالى فى الآية الأخرى : (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ) فقوله هنا : (بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ) يبين أنه رفع بدنه وروحه كما ثبت فى الصحيح أنه ينزل بدنه وروحه ، إذ لو أريد موته لقال : وما قتلوه وما صلبوه ؛ بل مات . فقوله : (بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ) يبين أنه رفع بدنه وروحه كما ثبت فى الصحيح أنه ينزل بدنه وروحه .

ولهذا قال من قال من العلماء : إنى متوفيك أى قابضك أى قابض روحك وبدنك ، يقال : توفيت الحساب واستوفيته . ولفظ التوفى لا يقتضى نفسه توفى الروح دون البدن ، ولا توفيهما جميعاً ، إلا بقرينة منفصلة .

وقد يراد به توفى النوم كقوله تعالى : (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا) ، وقوله : (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ) ، وقوله : (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا) ، وقد ذكروا فى صفة توفى المسيح ما هو مذكور فى موضعه . والله تعالى أعلم .

سئل الشيخ رحمه الله تعالى :-

هل صح عن النبي صلى الله عليه وسلم : أن الله تبارك وتعالى أحيا له أبويه حتى أسلما على يديه ثم ماتا بعد ذلك ؟

فأجاب :-

لم يصح ذلك عن أحد من أهل الحديث ، بل أهل المعرفة متفقون على أن ذلك كذب مختلق ، وإن كان قد روى فى ذلك أبو بكر - يعنى الخطيب فى كتابه « السابق واللاحق » ، وذكره أبو القاسم السهيلى فى « شرح السيرة » بإسناد فيه مجاهيل ، وذكره أبو عبدالله القرطبي فى « التذكرة » وأمثال هذه المواضع فلا نزاع بين أهل المعرفة أنه من أظهر الموضوعات كذباً كما نص عليه أهل العلم ، وليس ذلك فى الكتب المعتمدة فى الحديث ، لا فى الصحيح ولا فى السنن ولا فى المسانيد ونحو ذلك من كتب الحديث المعروفة ، ولا ذكره أهل كتب المغازى والتفسير ، وإن كانوا قد يروون الضعيف مع الصحيح . لأن ظهور كذب ذلك لا يخفى على متدين ، فإن مثل هذا لو وقع لكان مما تتوافر الهمم والدواعى على نقله ، فإنه من أعظم الأمور خرقاً للعادة من وجهين :

من جهة إحياء الموتى : ومن جهة الإيمان بعد الموت . فكان نقل مثل هذا أولى من نقل غيره ، فلما لم يروه أحد من الثقات علم أنه كذب .

والخطيب البغدادى هو فى كتاب « السابق واللاحق » مقصوده أن يذكر من تقدم ومن تأخر من المحدثين عن شخص واحد سواء كان الذى يروونه صدقاً أو كذباً ، وابن شاهين يروى الغث والسمين . والسهيلى إنما ذكر ذلك بإسناد فيه مجاهيل .

ثم هذا خلاف الكتاب ، والسنة الصحيحة ، والإجماع . قال الله تعالى : (إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ) .

فبين الله تعالى : أنه لا توبة لمن مات كافراً . وقال تعالى : (فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ) ، فأخبر أن سنته فى عباده أنه لا ينفع الإيمان بعد رؤية البأس ؛ فكيف بعد الموت ؟ ونحو ذلك من النصوص .

وفى صحيح مسلم : « أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم : أين أبى ؟ قال : « إن أباك فى النار » . فلما أدبر دعاه فقال : « إن أبى وأباك فى النار » .

وفى صحيح مسلم أيضاً أنه قال : « استأذنت ربى أن أزور قبر أمى ،

فأذن لى ، واستأذنته فى أن أستغفر لها فلم يأذن لى . فزوروا القبور فإنها تذكر الآخرة » .

وفى الحديث الذى فى المسند وغيره قال : « إن أمى مع أمك فى النار » ، فإن قيل : هذا فى عام الفتح والإحياء كان بعد ذلك فى حجة الوداع ، ولهذا ذكر ذلك من ذكره وبهذا اعتذر صاحب التذكرة ، وهذا باطل لوجوه : ـ

(الأول) : إن الخبر عما كان ويكون لا يدخله نسخ ، كقوله فى أبى لهب : (سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ) ، وكقوله فى الوليد : (سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا) .

وكذلك فى : « إن أبى وأباك فى النار » و « إن أمى وأمك فى النار » ، وهذا ليس خبراً عن نار يخرج منها صاحبها كأهل الكبائر ؛ لأنه لو كان كذلك لجاز الاستغفار لهما ، ولو كان قد سبق فى علم الله إيمانهما لم ينهه عن ذلك ، فان الأعمال بالخواتيم ، ومن مات مؤمناً فإن الله يغفر له فلا يكون الاستغفار له ممتنعاً .

(الثانى) : أن النبى صلى الله عليه وسلم زار قبر أمه لأنها كانت بطريقه « بالحجون » عند مكة عام الفتح ، وأما أبوه فلم يكن هناك ، ولم يزره إذ كان مدفوناً بالشام فى غير طريقه ، فكيف يقال : أحيي له ؟ .

(الثالث) : إنهما لو كانا مؤمنين إيمـــاناً ينفع كانا أحق بالشهرة والذكر من عميه : حمزة ، والعباس ، وهذا أبعد مما يقوله الجهال من الرافضة ونحوهم ،

من أن أبا طالب آمن ، ويحتجون بما فى «السيرة» من الحديث الضعيف ، وفيه أنه تكلم بكلام خفى وقت الموت .

ولو أن العباس ذكر أنه آمن لما كان قال للنبي صلى الله عليه وسلم : عمك الشيخ الضال كان ينفعك فهل نفعته بشىء ؟ فقال : « وجدته فى غمرة من نار فشفعت فيه حتى صار فى ضحضاح من نار ، فى رجليه نعلان من نار يغلى منهما دماغه ، ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار » .

هذا باطل مخالف لما فى الصحيح وغيره فإنه كان آخر شىء قاله : هو على ملة عبد المطلب ، وأن العباس لم يشهد موته ، مع أن ذلك لو صح لكان أبو طالب أحق بالشهرة من حمزة والعباس ، فلما كان من العلم المتواتر المستفيض بين الأمة خلفاً عن سلف أنه لم يذكر أبو طالب ولا أبواه فى جملة من يذكر من أهله المؤمنين ، كحمزة ، والعباس ، وعلى ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين رضى الله عنهم ، كان هذا من أبين الأدلة على أن ذلك كذب .

(الرابع) : أن الله تعالى قال (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ ـ إلى قوله ـ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ) الآية . وقال تعالى (وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ).

فأمر بالتأسى بإبراهيم والذين معه ، إلا فى وعد إبراهيم لأبيه بالاستغفار . وأخبر أنه لما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه والله أعلم . ؟

سئل رحمه الله :-

عن هذه الأحاديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى « موسى » عليه السلام وهو يصلى فى قبره ، ورآه وهو يطوف بالبيت ، ورآه فى السماء ؛ وكذلك بعض الأنبياء . وهل إذا مات أحد يبقى له عمل ؟ والحديث أنه ينقطع عمله . وهل ينتفع بهذه الصلاة والطواف ؟ وهل رأى الأنبياء بأجسادهم فى هذه الأماكن أم بأرواحهم ؟

فأجاب :

الحمد لله رب العالمين . أما رؤيا موسى عليه السلام فى الطواف فهذا كان رؤيا منام لم يكن ليلة المعراج ، كذلك جاء مفسراً كما رأى المسيح أيضاً ، ورأى الدجال . وأما رؤيته ورؤية غيره من الأنبياء ليلة المعراج فى السماء لما رأى آدم فى السماء الدنيا ، ورأى يحيي وعيسى فى السماء الثانية ، ويوسف فى الثالثة ، وإدريس فى الرابعة ، وهارون فى الخامسة ، وموسى فى السادسة ، وإبراهيم فى السابعة ، أو بالعكس ، فهذا رأى أرواحهم مصورة فى صور أبدانهم .

وقد قال بعض الناس : لعله رأى نفس الأجساد المدفونة فى القبور ؛ وهذا ليس بشيء .

لكن « عيسى » صعد إلى السماء بروحه وجسده ، وكذلك قد قيل في « إدريس » .

وأما «إبراهيم» «وموسى» وغيرهما فهم مدفونون فى الأرض .

والمسيح - صلى الله عليه وسلم وعلى سائر النبيين - لا بد أن ينزل إلى الأرض على المنارة البيضاء شرقى دمشق فيقتل الدجال ، ويكسر الصليب ، ويقتل الخنزير كما ثبت ذلك فى الأحاديث الصحيحة ؛ ولهذا كان فى السماء الثانية مع أنه أفضل من يوسف ، وإدريس ، وهارون ؛ لأنه يريد النزول إلى الأرض قبل يوم القيامة ، بخلاف غيره .

وآدم كان فى سماء الدنيا لأن نسم بنيه تعرض عليه : أرواح السعداء - والأشقياء لا تفتح لهم أبواب السماء ، ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط - فلا بد إذا عرضوا عليه أن يكون قريباً منهم .

وأما كونه رأى موسى قائماً يصلى فى قبره، ورآه فى السماء أيضاً فهذا لا منافاة بينهما ، فإن أمر الأرواح من جنس أمر الملائكة . فى اللحظة الواحدة تصعد ، وتهبط كالملك ، ليست فى ذلك كالبدن .

وقد بسطت الكلام على أحكام الأرواح بعد مفارقة الأبدان فى غير هذا الموضع ، وذكرت بعض ما فى ذلك من الأحاديث ، والآثار ، والدلائل .

وهذه الصلاة ونحوها مما يتمتع بها الميت ، ويتنعم بها كما يتنعم أهل الجنة

بالتسبيح ، فإنهم يلهمون التسبيح كما يلهم الناس فى الدنيا النفس ؛ فهذا ليس من عمل التكليف الذى يطلب له ثواب منفصل ، بل نفس هذا العمل هو من النعيم الذى تتنعم به الأنفس وتتلذذ به .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له » يريد به العمل الذى يكون له ثواب ، لم يرد به نفس العمل الذى يتنعم به ، فإن أهل الجنة يتنعمون بالنظر إلى الله ، ويتنعمون بذكره وتسبيحه ، ويتنعمون بقراءة القرآن ، ويقال لقارئ القرآن اقرأ وارق ، ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها .

ويتنعمون بمخاطبتهم لربهم ومناجاته ، وإن كانت هذه الأمور فى الدنيا أعمالا يترتب عليها الثواب ؛ فهى فى الآخرة أعمال يتنعم بها صاحبها أعظم من أكله وشربه ونكاحه ، وهذه كلها أعمال أيضاً ؛ والأكل والشرب والنكاح فى الدنيا مما يؤمر به ويثاب عليه مع النية الصالحة ، وهو فى الآخرة نفس الثواب الذى يتنعم به ، والله أعلم .

وهذا قدر ما احتملته هذه الورقة فإن هذه المسائل لها بسط طويل .

سئل الشيخ رحمه الله :-

عن « الذبيح » من ولد خليل الله إبراهيم عليه السلام ، هل هو : إسماعيل ، أو إسحاق ؟ .

فأجاب :

الحمد لله رب العالمين . هذه المسألة فيها مذهبان مشهوران للعلماء ، وكل منهما مذكور عن طائفة من السلف ، وذكر أبو يعلى فى ذلك روايتين عن أحمد ، ونصر أنه إسحاق ، اتباعاً لأبى بكر عبد العزيز ، وأبو بكر اتبع محمد ابن جرير . ولهذا يذكر أبو الفرج بن الجوزى : أن أصحاب أحمد ينصرون أنه إسحق ، وإنما ينصره هذان ، ومن اتبعهما ، ويحكى ذلك عن مالك نفسه لكن خالفه طائفة من أصحابه .

وذكر الشريف أبو على بن أبى يوسف : أن الصحيح فى مذهب أحمد أنه إسماعيل ، وهذا هو الذى رواه عبد الله بن أحمد عن أبيه ، قال : مذهب أبى أنه إسماعيل ، وفى الجملة فالنزاع فيها مشهور ، لكن الذى يجب القطع به أنه إسماعيل ، وهذا الذى عليه الكتاب والسنة والدلائل المشهورة ، وهو الذى تدل عليه التوراة التى بأيدى أهل الكتاب .

وأيضاً فإن فيها أنه قال لإبراهيم : اذبح ابنك وحيدك . وفى ترجمة أخرى : بكرك . وإسماعيل هو الذى كان وحيده وبكره باتفاق المسلمين وأهل الكتاب ، لكن أهل الكتاب حرفوا فزادوا إسحق ، فتلقى ذلك عنهم من تلقاه ، وشاع عند بعض المسلمين أنه إسحق ، وأصله من تحريف أهل الكتاب .

ومما يدل على أنه إسماعيل قصة الذبيح المذكورة فى سورة الصافات . قال تعالى : (فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ) ، وقد انطوت البشارة على ثلاث : على أن الولد غلام ذكر ، وأنه يبلغ الحلم ، وأنه يكون حليما . وأى حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح فقال : (سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ)؟ وقيل: لم ينعت الله الأنبياء بأقل من الحلم ، وذلك لعزة وجوده ، ولقد نعت إبراهيم به فى قوله تعالى : (إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ) ، (إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ) ، لأن الحادثة شهدت بحلمهما : (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ - إلى قوله - وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ) .

فهذه القصة تدل على أنه إسماعيل من وجوه :-

(أحدها) : أنه بشره بالذبيح وذكر قصته أولا ، فلما استوفى ذلك قال :

(وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ) ، فبين أنهما بشارتان : بشارة بالذبيح ، وبشارة ثانية بإسحق ، وهذا بين .

(الثانى) : أنه لم يذكر قصة الذبيح فى القرآن إلا فى هذا الموضع ، وفى سائر المواضع يذكر البشارة بإسحق خاصة ، كما فى سورة هود : من قوله تعالى : (وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ) ، فلو كان الذبيح إسحق لكان خلفا للوعد فى يعقوب . وقال تعالى : (فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ) ، وقال تعالى فى سورة الحجر : (قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ) ، ولم يذكر أنه الذبيح ، ثم لما ذكر البشارتين جميعا : البشارة بالذبيح والبشارة بإسحق بعده ، كان هذا من الأدلة على أن إسحق ليس هو الذبيح .

ويؤيد ذلك أنه ذكر هبته وهبة يعقوب لإبراهيم فى قوله تعالى : (وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ) ، وقوله : (وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ) ، ولم يذكر الله الذبيح .

(الوجه الثالث) : أنه ذكر فى الذبيح أنه غلام حليم ، ولما ذكر البشارة بإسحق ذكر البشارة بغلام عليم فى غير هذا الموضع ، والتخصيص لا بد له من حكمة ،

وهذا مما يقوى اقتران الوصفين ، والحلم هو مناسب للصبر الذى هو خلق الذبيح .

وإسماعيل وصف بالصبر فى قوله تعالى : (وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ) ، وهذا أيضاً وجه ثالث فإنه قال فى الذبيح : (يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ) ، وقد وصف الله إسماعيل أنه من الصابرين ، ووصف الله تعالى إسماعيل أيضاً بصدق الوعد فى قوله تعالى : (إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ) ؛ لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به .

الوجه الرابع :

أن البشارة بإسحق كانت معجزة ؛ لأن العجوز عقيم ؛ ولهذا قال الخليل عليه السلام : (أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ) وقالت امرأته : (ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًا) ، وقد سبق أن البشارة بإسحق فى حال الكبر ، وكانت البشارة مشتركة بين إبراهيم وامرأته .

وأما البشارة بالذبيح فكانت لإبراهيم عليه السلام ، وامتحن بذبحه دون الأم المبشرة به ، وهذا مما يوافق ما نقل عن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى الصحيح وغيره : من أن إسماعيل لما ولدته هاجر غارت سارة ، فذهب إبراهيم

بإسماعيل وأمه إلى مكة ، وهناك أمر بالذبح . وهذا مما يؤيد أن هذا الذبيح دون ذلك .

ومما يدل على أن الذبيح ليس هو إسحق أن الله تعالى قال : (فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ) ، فكيف يأمر بعد ذلك بذبحه ؟ والبشارة بيعقوب تقتضى أن إسحق يعيش ويولد له يعقوب ، ولا خلاف بين الناس أن قصة الذبيح كانت قبل ولادة يعقوب ، بل يعقوب إنما ولد بعد موت إبراهيم عليه السلام ، وقصة الذبيح كانت فى حياة إبراهيم بلا ريب .

ومما يدل على ذلك : أن قصة الذبيح كانت بمكة ، والنبى صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة كان قرنا الكبش فى الكعبة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم للسادن : « إنى آمرك أن تخمر قرنى الكبش فإنه لا ينبغى أن يكون فى القبلة ما يلهى المصلى » .

ولهذا جعلت منى محلا للنسك من عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وهما اللذان بنيا البيت بنص القرآن .

ولم ينقل أحد أن إسحق ذهب إلى مكة ، لا من أهل الكتاب ، ولا غيرهم ، لكن بعض المؤمنين من أهل الكتاب يزعمون أن قصة الذبح كانت بالشام ، فهذا افتراء . فإن هذا لو كان ببعض جبال الشام لعرف ذلك

الجبل ، وربما جعل منسكا كما جعل المسجد الذى بناه إبراهيم وما حوله من المشاعر .

وفى المسألة دلائل أخرى على ما ذكرناه ، وأسئلة أوردها طائفة كابن جرير ، والقاضى أبى يعلى ، والسهيلى ، ولكن لا يتسع هذا الموضع لذكرها والجواب عنها . والله عز وجل أعلم .

والحمد لله رب العالمين . وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليما .

وسئل رحمه الله :

عن « الخضر » و « إلياس » : هل هما معمران ؟ بينوا لنا رحمكم الله تعالى.

فأجاب :—

إنهما ليسا فى الأحياء ، ولا معمران ؛ وقد سأل إبراهيم الحربى أحمد ابن حنبل عن تعمير الخضر وإلياس ، وأنهما باقيان يريان ويروى عنهما ، فقال الإمام أحمد : من أحال على غائب لم ينصف منه ؛ وما ألقى هذا إلا شيطان .

وسئل « البخارى » عن الخضر وإلياس : هل هما فى الأحياء ؟ فقال : كيف يكون هذا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يبقى على رأس مائة سنة ممن هو على وجه الأرض أحد » ؟ !

وقال أبو الفرج بن الجوزى : قوله تعالى : (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ) ، وليس هما فى الأحياء ، والله أعلم .

سئل الشيخ رحمه الله[1] :-

هل كان الخضر عليه السلام نبياً أو ولياً ؟ وهل هو حى إلى الآن ؟ وإن كان حياً فما تقولون فيما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لو كان حياً لزارنى » هل هذا الحديث صحيح أم لا ؟

فأجاب : -

أما نبوته : فمن بعد مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يوح إليه ولا إلى غيره من الناس ، وأما قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم فقد اختلف فى نبوته ، ومن قال إنه نبي : لم يقل إنه سلب النبوة ؛ بل يقول هو كإلياس نبي ؛ لكنه لم يوح إليه فى هذه الأوقات ، وترك الوحى إليه فى مدة معينة ليس نفيا لحقيقة النبوة ، كما لو فتر الوحى عن النبي صلى الله عليه وسلم فى أثناء مدة رسالته .

وأكثر العلماء على أنه لم يكن نبياً ، مع أن نبوة من قبلنا يقرب كثير منها من الكرامة والكمال فى الأمة . وإن كان كل واحد من النبيين أفضل من كل

---

(١) هكذا وجدت هذه الرسالة .

واحد من الصديقين كما رتبه القرآن وكما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبي بكر الصديق » وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن كان الرجل ليسمع الصوت فيكون نبياً » .

وفى هذه الأمة من يسمعه ويرى الضوء وليس بنبي ؛ لأن مايراه ويسمعه يجب أن يعرضه على ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن وافقه فهو حق ، وإن خالفه تيقن أن الذى جاء من عند الله يقين لا يخالطه ريب ولا يحوجه أن يشهد عليه بموافقة غيره .

وأما حياته : فهو حى . والحديث المذكور لا أصل له ، ولا يعرف له إسناد ، بل المروى فى مسند الشافعى وغيره : أنه اجتمع بالنبي صلى عليه وسلم ، ومن قال إنه لم يجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم فقد قال ما لا علم له به ، فإنه من العلم الذى لا يحاط به .

ومن احتج على وفاته بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « أرأيتكم ليلتكم هذه فإنه على رأس مائة سنة لا يبقى على وجه الأرض ممن هو عليها اليوم أحد » فلا حجة فيه ، فإنه يمكن أن يكون الخضر إذ ذاك على وجه الأرض .

ولأن الدجال — وكذلك الجساسة ـ الصحيح أنه كان حياً موجوداً

على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو باق إلى اليوم لم يخرج ، وكان فى جزيرة من جزائر البحر .

فما كان من الجواب عنه كان هو الجواب عن الخضر ، وهو أن يكون لفظ الأرض لم يدخل فى هذا الخبر ، أو يكون أراد صلى الله عليه وسلم الآدميين المعروفين ، وأما من خرج عن العادة فلم يدخل فى العموم كما لم تدخل الجن ، وإن كان لفظاً ينتظم الجن والإنس . وتخصيص مثل هذا من مثل هذا العموم كثير معتاد .والله أعلم .

وسئل :ـ

عن النبي صلى الله عليه وسلم : هل يعلم وقت الساعة ؟

فأجاب :ـ

أما الحديث المسؤول عنه كونه صلى الله عليه وسلم «يعلم وقت الساعة» فلا أصل له ، ليس عن النبي صلى الله عليه وسلم فى تحديد وقت الساعة نص أصلا ، بل قد قال تعالى : (يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) أى خفى على أهل السموات والأرض ، وقال تعالى لموسى : (إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا) قال ابن عباس وغيره : أكاد أخفيها من نفسى فكيف أطلع عليها ؟

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة وهو فى مسلم من حديث عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قيل له : متى الساعة ؟ قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » . فأخبر أنه ليس بأعلم بها من السائل ، وكان السائل فى صورة أعرابى ، ولم يعلم أنه جبريل إلا بعد أن ذهب وحين أجابه لم يكن يظنه إلا أعرابياً فإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم قد قال عن نفسه : إنه ليس بأعلم بالساعة من

أعرابى فكيف يجوز لغيره أن يدعى علم ميقاتها ؟ ! وإنما أخبر الكتاب والسنة بأشراطها ، وهى علاماتها ، وهى كثيرة تقدم بعضها وبعضها لم يأت بعد .

ومن تكلم فى وقتها المعين مثل الذى صنف كتاباً سمـــاه « الدر المنظم فى معرفة الأعظم » وذكر فيه عشر دلالات بين فيها وقتها ، والذين تكلموا على ذلك من « حروف المعجم » والذى تكلم فى « عنقاء مغرب » وأمثال هؤلاء ، فإنهم وإن كان لهم صورة عظيمة عند أتباعهم فغالبهم كاذبون مفترون ، وقد تبين لديهم من وجوه كثيرة [أنهم] يتكلمون بغير علم ؛ وإن ادعوا فى ذلك الكشف ومعرفة الأسرار ، وقد قال تعالى : (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) .

سئل شيخ الإسلام :

عن (صالحى بنى آدم ، والملائكة) أيهما أفضل ؟

فأجاب :

بأن صالحى البشر أفضل باعتبار كمال النهاية والملائكة أفضل باعتبار البداية فإن الملائكة الآن فى الرفيق الأعلى منزهون عما يلابسه بنو آدم ، مستغرقون فى عبادة الرب ، ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر .

وأما يوم القيامة بعد دخول الجنة فيصير صالحوا البشر أكمل من حال الملائكة . قال ابن القيم : وبهذا التفصيل يتبين سر التفضيل وتتفق أدلة الفريقين ويصالح كل منهم على حقه .

وسئل : -

عن « المطيعين » من أمة محمد صلى الله عليه وسلم : هل هم أفضل من الملائكة ؟

فأجاب :

قد ثبت عن عبد الله بن عمرو أنه قال : إن الملائكة قالت : يارب ! جعلت بنى آدم يأكلون فى الدنيا ويشربون ويتمتعون فاجعل لنا الآخرة كما جعلت لهم الدنيا ، قال : (لا أفعل) ثم أعادوا عليه فقال : (لا أفعل) ثم أعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً فقال : (وعزتى لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له : كن فكان) ، ذكره عثمان بن سعيد الدارمى ، ورواه عبد الله بن أحمد فى كتاب « السنن » عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسلا .

وعن عبد الله بن سلام أنه قال : ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من محمد ، فقيل له: ولا جبريل ولا ميكائيل، فقال للسائل : «أتدرى ماجبريل وماميكائيل؟ إنما جبريل وميكائيل خلق مسخر كالشمس والقمر ، وما خلق الله خلقاً أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم» وماعلمت عن أحد من الصحابة مايخالف ذلك . وهذا هو المشهور عند المنتسبين إلى السنة من أصحاب الأئمة الأربعة وغيرهم ، وهو : أن الأنبياء والأولياء أفضل من الملائكة .

ولنا فى هذه المسألة « مصنف » مفرد ذكرنا فيه الأدلة من الجانبين .

سئل الشيخ رحمه الله :ـ

عن «آدم» لما خلقه الله ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته: هل سجد ملائكة السماء والأرض ؟ أم ملائكة الأرض خاصة ؟ وهل كان جبرائيل وميكائيل مع من سجد ؟ وهل كانت الجنـــة التى سكنها جنة الخلد الموجودة ؟ أم جنة فى الأرض خلقها الله له ؟ ولمـا أهبط هل أهبط من السماء إلى الأرض ؟ أم من أرض إلى أرض مثل بنى إسرائيل .

فأجاب :ـ

الحمد لله . بل أسجد له جميع الملائكة كما نطق بذلك القرآن فى قوله تعالى : (فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ) ، فهذه ثلاث صيغ مقررة للعموم وللاستغراق ؛ فإن قوله : (الملائكة) يقتضى جميع الملائكة ؛ فإن اسم الجمع المعرف بالألف واللام يقتضى العموم : كقوله : «رب الملائكة والروح» فهو رب جميع الملائكة

(الثانى) : (كلهم) ، وهذا من أبلغ العموم . (الثالث) قوله : (أجمعون) وهذا توكيد للعموم .

فمن قال إنه لم يسجد له جميع الملائكة ؛ بل ملائكة الأرض فقد رد القرآن

بالكذب والبهتان وهذا القول ونحوه ليس من أقوال المسلمين واليهود والنصارى؛ وإنما هو من أقوال الملاحدة المتفلسفة ، الذين يجعلون «الملائكة» قوى النفس الصالحة ، «والشياطين» قوى النفس الخبيثة ، ويجعلون سجود الملائكة طاعة القوى للعقل ، وامتناع الشياطين عصيان القوى الخبيثة للعقل ؛ ونحو ذلك من المقالات التى يقولها أصحاب « رسائل إخوان الصفا » وأمثالهم من القرامطة الباطنية ومن سلك سبيلهم من ضلال المتكلمة والمتعبدة . وقد يوجد نحو هذه الأقوال فى أقوال المفسرين التى لا إسناد لها يعتمد عليه .

ومذهب المسلمين ، واليهود ، والنصارى : ما أخبر الله به فى القرآن ، ولم يكن فى المأمورين بالسجود أحد من الشياطين ؛ لكن أبوهم إبليس هو كان مأموراً فامتنع وعصى ، وجعله بعض الناس من الملائكة لدخوله فى الأمر بالسجود ، وبعضهم من الجن لأن له قبيلا وذرية ، ولكونه خلق من نار والملائكة خلقوا من نور.

والتحقيق : أنه كان منهم باعتبار صورته ، وليس منهم باعتبار أصله ولا باعتبار مثاله ، ولم يخرج من السجود لآدم أحد من الملائكة : لا جبرائيل ولا ميكائيل ولا غيرهما .

وما ذكره صاحب خواص القرآن وأمثاله من خلاف فأقوالهم باطلة ، قد بينا فسادها وبطلانها بكلام مبسوط ليس هذا موضعه .

وهذا مما استدل به أهل السنة على أن آدم وغيره من الأنبياء والأولياء

أفضل من جميع الملائكة ؛ لأن الله أمر الملائكة بالسجود له إكراماً له ؛ ولهذا قال إبليس : (أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ) فدل على أن آدم كرم على من سجد له .

و « الجنة » التى أسكنها آدم وزوجته عند سلف الأمة ، وأهل السنة والجماعة : هى جنة الخلد ، ومن قال : إنها جنة فى الأرض بأرض الهند ، أو بأرض جدة ، أو غير ذلك ، فهو من المتفلسفة والملحدين ، أومن إخوانهم المتكلمين المبتدعين ، فإن هذا يقوله من يقوله من المتفلسفة والمعتزلة .

والكتاب والسنة يرد هذا القول ، وسلف الأمة وأئمتها متفقون على بطلان هذا القول . قال تعالى : (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ * وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ) ، إلى قوله : (وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ)
فقد أخبر أنه سبحانه أمرهم بالهبوط وأن بعضهم عدو لبعض ، ثم قال : (وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ) .

وهذا يبين أنهم لم يكونوا فى الأرض وإنما أهبطوا إلى الأرض ؛ فإنهم لو كانوا فى الأرض وانتقلوا إلى أرض أخرى كانتقال قوم موسى من أرض إلى أرض لكان مستقرهم ومتاعهم إلى حين فى الأرض قبل الهبوط وبعده ؛ وكذلك قال فى الأعراف لما قال إبليس (أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ * قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا) .

فقوله : (فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا) يبين اختصاص السماء بالجنة بهذا الحكم ؛ فإن الضمير فى قوله : (منهـا) عائد إلى معلوم غير مذكور فى اللفظ ، وهذا بخلاف قوله : (ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡ) فإنه لم يذكر هناك ما أهبطوا فيه ، وقال هنا : (ٱهۡبِطُواْ) لأن الهبوط يكون من علو إلى سفل وعند أرض السراة حيث كان بنو اسرائيل حيال السراة المشرفة على المصر الذى يهبطون إليه . ومن هبط من جبل إلى واد قيل له : هبط .

(وأيضاً) فإن بنى إسرائيل كانوا يسـيرون ويرحلون ، والذى يسير ويرحل إذا جاء بلدة يقال : نزل فيها ؛ لأن فى عادته أنه يركب فى سيره فإذا وصل نزل عن دوابه .

يقال : نزل العسكر بأرض كذا ، ونزل القفـل بأرض كذا ؛ لنزولهم عن الدواب . ولفظ النزول كلفظ الهبوط ، فلا يستعمل هبط إلا إذا كان من علو إلى سفل .

وقوله : (رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ * قَالَ ٱهۡبِطُواْ) الآيتين . فقوله هنا بعد قوله : (ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ) يبين أنهم هبطوا إلى الأرض من غيرها ، وقال : (فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ) دليل على أنهم لم يكونوا قبل ذلك بمكان فيه يحيون وفيه يموتون ومنه يخرجون ، وإنمـا صاروا إليه لمـا أهبطوا من الجنة .

والنصوص فى ذلك كثيرة وكذلك كلام السلف والأئمة .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « احتج آدم وموسى فقال موسى : يا آدم ! أنت ، أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته فلماذا أخرجتنا وذريتك من الجنة ؟ فقال له آدم : أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالته وكلامه فهل تجد فى التوراة : وعصى آدم ربه فغوى ؟ قال نعم قال : فلماذا تلومنى على أمر قدره الله على قبل أن أخلق ؟ فقال : فحج آدم موسى » ، وموسى إنما لام آدم لما حصل له وذريته بالخروج من الجنة من المشقة والنكد ، فلو كان ذلك بستاناً فى الأرض لكان غيره من بساتين الأرض يعوض عنه .

(وآدم) عليه السلام احتج بالقدر ؛ لأن العبد مأمور على أن يصبر على ما قدره الله من المصائب ، ويتوب إليه ، ويستغفره من الذنوب والمعائب . والله أعلم .

قال شيخ الإسلام

فصـــــل

فى المسألة المشهورة بين الناس ، فى « التفضيل بين الملائكة والناس »

قال : الكلام إما أن يكون فى التفضيل بين الجنس : الملك ، والبشر ؛ أو بين صالحى الملك والبشر .

أما الأول ، وهو أن يقال : أيما أفضل : الملائكة ، أوالبشر ؟ فهذه كلمة تحتمل أربعة أنواع :ـ

النوع الأول

أن يقال : هل كل واحد من آحاد النـاس أفضل من كل واحد من آحاد الملائكة ؟ فهذا لا يقوله عاقل ، فإن فى الناس الكفار ، والفجار ، والجاهلين ، والمستكبرين ، والمؤمنين ، وفيهم من هو مثل البهائم والأنعام السائمة ، بل الأنعام أحسن حالا من هؤلاء ، كما نطق بذلك القرآن فى مواضع ، مثل قوله تعـالى : (إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ) ، وقال

تعالى : (إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) ، وقال : (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ) ،

والدواب جمع دابة ، وهو كل ما دب فى سماء وأرض من إنس وجن ، وملك وبهيمة ، ففى القرآن ما يدل على تفضيل البهائم على كثير من الناس فى خمس آيات .

وقد وضع «ابن المرزبان» كتاب (تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب) وقد جاء فى ذلك من المأثور ما لا نستطيع إحصاءه ، مثل ما فى مسند أحمد : « رب مركوبة أكثر ذكرا من راكبها » . وفضل البهائم عليهم من وجوه :

أحدها : أن البهيمة لا سبيل لها إلى كمال وصلاح أكثر مما تصنعه ، والإنسان له سبيل لذلك ، فإذا لم يبلغ صلاحه وكماله الذى خلق له ، بان نقصه وخسرانه من هذا الوجه .

وثانيها : أن البهائم لها أهواء وشهوات : بحسب إحساسها وشعورها ، ولم تؤت تمييزا وفرقانا بين ما ينفعها ويضرها ، والإنسان قد أوتى ذلك . وهذا الذى يقال : الملائكة لهم عقول بلا شهوات ، والبهائم لها شهوات بلا عقول ، والإنسان له شهوات وعقل . فمن غلب عقله شهوته فهو أفضل من الملائكة ، أو مثل الملائكة ، ومن غلبت شهوته عقله فالبهائم خير منه .

وثالثها : أن هؤلاء لهم العقاب والنكال ، والخزى على ما يأتونه من الأعمال الخبيثة ، فهذا يقتل ، وهذا يعاقب ، وهذا يقطع ، وهذا يعذب ويحبس ، هذا فى العقوبات المشروعة . وأما العقوبات المقدرة فقوم أغرقوا ، وقوم أهلكوا بأنواع العذاب ، وقوم ابتلوا بالملوك الجائرة : تحريقا ، وتغريقا ، وتمثيلا ، وخنقا ، وعمى . والبهائم فى أمان من ذلك .

ورابعها : أن لفسقة الجن والإنس فى الآخرة من الأهوال والنار والعذاب والأغلال وغير ذلك مما أمنت منه البهائم ، ما بين [فضل البهائم على هؤلاء] إذا أضيف إلى حال هؤلاء .

وخامسها : أن البهائم جميعها مؤمنة بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، مسبحة بحمده قانتة له ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنه ليس على وجه الأرض شيء إلا وهو يعلم أنى رسول الله ، إلا فسقة الجن والإنس » .

النوع الثاني

أنه يقال : مجموع الناس أفضل من مجموع الملائكة من غير توزيع الأفراد ، وهذا على القول بتفضيل صالحى البشر على الملائكة فيه نظر ؛ لا علم لى بحقيقته ، فإنا نفضل مجموع القرن الثانى على القرن الثالث ، مع علمنا أن كثيراً من أهل القرن الثالث أفضل من كثير من أهل القرن الثانى .

النوع الثالث

أنا إذا قابلنا الفاضل بالفاضل ، والذى يلى الفاضل بمن يليه من الجنس الآخر ، فأى القبيلين أفضل ؟ فهذا مع القول بتفضيل صالحى البشر يقال : لا شك أن المفضولين من الملائكة أفضل من كثير من البشر ، وفاضل البشر أفضل من فاضليهم ، لكن التفاوت الذى بين «فاضل الطائفتين» أكثر ، والتفاوت بين «مفضولهم» هذا غير معلوم ، والله أعلم بخلقه .

النوع الرابع

أن يقال : حقيقة الملك، والطبيعة الملكية أفضل، أم حقيقة البشر والطبيعة البشرية ؟ وهذا كما أنا نعلم أن حقيقة الحى إذ هو حى أفضل من الميت ، وحقيقة القوة والعلم من حيث هى كذلك أفضل من حقيقة الضعف والجهل . وحقيقة الذكر أفضل من حقيقة الأنثى ، وحقيقة الفرس أفضل من حقيقة الحمار ، وكان فى نوع المفضول ما هو خير من كثير من أعيان النوع الفاضل : كالحمار والفأرة والفرس الزمن ، والمرأة الصالحة مع الرجل الفاجر ، والقوى الفاجر مع الضعيف الزمن .

والوجه فى انحصار القسمة فى هذه الأنواع ـ فإن كثيراً من الكلمات المهمة تقع الفتيا فيها مختلفة والرأى مشتبها ، لفقد التمييز والتفضيل ـ أن كل شىء إما أن نقيده من جهة الخصوص ، أو العموم ، أو الإطلاق . فإذا قلت : بشر

وملك . وإما أن تريد هذا البشر الواحد فيكون خاصاً ، أو جميع جنس البشر فيكون عاما ، أو تريد البشر مطلقاً مجرداً عن قيد العموم ، والخصوص ، وضبطه القليل والكثير ، والنوع الأول فى التفضيل عموما وخصوصاً ، والثانى عموماً ، والثالث خصوصاً ، والرابع فى الحقيقة المطلقة المجردة .

فنقول حينئذ : المسألة على هذا الوجه لست أعلم فيها مقالة سابقة مفسرة ، وربما ناظر بعض الناس على تفضيل الملك ، وبعضهم على تفضيل البشر ، وربما اشتبهت هذه المسألة بمسألة التفضيل بين الصالح وغيره .

لكن الذى سنح لى ـ والله أعلم بالصواب ـ أن حقيقة الملك أكمل وأرفع وحقيقة الإنسان أسهل وأجمع .

وتفسير ذلك : أنا إذا اعتبرنا الحقيقتين وصفاتهما النفسية ، والتبعية : اللازمة ، الغالبة الحياة ، والعلم ، والقدرة : فى اللذات والشهوات ، وجدنا أولا خلق الملك أعظم صورة ، ومحله أرفع ، وحياته أشد ، وعلمه أكثر ، وقواه أشد ، وطهارته ونزاهته أتم ، ونيل مطالبه أيسر وأتم ، وهو عن المنافى والمضاد أبعد ، لكن تجد هذه الصفات للإنسان ـ بحسب حقيقته ـ منها أوفر حظ ونصيب من الحياة والخلق ، والعلم والقدرة والطهارة ، وغير ذلك .

وله أشياء ليست للملك من إدراكه دقيق الأشياء : حسا ، وعقلا ، وتمتعه بما يدركه ببدنه وقلبه ، وهو يأكل ويشرب وينكح ، ويتمنى ، ويتغذى ،

ويتفكر ، إلى غير ذلك من الأحوال التي لا يشاركه فيها الملك . لكن حظ الملك من القدر المشترك الذى بينهما أكثر ، وما اشتركا فيه من الأمور أفضل بكثير مما اختص به الإنسان .

« مثاله » : مثل رجل معه مائة دينار ، وآخر معه خمسون درهما ، أو خمسون ديناراً ، أو خمسون فلساً ، وإذا كان الأمر كذلك ففصل الجواب كما سبق .

وإن أردت الإطلاق : فالحقيقة الملكية بلوازمها أفضل من الحقيقة الإنسانية بلوازمها ، هذا لا شك فيه ، فإنما يلزم حقيقة الإنسان من حياة وحس ، وعلم وعمل ، ونيل لذة وإدراك شهوة ، ليست بشيء . وإنما تعددت أصنافه إلى ما يشبه حقيقة الملك ؛ كحال من علم من كل شيء طرفا ليس بالكثير ، إلى حال من أتقن العلم بالله وبأسمائه وآياته ، ولا يشبه حال من معه درهم ، إلى حال من معه درة ، ولا يشبه حال من يسوس الناس كلهم ، إلى حال من يسوس إنسانا وفرسا .

وقد دل على هذا دلالة بينة قوله تعالى : (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) ، فدل على أنهم لم يفضلوا على الجميع ، وقوله : (ممن) للتبعيض . فإن قلت : هذا الاستدلال مفهوم للمخالف ، وأنت مخالف لهذا ، منازع فيه .

فيقال لك : تخصيص الكثير بالذكر لا يدل على مخالفة غيره بنفى ، ولا إثبات ، وأيضاً فإن مفهومه : أنهم لم يفضلوا على ما سوى الكثير ، فإذا لم يفضلوا فقد يساوون بهم ، وقد يفضل أولئك عليهم ، فإن الأحوال ثلاثة : إما أن يفضلوا على من بقى ، أو يفضل أولئك عليهم ، أو يساوون بهم .

قال : واختلاف الحقائق والذوات لا بد أنها تؤثر فى اختلاف الأحكام والصفات ، وإذا اختلفت حقيقة البشر والملك فلا بد أن يكون أحد الحقيقتين أفضل ، فإن كونهما متماثلتين متفاضلتين ممتنع .

وإذا ثبت أن أحدهما أفضل بهذه القضية المعقولة ؛ وثبت عدم فضل البشر بتلك الكلمة الإلهية ؛ ثبت فضل الملك ، وهو المطلوب .

وقد ذكر جماعة من المنتسبين إلى السنة : أن الأنبياء وصالح البشر أفضل من الملائكة . وذهبت المعتزلة إلى تفضيل الملائكة على البشر ، وأتباع الأشعرى على قولين : منهم من يفضل الأنبياء والأولياء ، ومنهم من يقف ولا يقطع فيهما بشىء .

وحكى عن بعض متأخريهم أنه مال إلى قول المعتزلة ، وربما حكى ذلك عن بعض من يدعى السنة ويواليها .

وذكر لى عن بعض من تكلم فى أعمال القلوب أنه قال : أما الملائكة المدبرون للسموات والأرض وما بينهما والموكلون ببنى آدم ؛ فهؤلاء أفضل من

هؤلاء الملائكة . وأما الكروبيون الذين يرتفعون عن ذلك فلا أحد أفضل منهم ، وربما خص بعضهم نبينا صلى الله عليه وسلم . واستثناؤه من عموم البشر ، إما تفضيلا على جميع أعيان الملائكة ، أو على المدبرين منهم أمر العالم .

هذا ما بلغني من كلمات الآخرين في هذه المسألة . وكنت أحسب أن القول فيها محدث حتى رأيتها أثرية سلفية صحابية ، فانبعثت الهمة إلى تحقيق القول فيها ، فقلنا حينئذ بما قاله السلف ، فروى أبو يعلى الموصلي في « كتاب التفسير » المشهور له عن عبد الله بن سلام — وكان عالماً بالكتاب الأول ، والكتاب الثاني — إذ كان كتابياً ، وقد شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بحسن الخاتمة ، ووصية معاذ عند موته ، وأنه أحد العلماء الأربعة الذين يبتغى العلم عندهم . قال : ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم : الحديث عنه .

قلت : ولا جبرائيل ، ولا ميكائيل ؟ ! قال : يا ابن أخي ! أوتدري ما جبرائيل وميكائيل ؟ إنما جبرائيل وميكائيل خلق مسخر ، مثل : الشمس ، والقمر ؛ وما خلق الله تعالى خلقاً أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم .

وروى عبد الله في « التفسير » وغيره عن معمر عن زيد بن أسلم أنه قال : قالت الملائكة : يا ربنا ! جعلت لبني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ، فاجعل لنا الآخرة . فقال : وعزتي لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان .

وكذلك قصة سجود الملائكة كلهم أجمعين لآدم ، ولعن الممتنع عن السجود له ، وهذا تشريف وتكريم له .

وقد قال بعض الأغبياء : إن السجود إنما كان لله وجعل آدم قبلة لهم ، يسجدون إليه كما يسجد إلى الكعبة ؛ وليس فى هذا تفضيل له عليهم ؛ كما أن السجود إلى الكعبة ليس فيه تفضيل للكعبة على المؤمن عند الله ، بل حرمة المؤمن عند الله أفضل من حرمتها ، وقالوا : السجود لغير الله محرم ، بل كفر .

والجواب : أن السجود كان لآدم بأمر الله وفرضه بإجماع من يسمع قوله ويدل على ذلك وجوه : —

أحدها : قوله لآدم : ولم يقل : إلى آدم . وكل حرف له معنى ، ومن التمييز فى اللسان أن يقال : سجدت له ، وسجدت إليه . كما قال تعالى : (لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) ، وقال : (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) .

وأجمع المسلمون على : أن السجود لغير الله محرم ، وأما الكعبة فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلى إلى بيت المقدس ، ثم صلى إلى الكعبة ، وكان يصلى إلى عنزة . ولا يقال لعنزة ، وإلى عمود وشجرة ، ولا يقال لعمود ولا لشجرة ؛ والساجد للشيء يخضع له بقلبه ، ويخشع له بفؤاده ؛ وأما الساجد إليه فإنما يولى وجهه وبدنه إليه ظاهراً ، كما يولى وجهه إلى بعض

النواحى إذا أمه ، كما قال : (فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ) .

والثانى : أن آدم لو كان قبلة لم يمتنع إبليس من السجود ، أو يزعم أنه خير منه . فإن القبلة قد تكون أحجاراً ، وليس فى ذلك تفضيل لها على المصلين إليها ، وقد يصلى الرجل إلى عنزة وبعير ، وإلى رجل ، ولا يتوهم أنه مفضل بذلك ، فمن أى شىء فر الشيطان ؟ هذا هو العجب العجيب ! ! !

والثالث : أنه لو جعل آدم قبلة فى سجدة واحدة لكانت القبلة وبيت المقدس أفضل منه بآلاف كثيرة ، إذ جعلت قبلة دائمة فى جميع أنواع الصلوات ؛ فهذه القصة الطويلة التى قد جعلت علماً له ، ومن أفضل النعم عليه ، وجاءت إلى العالم بأن الله رفعه بها ، وامتن عليه ، ليس فيها أكثر من أنه جعله كالكعبة فى بعض الأوقات !!! مع [أن] بعض ما أوتيه من الإيمان والعلم ، والقرب من الرحمن أفضل بكثير من الكعبة ؛ والكعبة إنما وضعت له ولذريته ؛ أفيجعل من جسيم النعم عليه أو يشبه به فى شىء نزر قليل جداً ؟ ! ! هذا ما لا يقوله عاقل .

وأما قولهم : لا يجوز السجود لغير الله . فيقال لهم : إن قيلت هذه الكلمة على الجملة فهى كلمة عامة، تنفى بعمومها جواز السجود لآدم ، وقد دل دليل خاص على أنهم سجدوا له ، والعام لا يعارض ما قابله من الخاص .

وثانيها : أن السجود لغير الله حرام علينا وعلى الملائكة . أما الأول فلا دليل وأما الثانى فما الحجة فيه ؟

(وثالثها) أنه حرام أمر الله به ، أوحرام لم يأمر به ، والثانى حق ولا شفاء فيه ، وأما الأول فكيف يمكن أن يحرم بعد أن أمر الله تعالى به ؟

(ورابعها) : أبو يوسف وإخوته خروا له سجداً ، ويقال : كانت تحيتهم ؛ فكيف يقال : إن السجود حرام مطلقاً ؟ وقد كانت البهائم تسجد للنبي صلى الله عليه وسلم ، والبهائم لا تعبد الله . فكيف يقال يلزم من السجود لشيء عبادته ؟ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم . ولو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » لعظم حقه عليها ، ومعلوم أنه لم يقل : لو كنت آمراً أحداً أن يعبد .

(وسابعها) وفيه التفسير أن يقال : أما الخضوع والقنوت بالقلوب والاعتراف بالربوبية والعبودية فهذا لا يكون على الإطلاق إلا لله سبحانه وتعالى وحده ، وهو فى غيره ممتنع باطل .

وأما السجود فشريعة من الشرائع ، إذ أمرنا الله تعالى أن نسجد له ، ولو أمرنا أن نسجد لأحد من خلقه غيره لسجدنا لذلك الغير ، طاعة لله عز وجل ، إذ أحب أن نعظم من سجدنا له ، ولو لم يفرض علينا السجود لم يجب ألبتة فعله ، فسجود الملائكة لآدم عبادة لله وطاعة له ، وقربة يتقربون بها إليه ، وهو لآدم تشريف وتكريم وتعظيم . وسجود إخوة يوسف له تحية وسلام ، ألا ترى أن يوسف لو سجد لأبويه تحية لم يكره له .

ولم يأت أن آدم سجد للملائكة ، بل لم يؤمر آدم وبنوه بالسجود إلا لله رب العالمين ، ولعل ذلك ــ والله أعلم بحقائق الأمـــور ــ لأنهم أشرف الأنواع ، وهم صالحوا بنى آدم ليس فوقهم أحد يحسن السجود له إلا لله رب العالمين ، وهم أكفاء بعضهم لبعض ، فليس لبعضهم مزية بقدر ما يصلح له السجود ، ومن سواهم فقد سجد لهم من الملائكة للأب الأقوم ، ومن البهائم للابن الأكرم .

وأما قولهم : لم يسبق لآدم ما يوجب الإكرام له بالسجود فلغو من القول، هذى به بعض من اعتزل الجماعة ، فإن نعم الله تعالى وأياديه وآلائه على عباده ليست بسبب منهم ، ولو كانت بسبب منهم فهو المنعم بذلك السبب ، فهو المنعم به ويشكرهم على نعمه ؛ وهو أيضاً باطل على قاعدتهم لا حاجة لنـا إلى بيانه ههنا .

وقوله : (وَلَهُ يَسْجُدُونَ) فإنه إن سلم أنه يفيد الحصر فالقصد منه ـ والله أعلم ـ الفصل بينهم وبين البشر الذين يشركون بربهم ويعبدون غيره فأخبرهم أن الملائكة لا تعبد غيره ، ثم هذا عام وتلك الآية خاصة فيستثنى آدم ، ثم يقال : السجود على ضربين سجود عبـادة محضة ، وسجود تشريف . فأما الأول فلا يكون إلا لله ، وأما الثانى فلم قلت إنه كذلك ؟ والآية محمولة على الأول توفيقاً بين الدلائل .

وأما (السؤال الثانى) فروى عن بعض الأولين : أن الملائكة الذين

سجدوا لآدم ملائكة فى الأرض فقط ، لا ملائكة السموات . ومنهم من يقول : ملائكة السموات دون الكروبيين ، وانتحى ذلك بعض المتأخرين ، واستنكر سجود الأعليين من الملائكة لآدم مع عدم التفاتهم إلى ما سوى الله ، ورووا فى ذلك : « إن من خلق الله خلق لا يدرون : أخلق آدم أم لا » ؟

ونزع بقوله : (أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ) والعالون هم ملائكة السماء، وملائكة السماء لم يؤمروا بالسجود لآدم ، فاعلم أن هذه المقالة أولاً ليس معها ما يوجب قبولها ؛ لا مسموع ولا معقول ، إلا خواطر وسوانح ، ووساوس مادتها من عرش إبليس ، يستفزهم بصوته [ليرد عنهم] النعمة التى حرص على ردها عن أبيهم قديماً ، أو مقالة قد قالها من يقول الحق والباطل ، لكن معنا ما يوجب ردها من وجوه .

أحدها : أنه خلاف ما عليه العامة من أهل العلم بالكتاب والسنة ، وإذا كان لا بد من التقليد فتقليدهم أولى .

وثانيها : أنه خلاف ظاهر الكتاب العزيز ، وخلاف نصه ، فإن الاسم المجموع المعرف بالألف واللام يوجب استيعاب الجنس ، قال تعالى : (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) ، فسجود الملائكة يقتضى جميع الملائكة ، هذا مقتضى اللسان الذى نزل به القرآن ، فالعدول عن موجب القول العام إلى الخصوص لا بد له من دليل يصلح له ، وهو معدوم .

وثالثها : أنه قال : (فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ) فلو لم يكن الاسم الأول يقتضى الاستيعاب والاستغراق لكان توكيده بصيغة كل موجبة لذلك ومقتضية له ثم لو لم يفد تلك الإفادة ، لكان قوله أجمعون توكيداً وتحقيقاً بعد توكيدو تحقيق، ومن نازع فى موجب الأسماء العامة فإنه لا ينازع فيها بعد توكيدها بما يفيد العموم بل إنما يجاء بصيغة التوكيد قطعاً لاحتمال الخصوص وأشباهه .

وقد بلغنى عن بعض السلف أنه قال : ما ابتدع قوم بدعة إلا فى القرآن ما يردها ، ولكن لا يعلمون ، فلعل قوله : (كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ) جىء به لزعم زاعم يقول : إنما سجد له بعض الملائكة لا كلهم ، وكانت هذه الكلمة رداً لمقالة هؤلاء . ومن اختلج فى سره وجه الخصوص بعد هذا التحقيق والتوكيد فليعز نفسه فى الاستدلال بالقرآن والفهم ، فإنه لا يثق بشىء يؤخذ منه ، ياليت شعرى ! لو كانت الملائكة كلهم سجدوا وأراد الله أن يخبرنا بذلك ، فأى كلمة أتم وأعم ، أم يأتى قول يقال : أليس هذا من أبين البيان ؟

ورابعها : أن هذه الكلمة تكررت فى القرآن ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث الشفاعة وأسجد لك ملائكته ، وكذلك فى محاجة موسى وآدم، ومن الناس من يقول : إن القول العام إذا قرن به الخاص وجب أن يقرن به البيان ، فلا يجوز تأخيره عنه ، لئلا يقع السامع فى اعتقاد الجهل ؛ ولم يقترن بشىء من هذه الكلمات دليل تخصيص ، فوجب القطع بالعموم .

وقال آخرون — وهو الأصوب — : يجوز تأخير البيان عن وقت الخطاب

لـكن بعد البحث عن دليل التخصيص ، والله أعلم . فيجب القول بالعموم ، وإذا كانت القصة قد تـكررت وليس فيها ما يدل على الخصوص فليس دعوى الخصوص فيها من البهتان .

وأما إنكارهم لسجود الـكروبيين فليس بشيء ، لأنهم سجدوا طاعة وعبادة لربهم ، وزاد قائل ذلك أنهم أفضل من آدم إذا ثبت أنهم لم يسجدوا، والحكايات المرسلة لا تقيم حقاً ولا تهدم باطلا ؛ وتفسيرهم (ٱلْعَالِينَ) بالـكروبيين قول فى كتاب الله سبحانه وتعالى بلا علم ، ولا يعرف ذلك عن إمام متبع . ولا فى اللفظ دليل عليه ،وقيل: (أَسْتَكْبَرْتَ) أطلبت أن تـكون كبيراً من هذا الوقت؟ أم كنت عالياً قبل ذلك ؟ ولا حاجة بنا إلى تفسير كلام الله بآرائنا ، والله أعلم بتفسيره .

وهنا (سؤال ثالث) وهو : أن السجود له قد يكون الساجدون سجدوا له مع فضلهم عليه ، فإن الفاضل قد يخدم المفضول ، فنقول : اعلم أن منفعة الأعلى للأدنى غير مستنـكرة ؛ فإن سيد القوم خادمهم ، فالنبي صلى الله عليه وسلم أفضل الناس ، وأنفع الناس للناس ، لـكن منفعته فى الحقيقة يعود إليه ثوابهـا ، وتمام التقرب إلى الله يحصل بنفع خلقه ، فهذا يصلح أن يورد على من احتج بتدبيرهم لنـا ، ففضلهم علينا لـكثرة منفعتهم لنا ، وأما نفس السجود فلا منفعة فيه للمسجود له إلا بمجرد تعظيم وتشريف وتـكريم ، ولا يصلح ألبتة أن يكون من هو أفضل أسفل ممن دونه وتحته فى الشرف ، والمحقق ؛ لا المتوهم ؛ فافهم هذا فإن تحته سر .

الدليل الثانى : قوله قصصاً عن إبليس : (أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ) ؟ فإن هذا نص فى تكريم آدم على إبليس إذ أمر بالسجود له .

الدليل الثالث : إن الله تعالى خلق آدم بيده ، كما ذكر ذلك فى الكتاب والسنة ، والملائكة لم يخلقهم بيده بل بكلمته ، وهذا يقوله جميع من يدعى الإسلام سنيهم ومبتدعهم — بل وعليه أهل الكتاب ، فإن الناس فى يدى الله على ثلاثة أقوال :ـ

أما أهل السنة فيقولون : يدا الله صفتان من صفات ذاته ، حكمها حكم جميع صفاته : من حياته وعلمه ، وقدرته وإرادته ، وكلامه . فيثبتون جميع صفاته التى وصف بها نفسه ، ووصفه بها أنبياؤه ، وإن شاركت أسماء صفاته أسماء صفات غيره . كما أن له أسماء قد يسمى بها غيره ، مثل: رؤوف ، رحيم ، عليم سميع ، بصير حليم ، صبور ، شكور ، قدير ، مؤمن ، على ، عظيم ، كبير ، مع نفى المشابهة فى الحقيقة والمماثلة ، كما فى قوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) جمعت هذه الآية بين الإثبات والتنزيه ، ونسبة صفاته إليه كنسبة خلقه إليه والنسبة والإضافة تشابه النسبة والإضافة .

ومن هذا الوجه جاء الاشتراك فى أسمائه وأسماء صفاته ، كما شبهت الرؤية برؤية الشمس والقمر ، تشبيها للرؤية لا للمرئى ، كما ضرب مثله مع عباده المملوكين كمثل بعض خلقه مع مملوكيهم ، وله المثل الأعلى فى السموات ، فتدبر

هذا فإنه مجلاة شبهة ومصفاة كدر ، لجميع ما نسمعه ، وينسب إليه ، ويضاف : من الأسماء ، والصفات : هو كما يليق بالله ، ويصلح لذاته .

والفريقان الآخران — أهل التشبيه والتمثيل — : منهم من يقول : يد كيدي — تعالى الله عن ذلك — وأهل النفي والتعطيل يقولون : اليدان هما : النعمتان والقدرتان ، والله أكبر كبيراً .

وبكل حال اتفق هؤلاء كلهم على أن لآدم فضيلة ومزية ليست لغيره ، إذ خلقه بيده .

(الوجه الثالث) : إن ذلك معدود في النعم التي أنعم الله بها على آدم حين قال له موسى : « خلقك الله بيده » . وكذلك يقال له : يوم القيامة ؛ وإنما ذكروا ذلك له في النعم التي خصه الله بها من بين المخلوقين دون الذي شورك فيها فهذا بيان واضح دليل على فضله على سائر الخلق ، كما ذكر زيد بن أسلم أن الله تعالى قال للملائكة : « لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان » .

(الدليل الرابع) : ما احتج به بعض أصحابنا على تفضيل الأنبياء على الملائكة بقوله : (إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ) ، وقوله : (وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ) ، واسم (العالمين) يتناول الملائكة والجن والإنس ، وفيه نظر ؟ لأن أصناف العالمين قد يراد به

جميع أصناف الخلق كما فى قوله تعالى: (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)، وقد يراد به الآدميون فقط على اختلاف أصنافهم ، كما فى قوله تعالى : (أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ) ، (أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ) ، وهم كانوا لا يأتون البهائم ولا الجن .

وقد يراد بالعالمين أهل زمن واحد ، كما فى قوله : (ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ) .

فقوله : (إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ) الآية . تحتمل جميع أصناف الخلق . ويحتمل أن المراد بنو آدم فقط . وللمحتج بها أن يقول : اسم العالمين عام لجميع أصناف المخلوقات التى بها يعلم الله ، وهى آيات له ودلالات عليه ، لا سيما أولوا العلم منهم مثل : الملائكة ، فيجب إجراء الاسم على عمومه إلا إذا قام دليل يوجب الخصوص .

وقد احتج أيضاً بقوله : (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ) الآية . وهو دليل ضعيف بل هو بالضد كما قررناه .

(الدليل الخامس) : قوله : (إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً) ، وفيها دليل على تفضيل الخليفة من وجهين : « أولهما » أن الخليفة يفضل على من هو خليفة عليه ، وقد كان فى الأرض ملائكة ، وهذا غايته أن يفضل على من فى الأرض من الملائكة . « وثانيهما » : أن الملائكة طلبت من الله تعالى أن يكون

الاستخلاف فيهم ، والخليفة منهم ، حيث قالوا : (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ) الآية . فلولا أن الخلافة درجة عالية أعلى من درجاتهم لما طلبوها وغبطوا صاحبها .

(الدليل السابع) تفضيل بنى آدم عليهم بالعلم حين سألهم الله عز وجل عن علم الأسماء فلم يجيبوه ، واعترفوا أنهم لا يحسنونها فأنبأهم آدم بذلك ، وقد قال تعالى : (هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) .

(والدليل الثامن) : وهو أول الأحاديث ما رواه حماد بن سلمة عن أبى المهزم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لزوال الدنيا على الله أهون من قتل رجل مؤمن ، والمؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده » .

وهذا نص فى أن المؤمنين أكرم على الله من الملائكة المقربين .

ثم ذكر ما رواه الخلال عن أبى هريرة : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر كلاماً قال فى آخره : « ادنوا ووسعوا لمن خلفكم » فدنا الناس وانضم بعضهم إلى بعض ، فقال رجل : أنوسع للملائكة أو للناس ؟ قال : للملائكة ، إنهم إذا كانوا معكم لم يكونوا من بين أيديكم ولا من خلفكم ، ولكن عن أيمانكم وشمائلكم . قالوا : ولم لا يكونون من بين أيدينا ومن خلفنا ؟ أمن فضلنا عليهم أو من فضلهم علينا ؟ قال : نعم . أنتم أفضل من الملائكة » .

رواه الخلال ، وفيه القطع بفضل البشر على الملائكة ، لكن لا يعرف حال إسناده ، فهو موقوف على صحة إسناده .

وروى عبد الله بن أحمد فى « كتاب السنة » عن عروة بن رويم قال : أخبرنى الأنصارى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الملائكة قالوا : ربنا خلقتنا وخلقت بنى آدم ، فجعلتهم يأكلون ويشربون ، ويلبسون ويأتون النساء ، ويركبون الدواب ، وينامون ويستريحون ، ولم تجعل لنا شيئاً من ذلك ، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة .

وذكر الحديث مرفوعاً كما تقدم موقوفاً عن زيد بن أسلم عن أبيه . وزيد بن أسلم زيد فى علمه وفقهه وورعه ، حتى ان كان على بن الحسين ليدع مجالس قومه ويأتى مجلسه ، فلامه الزهرى فى ذلك فقال : إنما يجلس حيث ينتفع ؛ أو قال يجد صلاح قلبه .

وقد كان يحضر مجلسه نحو أربعمائة طالب للعلم ، أدنى خصلة فيهم الباذل ما فى يده من الدنيا ، ولا يستأثر بعضهم على بعض ، فلا يقول مثل هذا القول إلا عن[1] بين والكذب على الله عز وجل أعظم من الكذب على رسوله .

وأقل ما فى هذه الآثار أن السلف الأولين كانوا يتناقلون بينهم : أن صالحى البشر أفضل من الملائكة من غير نكير منهم لذلك ، ولم يخالف أحد

(١) بياض بالأصل .

منهم فى ذلك ، إنما ظهر الخلاف بعد تشتت الأهواء بأهلها ، وتفرق الآراء ، فقد كان ذلك كالمستقر عندهم .

(الدليل الحادى عشر) : أحاديث المباهاة مثل : أن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا وعشية عرفة فيباهى ملائكته بالحاج ، وكذلك يباهى بهم المصلين ، يقول : « انظروا إلى عبادى قد قضوا فريضة وهم ينتظرون أخرى » وكلا الحديثين فى صحيح مسلم . والمباهاة لا تكون إلا بالأفاضل .

فإن قيل هذه الأخبار رواها آحاد غير مشهورين ، ولا هى بتلك الشهرة ، فلا توجب علماً ، والمسألة علمية .

قلنا : « أولا » من قال إن المطلق فى هذه القضية اليقين الذى لا يمكن نقيضه ؟ بل يكفى فيها الظن الغالب ، وهو حاصل .

ثم ما المراد بقوله : علمية ؟ أتريد أنه لا علم ؟ فهذا مسلم . ولكن كل عقل راجح يستند إلى دليل فإنه علم ، وإن كان فرقة من الناس لا يسمون علماً إلا ما كان يقيناً لا يقبل الانتقاض ، وقد قال تعالى : (فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ) وقد استوفى القول فى ذلك فى غير هذا الموضع ، فإن أريد علمية : لأن المطلوب الاستيقان ، فهذا لغو من القول لا دليل عليه ، ولو كان حقاً لوجب الإمساك عن الكلام فى كل أمر غير علمى إلا باليقين ، وهو تهافت بين .

ثم نقول : هى بمجموعها وانضمام بعضها إلى بعض ومجيئها من طرق

متباينة قد توجب اليقين لأولى الخبرة بعلم الإسناد ، وذوى البصيرة بمعرفة الحديث ورجاله ، فإن هذا علم اختصوا به كما اختص كل قوم بعلم ؛ وليس من لوازم حصول العلم لهم حصوله لغيرهم ، إلا أن يعلموا ما علموا مما به يميزون بين صحيح الحديث وضعيفه .

والعلوم على اختلاف أصنافها وتباين صفاتها لا توجب اشتراك العقلاء فيها ، لا سيما السمعيات الخبريات ، وإن زعم فرقة من أولى الجدل ان الضروريات يجب الاشتراك فيها ، فإن هذا حق فى بعض الضروريات ؛ لا فى جميعها ، مع تجويزنا عدم الاشتراك فى شىء من الضروريات ، لكن جرت سنة الاشتراك بوقوع الاشتراك فى بعضها ، فغلط أقوام فجعلوا وجوب الاشتراك فى جميعها ، فجحدوا كثيراً من العلم الذى اختص به غيرهم .

ثم نقول : لو فرضنا أنها لا تفيد العلم وإنما تفيد ظناً غالباً ؛ أو أن المطلوب هو الاستيقان ؛ فنقول : المطلوب حاصل بغير هذه الأحاديث ، وإنما هى مؤكدة مؤيدة لتجتمع أجناس الأدلة على هذه المقالة .

(الدليل الثانى عشر) : قد كان السلف يحدثون الأحاديث المتضمنة فضل صالحى البشر على الملائكة ، وتروى على رؤوس الناس ، ولو كان هذا منكراً لأنكروه ، فدل على اعتقادهم ذلك .

وهذا إن لم يفد اليقين القاطع ، فإن بعض الظن لم يقصر عن القوى

الغالب ، وربما اختلف ذلك باختلاف الناس واختلاف أحوالهم .

(الدليل الثالث عشر) وهو البحث الكاشف عن حقيقة المسألة ـ وهو أن نقول : التفضيل إذا وقع بين شيئين فلا بد من معرفة الفضيلة ما هى ؟ ثم ينظر أيهما أولى بها ؟ .

وأيضاً فإنا إنما تكلمنا فى تفضيل صالحى البشر إذا كملوا ووصلوا إلى غايتهم وأقصى نهايتهم ، وذلك إنما يكون إذا دخلوا الجنة ، ونالوا الزلفى ، وسكنوا الدرجات العلى ، وحياهم الرحمن وخصهم بمزيد قربه ، وتجلى لهم ، يستمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم ، وقامت الملائكة فى خدمتهم بإذن ربهم .

فلينظر الباحث فى هذا الأمر ! فإن أكثر الغالطين لما نظروا فى الصنفين رأوا الملائكة بعين التمام والكمال ، ونظروا الآدمى وهو فى هذه الحياة الخسيسة الكدرة ، التى لا تزن عند الله جناح بعوضة وليس هذا بالإنصاف .

فأقول : فضل أحد الذاتين على الأخرى إنما هو بقربها من الله تعالى ، ومن مزيد اصطفائه وفضل اجتبائه لنا ، وإن كنا نحن لا ندرك حقيقة ذلك .

هذا على سبيل الإجمال ، وعلى حسب الأمور التى هى فى نفسها خير محض ، وكمال صرف ' مثل الحياة والعلم والقدرة ، والزكاة والطهارة ، والطيب والبراءة من النقائص والعيوب ، فنتكلم على الفضلين :

(أما الأول) : فإن جنة عدن خلقها الله تعالى وغرسها بيده ، ولم يطلع على

ما فيها ملكاً مقرباً ، ولا نبياً مرسلا ، وقال لها : تكلمي ! فقالت : (قد أفلح المؤمنون) . جاء ذلك فى أحاديث عديدة ، وأنه ينظر إليها فى كل سحر ، وهى داره ، فهذه كرامة الله تعالى لعباده المؤمنين ، التى لم يطلع عليها أحد من الملائكة ومعلوم أن الأعلين مطلعون على الأسفلين من غير عكس ، ولا يقال : هذا فى حق المرسلين ، فإنها إنما بنيت لهم ، لكن لم يبلغوا بعد إبان سكناها وإنما هى معدة لهم ؛ فإنهم ذاهبون إلى كمال ، ومنتقلون إلى علو وارتفاع ، وهو جزاؤهم وثوابهم .

وأما الملائكة فإن حالهم اليوم شبيهة بحالهم بعد ذلك ، فإن ثوابهم متصل وليست الجنة مخلوقة ، وتصديق هذا قوله تعالى : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ) .

فحقيقة ما أعده الله لأوليائه غيب عن الملائكة ، وقد غيب عنهم أولا حال آدم فى النشأة الأولى وغيرها .

وفضل عباد الله الصالحين يبين فضل الواحد من نوعهم ؛ فالواحد من نوعهم إذا ثبت فضلهم على جميع الأعيان والأشخاص ثبت فضل نوعهم على جميع الأنواع ، إذ من الممتنع ارتفاع شخص من أشخاص النوع المفضول إلى أن يفوق جميع الأشخاص والأنواع الفاضلة ، فإن هذا تبديل الحقائق وقلب الأعيان عن صفاتها النفسية ؛ لكن ربما فاق بعض أشخاص النوع الفاضل مع

امتياز ذلك عليه بفضل نوعه وحقيقته ، كما أن فى بعض الخيل ما هو خير من بعض الخيل ، ولا يكون خيرا من جميع الخيل.

إذا تبين هذا فقد حدّث العلماء المرضيون وأولياؤه المقبولون : أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلسه ربه على العرش معه.

روى ذلك محمد بن فضيل عن ليث عن مجاهد ؛ فى تفسير : (عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا) وذكر ذلك من وجوه أخرى مرفوعة وغير مرفوعة قال ابن جرير : وهذا ليس مناقضاً لما استفاضت به الأحاديث من أن المقام المحمود هو الشفاعة ، باتفاق الأئمة من جميع من ينتحل الإسلام ويدعيه ، لا يقول إن إجلاسه على العرش منكراً - وإنما أنكره بعض الجهمية ولا ذكره فى تفسير الآية منكر - . وإذا ثبت فضل فاضلنا على فاضلهم ثبت فضل النوع على النوع ، أعنى صالحنا عليهم.

« وأما الذوات » فإن ذات آدم خلقها الله بيده ، وخلقها الله على صورته ونفخ فيه من روحه ، ولم يثبت هذا لشيء من الذوات ، وهذا بحر يغرق فيه السابح ، لا يخوضه إلا كل مؤيد بنور الهداية ، وإلا وقع إما فى تمثيل ، أو فى تعطيل . فليكن ذو اللب على بصيرة أن وراء علمه مرماة بعيدة ، وفوق كل ذى علم عليم . وليوقن كل الإيقان بأن ما جاءت به الآثار النبوية حق ظاهراً وباطناً ، وإن قصر عنه عقله ولم يبلغه علمه (فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ) فلا تلجن باب إنكار ، ورد وإمساك وإغماض - رد

لظاهره وتعجباً من باطنه ـ حفظاً لقواعــدك التى كتبتها بقواك وضبطتها بأصولك التى عقلتك عن جناب مولاك .

إياك بما يخالف المتقدمين من التنزيه وتوق التمثيل والتشبيه ولعمرى إن هذا هو الصراط المستقيم ؛ الذى هو أحد من السيف ؛ وأدق من الشعر ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

وأما الصفات التى تتفاضل فمن ذلك الحياة السرمدية والبقاء الأبدى فى الدار الآخرة وليس للملك أكثر من هذا ؛ وإن كانت حياتنا هذه منغوصة بالموت فقد أسلفت أن التفضيل إنما يقع بعد كمال الحقيقتين ، حتى لا يبق إلا البقاء وغير ذلك من العلم الذى امتازت به الملائكة .

فنقول : غير منكر اختصاص كل قبيل من العلم بما ليس للآخر ، فإن الوحى للرسل على أنحاء ، كما قال تعالى : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ) ، فبين أن الكلام للبشر على ثلاثة أوجه : منها واحد يكون بتوسط الملك .

ووجهان آخران ليس للملك فيهما وحى وأين الملك من ليلة المعراج ، ويوم الطور ، وتعليم الأسماء وأضعاف ذلك ؟ .

ولو ثبت أن علم البشر فى الدنيا لا يكون إلا على أيدى الملائكة ـ وهو والله باطل ـ فكيف يصنعون بيوم القيامة ؟! وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم

« فيفتح الله على من محامده والثناء عليه بأشياء يلهمنيها ، لم يفتحها على أحد قبلى » .

وإذا تبين هذا : أن العلم مقسوم من الله ؛ وليس كما زعم هذا الغبي بأنه لا يكون إلا بأيدى الملائكة على الإطلاق ، وهو قول بلا علم ، بل الذى يدل عليه القرآن أن الله تعالى اختص آدم بعلم لم يكن عند الملائكة ، وهو علم الأسماء الذى هو أشرف العلوم ، وحكم بفضله عليهم لمزيد العلم ، فأين العدول عن هذا الموضع إلى بنيات الطريق ؟ ومنها القدرة .

وزعم بعضهم أن الملك أقوى وأقدر ، وذكر قصة جبرائيل بأنه شديد القوى ، وأنه حمل قرية قوم لوط على ريشة من جناحه ، فقد آتى الله بعض عباده أعظم من ذلك ، فأغرق جميع أهل الأرض بدعوة نوح ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » ورب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره ! وهذا عام فى كل الأشياء ، وجاء تفسير ذلك فى آثار : إن من عباد الله من لو أقسم على الله أن يزيل جبلا ، أو الجبال عن أماكنها لأزالها ، وأن لا يقيم القيامة لما أقامها ، وهذا مبالغة .

ولا يقال : إن ذلك يفضل بقوة خلقت فيه ، وهذا بدعوة يدعوها ، لأنهما فى الحقيقة يؤولان إلى واحد ، هو مقصود القدرة ومطلوب القوة ، وما من

أجله يفضل القوى على الضعيف . ثم هب أن هذا فى الدنيا فكيف تصنعون فى الآخرة ؟ وقد جاء فى الأثر : « يا عبدى ! أنا أقول للشيء كن فيكون ، أطعنى أجعلك تقول للشيء كن فيكون ، يا عبدى أنا الحى الذى لا يموت ، أطعنى أجعلك حياً لا تموت» ، وفى أثر : «إن المؤمن تأتيه التحف من الله : من الحى الذى لا يموت إلى الحى الذى لا يموت » فهذه غاية ليس وراءها مرمى ، كيف لا وهو بالله يسمع وبه يبصر وبه يبطش وبه يمشى ؟ فلا يقوم لقوته قوة .

وأما الطهارة والنزاهة ، والتقديس والبراءة عن النقائص والمعائب ، والطاعة التامة الخاصة لله ، التى ليس معها معصية ولا سهو ولا غفلة ، وإنما أفعالهم وأقوالهم على وفق الأمر ، فقد قال قائل من أين للبشر هذه الصفات ؟ وهذه الصفات على الحقيقة هى أسباب الفضل ، كما قيل : لا أعدل بالسلامة شيئاً . فالجواب من وجوه : ـ

(أحدها) : إنا إذا نظرنا إلى هذه الأحوال فى الآخرة كانت فى الآخرة للمؤمنين على أكمل حال وأتم وجه ، وقد قدمنا أن الكلام ليس فى تفضيلهم فى هذه الحياة فقط ، بل عند الكمال والتمام والاستقرار فى دار الحيوان ، وفيه وجه قاطع لكل ما كان من جنس هذا الكلام ، فأين هم من أقوام تكون وجوههم مثل القمر ومثل الشمس ، لا يبولون ولا يتمخطون ، ولا يبصقون ، ما فيهم ذرة من العيب ولا من النقص ؟!

(الوجه الثانى) : إن هذا بعينه هو الدليل على فضل الآدمى ، والملائكة

مخلوقون على طريقة واحدة، وصفة لازمة ، لاسبيل الى انفكاكهم عنها ، والبشر بخلاف ذلك .

(الوجه الثالث) : أن ما يقع من صالحى البشر من الزلات والهفوات ترفع لهم به الدرجات ، وتبدل لهم السيئات حسنات ، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، ومنهم من يعمل سيئة تكون سبب دخول الجنة ، ولو لم يكن ـ العفو أحب إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه ، وكذلك فرحه بتوبة عبيده ، وضحكه من علم العبد أنه لا يغفر الذنوب إلا الله ، فافهم هذا فإنه من أسرار الربوبية ، وبه ينكشف سبب مواقعة المقربين الذنوب .

(الوجه الرابع) : ما روى : « أن الملائكة لما استعظمت خطايا بنى آدم ألقى الله تعالى على بعضهم الشهوة فواقعوا الخطيئة » وهو احتجاج من الله تعالى على الملائكة ؛ وأما العبادة فقد قالوا إن الملائكة دائموا العبادة والتسبيح ، ومنهم قيام لا يقعدون ، وقعود لا يقومون ، وركوع لا يسجدون ، وسجود لا يركعون (يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ) .

والجواب : أن الفضل بنفس العمل وجودته ، لا بقدره وكثرته ، كما قال تعالى : (إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلًا) وقال : (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا) ورب تسبيحة من إنسان أفضل من ملء الأرض من عمل غيره ، وكان إدريس يرفع له فى اليوم مثل عمل جميع أهل

الأرض ؛ وإن الرجلين ليكونان فى الصف وأجر ما بين صلاتهما كما بين السماء والأرض .

وقد روى : « أن أنين المذنبين أحب إلىّ من زجل المسبحين » .

وقد قالوا : إن علماء الآدميين مع وجود المنافى والمضاد أحسن وأفضل . ثم هم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة يلهمون التسبيح ، كما يلهمون النفس ؛ وأما النفع المتعدى ، والنفع للخلق ، وتدبير العالم فقد قالوا هم تجرى أرزاق العباد على أيديهم ، وينزلون بالعلوم والوحى ، ويحفظون ويمسكون وغير ذلك من أفعال الملائكة .

والجواب : أن صالح البشر لهم مثل ذلك وأكثر منه ، ويكفيك من ذلك شفاعة الشافع المشفع فى المذنبين ، وشفاعته فى البشر كى يحاسبوا ، وشفاعته فى أهل الجنة حتى يدخلوا الجنة . ثم بعد ذلك تقع شفاعة الملائكة ، وأين هم من قوله : (وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ) ؟ وأين هم عن الذين : (يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) ؟ وأين هم ممن يدعون إلى الهدى ودين الحق ؛ ومن سن سنة حسنة ؟ وأين هم من قوله صلى الله عليه وسلم : « إن من أمتى من يشفع فى أكثر من ربيعة ومضر » ؟ وأين هم من الأقطاب ، والأوتاد ، والأغواث ؛ والأبدال ، والنجباء ؟ [1]

فهذا ـ هداك الله ـ وجه التفضيل بالأسباب المعلومة ؛ ذكرنا منه أنموذجاً

---

(١) هكذا بالأصل .

نهجنا به السبيل ، وفتحنا به الباب إلى درك فضائل الصالحين من تدبر ذلك ، وأوتى منه حظاً رأى وراء ذلك ما لا يحصيه إلا الله ، وإنما عدل عن ذلك قوم لم يكن لهم من القول والعلم إلا ظاهره ، ولا من الحقائق إلا رسومها ؛ فوقعوا فى بدع وشبهات ، وتاهوا فى مواقف ومجازات ، وها نحن نذكر ما احتجوا به .

(الحجة الأولى) : قوله تعالى : (لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ) والذى يريد إثبات ذل الأعاظم ، وانقياد الأكابر : إنما يبدأ بالأدنى فالأدنى مترقياً إلى الأعلى ، فالأعلى ليرقى المخاطب فى فهم عظمة من انقيد له ، وأطيع درجة درجة ؛ وإلا فلو فوجىء بانقياد الأعظم ابتداء : لما حصل تبين مراتب العظمة ؛ ولوقع ذكر الأدنى بعد ذلك ضائعاً ؛ بل يكون رجوعاً ونقصاً .

ولهذا جرت فطرة الخلق أن يقال : فلان لا يأتينى ، وفلان يأتينى ، أى كيف يستنكف عن الإتيان إلى ؟ وفلان أكرم منه وأعظم ، وهو يأتينى ، ولا يقال لا يأبى فلان أن يكرمك ، ولا من هو فوقه . فالانتقال من المسيح إلى الملائكة دليل على فضلهم ؛ كيف وقد نعتوا بالقرب الذى هو عين الفضائل ؟!

و «الجواب» : زعم القاضى أن هذا ليس من عطف الأعلى على الأدنى ؛ وإنما هو عطف ساذج . قال : وذلك أن قوماً عبدوا المسيح وزعموا أنه ابن الله سبحانه ، وقوما عبدوا الملائكة وزعموا أنها بنات الله ، كما حكى الله تعالى

عن الفريقين فبين الله تعالى فى هذه : أن هؤلاء الذين عبدتموهم من دونى هم عبادى لن يستنكفوا عن عبادتى ، وأنهما لو استنكفا عن عبادتى لعذبتهما عذاباً أليما ، والمسيح هو الظاهر وهو من نوع البشر ، وهذا الكلام فيه نظر . والله أعلم بحقيقته .

ثم نقول : إن كان هذا هو المراد فلا كلام ، وإن أريد أن الانتقال من الأدنى إلى الأعلى : فاعلم — نور الله قلبك وشرح صدرك للإسلام — أن للملائكة خصائص ليست للبشر ؛ لا سيما فى الدنيا . هذا مالا يستريب فيه لبيب ، أنهم اليوم على مكان ، وأقرب إلى الله ، وأظهر جسوماً ، وأعظم خلقاً ، وأجمل صوراً ، وأطول أعماراً ، وأيمن آثاراً ، إلى غير ذلك من الخصال الحميدة ، مما نعلمه ومما لا نعلمه .

وللبشر أيضاً خصائص ومزايا ؛ لكن الكلام فى مجموع كل واحدة من المزيتين أيهما أفضل : هذا طريق ممهد لهذه الآية وما بعدها . وهو وراء ذلك ؛ لحيث جرى ما يوجب تفضيل الملك فلما تميزوا به ، واختصوا به من الأمور التى لا تنبغى لمن دونهم فيها أن يتفضل عليهم فيما هو من أسبابها .

وذلك أن المسيح لو فرض استنكافه عن عبادة الله : فإنما هو لما أيده الله من الآيات ، كما أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى وغير ذلك ، ولأنه خرج فى خلقه عن بنى آدم ، وفى عزوفه عن الدنيا ، وما فيها : أعطى الزهد ؛ وما من صفة من هذه الصفات إلا والملائكة أظهر منه فيها ، فإنهم كلهم خلقوا من

غير أبوين ومن غير أم ؛ وقد كان فرس جبريل يحيي به التراب الذى يمر عليه ؛ وعلم ما يدخر العباد فى بيوتهم على الملائكة سهل .

وفى حديث أبرص وأقرع وأعمى : « أن الملك مسح عليهم فبرءوا » فهذه الأمور التى من أجلها عبد المسيح ، وجعل ابن الله عز وجل للملائكة منها أوفر نصيب ، وأعلى منها ، وأعظم مما للمسيح ، وهم لا يستنكفون عن عبادته ، فهو أحق خلق أن لا يستنكف ؛ وأما القرب من الله والزلفى لديه فأمور وراء هذه الآيات . وأيضاً فأقصى ما فيها تفضيلهم على المسيح ؛ إذ هو فى هذه الحياة الدنيا ؛ وأما إذا استقر فى الآخرة وكان ما كان مما لست أذكر : فمن أين يقال إنهم هناك أفضل منه ؟ .

(الحجة الثانية) : قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ) ومثله فى هود ، فالاحتجاج فى هذا من وجوه :ـ

أحدها : أنه قرن استقرار خزائنه ، وعلم الغيب بنفى القول بأنه ملك ، وسلبها عن نفسه فى نسق واحد ، فإذا كان حال من يعلم الغيب ، ويقدر على الخزائن أفضل من حال من لا يكون كذلك : وجب أن يكون حال الملك أفضل من حال من ليس بملك ، وإن كان نبينا كما فى الآية .

وثانيها : أنه إنما نفى عن نفسه حالاً أعظم من حاله الثابتة ، ولم ينف حالاً

دون حاله ؛ لأن من اتصف بالأعلى فهو على ما دونه أقدر ؛ فدل على أن حال الملك أفضل من حاله أن يكون ملكا وهو المطلوب .

وثالثها :ما ذكر القاضى أنه لولا ما استقر فى نفوس المخاطبين من أن الملك أعظم ؛ لما حسن مواجهتهم بسلب شىء هو دون مرتبته ، وهذا الاعتقاد الذى كان فى نفوس المخاطبين : أمر قرروا عليه ، ولم ينكره عليهم ، فثبت أنه حق .

والجواب من وجوه :ـ

(أحدها) : أنه نفى أن يكون عالما بالغيب وعنده خزائن الله ، ونفى أن يكون ملكا لا يأكل ولا يشرب ولا يتمتع ؛ وإذا نفى ذلك عن نفسه : لم يجب أن يكون الملك أفضل منه ، ألا ترى أنه لو قال : ولا أنا كاتب ولا أنا قارئ لم يدل على أن الكاتب والقارئ أفضل ممن ليس بكاتب ولا قارئ ، فلم يكن فى الآية حجة .

وأيضاً ما قال القاضى إنهم طلبوا صفات الألوهية وهى العلم والقدرة والغنى: وهى : أن يكون عالما بكل شىء ، قديرا على كل شىء ، غنيا عن كل شىء ـ فسلب عن نفسه صفات الألوهية ، ولهذا قالوا : (مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ) وقال تعالى : محتجا عنه : (وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ) فكأنهم أرادوا منه صفة الملائكة أن يكون

متلبسا بها ، فإن الملائكة صمد لا يأكلون ولا يشربون ، والبشر لهم أجواف يأكلون ويشربون ؛ فكان الأمر إلى هذه الصفة ، وهذا بيّن إن شاء الله .

(وثانيها) : أن الآخر أكمل فى أمر من الأمور، فنفى عن نفسه حال الملك فى ذلك ، ولم يلزم أن يكون له فضيلة يمتاز بها ، وقد تقدم مثل هذا فيما ذكر من حال الملك وعظمته ، وأنه ليس للبشر من نوعه مثله ؛ ولكن لم لا قلت من غير نوعه للبشر ما هو أفضل منه ؟ .

ولهذا إذا سئل الإنسان عما يعجز عنه : قد يقول لست بملك ، وإن كان المؤمن أفضل من حال الجن ، والملك من الملوك .

(وثالثها) أن أقصى ما فيه تفضيل الملك فى تلك الحال ، ولو سلم ذلك لم ينف أن يكون فيما بعد أفضل من الملك ؛ ولهذا تزيد قدرته وعلمه وغناه فى الآخرة ، وهذا كما لو قال الصبي : لا أقول إنى شيخ ، ولا أقول إنى عالم ، ومن الممكن ترقيه إلى ذلك ، وأكمل منه .

(الحجة الثالثة) : قول إبليس لآدم وحواء : (إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ) تقديره كراهة أن تكونا أو لئلا تكونا ؛ فلولا أن كونهما ملكين حالة هى أكمل من كونهما بشرين : لما أغراهما بها ، ولما ظنا أنها هى الحالة العليا ؛ ولهذا قرنها بالخلود ، والخالد أفضل من الفانى ، والملك أطول حياة من الآدمى ، فيكون أعظم عبادة وأفضل من الآدمى .

والجواب من وجوه : —

(أحدها) : ما ذكره القاضى أن قوله : (إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ) ظن أن الملائكة خير منهما ، كما ظن أنه خير من آدم وكان مخطئاً . وقوله : (أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ) ظناً منه أنهما يؤثران الخلود ، لما فى ذلك من السلامة من الأمراض والأسقام والأوجاع ، والآفات والموت ، لأن الخالد فى الجنة هذه حاله ، ولم يخرج هذا مخرج التفضيل على الأنبياء ، ألا ترى أن الحور والولدان المخلوقين فى الجنة خالدون فيها وليسوا بأفضل من الأنبياء ؟

(وثانيها) أن الملك أفضل من بعض الوجوه ، وكذلك الخلود آثر عندهما فمالا إليه .

(وثالثها) : أن حالهما تلك كانت حال ابتداء لا حال انتهاء ، فإنهما فى الانتهاء قد صارا إلى الخلود الذى لا حظر فيه ولا معه ، ولا يعقبه زوال ، وكذلك يصيران فى الانتهاء إلى حال هى أفضل وأكمل من حال الملك ، الذى أراداها أولا ، وهذا بيّن .

(الحجة الرابعة) : قوله تعالى : (ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ) فبدأ بهم ، والابتداء إنما يكون بالأفضل والأشرف ، فالأفضل والأشرف ، كما بدأ بذلك فى قوله : (فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ) فبدأ بالأكمل والأفضل .

والجواب : أن الابتداء قد يكون كثيراً بغير الأفضل ، بل يبتدأ بالشيء لأسباب متعددة ، كما فى قوله تعالى : (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ) ولم يدل ذلك على أن نوحاً أفضل من إبراهيم ، والنبى صلى الله عليه وسلم أفضل ؛ وكذلك قوله : (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) لا يدل على أن المسلم أفضل من المؤمن ؛ فلعله - والله أعلم - إنما بدأ بهم لأن الملائكة أسبق خلقاً ورسالة ؛ فإنهم أرسلوا إلى الجن والإنس ؛ فذكر الأول ، فالأول : فى الخلق ، والرسالة : على ترتيبهم فى الوجود .

وقد قال تعالى : (يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ) والذكور أفضل من الإناث . وقال : (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ) (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) الآيات . و (فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ) ، إلى غير ذلك ، ولم يدل التقديم فى شىء من هذه المواضع على فضل المبدوء به ، فعلم أن التقديم ليس لازماً للفضل .

(الحجة الخامسة) : قوله تعالى : (فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) فدل على أن الملك أفضل من البشر ، وهن إنما أردن أن يتبين لهن حال هى أعظم من حال البشر .

وقد أجابوا عنه (بجوابين) .

أحدهما : أنهن لم يعتقدن أن الملائكة أحسن من جميع النبيين وإن لم يروهم لمخبر

أخبرهم فسكن إلى خبره ، فلما هالهن حسنه قلن : (مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) لأن هذا الحسن ليس بصفة بشر .

وثانيهما : أنهن اعتقدن أن الملائكة خير من النبيين ، فكان هذا الاعتقاد خطأ منهن ، ولا يقال إنه لما لم يقرن بالإنكار دل على أنه حق، فإن قولهن: (مَا هَٰذَا بَشَرًا) خطأ . وقولهن : (إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) خطأ أيضاً فى غيبتهن عنه أنه بشر وإثباتهن أنه ملك ، وإن لم يقرن بالإنكار : دل على أنه حق ، وأن قولهن : (مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) : خطأ فى نفيهن عنه البشرية وإثباتهن له الملائكية ، وإن لم يقرن بالإنكار لغيبة عقولهن عند رؤيته، فلم يلمن فى تلك الحال على ذلك .

وأقول أيضاً : إن النسوة لم يكن يقصدن أنه نبى ؛ بل ولا أنه من الصالحين إذ ذاك ، ولم يشهدن له فضلا على غيره من البشر فى الصلاح والدين ، وإنما شهدن بالفضل فى الجمال والحسن ، وسباهن جماله فشبهنه بحال الملائكة ، وليس هذا من التفضيل فى شىء من الذى نريد .

ثم نقول : إذا كان التفضيل بالجمال حقاً : فقد ثبت أن أهل الجنة تدخل الزمرة الأولى ووجوههم كالشمس ، والذين يلونهم كالقمر الحديث ؛ فهذه حال السعداء عند المنتهى ، وإن كان فى الجمال والملك تفضيل : فإنما هو فى هذه الحياة الدنيا ؛ لعلم عليه النساء وأكثر الناس .

وأما ما فضل الله عبـــاده الصالحين ، وما أعده الله من الكرامة : فأكثر الناس عنه بمعزل ، ليس لهم نظر إليه ، وكذلك ما آتاهم الله من العلم الذى غبطتهم الملائكة به من أول ما خلقهم ، وهو مما به يفضلون . فهذا الجواب وما قبله .

(الحجة السادسة) : قوله تعالى : (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ) فهذه صفة جبرائيل .

ثم قال : (وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ) فوصف جبرائيل بالكرم والرسالة ، والقوة والتمكين عنده ، وأنه مطاع وأنه أمين ، فوصفه بهذه الصفات الفاضلة ثم عطف عليه بقوله : (وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ) فأضاف الرسول البشرى الينا وسلب عنه الجنون ، وأثبت له رؤية جبرائيل ، ونفى عنه البخل والتهمة ، وفى هذا تفاوت عظيم بين البشر والملائكة ، وبين الصفات والنعم ، وهذا قاله بعض المعتزلة ، زل به عن سواء السبيل .

والجواب : أولا : أين هو من قوله : (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) إلى آخرها وقوله : (وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ) ؟ وقوله : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا) الآيات : (عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا) ؟ .

وأين هو عن قصة المعراج التى تأخر فيها جبرائيل عن مقامه ؟ ثم أين هو عن الخلة ؟ وهو التقريب ؛ فهذا نزاع من لم يقدر النبي صلى الله عليه وسلم قدره .

ثم نقول ثانياً : لمـا كان جبرائيل هو الذى جاء بالرسالة ، وهو صاحب الوحى وهو غيب عن النـاس ؛ لم يروه بأبصارهم، ولم يسمعوا كلامه بآذانهم وزعم زاعمون أن الذى يأتيه شيطان يعلمه ما يقول ، أو أنه إنما يعلمه إياه بعض الإنس .

أخبر الله العباد أن الرسول الذى جاء به ، ونعته أحسن النعت . وبين حاله أحسن البيان ، وذلك كله إنما هو تشريف لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ونفى عنه ما زعموه ، وتقرير للرسالة ؛ إذ كان هو صاحبه الذى يأتيه بالوحى ، فقال : (إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ) أى أن الرسول البشرى لم ينطق به من عند نفسه ، وإنمـا هو مبلغ يقول ما قيل له ؛ فكان فى اسم الرسول إشارة إلى محض التوسط والسعاية .

ثم وصفه بالصفات التى تنفى كل عيب ؛ من القوة والمـكنة ، والأمانة والقرب من الله سبحانه ، فلما استقر حال الرسول الملـكى ، بين أنه من جهته ، وأنه لا يجىء إلا بالخير .

وكان الرسول البشرى معلوم ظاهره عندهم ، وهو الذى يبلغهم الرسالة ، ولولا هؤلاء لمـا أطاقوا الأخذ عن الرسول الملـكى ؛ وإنما قال : (صَاحِبُكُمۡ) إشارة إلى أنه قد صحبكم سنين قبل ذلك ، ولا سابقة له بما تقولون فيه وترمونه ؛ من الجنون والسحر وغير ذلك ، وأنه لولا سابقته وصحبته إياكم لمـا استطعتم الأخذ عنه ؛ ألا تسمعه يقول :

(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا) — تمييزاً — من المرسلين ؛ ثم حقق رسالته بأنه رأى جبرائيل ، وأنه مؤتمن على ما يأخذه عنه ، فقام أمر الرسالة بهاتين الصفتين ، وجاء على الوجه الأبلغ والأكمل والأصلح .

وقد احتجوا بآيات تقدم التنبيه على مقاصدها ؛ من وصف الملائكة بالتسبيح ، والطاعة ، والعبادة وغير ذلك .

(الحجة السابعة): الحديث المشهور الصحيح عن الله عز وجل أنه قال : «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه» .

والملأ الذي يذكر الله الذاكر فيه ، هم : (الملائكة) وقد نطق الحديث بأنهم أفضل من الملإ الذين يذكر العبد فيهم ربه ، وخير منهم ، وقد قال بعضهم : وكم من ملإ ذكر الله فيه والرسول حاضر فيهم ؛ بل وقع ذلك في مجالس الرسول كلهم ، فأين العدول عن هذا الحديث الصحيح ؟!

الجواب : أن هذا الحديث صحيح ، وهو أجود وأقوى ما احتجوا به ، وقد أجابوا عنه بوجهين :

(أحدهما) أضعف من الآخر ، وهو أن الخير يجوز أن يرجع إلى الذكر ، لا إلى المذكور فيهم ، تقديره ذكرته ذكراً خيراً من ذكره ، لأن ذكر الله كلامه ، وهذا ليس بشيء ، فإن الخير مجرور صفة للملإ ، وقد وصل بقوله منهم ، ولم يقل منه ، ولولا ذلك المعنى لقيل ذكرته في ملإ خيراً

منه بالنصب ، وصلة الضمير الذكر . وهذا من أوضح الكلام لمن له فقه بالعربية ونعوذ بالله من التنطع .

(وثانيهما) أنه محمول على ملأ خير منه ليس فيهم نبي ، فإن الحديث عام عموما مقصوداً شاملا ، كيف لا ؛ والأنبياء والأولياء هم أهل الذكر ومجالسهم مجالس الرحمة ؟ فكيف يجيء استثناؤهم ؟ !

لكن هنا أوجه متوجهة : —

(أحدها) : «أن الملأ الأعلى» الذين يذكر الله من ذكره فيهم : هم صفوة الملائكة وأفضلهم ، والذاكر فيهم للعبد هو الله يقال ينبغي أن يفرض على موازنة أفضل بنى آدم يجتمعون فى مجلس نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإن كان أفضل البشر ، لكن الذين حوله ليس أفضل من بقى من البشر الفضلاء ، فإن الرسل والأنبياء ، أفضل منهم .

(وثانيها) : أن مجلس أهل الأرض إن كان فيه جماعة من الأنبياء يذكر العبد فيهم ربه : فالله تعالى يذكر العبد فى جماعات من الملائكة أكثر من أولئك فيقع الخير للكثرة التى لا يقوم لها شىء ، فإن الجماعة كلما كثروا كانوا خيراً من القليل .

(وثالثها) : أنه لعله فى الملإ الأعلى جماعة من الأنبياء يذكر الله العبد فيهم ؛ فإن أرواحهم هناك .

(ورابعها) : أن من الناس من فرق بين الخير والأفضل ، فيقال الخير للأنفع

(وخامسها) : أنه لا يدل على أن الملأ الأعلى أفضل من هؤلاء الذاكرين إلا فى هذه الدنيا ، وفى هذه الحال لأنهم لم يكملوا بعد ، ولم يصلحوا أن يصيروا أفضل من الملأ الأعلى ، فالملأ الأعلى خير منهم فى هذه الحالة ، كما يكون الشيخ العاقل خيراً من عامة الصبيان ، لأنه إذ ذاك فيه من الفضل ما ليس فى الصبيان ، ولعل فى الصبيان فى عاقبته أفضـــل منه بكثير ، ونحن إنما نتكلم على عاقبة الأمر ومستقره .

فليتدبر هذا فإنه جواب معتمد إن شاء الله ، والله سبحانه أعلم بحقائق خلقه وأفاضلهم ، وأحكم فى تدبيرهم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . هذا ما تيسر تعليقه وأنا عجلان ، فى حين من الزمان ، والله المستعان ، وهو المسؤول أن يهدى قلوبنا ويسدد ألسنتنا وأيدينا ، والحمد لله رب العالمين .

سئل شيخ الإسلام

رحمه الله :ـ

عن « خديجة » « وعائشة » : أمى المؤمنين أيهما أفضل ؟

فأجاب :

بأن سبق خديجة ، وتأثيرها فى أول الإسلام ؛ ونصرها ، وقيامها فى الدين لم تشركها فيه عائشة ، ولا غيرها من أمهات المؤمنين .

وتأثير عائشة فى آخر الإسلام ، وحمل الدين ، وتبليغه إلى الأمة ، وإدراكها من العلم ما لم تشركها فيه خديجة ، ولا غيرها مما تميزت به عن غيرها .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله :ـ

فصـــــل

وأفضل نساء هذه الأمة « خديجة » ،و « عائشة » ، و« فاطمة » .

وفى تفضيل بعضهن على بعض نزاع، وتفصيل ليس هذا موضعه. وخديجة وعائشة من أزواجه .

فإذا قيل بهذا الاعتبار : إن جملة « أزواجه » أفضل من جملة « بناته » كان صحيحاً ؛ لأن أزواجه أكثر عدداً ، والفاضلة فيهن أكثر من الفاضلة فى بناته .

وقال شيخ الإسلام

فصـــــل

وأما « نساء النبي صلى الله عليه وسلم » فلم يقل : إنهن أفضل من العشرة إلا أبو محمد بن حزم ، وهو قول شاذ لم يسبقه إليه أحد ، وأنكره عليه من بلغه من أعيان العلماء ، ونصوص الكتاب والسنة تبطل هذا القول .

وحجته التي احتج بها فاسدة ؛ فإنه احتج على ذلك بأن المرأة مع زوجها في درجته في الجنة ، ودرجة النبي صلى الله عليه وسلم أعلى الدرجات فيكون أزواجه في درجته ، وهذا يوجب عليه : أن يكون أزواجه أفضل من الأنبياء جميعهم ، وأن تكون زوجة كل رجل من أهل الجنة أفضل ممن هو مثله ، وأن يكون من يطوف على النبي صلى الله عليه وسلم من الولدان ، ومن يزوج به من الحور العين أفضل من الأنبياء والمرسلين ، وهذا كله مما يعلم بطلانه عموم المؤمنين .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » فإنما ذكر فضلها على النساء فقط . وقد ثبت

فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كمل من الرجال كثير ؛ ولم يكمل من النساء إلا عدد قليل ، إما اثنتان أو أربع » وأكثر أزواجه لسن من ذلك القليل .

والأحاديث المفضلة للصحابة كقوله صلى الله عليه وسلم : « لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لا تخذت أبا بكر خليلا » يدل على أنه ليس فى الأرض أهل : لا من الرجال ولا من النساء أفضل عنده من أبي بكر ، وكذلك ما ثبت فى الصحيح عن على أنه قال : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ، ثم عمر . وما دل على هذا من النصوص التى لا يتسع لها هذا الموضع .

وبالجملة فهذا قول شاذ لم يسبق إليه أحد من السلف ، وأبو محمد مع كثرة علمه وتبحره ، وما يأتى به من الفوائد العظيمة : له من الأقوال المنكرة الشاذة ما يعجب منه كما يعجب مما يأتى به من الأقوال الحسنة الفائقة ، وهذا كقوله : إن مريم نبية ، وإن آسية نبية ، وإن أم موسى نبية .

وقد ذكر القاضى أبو بكر ، والقاضى أبو يعلى ، وأبو المعالى ، وغيرهم : الإجماع على أنه ليس فى النساء نبية ، والقرآن والسنة دلا على ذلك . كما فى قوله : (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ) ، وقوله : (مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ) ، ذكر أن غاية ما انتهت إليه أمه : الصديقية ، وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

وقال شيخ الإسلام :-

فصـــــل

وأما أبو بكر والخضر فهذا يبنى على نبوة الخضر ، وأكثر العلماء على أنه ليس بنبي ، وهو اختيار أبى على بن أبى موسى وغيره من العلماء ، فعلى هذا أبو بكر وعمر أفضل منه .

والقول الثانى : أنه نبي . واختاره أبو الفرج بن الجوزى وغيره ؛ فعلى هذا هو أفضل من أبى بكر ؛ لـكن النبي صلى الله عليه وسلم وعيسى بن مريم هما أفضل منه بالاتفاق ، ومحمد فى أول هذه الأمة وعيسى فى آخرها .

وسئل رحمه الله :

عن رجلين اختلفا . فقال أحدهما : أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهما ـ أعلم ، وأفقه من على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وقال الآخر : بل على بن أبى طالب أعلم ، وأفقه من أبى بكر وعمر . فأى القولين أصوب ؟ وهل هذان الحديثان وهما قوله : صلى الله عليه وسلم « أقضاكم على » وقوله : « أنا مدينة العلم ، وعلى بابها » صحيحان ؟ وإذا كانا صحيحين ؛ فهل فيهما دليل أن عليا أعلم وأفقه من أبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهم أجمعين ؟ وإذا ادعى مدع : أن إجماع المسلمين على أن عليا رضى الله عنه أعلم وأفقه من أبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ يكون محقا أو مخطئا ؟ .

فأجاب :

الحمد لله : لم يقل أحد من علماء المسلمين المعتبرين : إن عليا أعلم ، وأفقه من أبى بكر وعمر، بل ولا من أبى بكر وحده . ومدعى الإجماع على ذلك من أجهل الناس ، وأكذبهم ؛ بل ذكر غير واحد من العلماء إجماع العلماء على أن أبا بكر الصديق أعلم من على . منهم الإمام : منصور بن عبد الجبار السمعانى المروذى ؛ أحد أئمة السنة من أصحاب الشافعى ذكر فى كتابه : « تقويم الأدلة على الإمام »

إجماع علماء السنة على أن أبا بكر أعلم من على. وما علمت أحداً من الأئمة المشهورين ينازع فى ذلك.

وكيف وأبو بكر الصديق كان بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم يفتى، ويأمر، وينهى، ويقضى، ويخطب؟! كما كان يفعل ذلك إذا خرج هو وأبو بكر يدعو الناس إلى الإسلام، ولما هاجرا جميعاً، ويوم حنين، وغير ذلك من المشاهد والنبي صلى الله عليه وسلم ساكت يقره على ذلك، ويرضى بما يقول، ولم تكن هذه المرتبة لغيره.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم فى مشاورته لأهل العلم، والفقه، والرأى من أصحابه: يقدم فى الشورى أبا بكر، وعمر، فهما اللذان يتقدمان فى الكلام، والعلم بحضرة الرسول عليه السلام على سائر أصحابه. مثل قصة مشاورته فى أسرى بدر. فأول من تكلم فى ذلك أبو بكر، وعمر، وكذلك غير ذلك.

وقد روى فى الحديث أنه قال لهما: «إذا اتفقتما على أمر لم أخالفكما» ولهذا كان قولهما حجة فى أحد قولى العلماء، وهو إحدى الروايتين عن أحمد — وهذا بخلاف قول عثمان، وعلى.

وفى السنن عنه أنه قال «اقتدوا باللذين من بعدى: أبى بكر وعمر». ولم يجعل هذا لغيرهما، بل ثبت عنه أنه قال: «عليكم بسنتى، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى. تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات

الأمور : فإن كل بدعة ضلالة » فأمر باتباع سنة الخلفاء الراشدين . وهذا يتناول الأئمة الأربعة . وخص أبا بكر وعمر بالاقتداء بهما . ومرتبة المقتدى به فى أفعاله ، وفيما سنه للمسلمين : فوق سنة المتبع فيما سنه فقط . وفى صحيح مسلم أن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كانوا معه فى سفر فقال : « إن يطع القوم أبا بكر وعمر يرشدوا » .

وقد ثبت عن ابن عباس : أنه كان يفتى من كتاب الله . فإن لم يجد فبما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإن لم يجد أفتى بقول أبى بكر وعمر ؛ ولم يكن يفعل ذلك بعثمان وعلى . و « ابن عباس » حبر الأمة ، وأعلم الصحابة ، وأفقههم فى زمانه ؛ وهو يفتى بقول أبى بكر وعمر : مقدماً لقولهما على قول غيرهما من الصحابة . وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » .

وأيضاً فأبو بكر ، وعمر كان اختصاصهما بالنبى صلى الله عليه وسلم فوق اختصاص غيرهما . وأبو بكر كان أكثر اختصاصاً . فإنه كان يسمر عنده عامة الليل يحدثه فى العلم ، والدين ، ومصالح المسلمين . كما روى أبو بكر بن أبى شيبة . حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عمر قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمر عند أبى بكر فى الأمر من أمور المسلمين وأنا معه » .

وفى الصحيحين عن عبد الرحمن بن أبى بكر : أن أصحاب الصفة كانوا

ناساً فقراء ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس ، أو بسادس » وأن أبا بكر جاء بثلاثة ، وانطلق نبي الله صلى الله عليه وسلم بعشرة ، وأن أبا بكر تعشى عند النبي صلى الله عليه وسلم ثم لبث حتى صليت العشاء ثم رجع فلبث حتى نعس رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء بعد ما مضى من الليل ما شاء الله قالت امرأته ما حبسك عن أضيافك قال أو ماعشيتهم قالت أبوا حتى تجيء : عرضوا عليهم العشاء فغلبوهم . وذكر الحديث . وفى رواية : « كان يتحدث إلى النبي صلى الله عليه وسلم إلى الليل » .

وفى سفر الهجرة لم يصحبه غير أبي بكر ، ويوم بدر لم يبق معه فى العريش غيره وقال : « إن أمنّ الناس علينا فى صحبته وذات يده أبو بكر ، ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا » . وهذا من أصح الأحاديث المستفيضة فى الصحاح من وجوه كثيرة .

وفى الصحيحين عن أبى الدرداء قال : « كنت جالساً عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أما صاحبكم فقد غامر » فسلم ، وقال : إنى كان بينى وبين ابن الخطاب شيء فأسرعت إليه ، ثم ندمت فسألته أن يغفر لى فأبى على فأتيتك فقال : « يغفر الله لك ثلاثاً » ثم إن عمر ندم فأتى منزل أبى بكر فلم يجده ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فجعل وجه النبي صلى الله عليه وسلم يتمعر وغضب حتى

أشفق أبو بكر ، وقال أنا كنت أظلم يا رسول الله : مرتين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدقت وواساني بنفسه وماله فهل أنتم تاركوا لي صاحبي فهل أنتم تاركوا لي صاحبي » فما أوذي بعدها . قال البخاري : غامر سبق بالخير .

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال : وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ، ويثنون ، ويصلون عليه قبل أن يرفع ؛ وأنا فيهم فلم يرعني إلا رجل قد أخذ بمنكبي من ورائي ! فالتفت فإذا هو علي ؛ وترحم على عمر ، وقال : ما خلفت أحداً أحب إلى أن ألقى الله عز وجل بعمله منك ؛ وأيم الله ! إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك . وذلك أني كنت كثيراً ما أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول « جئت أنا وأبو بكر وعمر ، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر ، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر » فإن كنت أرجو ، أو أظن أن يجعلك الله معهما .

وفي الصحيحين وغيرهما أنه لما كان يوم أحد قال أبو سفيان لما أصيب المسلمون : أفي القوم محمد ؟ أفي القوم محمد ؟ أفي القوم محمد ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تجيبوه » فقال أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تجيبوه » . فقال أفي القوم ابن الخطاب ؟ أفي القوم ابن الخطاب ؟ أفي القوم ابن الخطاب ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تجيبوه » . فقال لأصحابه : أما هؤلاء فقد

كفيتموهم ! فلم يملك عمر نفسه أن قال : كذبت عدو الله ! إن الذين عددت لأحياء ، وقد بقى لك ما يسوءك الحديث . فهذا أمير الكفار فى تلك الحال إنما سأل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبى بكر وعمر ، دون غيرهم : لعلمه بأنهم رؤوس المسلمين . النبي ووزيراه .

ولهذا سأل الرشيد مالك بن أنس عن منزلتهما من النبي صلى الله عليه وسلم فى حياته فقال : منزلتهما منه فى حياته كمنزلتهما منـــه بعد مماته . وكثرة الاختصاص ، والصحبة ـ مع كمال المودة ، والائتلاف ، والمحبة ، والمشاركة فى العلم والدين : تقتضى أنهما أحق بذلك من غيرهما . وهذا ظاهر بين لمن له خبرة بأحوال القوم .

أما الصديق فإنه مع قيامه بأمور من العلم والفقه عجز عنها غيره ـ حتى بينها لهم ـ لم يحفظ له قول مخالف نصاً . هذا يدل على غاية البراعة . وأما غيره فحفظت له أقوال كثيرة خالفت النص لكون تلك النصوص لم تبلغهم .

والذى وجد من موافقة « عمر » للنصوص أكثر من موافقة على ، وهذا يعرفه من عرف مسائل العلم ، وأقوال العلماء فيها . وذلك مثل نفقة المتوفى عنها زوجها : فإن قول عمر هو الذى وافق النص ، دون القول الآخر . وكذلك « مسئلة الحرام » قول عمر ، وغيره فيها : هو الأشبه بالنصوص من القول الآخر وقد ثبت فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « قد كان فى الأمم

قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر » وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رأيت كأني أتيت بقدح لبن فشربت حتى أني لأرى الري يخرج من أظفاري ثم ناولت فضلي عمر » فقالوا ما أولته يا رسول الله قال : « العلم » وفى الترمذي وغيره أنه قال : لو لم أبعث فيكم لبعث عمر » .

وأيضاً فإن الصديق استخلفه النبي صلى الله عليه وسلم على « الصلاة » التي هي عمود الإسلام ، وعلى إقامة « المناسك » التي ليس في مسائل العبادات أشكل منها ، وأقام المناسك قبل أن يحج النبي صلى الله عليه وسلم . فنادى أن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ! فأردفه بعلي بن أبي طالب لينبذ العهد إلى المشركين ؛ فلما لحقه قال : أمير . أو مأمور . قال : بل مأمور ؛ فأمر أبا بكر على عليّ بن أبي طالب، وكان علي ممن أمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يسمع ويطيع في الحج وأحكام المسافرين وغير ذلك لإبي بكر ، وكان هذا بعد غزوة تبوك التي استخلف علياً فيها على المدينة،ولم يكن بقي بالمدينة من الرجال إلا منافق ، أو معذور ، أو مذنب ؛ فلحقه علي فقال : أتخلفني مع النساء والصبيان فقال : « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى » :

بين بذلك أن استخلاف علي على المدينة لا يقتضي نقص المرتبة ، فإن موسى قد استخلف هارون ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم دائما يستخلف رجالا ؛ لكن كان يكون بها رجال : وعام تبوك خرج النبي صلى الله عليه وسلم بجميع المسلمين ولم يأذن لأحد في التخلف عن الغزاة : لأن العدو كان شديداً ، والسفر

بعيداً ، وفيها أنزل الله سورة براءة.وكتاب أبى بكر فى الصدقات [أجمع الـكتب] وأوجزها ، ولهذا عمل به عامة الفقهاء ، وكتاب غيره فيه ما هو متقدم منسوخ فدل ذلك على أنه أعلم بالسنة الناسخة . وفى الصحيحين عن أبى سعيد قال : وكان أبو بكر أعلمنا برسول الله صلى الله عليه وسلم

وأيضاً فالصحابة فى زمن أبى بكر لم يكونوا يتنازعون فى مسئلة إلا فصلها بينهم أبو بكر وارتفع النزاع ، فلا يعرف بينهم فى زمانه مسئلة واحدة تنازعوا فيها الا ارتفع النزاع بينهم بسببه ، كتنازعهم فى وفاته صلى الله عليه وسلم ، ومدفنه ، وفى ميراثه ، وفى تجهيز جيش أسامة ، وقتال مانعى الزكاة ، وغير ذلك من المسائل الكبار ؛ بل كان خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم : يعلمهم ؛ ويقومهم ، ويبين لهم ما تزول معه الشبهة فلم يكونوا معه يختلفون .

وبعده لم يبلغ علم أحد وكماله علم أبى بكر وكماله ؛ فصاروا يتنازعون فى بعض المسائل . كما تنازعوا فى الجد والإخوة ، وفى الحرام ، وفى الطلاق الثلاث ؛ وفى غير ذلك من المسائل المعروفة : مما لم يكونوا يتنازعون فيه على عهد أبى بكر وكانوا يخالفون عمر ، وعثمان ، وعلياً : فى كثير من أقوالهم ؛ ولم يعرف أنهم خالفوا أبا بكر فى شىء مما كان يفتى فيه ويقضى . وهذا يدل على غاية العلم .

وقام مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقام الإسلام ؛ فلم يخل بشىء منه ؛ بل أدخل الناس من الباب الذى خرجوا منه ؛ مع كثرة المخالفين من المرتدين وغيرهم ، وكثرة الخاذلين فكمل به من علمهم ودينهم ما لا يقاومه فيه

أحد حتى قام الدين كما كان . وكانوا يسمون أبا بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم بعد هذا سموا عمر وغيره أمير المؤمنين . قال السهيلي وغيره من العلماء : ظهر قوله : (لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا) فى أبى بكر : فى اللفظ ، كما ظهر فى المعنى فكانوا يقولون : محمد رسول الله ، وأبو بكر خليفة رسول الله ؛ ثم انقطع هذا الاتصال اللفظى بموته فلم يقولوا لمن بعده خليفة رسول الله.

وأيضاً « فعلى بن أبى طالب » تعلم من أبى بكر بعض السنة ؛ بخلاف أبى بكر فإنه لم يتعلم من على بن أبى طالب ، كما فى الحديث المشهور الذى فى السنن حديث صلاة التوبة عن على قال : كنت إذا سمعت من النبى صلى الله عليه وسلم حديثا ينفعنى الله منه بما شاء أن ينفعنى ، فإذا حدثنى غيره استحلفته فإذا حلف لى صدقته ، وحدثنى أبو بكر ـ وصدق أبو بكر ـ عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما من مسلم يذنب ذنبا ثم يتوضأ ويحسن الوضوء ويصلى ركعتين ويستغفر الله إلا غفر الله له » .

ومما يبين لك هذا أن أئمة علماء الكوفة الذين صحبوا عمر وعليا كعلقمة ، والأسود ، وشريح القاضى ، وغيرهم كانوا يرجحون قول عمر على قول على . وأما تابعوا أهل المدينة ومكة والبصرة فهذا عندهم أظهر وأشهر من أن يذكر ، وإنما الكوفة ظهر فيها فقه على وعلمه بحسب مقامه فيها مدة خلافته .

وكل شيعة على الذين صحبوه لا يعرف عن أحد منهم أنه قدمه على أبى بكر

وعمر : لا فى فقه ، ولا علم ، ولا غيرهما ؛ بل كل « شيعته » الذين قاتلوا معه عدوه كانوا مع سائر المسلمين يقدمون أبا بكر وعمر ؛ إلا من كان على ينكر عليه ويذمه مع قلتهم فى عهد على وخمولهم : كانوا (ثلاث طوائف) .

طائفة غلت فيه كالتى ادعت فيه الإلهية ، وهؤلاء حرقهم على بالنار .

وطائفة كانت تسب أبا بكر وكان رأسهم عبد الله بن سبأ فلما بلغ عليا ذلك طلب قتله فهرب منه .

وطائفة كانت تفضله على أبى بكر وعمر قال : لا يبلغنى عن أحد منكم أنه فضلنى على أبى بكر وعمر إلا جلدته حد المفترى . وقد روى عن على من نحو ثمانين وجها وأكثر أنه قال على منبر الكوفة : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر . وقد ثبت فى صحيح البخارى وغيره من رواية رجال همدان خاصة ـ التى يقول فيها على .

ولو كنت بوابا على باب جنة لقلت لهمدان ادخلى بسلام

من رواية سفيان الثورى عن منذر الثورى وكلاهما من همدان . رواه البخارى عن محمد بن كثير . قال : حدثنا سفيان الثورى حدثنا : جامع بن شداد حدثنا : أبو يعلى منذر الثورى عن محمد بن الحنفية قال قلت لأبى : يا أبت ! من خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : يا بنى : أو ما تعرف ؟! فقلت : لا . فقال : أبو بكر . قلت : ثم من ؟ قال : ثم عمر .

وهذا يقوله لابنه : الذى لا يتقيه ، ولخاصته ، ويتقدم بعقوبة من يفضله عليهما . والمتواضع لا يجوز له أن يتقدم بعقوبة كل من قال الحق ولا يجوز أن يسميه مفتريا . ورأس الفضائل العلم ، وكل من كان أفضل من غيره من الأنبياء والصحابة وغيرهم : فإنه أعلم منه . قال تعالى : (هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) ، والدلائل على ذلك كثيرة ، وكلام العلماء فى ذلك كثير .

وأما قوله « أقضاكم على » فلم يروه أحد من أهل الكتب الستة ، ولا أهل المسانيد المشهورة ، لا أحمد ، ولا غيره بإسناد صحيح ولا ضعيف . وإنما يروى من طريق من هو معروف بالكذب ، ولكن قال عمر بن الخطاب : أبىٌّ أقرؤنا ، وعلىٌّ أقضانا ، وهذا قاله بعد موت أبى بكر .

والذى فى الترمذى وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «أعلم أمتى بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وأعلمها بالفرائض زيد بن ثابت » وليس فيه ذكر على ، والحديث الذى فيه ذكر على مع ضعفه : فيه أن معاذ بن جبل أعلم بالحلال والحرام ، وزيد بن ثابت أعلم بالفرائض . فلو قدر صحة هذا الحديث : لكان الأعلم بالحلال والحرام أوسع علما من الأعلم بالقضاء ، لأن الذى يختص بالقضاء إنما هو فصل الخصومات فى الظاهر مع جواز أن يكون الباطن بخلافه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنكم تختصمون إلى ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضى بنحو ما أسمع . فمن قضيت له من حق أخيه شيأ فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار » . فقد أخبر سيد القضاة أن قضاءه

لا يحل الحرام بل يحرم على المسلم أن يأخذ بقضائه ما قضى له به من حق الغير .
وعلم الحلال والحرام يتناول الظاهر والباطن : فكان الأعلم به أعلم بالدين .

وأيضاً فالقضاء نوعان :

(أحدهما) الحكم عند تجاحد الخصمين مثل أن يدعى أحدهما أمراً يكذبه الآخر فيه فيحكم فيه بالبينة ونحوها .

(والثانى) مالا يتجاحدان فيه — يتصادقان — ولكن لا يعلمان ما يستحق كل منهما كتنازعهما : فى قسم فريضة ، أو فيما يجب لكل من الزوجين على الآخر ، أو فيما يستحقه كل من الشريكين ، ونحو ذلك .

فهذا الباب هو من أبواب الحلال والحرام . فإذا أفتاهما من يرضيان بقوله كفاهما ذلك ، ولم يحتاجا إلى من يحكم بينهما ، وإنما يحتاجان إلى حاكم عند التجاحد ، وذاك إنما يكون فى الأغلب مع الفجور . وقد يكون مع النسيان ؛ فأما الحلال والحرام فيحتاج إليه كل أحد من بر وفاجر ، وما يختص بالقضاء لا يحتاج إليه إلا قليل من الأبرار .

ولهذا لما أمر أبو بكر عمر أن يقضى بين الناس مكث حولا لم يتحاكم اثنان فى شيء ، ولو عدّ مجموع ما قضى النبى صلى الله عليه وسلم من هذا النوع لم يبلغ عشر حكومات ، فأين هذا من كلامه فى الحلال والحرام ؟ ! الذى هو قوام دين الإسلام . يحتاج إليه الخاص والعام .

وقوله : « أعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل » أقرب إلى الصحة باتفاق علماء الحديث من قوله أقضا كم على لو كان مما يحتج به ، وإذا كان ذلك أصح إسناداً ، وأظهر دلالة : علم أن المحتج بذلك على أن علياً أعلم من معاذ ابن جبل جاهل . فكيف من أبى بكر وعمر اللذين هما أعلم من معاذ بن جبل ؟ ! مع أن الحديث الذى فيه ذ كر معاذ وزيد يضعفه بعضهم ، ويحسنه بعضهم . وأما الحديث الذى فيه ذ كر على فإنه ضعيف .

وأما حديث « أنا مدينة العلم » فأضعف وأوهى ، ولهذا إنما يعد فى الموضوعات المكذوبات ، وإن كان الترمذى قد رواه . ولهذا ذ كره ابن الجوزى فى الموضوعات ، وبين أنه موضوع من سائر طرقه .

والكذب يعرف من نفس متنه ، لا يحتاج إلى النظر فى إسناده : فإن النبى صلى الله عليه وسلم إذا كان « مدينة العلم » لم يكن لهذه المدينة إلا باب واحد ، ولا يجوز أن يكون المبلغ عنه واحداً ، بل يجب أن يكون المبلغ عنه أهل التواتر الذين يحصل العلم بخبرهم للغائب ، ورواية الواحد لا تفيد العلم إلا مع قرائن ، وتلك القرائن إما أن تكون منتفية ، وإما أن تكون خفية عن كثير من الناس ، أو أ كثرهم فلا يحصل لهم العلم بالقرآن والسنة المتواترة ، بخلاف النقل المتواتر الذى يحصل به العلم للخاص والعام .

وهذا الحديث إنما افتراه زنديق ، أو جاهل ، ظنه مدحا ، وهو مطرق الزنادقة إلى القدح فى علم الدين — إذ لم يبلغه إلا واحد من الصحابة .

ثم إن هذا خلاف المعلوم بالتواتر : فإن جميع مدائن المسلمين بلغهم العلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير طريق على رضى الله عنه . أما أهل المدينة ومكة فالأمر فيهم ظاهر ، وكذلك أهل الشام والبصرة — فإن هؤلاء لم يكونوا يروون عن على إلا شيئاً قليلا ، وإنما غالب علمه كان فى أهل الكوفة ، ومع هذا فقد كانوا تعلموا القرآن والسنة قبل أن يتولى عثمان ، فضلا عن خلافة على .

وكان أفقه أهل المدينة ، وأعلمهم تعلموا الدين فى خلافة عمر ، وقبل ذلك لم يتعلم أحد منهم من على شيئاً إلا من تعلم منه لما كان باليمن ، كما تعلموا حينئذ من معاذ بن جبل . وكان مقام معاذ بن جبل فى أهل اليمن وتعليمه لهم أكثر من مقام على وتعليمه ، ولهذا روى أهل اليمن عن معاذ أكثر مما رووه عن على وشريح ، وغيره من أكابر التابعين إنما تفقهوا على معاذ .

ولما قدم على الكوفة كان شريح قاضياً فيها قبل ذلك . وعلى وجد على القضاء فى خلافته شريحاً وعبيدة السلمانى ، وكلاهما تفقه على غيره .

فإذا كان علم الإسلام انتشر فى « مدائن الإسلام » : بالحجاز ، والشام ، واليمن ، والعراق ، وخراسان ، ومصر ، والمغرب قبل أن يقدم إلى الكوفة ، ولما صار إلى الكوفة عامة ما بلغه من العلم بلغه غيره من الصحابة ، ولم يختص على بتبليغ شىء من العلم إلا وقد اختص غيره بما هو أكثر منه .

« فالتبليغ العام » الحاصل بالولاية حصل لأبى بكر وعمر وعثمان منه أكثر مما حصل لعلى . « وأما الخاص » : فابن عباس كان أكثر فتيا منه، وأبو هريرة أكثر رواية منه ، وعلى أعلم منهما ، كما أن أبا بكر وعمر وعثمان أعلم منهما أيضاً . فإن الخلفاء الراشدين قاموا من تبليغ العلم العام بما كان الناس أحوج إليه مما بلغه من بلغ بعض العلم الخاص .

وأما ما يرويه أهل الكذب والجهل من اختصاص على بعلم انفرد به عن الصحابة فكله باطل ، وقد ثبت عنه فى الصحيح أنه قيل له : « هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم شىء فقال لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهما يؤتيه الله عبداً فى كتابه وما فى هذه الصحيفة وكان فيها عقول الديات ـ أى : أسنان الإبل التى تجب فيه الدية ـ ، وفيها فكاك الأسير ، وفيها لا يقتل مسلم بكافر » .

وفى لفظ : « هل عهد إليكم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً لم يعهده إلى الناس فنفى ذلك » إلى غير ذلك من الأحاديث عنه التى تدل على أن كل من ادعى أن النبى صلى الله عليه وسلم خصه بعلم فقد كذب عليه .

وما يقوله بعض الجهال أنه شرب من غسل النبى صلى الله عليه وسلم فأورثه علم الأولين والآخرين : من أقبح الكذب البارد ، فإن شرب غسل الميت ليس بمشروع ، ولا شرب على شيئاً ، ولو كان هذا يوجب العلم لشركه فى ذلك كل من حضر . ولم يرو هذا أحد من أهل العلم .

وكذلك ما يذكر : أنه كان عنده علم باطن امتاز به عن أبى بكر ، وعمر ، وغيرهما : فهذا من مقالات الملاحدة الباطنية ، ونحوهم : الذين هم أكفر منهم ، بل فيهم من الكفر ما ليس فى اليهود ، والنصارى ، كالذين يعتقدون إلهيته ، ونبوته ، وأنه كان أعلم من النبي صلى الله عليه وسلم وأنه كان معلماً للنبي صلى الله عليه وسلم فى الباطن ، ونحو هذه المقالات : التى إنما يقولها الغلاة فى الكفر ، والإلحاد والله سبحانه وتعالى أعلم .

سئل شيخ الإسلام:
رحمه الله تعالى:

عن رجل متمسك بالسنة ويحصل له ريبة فى تفضيل الثلاثة على «على» لقوله عليه الصلاة والسلام له: «أنت منى وأنا منك»، وقوله: «أنت منى بمنزلة هارون من موسى» وقوله: «لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله.. إلخ» وقوله: «من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. إلخ»، وقوله: «أذكركم الله فى أهل بيتى»، وقوله سبحانه: (فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ) الآية وقوله تعالى: (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ) الآية؟ وقوله: (هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ) الآية.

فأجاب:

يجب أن يعلم (أولا) أن التفضيل إذا ثبت للفاضل من الخصائص ما لا يوجد مثله للمفضول، فإذا استويا وانفرد أحدهما بخصائص كان أفضل، وأما الأمور المشتركة فلا توجب تفضيله على غيره.

وإذا كان كذلك ففضائل الصديق - رضى الله عنه - التى تميز بها لم يشركه

فيها غيره ، وفضائل على مشتركة ، وذلك أن قوله : « لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا » ، وقوله : « لا يبقى فى المسجد خوخة إلا سدت ، إلا خوخة أبى بكر » وقوله : « إن أمن الناس على فى صحبته وذات يده أبو بكر » ، وهذا فيه ثلاث خصائص لم يشركه فيها أحد :

(الأولى) : أنه ليس لأحد منهم عليه فى صحبته وماله مثل ما لأبى بكر .

(الثانية) : قوله : « لا يبقى فى المسجد . . إلخ » وهذا تخصيص له دون سائرهم ، وأراد بعض الكذابين أن يروى لعلى مثل ذلك ، والصحيح لا يعارضه الموضوع

(الثالثة) : قوله : « لو كنت متخذاً خليلاً » نص فى أنه لا أحد من البشر استحق الخلة لو أمكنت إلا هو، ولو كان غيره أفضل منه لكان أحق بها لو تقع.

وكذلك أمره له أن يصلى بالناس مدة مرضه من الخصائص ؛ وكذلك تأميره له فى المدينة على الحج ليقيم السنة ويمحق آثار الجاهلية فإنه من خصائصه ، وكذلك قوله فى الحديث الصحيح « ادع أباك وأخاك حتى أكتب لأبى بكر كتاباً » ، وأمثال هذه الأحاديث كثيرة تبين أنه لم يكن فى الصحابة من يساويه ؛ وأما قوله : « أنت منى وأنا منك » فقد قالها لغيره وقالها لسلمان والأشعريين . وقال تعالى : (وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : (من غشنا فليس منا ومن حمل علينا السلاح فليس منا » يقتضى أن من يترك

هذه الكبائر يكون منا ، فكل مؤمن كامل الإيمان فهو من النبي والنبي منه ، وقوله فى ابنة حمزة : (أنت منى وأنا منك) وقوله لزيد : (أنت أخونا ومولانا) لا يختص بزيد ، بل كل مواليه كذلك .

وكذلك قوله : « لأعطين الراية . . إلخ » هو أصح حديث يروى فى فضله ، وزاد فيه بعض الكذابين أنه أخذها أبو بكر وعمر فهربا ، وفى الصحيح أن عمر قال : ما أحببت الإمارة إلا يومئذ ، فهذا الحديث رد على الناصبة الواقعين فى على وليس هذا من خصائصه ، بل كل مؤمن كامل الإيمان يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، قال تعالى : (فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ) ، وهم الذين قاتلوا أهل الردة وإمامهم أبو بكر ، وفى الصحيح « أنه سأله : أى الناس أحب إليك ؟ قال : عائشة . قال : فمن الرجال ؟ قال : أبوها » ، وهذا من خصائصه .

وأما قوله : « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى » قاله فى غزوة تبوك لما استخلفه على المدينة ، فقيل استخلفه لبغضه إياه ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا غزا استخلف رجلا من أمته ، وكان بالمدينة رجال من المؤمنين القادرين ، وفى غزوة تبوك لم يأذن لأحد فلم يتخلف أحد إلا لعذر ، أو عاص . فكان ذلك الاستخلاف ضعيفا فطعن به المنافقون بهذا السبب ، فبين له أنى لم أستخلفك لنقص عندى ؛ فإن موسى استخلف هارون وهو شريكه فى الرسالة ، أفما ترضى بذلك ؟ ومعلوم أنه استخلف غيره قبله وكانوا منه بهذه

المنزلة فلم يكن هذا من خصائصه ، ولو كان هذا الاستخلاف أفضل من غيره لم يخف على عليٍّ ولحقه يبكى .

ومما بين ذلك أنه بعد هذا أمر عليه أبا بكر سنة تسع ، وكونه بعثه لنبذ العهود ليس من خصائصه ، لأن العادة لما جرت أنه لا ينبذ العهود ولا يعقدها إلا رجل من أهل بيته فأى شخص من عترته نبذها حصل المقصود ، ولكنه أفضل بنى هاشم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان أحق الناس بالتقدم من سائرهم فلما أمر أبا بكر بعد قوله : « أما ترضى .. إلخ » علمنا أنه لا دلالة فيه على أنه بمنزلة هارون من كل وجه ، وإنما شبهه به فى الاستخلاف خاصة وذلك ليس من خصائصه.

وقد شبه النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر بإبراهيم وعيسى ، وشبه عمر بنوح وموسى ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لما أشارا فى الأسرى ، وهذا أعظم من تشبيه على بهارون ، ولم يوجب ذلك أن يكونا بمنزلة أولئك الرسل ، وتشبيه الشيء بالشيء لمشابهته فى بعض الوجوه كثير فى الكتاب والسنة وكلام العرب .

وأما قوله : « من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه .. إلخ » فهذا ليس فى شيء من الأمهات ، إلا فى الترمذى ، وليس فيه إلا : « من كنت مولاه فعلى مولاه » ، وأما الزيادة فليست فى الحديث . وسئل عنها الإمام أحمد فقال : زيادة كوفية ، ولا ريب أنها كذب لوجوه :

(أحدها) : أن الحق لا يدور مع معين إلا النبى صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لو كان كذلك لوجب اتباعه فى كل ماقال، ومعلوم أن علياً ينازعه الصحابة وأتباعه فى مسائل وجد فيها النص يوافق من نازعه كالمتوفى عنها زوجها وهى حامل.

وقوله: «اللهم انصر من نصره.. إلخ» خلاف الواقع؛ قاتل معه أقوام يوم «صفين» فما انتصروا، وأقوام لم يقاتلوا فما خذلوا: «كسعد» الذى فتح العراق لم يقاتل معه، وكذلك أصحاب معاوية وبنى أمية الذين قاتلوه فتحوا كثيراً من بلاد الكفار ونصرهم الله.

وكذلك قوله: «اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» مخالف لأصل الإسلام؛ فإن القرآن قد بين أن المؤمنين إخوة مع قتالهم وبغى بعضهم على بعض وقوله: «من كنت مولاه فعلى مولاه» فمن أهل الحديث من طعن فيه كالبخارى وغيره؛ ومنهم من حسنه، فإن كان قاله فلم يرد به ولاية مختصاً بها؛ بل ولاية مشتركة، وهى ولاية الإيمان التى للمؤمنين، والموالاة ضد المعاداة، ولا ريب أنه يجب موالاة المؤمنين على سواهم، ففيه رد على النواصب.

وحديث «التصدق بالخاتم فى الصلاة» كذب باتفاق أهل المعرفة، وذلك مبين بوجوه كثيرة مبسوطة فى غير هذا الموضع.

وأما قوله: يوم غدير خم: (أذكركم الله فى أهل بيتى) فليس من الخصائص

بل هو مساو لجميع أهل البيت ، وأبعد الناس عن هذه الوصية الرافضة ؛ فإنهم يعادون العباس وذريته ؛ بل يعادون جمهور أهل البيت ويعينون الكفار عليهم

وأما آية « المباهلة » فليست من الخصائص ، بل دعا علياً وفاطمة وابنيهما، ولم يكن ذلك لأنهم أفضل الأمة بل لأنهم أخص أهل بيته ، كما فى حديث الكساء : « اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » .

فدعا لهم وخصهم . و «الأنفس» يعبر عنها بالنوع الواحد كقوله : (ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا) ، وقال : (فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ) أى يقتل بعضكم بعضاً ، وقوله : « أنت منى وأنا منك » ليس المراد أنه من ذاته ، ولا ريب أنه أعظم الناس قدراً من الأقارب ؛ فله من مزية القرابة والإيمان ما لا يوجد لبقية القرابة فدخل فى ذلك المباهلة ، وذلك لا يمنع أن يكون فى غير الأقارب من هو أفضل منه ، لأن المباهلة وقعت فى الأقارب ، وقوله : (هَٰذَانِ خَصْمَانِ . .) الآية ، فهى مشتركة بين على ، وحمزة ، وعبيدة ، بل وسائر البدريين يشاركونهم فيها .

وأما سورة : (هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ) فمن قال إنها نزلت فيه وفى فاطمة وابنيهما فهذا كذب ؛ لأنها مكية والحسن والحسين إنما ولدا فى المدينة ، وبتقدير صحته فليس فيه أنه من أطعم مسكيناً ويتيما وأسيراً أفضل الصحابة ، بل الآية عامة مشتركة فيمن فعل هذا ، وتدل على استحقاقه للثواب على هذا العمل مع أن غيره من الأعمال من الإيمان بالله والصلاة فى وقتها والجهاد أفضل منه .

وسئل :-

عمن يقول : لا أفضل علياً على غيره ؛ وإذا ذكر «على» صلى عليه مفرداً، هل يجوز له أن يخصه بالصلاة دون غيره ؟

فأجاب :-

ليس لأحد أن يخص أحداً بالصلاة عليه دون النبي صلى الله عليه وسلم ، لا أبا بكر ، ولا عمر ، ولا عثمان ، ولا علياً ، ومن فعل ذلك فهو مبتدع ، بل إما أن يصلى عليهم كلهم أو يدع الصلاة عليهم كلهم .

بل المشروع أن يقول : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد » .

ومن قال : لا أفضل علياً على غيره فهو مخطئ مخالف للأدلة الشرعية .

والله أعلم .

سئل :-

عن قول الشيخ « أبى محمد عبد الله بن أبى زيد » فى آخر (عقيدته) وأن خير القرون القرن الذين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآمنوا به ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم . وأفضل «الصحابة» الخلفاء الراشدون المهديون أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى . فما الدليل على تفضيل أبى بكر على عمر؟ وتفضيل عمر على عثمان ، وعثمان على على؟ فإذا تبين ذلك فهل تجب عقوبة من يفضل المفضول على الفاضل أم لا ؟ . بينوا لنا ذلك : بيانا مبسوطاً مأجورين إن شاء الله تعالى .

فأجاب :-

الحمد لله رب العالمين . أما تفضيل أبى بكر ، ثم عمر على عثمان وعلى . فهذا متفق عليه بين أئمة المسلمين المشهورين بالإمامة فى العلم والدين . من الصحابة ، والتابعين ، وتابعيهم ؛ وهو مذهب مالك وأهل المدينة ، والليث بن سعد ، وأهل مصر ، والأوزاعى ، وأهل الشام ، وسفيان الثورى ، وأبى حنيفة ، وحماد ابن زيد ، وحماد بن سلمة ، وأمثالهم من أهل العراق . وهو مذهب الشافعى وأحمد ، وإسحق ، وأبى عبيد ، وغير هؤلاء : من أئمة الإسلام الذين لهم لسان صدق فى الأمة . وحكى مالك إجماع أهل المدينة على ذلك فقال ما أدركت أحدا ممن أقتدى به يشك فى تقديم أبى بكر وعمر .

وهذا مستفيض عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب . وفى صحيح البخارى عن محمد بن الحنفية أنه قال لأبيه على بن أبى طالب : يا أبت ! من خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال يا بنى ! أو ما تعرف ؟! قلت : لا . قال : أبو بكر . قلت : ثم من؟ قال : عمر . ويروى هذا عن على بن أبى طالب من نحو ثمانين وجها ، وأنه كان يقوله على منبر الكوفة ؛ بل قال : لا أوتى بأحد يفضلنى على أبى بكر وعمر إلا جلدته حد المفترى . فمن فضله على أبى بكر وعمر جلد بمقتضى قوله ـ رضى الله عنه ـ ثمانين سوطا .

وكان سفيان يقول من فضل عليا على أبى بكر فقد أزرى بالمهاجرين ؛ وما أرى أنه يصعد له إلى الله عمل ـ وهو مقيم على ذلك . وفى الترمذى ، وغيره روى هذا التفضيل : عن النبى صلى الله عليه وسلم وأنه قال : « يا على هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين ، إلا النبيين والمرسلين » وقد استفاض فى الصحيحين وغيرهما عن النبى صلى الله عليه وسلم من غير وجه : من حديث أبى سعيد ، وابن عباس ، وجندب بن عبد الله ، وابن الزبير ، وغيرهم : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لا تخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله » : يعنى نفسه .

وفى الصحيح أنه قال على المنبر : « إن أمن الناس على فى صحبته ، وذات يده . أبو بكر ؛ ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الله . ألا لا يبقين فى المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة

أبى بكر . وهذا صريح فى أنه لم يكن عنده من أهل الأرض من يستحق المخالة لو كانت ممكنة من المخلوقين إلا أبا بكر . فعلم أنه لم يكن عنده أفضل منه ، ولا أحب إليه منه ، وكذلك فى الصحيح أنه قال عمرو بن العاص : أى الناس أحب إليك ؟ قال : عائشة . قال : فمن الرجال ؟ قال : أبوها

وكذلك فى الصحيح أنه قال لعائشة : « ادعى لى أباك وأخاك حتى أكتب لأبى بكر كتابا لا يختلف عليه الناس من بعدى ، ثم قال يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر» . وفى الصحيح عنه أن امرأة قالت يا رسول الله : أرأيت إن جئت فلم أجدك ـ كأنها تعنى الموت ـ قال : فأتى أبا بكر . وفى السنن عنه أنه قال : اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر . وفى الصحيح عنه أنه كان فى سفر فقال : إن يطع القوم أبا بكر وعمر يرشدوا . وفى السنن عنه أنه قال : « رأيت كأنى وضعت فى كفة والأمة فى كفة فرجحت بالأمة ، ثم وضع أبو بكر فى كفة والأمة فى كفة فرجح أبو بكر ، ثم وضع عمر فى كفة والأمة فى كفة فرجح عمر » .

وفى الصحيح أنه كان بين أبى بكر وعمر كلام ، فطلب أبو بكر من عمر أن يستغفر له فلم يفعل. فجاء أبو بكر إلى النبى صلى الله عليه وسلم: فذكر ذلك . فقال : «اجلس يا أبا بكر! يغفر الله لك» وندم عمر فجاء إلى منزل أبى بكر فلم يجده ، فجاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فغضب النبى صلى الله عليه وسلم . وقال :أيها الناس ! إنى جئت إليكم فقلت : إنى رسول الله فقلتم : كذبت ، وقال أبو بكر صدقت . فهل أنتم تاركوا لى صاحبى ؟ فهل أنتم تاركوا لى صاحبى ؟ فهل أنتم تاركوا لى

صاحبي ؟ فما أوذى بعدها . وقد تواتر فى الصحيح والسنن أن النبي صلى الله عليه وسلم لما مرض قال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس : مرتين ، أو ثلاثا » حتى قال : « إنكن لأنتن صواحب يوسف ! مروا أبا بكر أن يصلى بالناس .

فهذا التخصيص ، والتكرير ، والتوكيد : فى تقديمه فى الإمامة على سائر الصحابة مع حضور عمر وعثمان وعلى وغيرهم مما بين للأمة تقدمه عنده ـ صلى الله عليه وسلم ـ على غيره . وفى الصحيح أن جنازة عمر لما وضعت جاء على بن أبى طالب يتخلل الصفوف ، ثم قال : لأرجو أن يجعلك الله مع صاحبيك فإنى كثيرا ما كنت أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « دخلت أنا وأبو بكر وعمر ، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ، وذهبت أنا وأبو بكر وعمر » . فهذا يبين ملازمتهما للنبي صلى الله عليه وسلم : فى مدخله ، ومخرجه ، وذهابه .

ولذلك قال « مالك » للرشيد : لما قال له : يا أبا عبد الله أخبرنى عن منزلة أبى بكر ، وعمر من النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ! منزلتهما منه فى حياته كمنزلتهما منه بعد وفاته ، فقال شفيتنى يا مالك ؟ وهذا يبين أنه كان لهما من اختصاصهما بصحبته ، وموازرتهما له على أمره ، ومباطنتهما : مما يعلمه بالاضطرار كل من كان عالما بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم ، وأقواله ، وأفعاله ، وسيرته مع أصحابه .

ولهذا لم يتنازع فى هذا أحد من أهل العلم بسيرته وسنته وأخلاقه ؛ وإنما

ينفي هذا أو يقف فيه من لا يكون عالماً بحقيقة أمور النبي صلى الله عليه وسلم - وإن كان له نصيب من كلام أو فقه أو حساب أو غير ذلك - أو من يكون قد سمع أحاديث مكذوبة : تناقض هذه الأمور المعلومة بالاضطرار عند الخاصة من أهل العلم ، فتوقف فى الأمر ، أو رجح غير أبى بكر .

وهذا كسائر الأمور المعلومة بالاضطرار عند أهل العلم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وإن كان غيرهم يشك فيها ، أو ينفيها : كالأحاديث المتواترة عندهم فى شفاعته ، وحوضه ، وخروج أهل الكبائر من النار ، والأحاديث المتواترة عندهم : فى الصفات ، والقدر ، والعلو ، والرؤية ، وغير ذلك من الأصول التى اتفق عليها أهل العلم بسنته ، كما تواترت عندهم عنه ؛ وإن كان غيرهم لا يعلم ذلك ، كما تواتر عند الخاصة - من أهل العلم عنه - الحكم بالشفعة ، وتحليف المدعى عليه ، ورجم الزانى المحصن ، واعتبار النصاب فى السرقة ، وأمثال ذلك من الأحكام التى ينازعهم فيها بعض أهل البدع .

ولهذا كان أئمة الإسلام متفقين على تبديع من خالف فى مثل هذه الأصول ؛ بخلاف من نازع فى مسائل الاجتهاد التى لم تبلغ هذا المبلغ فى تواتر السنن عنه : كالتنازع بينهم فى الحكم بشاهد ويمين ، وفى القسامة ، والقرعة ، وغير ذلك من الأمور التى لم تبلغ هذا المبلغ .

وأما « عثمان ، وعلى » : فهذه دون تلك . فإن هذه كان قد حصل فيها نزاع

فإن سفيان الثورى ، وطائفة من أهل الكوفة رجحوا علياً على عثمان ، ثم رجع عن ذلك سفيان وغيره . وبعض أهل المدينة توقف فى عثمان وعلى ، وهى إحدى الروايتين عن مالك ؛ لكن الرواية الأخرى عنه تقديم عثمان على علىّ ، كما هو مذهب سائر الأئمة : كالشافعى ، وأبى حنيفة وأصحابه ، وأحمد بن حنبل ، وأصحابه ، وغير هؤلاء من أئمة الإسلام .

حتى إن هؤلاء تنازعوا فيمن يقدم علياً على عثمان هل يعد من أهل البدعة ؟ على قولين هما روايتان عن أحمد . وقد قال أيوب السختيانى ، وأحمد بن حنبل والدارقطنى : من قدم علياً على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار . وأيوب هذا إمام أهل السنة ، وإمام أهل البصرة ، روى عنه مالك فى الموطأ ، وكان لا يروى عن أهل العراق . وروى أنه سئل عن الرواية عنه فقال : ما حدثتكم عن أحد إلا وأيوب أفضل منه . وذكره أبو حنيفة فقال : لقد رأيته قعد مقعداً فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ذكرته إلا اقشعر جسمى .

والحجة لهذا ما أخرجاه فى الصحيحين وغيرهما عن ابن عمر أنه قال : « كنا نفاضل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . كنا نقول أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان » . وفى بعض الطرق « يبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فلا ينكره » .

وأيضاً فقد ثبت بالنقل الصحيح فى صحيح البخارى وغير البخارى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لما جعل الخلافة شورى فى ستة أنفس : عثمان ، وعلى ،

وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وعبد الرحمن بن عوف — ولم يدخل معهم سعيد ابن زيد وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وكان من بنى عدى ـ قبيلة عمر — وقال عن ابنه عبد الله : يحضركم عبد الله وليس له فى الأمر شىء ووصى أن يصلى صهيب بعد موته حتى يتفقوا على واحد .

فلما توفى عمر واجتمعوا عند المنبر . قال طلحة : ما كان لى من هذا الأمر فهو لعثمان . وقال الزبير : ما كان لى من هذا الأمر فهو لعلى . وقال سعد ما كان لى من هذا الأمر فهو لعبد الرحمن بن عوف . فخرج ثلاثة وبقى ثلاثة . فاجتمعوا فقال عبد الرحمن بن عوف : يخرج منا واحد ، ويولى واحداً ، فسكت عثمان ، وعلى . فقال عبد الرحمن : أنا أخرج . وروى أنه قال عليه عهد الله وميثاقه أن يولى أفضلهما . ثم قام عبد الرحمن بن عوف ثلاثة أيام بلياليها يشاور المهاجرين والأنصار ، والتابعين لهم بإحسان ، ويشاور أمهات المؤمنين ، ويشاور أمراء الأمصار — فإنهم كانوا فى المدينـــة حجوا مع عمر وشهدوا موته — حتى قال عبد الرحمن بن عوف : إن لى ثلاثاً ما اغتمضت بنوم . فلما كان اليوم الثالث قال لعثمان : عليك عهد الله وميثاقه إن وليتك لتعدلن ، ولئن وليت علياً لتسمعن ولتطيعن ؟ قال : نعم . وقال لعلى : عليك عهد الله وميثاقه إن وليتك لتعدلن ، ولئن وليت عثمان لتسمعن ولتطيعن ؟ قال : نعم . فقـــال : إنى رأيت الناس لا يعدلون بعثمان . فبايعه على ، وعبد الرحمن ، وسائر المسلمين بيعة رضى ، واختيار من غير رغبة أعطاهم إياها ، ولا رهبة خوفهم بها .

وهذا إجماع منهم على تقديم عثمان على علىّ . فلهذا قال أيوب ، وأحمد ابن حنبل والدارقطنى « من قدم علياً على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار» فإنه وإن لم يكن عثمان أحق بالتقديم ، وقد قدموه كانوا إما جاهلين بفضله ، وإما ظالمين بتقديم المفضول من غير ترجيح دينى . ومن نسبهم إلى الجهل والظلم فقد أزرى بهم .

ولو زعم زاعم أنهم قدموا عثمان لضغن كان فى نفس بعضهم على علىّ ، وأن أهل الضغن كانوا ذوى شوكة ، ونحو ذلك مما يقوله أهل الأهواء فقد نسبهم إلى العجز عن القيام بالحق ، وظهور أهل الباطل منهم على أهل الحق . هذا وهم فى أعز ما كانوا ، وأقوى ما كانوا . فإنه حين مات عمر كان (الإسلام) من القوة ، والعز ، والظهور ، والاجتماع والائتلاف فيما لم يصيروا فى مثله قط . وكان (عمر) أعز أهل الإيمان ، وأذل أهل الكفر والنفاق إلى حد بلغ فى القوة والظهور مبلغاً ، لا يخفى على من له أدنى معرفة بالأمور .

فمن جعلهم فى مثل هذه الحال جاهلين أو ظالمين أو عاجزين عن الحق فقد أزرى بهم وجعل خير أمة أخرجت للناس على خلاف ما شهد الله به لهم .

وهذا هو أصل « مذهب الرافضة » فإن الذى ابتدع الرفض كان يهودياً أظهر الإسلام نفاقا ، ودس إلى الجهال دسائس يقدح بها فى أصل الإيمان . ولهذا كان الرفض أعظم أبواب النفاق والزندقة . فإنه يكون الرجل واقفاً ، ثم يصير

مفضلا ، ثم يصير سبابا ، ثم يصير غاليا ، ثم يصير جاحداً معطلا. ولهذا انضمت إلى الرافضة « أئمة الزنادقة » من الإسماعيلية والنصيرية ، وأنواعهم من القرامطة والباطنية ، والدرزية ، وأمثالهم من طوائف الزندقة ، والنفاق .

فإن القدح فى خير القرون الذين صحبوا الرسول قدح فى الرسول عليه السلام، كما قال مالك وغيره من أئمة العلم : هؤلاء طعنوا فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما طعنوا فى أصحابه ليقول القائل : رجل سوء كان له أصحاب سوء ، ولو كان رجلا صالحاً لكان أصحابه صالحين .

وأيضاً فهؤلاء الذين نقلوا القرآن ، والإسلام ، وشرائع النبى صلى الله عليه وسلم ، وهم الذين نقلوا فضائل على وغيره فالقدح فيهم يوجب أن لا يوثق بما نقلوه من الدين وحينئذ فلا تثبت فضيلة ، لا لعلى ، ولا لغيره ، و« الرافضة » جهال ليس لهم عقل ، ولا نقل ولا دين ، ولا دنيا منصورة . فإنه لو طلب منهم الناصبي ـ الذى يبغض عليا ، ويعتقد فسقه أو كفره كالخوارج وغيرهم أن يثبتوا إيمان على ، وفضله لم يقدروا على ذلك. بل تغلبهم الخوارج . فإن فضائل على إنما نقلها الصحابة الذين تقدح فيهم الرافضة . فلا يتيقن له فضيلة معلومة على أصلهم . فإذا طعنوا فى بعض الخلفاء ـ بما يفترونه عليهم من أنهم طلبوا الرياسة وقاتلوا على ذلك ـ كان طعن الخوارج فى على بمثل ذلك وإضعافه أقرب من دعوى ذلك على من أطيع بلا قتال . ولكن الرافضة جهال متبعون الزنادقة.

«والقرآن» قد أثنى على «الصحابة» فى غير موضع كقوله تعالى: (وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ) .

وقوله تعالى : (لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ) .

وقال تعالى (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ) وقال تعالى :

(لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا) . وقد ثبت فى صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة » . وفى الصحيحين عن أبى سعيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » . وقد ثبت عنه فى الصحيح من غير وجه أنه قال : « خير القرون القرن الذى بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » . وهذه الأحاديث مستفيضة بل متواترة فى فضائل الصحابة ، والثناء عليهم ، وتفضيل قرنهم على من بعدهم من القرون . فالقدح فيهم قدح فى القرآن ، والسنة . ولهذا تكلم الناس فى تكفير الرافضة بما قد بسطناه فى غير هذا الموضع .

والله سبحانه وتعالى أعلم .

وسئل :ـ

رضى الله عنه

عما شجر بين الصحابة :ـ على ، ومعاوية ، وطلحة ، وعائشة ـ هل يطالبون به أم لا ؟

فأجاب :

قد ثبت بالنصوص الصحيحة أن عثمان وعلياً ، وطلحة والزبير ، وعائشة ، من أهل الجنة . بل قد ثبت فى الصحيح « أنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة» .

وأبو موسى الأشعرى ، وعمرو بن العاص ، ومعاوية بن أبى سفيان ، هم من الصحابة ، ولهم فضائل ومحاسن .

وما يحكى عنهم كثير منه كذب ؛ والصدق منه إن كانوا فيه مجتهدين : فالمجتهد إذا أصاب فله أجران ، وإذا أخطأ فله أجر ، وخطأه يغفر له .

وإن قدر أن لهم ذنوباً فالذنوب لا توجب دخول النار مطلقاً ، إلا إذا انتفت الأسباب المانعة من ذلك وهى عشرة . منها :—

التوبة ، ومنها الاستغفار ، ومنها الحسنات الماحية ، ومنها المصائب المكفرة ، ومنها شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنها شفاعة غيره ، ومنها دعاء المؤمنين ، ومنها ما يهدى للميت من الثواب والصدقة والعتق ، ومنها فتنة القبر ، ومنها أهوال القيامة .

وقد ثبت فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خير القرون القرن الذى بعثت فيه ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » .

وحينئذ فمن جزم فى واحد من هؤلاء بأن له ذنباً يدخل به النار قطعاً فهو كاذب مفتر . فإنه لو قال ما لا علم له به لكان مبطلا ، فكيف إذا قال ما دلت الدلائل الكثيرة على نقيضه ؟ فمن تكلم فيما شجر بينهم - وقد نهى الله عنه : من ذمهم أو التعصب لبعضهم بالباطل - فهو ظالم معتد .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين بالحق » ، وقد ثبت عنه فى الصحيح أنه قال عن الحسن : « إن ابنى هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » .

وفى الصحيحين عن عمار أنه قال : « تقتله الفئة الباغية » ، وقد قال تعالى فى القرآن : (وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ) .

فثبت بالكتاب والسنة وإجماع السلف على أنهم مؤمنون مسلمون ، وأن عليّاً بن أبى طالب والذين معه كانوا أولى بالحق من الطائفة المقاتلة له ، والله أعلم .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

فائـــدة

ومما ينبغي أن يعلم أنه وإن كان المختار الإمساك عما شجر بين الصحابة والاستغفار للطائفتين جميعاً وموالاتهم ؛ فليس من الواجب اعتقاد أن كل واحد من العسكر لم يكن إلا مجتهداً متأولا كالعلماء ، بل فيهم المذنب والمسيء ، وفيهم المقصر فى الاجتهاد لنوع من الهوى ، لكن إذا كانت السيئة فى حسنات كثيرة كانت مرجوحة مغفورة .

« وأهل السنة » تحسن القول فيهم وتترحم عليهم ، وتستغفر لهم ، لكن لا يعتقدون العصمة من الإقرار على الذنوب ، وعلى الخطأ فى الاجتهاد ، إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ومن سواه ، فيجوز عليه الإقرار على الذنب والخطأ ، لكن هم كما قال تعالى : (أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ) الآية .

وفضائل الأعمال إنما هى بنتائجها وعواقبها لا بصورها .

﴿ فصل فى أعداء « الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين » ﴾

(الخلفاء الراشدون الأربعة) ابتلوا بمعاداة بعض المنتسبين إلى الإسلام من أهل القبلة ولعنهم وبغضهم وتكفيرهم ، فأبو بكر وعمر أبغضتهما الرافضة ولعنتهما دون غيرهم من الطوائف ؛ ولهذا قيل للإمام أحمد : من الرافضى ؟ قال : الذى يسب أبا بكر وعمر . وبهذا سميت الرافضة ؛ فإنهم رفضوا زيد بن على لما تولى الخليفتين أبا بكر وعمر ، لبغضهم لهما ، فالمبغض لهما هو الرافضى ، و قيل : إنما سموا رافضة لرفضهم أبا بكر وعمر .

« وأصل الرفض » من المنافقين الزنادقة ، فإنه ابتدعه ابن سبأ الزنديق ، وأظهر الغلوّ فى علىّ بِدَعوَى الإمامة والنص عليه ، وادعى العصمة له ، ولهذا لما كان مبدأه من النفاق قال بعض السلف : حب أبى بكر وعمر إيمان ، وبغضهما نفاق ، وحب بنى هاشم إيمان وبغضهم نفاق .

وقال عبد الله بن مسعود : حب أبى بكر وعمر ، ومعرفة فضلهما من السنة ، أى من شريعة النبى صلى الله عليه وسلم التى أمر بها ، فإنه قال : « اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر » ولهذا كان معرفة فضلهما على من بعدهما واجباً لا يجوز التوقف فيه ، بخلاف عثمان وعلى ففى جواز التوقف فيهما قولان :

وكذلك هل يسوغ الاجتهاد فى تفضيل علىّ على عثمان ؟ فيه روايتان :

(إحداهما) : لا يسوغ ذلك ، فمن فضل علياً على عثمان خرج من السنة إلى البدعة ، لمخالفته لإجماع الصحابة ، ولهذا قيل : من قدّم علياً على عثمان فقد

أزرى بالمهاجرين والأنصار . يروى ذلك عن غير واحد منهم أيوب السختيانى وأحمد بن حنبل ، والدار قطنى .

(والثانية) : لا يبدع من قدم علياً لتقارب حال عثمان وعلىّ ، إذ السنة هى الشريعة وهى ما شرعه الله ورسوله من الدين ، وهو ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب فلا يجوز اعتقاد ضد ذلك ، لكن يجوز ترك المستحب من غير أن يجوز اعتقاد ترك استحبابه ؛ ومعرفة استحبابه فرض على الكفاية ؛ لئلا يضيع شىء من الدين . فلما قامت « الأدلة الشرعية » على وجوب اتباع أبى بكر وعمر وتقديمهما لم يجز ترك ذلك .

وأما (عثمان) فأبغضه أو سبه أو كفره أيضاً - مع الرافضة - طائفة من الشيعة الزيدية والخوارج .

وأما (على) فأبغضه وسبه أو كفره الخوارج ، وكثير من بنى أمية وشيعتهم الذين قاتلوه وسبوه .فالخوارج تكفر عثمان وعلياً وسائر أهل الجماعة .

وأما « شيعة على » الذين شايعوه بعد التحكيم و « شيعة معاوية » التى شايعته بعد التحكيم فكان بينهما من التقابل ، وتلا عن بعضهم ، وتكافر بعضهم ما كان ، ولم تكن الشيعة التى كانت مع على يظهر منها تنقص لأبى بكر وعمر ، ولا فيها من يقدم علياً على أبى بكر وعمر ، ولا كان سب عثمان شائعاً فيها ، وإنما كان يتكلم به بعضهم فيرد عليه آخر .

وكذلك تفضيل علىّ عليه لم يكن مشهوراً فيها ، بخلاف سبّ على فإنه كان

شائعاً فى أتباع معاوية ؛ ولهذا كان على وأصحابه أولى بالحق وأقرب إلى الحق من معاوية وأصحابه ، كما فى الصحيحين عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين فتقتلهم أولى الطائفتين بالحق » . وروى فى الصحيح أيضاً : « أدنى الطائفتين إلى الحق » .

وكان سب على ولعنه من البغى الذى استحقت به الطائفة أن يقال لها : الطائفة الباغية ؛ كما رواه البخارى فى صحيحه عن خالد الحذاء عن عكرمة قال : قال لى ابن عباس ولابنه على : انطلقا إلى أبى سعيد واسمعا من حديثه ! فانطلقنا ، فإذا هو فى حائط يصلحه فأخذ رداءه فاحتبى به ثم أنشأ يحدثنا ، حتى إذا أتى على ذكر بناء المسجد فقال : كنا نحمل لبنة لبنة وعمار لبنتين لبنتين ، فرآه النبى صلى الله عليه وسلم فجعل ينفض التراب عنه ويقول : « ويح عمار ! تقتله الفئة الباغية ، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار » قال : يقول عمار : أعوذ بالله من الفتن .

ورواه مسلم عن أبى سعيد أيضاً قال : أخبرنى من هو خير منى أبو قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمار - حين جعل يحفر الخندق - جعل يمسح رأسه ويقول : « بؤس ابن سمية تقتله فئة باغية » . ورواه مسلم أيضاً عن أم سلمة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تقتل عماراً الفئة الباغية » .

وهذا أيضاً يدل على صحة إمامة على ، ووجوب طاعته ، وأن الداعى إلى طاعته داع إلى الجنة والداعى إلى مقاتلته داع إلى النار - وإن كان متأولا - وهو

دليل على أنه لم يكن يجوز قتال على ، وعلى هذا فمقاتله مخطئ وإن كان متأولا أو باغ بلا تأويل ، وهو أصح (القولين) لأصحابنا ، وهو الحكم بتخطئة من قاتل علياً وهو مذهب الأئمة الفقهاء الذين فرعوا على ذلك قتال البغاة المتأولين .

وكذلك أنكر يحي بن معين على الشافعي استدلاله بسيرة على فى قتال البغاة المتأولين ، قال : أيجعل طلحة والزبير بغاة ؟ رد عليه الإمام أحمد فقال ويحك ، وأى شيء يسعه أن يضع فى هذا المقام : يعنى إن لم يقتد بسيرة على فى ذلك لم يكن معه سنة من الخلفاء الراشدين فى قتال البغاة .

والقول الثانى : أن كلا منهما مصيب ، وهذا بناء على قول من يقول : كل مجتهد مصيب . وهو قول طوائف من أهل الكلام من المعتزلة والأشعرية .

وفيها قول ثالث :أن المصيب واحد لا بعينه ، ذكر الأقوال الثلاثة ابن حامد ، والقاضى ، وغيرهما . وهذا القول يشبه قول المتوقفين فى خلافة على من أهل البصرة ، وأهل الحديث ، وأهل الكلام : كالكرامية الذين يقولون : كلاهما كان إماما ، ويجوزون عقد الخلافة لاثنين .

لكن المنصوص عن أحمد تبديع من توقف فى خلافة على ، وقال : هو أضل من حمار أهله ، وأمر بهجرانه ، ونهى عن مناكحته ، ولم يتردد أحمد ولا أحد من أئمة السنة فى أنه ليس غير على أولى بالحق منه ، ولا شكوا فى ذلك . فتصويب أحدهما لا بعينه تجويز لأن يكون غير على أولى منه بالحق ، وهذا لا يقوله إلا مبتدع ضال فيه نوع من النصب وإن كان متأولا ، لكن قد

يسكت بعضهم عن تخطئة أحد كما يمسكون عن ذمه والطعن عليه إمساكا عما شجر بينهم ، وهذا يشبه قول من يصوب الطائفتين .

ولم يسترب أئمة السنة ، وعلماء الحديث : أن عليا أولى بالحق وأقرب إليه كما دل عليه النص ، وإن استرابوا فى وصف الطائفة الأخرى بظلم أو بغى ؛ ومن وصفها بالظلم والبغى - لما جاء من حديث عمار - جعل المجتهد فى ذلك من أهل التأويل .

يبقى أن يقال : فالله تعالى قد أمر بقتال الطائفة الباغية فيكون قتالها كان واجبا مع على ، والذين قعدوا عن القتال هم جملة أعيان الصحابة : كسعد ، وزيد ، وابن عمر ، وأسامة ، ومحمد بن مسلمة ، وأبى بكرة ، وهم يروون النصوص عن النبى صلى الله عليه وسلم فى القعود عن القتال فى الفتنة ، وقوله صلى الله عليه وسلم: «القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الساعى، والساعى فيها خير من الموضع» وقوله: يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن ، وأمره لصاحب السيف عند الفتنة « أن يتخذ سيفاً من خشب » وبحديث أبى بكرة للأحنف بن قيس لما أراد أن يذهب ليقاتل مع على وهو قوله : صلى الله عليه وسلم : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار » الحديث . والاحتجاج على ذلك بقوله : « لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » وهذا مذهب أهل الحديث وعامة أئمة السنة ، حتى قال : لا يختلف أصحابنا أن قعود على عن القتال كان أفضل

له لو قعد ، وهذا ظاهر من حاله فى تلومه فى القتال وتبرمه به ، ومراجعة الحسن ابنه له فى ذلك ، وقوله له : ألم أنهك يا أبت ؟ وقوله : لله درمقام قامه سعد بن مالك وعبد الله بن عمر إن كان برا إن أجره لعظيم ، وإن كان إثما إن خطأه ليسير .

وهذا يعارض وجوب طاعته ، وبهذا احتجوا على الإمام أحمد فى ترك التربيع بخلافته ، فإنه لما أظهر ذلك قال له بعضهم : إذا قلت كان إماما واجب الطاعة ففى ذلك طعن على طلحة والزبير حيث لم يطيعاه بل قاتلاه ، فقال لهم : أحمد : إنى لست من حربهم فى شىء : يعنى أن ما تنازع فيه على وإخوانه لا أدخل بينهم فيه ؛ لما بينهم من الاجتهاد والتأويل الذى هم أعلم به منى ، وليس ذلك من مسائل العلم التى تعنينى حتى أعرف حقيقة حال كل واحد منهم ، وأنا مأمور بالإستغفار لهم وأن يكون قلبي لهم سليما ، ومأمور بمحبتهم وموالاتهم ، ولهم من السوابق والفضائل ما لا يهدر ؛ ولكن اعتقاد خلافته وإمامته ثابت بالنص وما ثبت بالنص وجب اتباعه وإن كان بعض الأكابر تركه ، كما أن إمامة « عثمان » وخلافته ثابتة إلى حين انقراض أيامه ، وإن كان فى تخلف بعضهم عن طاعته أو نصرته ؛ وفى مخالفة بعضهم له : من التأويل ما فيه إذ كان أهون ما جرى فى خلافة على .

وهذا الموضع هو الذى تنازع فيه اجتهاد السلف والخلف ، فمن قوم يقولون : بوجوب القتال مع على ، كما فعله من قاتل معه ، وكما يقول كثير

من أهل الكلام والرأى الذين صنفوا فى قتال أهل البغى ، حيث أوجبوا القتال معه ؛ لوجوب طاعته ، ووجوب قتال البغاة ، ومبدأ ترتيب ذلك من فقهاء الكوفة واتبعهم آخرون .

ومن قوم يقولون : بل المشروع ترك القتال فى الفتنة كما جاءت به النصوص الكثيرة المشهورة ، كما فعله من فعله من القاعدين عن القتال لإخبار النبي صلى الله عليه وسلم « أن ترك القتال فى الفتنة خير » ، و « أن الفرار من الفتن باتخاذ غنم فى رؤوس الجبال خير من القتال فيها ، » وكنهيه لمن نهاه عن القتال فيها وأمره باتخاذ سيف من خشب ، ولكون على لم يذم القاعدين عن القتال معه ، بل ربما غبطهم فى آخر الأمر .

ولأجل هذه النصوص لا يختلف أصحابنا أن ترك على القتال كان أفضل ؛ لأن النصوص صرحت بأن القاعد فيها خير من القائم ، والبعد عنها خير من الوقوع فيها ، قالوا : ورجحان العمل يظهر برجحان عاقبته ، ومن المعلوم أنهم إذا لم يبدأوه بقتال فلو لم يقاتلهم لم يقع أكثر مما وقع من خروجهم عن طاعته ، لكن بالقتال زاد البلاء ، وسفكت الدماء ، وتنافرت القلوب ، وخرجت عليه الخوارج ، وحكم الحكمان ، حتى سمى منازعه بأمير المؤمنين ، فظهر من المفاسد ما لم يكن قبل القتال ولم يحصل به مصلحة راجحة .

وهذا دليل على أن تركه كان أفضل من فعله ، فإن فضائل الأعمال إنما هى

بنتائجها وعواقبها ، والقرآن إنمـا فيه قتال الطائفة الباغية بعد الاقتتال ؛ فإنه قال تعالى : (وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى) الآية . فلم يأمر بالقتال ابتداء مع واحدة من الطائفتين ؛ لـكن أمر بالإصلاح وبقتال الباغية .

و « إن قيل » الباغية يعم الابتداء والبغى بعد الاقتتال .

قيل : فليس فى الآية أمر لأحدهما بأن تقاتل الأخرى ، وإنما هو أمر لسائر المؤمنين بقتال الباغية ، والكلام هنا : إنما هو فى أن فعل القتال من على لم يكن مأموراً به ، بل كان تركه أفضل ، وأما إذا قاتل لكون القتال جائزاً وإن كان تركه أفضل ، أو لـكونه مجتهداً فيه ، وليس بجائز فى الباطن : فهنـا الكلام فى وجوب القتال معه للطائفة الباغية أو الإمساك عن القتال فى الفتنة ، وهو موضع تعارض الأدلة ، واجتهاد العلماء والمجاهدين من المؤمنين بعد الجزم بأنه وشيعته أولى الطائفتين بالحق فيمكن وجهان :

(أحدهما) : أن الأمر بقتال الطائفة الباغية مشروط بالقدرة والإمكان . إذ ليس قتالهم بأولى من قتال المشركين والـكفار ، ومعلوم أن ذلك مشروط بالقدرة والإمكان ، فقد تـكون المصلحة المشروعة أحيانا هى التألف بالمال ، والمسالمة والمعاهدة ، كما فعله النبى صلى الله عليـه وسلم غير مرة ، والإمام إذا اعتقد وجود القدرة ولم تـكن حاصلة كان الترك فى نفس الأمر أصلح .

ومن رأى أن هذا القتال مفسدته أكثر من مصلحته : علم أنه قتال فتنة ، فلا تجب طاعة الإمام فيه ' إذ طاعته إنما تجب فى ما لم يعلم المأمور أنه معصية بالنص ' فمن علم أن هذا هو قتال الفتنة ـ الذى تركه خير من فعله ـ لم يجب عليه أن يعدل عن نص معين خاص إلى نص عام مطلق فى طاعة أولى الأمر . ولا سيما وقد أمر الله تعالى عند التنازع بالرد إلى الله والرسول .

ويشهد لذلك أن الرسول أخبر بظلم الأمراء بعده وبغيهم ونهى عن قتالهم لأن ذلك غير مقدور ؛ إذ مفسدته أعظم من مصلحته ؛ كما نُهى المسلمون فى أول الإسلام عن القتال ، كما ذكره بقوله : (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ) وكما كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه مأمورين بالصبر على أذى المشركين والمنافقين والعفو والصفح عنهم حتى يأتى الله بأمره .

الوجه الثانى : أنها صارت باغية فى أثناء الحال بما ظهر منها من نصب إمام وتسميته أمير المؤمنين ، ومن لعن إمام الحق ، ونحو ذلك. فإن هذا بغى ، بخلاف الاقتتال قبل ذلك ، فإنه كان قتال فتنة ؛ وهو سبحانه قد ذكر اقتتال الطائفتين من المؤمنين ثم قال : (فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ) فلما أمر بالقتال إذا بغت إحدى الطائفتين المقتتلتين ، دل على أن الطائفتين المقتتلتين قد تكون إحداهما باغية فى حال دون حال .

فما ورد من النصوص بترك القتال فى الفتنة : يكون قبل البغى ، وما ورد من الوصف بالبغى يكون بعد ذلك ؛ وحينئذ يكون القتال مع على واجباً لما

حصل البغى ، وعلى هذا يتأول ما روى ابن عمر « إذا حمل على القتال فى ذلك »
وحينئذ فبعد التحكيم والتشيع وظهور البغى لم يقاتلهم على ولم تطعه الشيعة فى
القتال ، ومن حينئذ ذمت الشيعة بتركهم النصر مع وجوبه ، وفى ذلك الوقت
سموا شيعة ، وحينئذ صاروا مذمومين بمعصية الإمام الواجب الطاعة ، وهو أمير
المؤمنين على بن أبى طالب ، ولما تركوا ما يجب من نصره صاروا أهل باطل
وظلم إذ ذاك يكون تارة لترك الحق وتارة لتعدى الحق .

فصار حينئذ شيعة (عثمان) الذين مع معاوية أرجح منهم ؛ ولهذا انتصروا
عليهم ؛ ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين
على من خالفهم » وبذلك استدل معاوية ، وقام مالك بن يخامر فروى عن معاذ
ابن جبل أنهم بالشام . وعلى هو من الخلفاء الراشدين ، ومعاوية أول الملوك ،
فالمسألة هى من هذا الجنس ، وهو قتال الملوك المسلطين مع أهل عدل واتباع
لسيرة الخلفاء الراشدين ، فإن كثيراً من الناس يبادر إلى الأمر بذلك ؛ لاعتقاده
أن فى ذلك إقامة العدل ، ويغفل عن كون ذلك غير ممكن ، بل تربو مفسدته
على مصلحته .

ولهذا كان مذهب (أهل الحديث) ترك الخروج بالقتال على الملوك البغاة
والصبر على ظلمهم إلى أن يستريح بر ، أو يستراح من فاجر ؛ وقد يكون هذا من
أسرار القرآن فى كونه لم يأمر بالقتال ابتداء ، وإنما أمر بقتال الطائفة الباغية
بعد اقتتال الطائفتين ، وأمر بالإصلاح بينهما ، فإنه إذا اقتتلت طائفتان من أهل

الأهواء : كقيس ويمن ـ إذ الآية نزلت فى نحو ذلك ـ فإنه يجب الإصلاح بينهما ، وإلا وجب على السلطان والمسلمين أن يقاتلوا الباغية ؛ لأنهم قادرون على ذلك فيجب عليهم أداء هذا الواجب ، وهذا يبين رجحان القول ابتداء ، فنى الحال الأول لم تـكن القدرة تامة على القتال ولا البغى حاصلا ظاهراً ، وفى الحال الثانى حصل البغى وقوى العجز وهو أولى الطائفتين بالحق وأقربهما إليه مطلقاً ، والأخرى موصوفة بالبغى كما جاء ذلك فى الحديث الصحيح من حديث أبى سعيد كما تقدم .

وقد كان معاوية والمغيرة وغيرهما يحتجون لرجحان الطائفة الشامية بما هو فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة » ، فقام مالك بن يخامر فقال : سمعت معاذ بن جبل يقول : « وهم بالشام » ، فقال معاوية : وهذا مالك بن يخامر يذكر أنه سمع معاذاً يقول . وهم بالشام وهذا الذى فى الصحيحين من حديث معاوية فيهما أيضاً نحوه من حديث المغيرة ابن شعبة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تزال من أمتى أمة ظاهرة على الحق حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك » وهذا يحتجون به فى رجحان أهل الشام بوجهين :

« أحدهما » : أنهم الذين ظهروا وانتصروا وصار الأمر إليهم بعد الاقتتال والفتنة ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : «لا يضرهم من خالفهم» وهذا يقتضى

أن الطائفة القائمة بالحق من هذه الأمة هى الظاهرة المنصورة ، فلما انتصر هؤلاء كانوا أهل الحق .

« والثانى » أن النصوص عينت أنهم بالشام ، كقول معاذ ، وكما روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يزال أهل الغرب ظاهرين » قال الإمام أحمد : وأهل الغرب هم أهل الشام . وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان مقيما بالمدينة فما يغرب عنها فهو غربه ، وما يشرق عنها فهو شرقه ، وكان يسمى أهل نجد وما يشرق عنها أهل المشرق ، كما قال ابن عمر : قدم رجلان من أهل المشرق فخطبا فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن من البيان لسحراً » .

وقد استفاضت السنن عن النبى صلى الله عليه وسلم فى «الشر» أن أصله من المشرق كقوله : « الفتنة من ها هنا ، الفتنة من ها هنا » ويشير إلى المشرق ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « رأس الكفر نحو المشرق » ، ونحو ذلك . فأخبر أن الطائفة المنصورة القائمة على الحق من أمته بالمغرب وهو الشام وما يغرب عنها ، والفتنة ورأس الكفر بالمشرق ، وكان أهل المدينة يسمون أهل الشام أهل المغرب ، ويقولون عن الأوزاعى : إنه إمام أهل المغرب ، ويقولون عن سفيان الثورى ونحوه : إنه مشرقى إمام أهل المشرق ، وهذا لأن منتهى الشام عند الفرات هو على مسامتة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم طول كل منهما ، وبعد ذلك حران والرقة ونحوهما على مسامتة مكة ؛ ولهذا كانت قبلتهم أعدل

القبلة بمعنى أنهم يستقبلون الركن الشامى ويستدبرون القطب الشامى من غير انحراف إلى ذات اليمين كأهل العراق ، ولا إلى ذات الشمال كأهل الشام .

قالوا : فإذا دلت هذه النصوص على أن الطائفة القائمة بالحق من أمته التى لا يضرها خلاف المخالف ولا خذلان الخاذل هى بالشام كان هذا معارضاً لقوله : « تقتل عماراً الفئة الباغية » ، ولقوله : « تقتلهم أولى الطائفتين بالحق » ، وهذا من حجة من يجعل الجميع سواء والجميع مصيبين ، أو يمسك عن الترجيح وهذا أقرب . وقد احتج به من هؤلاء على أولئك ، لكن هذا القول مرغوب عنه وهو من أقوال النواصب ، فهو مقابل بأقوال الشيعة والروافض ، هؤلاء أهل الأهواء وإنما نتكلم هنا مع أهل العلم والعدل .

ولا ريب أن هذه النصوص لابد من الجمع بينها والتأليف ، فيقال : أما قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزال أهل الغرب ظاهرين » ونحو ذلك مما يدل على ظهور أهل الشام وانتصارهم فهكذا وقع وهذا هو الأمر ؛ فإنهم ما زالوا ظاهرين منتصرين .

وأما قوله عليه السلام : « لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله » ومن هو ظاهر ، فلا يقتضى أن لا يكون فيهم من فيه بغى ومن غيره أولى بالحق منهم ، بل فيهم هذا وهذا .

وأما قوله : « تقتلهم أولى الطائفتين بالحق » فهذا دليل على أن علياً

ومن معه كان أولى بالحق إذ ذاك من الطائفة الأخرى ، وإذا كان الشخص أو الطائفة مرجوحاً فى بعض الأحوال لم يمنع أن يكون قائماً بأمر الله وأن يكون ظاهراً بالقيام بأمر الله عن طاعة الله ورسوله ، وقد يكون الفعل طاعة وغيره أطوع منه .

وأما كون بعضهم باغياً فى بعض الأوقات ؛ مع كون بغيه خطأ مغفوراً ، أو ذنباً مغفوراً : فهذا أيضاً لا يمنع ما شهدت به النصوص ؛ وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم أخبر عن جملة أهل الشام وعظمتهم ولا ريب أن جملتهم كانوا أرجح فى عموم الأحوال .

وكذلك عمر بن الخطاب كان يفضلهم فى مدة خلافته على أهل العراق ، حتى قدم الشام غير مرة وامتنع من الذهاب إلى العراق واستشار فأشار عليه أنه لا يذهب إليها ، وكذلك حين وفاته لما طعن أدخل عليه أهل المدينة (أولاً) وهم كانوا إذ ذاك أفضل الأمة ، ثم أدخل عليه أهل الشام ، ثم أدخل عليه أهل العراق ، وكانوا آخر من دخل عليه — هكذا فى الصحيح .

وكذلك الصديق كانت عنايته بفتح الشام أكثر من عنايته بفتح العراق حتى قال : لكفر من كفور الشام أحب إلى من فتح مدينة بالعراق .

(والنصوص) التى فى كتاب الله وسنة رسوله وأصحابه فى فضل الشام وأهل الغرب على نجد والعراق وسائر أهل المشرق أكثر من أن تذكر هنا ، بل عن

النبي صلى الله عليه وسلم من النصوص الصحيحة فى ذم المشرق وأخباره « بأن الفتنة ورأس الكفر منه » ما ليس هذا موضعه ، وإنما كان فضل المشرق عليهم بوجود أمير المؤمنين على ، وذاك كان أمراً عارضاً ؛ ولهذا لما ذهب على ظهر منهم من الفتن ، والنفاق ، والردة ، والبدع : ما يعلم به أن أولئك كانوا أرجح .

وكذلك أيضا لا ريب أن فى أعيانهم من العلماء والصالحين من هو أفضل من كثير من أهل الشام ، كما كان على وابن مسعود وعمار وحذيفة ونحوهم أفضل من أكثر من بالشام من الصحابة ، لكن مقابلة الجملة وترجيحها لا يمنع اختصاص الطائفة الأخرى بأمر راجح .

والنبي صلى الله عليه وسلم ميز أهل الشام بالقيام بأمر الله دائماً إلى آخر الدهر ، وبأن الطائفة المنصورة فيهم إلى آخر الدهر ، فهو إخبار عن أمر دائم مستمر فيهم مع الكثرة والقوة ،وهذا الوصف ليس لغير الشام من أرض الإسلام ؛ فإن الحجاز ـ التى هى أصل الإيمان نقص فى آخر الزمان : منها العلم والإيمان والنصر والجهاد ، وكذلك اليمن والعراق والمشرق .

وأما الشام فلم يزل فيها العلم والإيمان ،ومن يقاتل عليه منصوراً مؤيداً فى كل وقت ، فهذا هذا والله أعلم .

وهذا يبين رجحان الطائفة الشامية من بعض الوجوه مع أن علياً كان أولى

بالحق بمن فارقه ، ومع أن عماراً قتلته الفئة الباغية كما جاءت به النصوص ، فعلينا أن نؤمن بكل ما جاء من عند الله ونقر بالحق كله ، ولا يكون لنا هوى ، ولا تكلم بغير علم ؛ بل نسلك سبيل العلم والعدل وذلك هو اتباع الكتاب والسنة ؛ فأما من تمسك ببعض الحق دون بعض فهذا منشأ الفرقة والاختلاف .

ولهذا لما اعتقدت طوائف من الفقهاء وجوب القتال مع على جعلوا ذلك «قاعدة فقهية» فيما إذا خرجت طائفة على الإمام بتأويل سائغ وهى عنده راسلهم الإمام فإن ذكروا مظلمة أزالها عنهم ، وإن ذكروا شبهة بينها ، فإن رجعوا وإلا وجب قتالهم عليه وعلى المسلمين .

ثم إنهم أدخلوا فى هذه القاعدة « قتال الصديق لمانعى الزكاة » و « قتال على للخوارج المارقين ؛ وصاروا فيمن يتولى أمور المسلمين من الملوك والخلفاء وغيرهم يجعلون أهل العدل من اعتقدوه لذلك ، ثم يجعلون المقاتلين له بغاة ، لا يفرقون بين قتال الفتنة المنهى عنه والذى تركه خير من فعله ، كما يقع بين الملوك والخلفاء وغيرهم واتباعهم : كاقتتال الأمين والمأمون وغيرهما ؛ وبين قتال « الخوارج » الحرورية والمرتدة ، والمنافقين « كالمزدكية » ونحوهم .

وهذا تجده فى الأصل من رأى بعض فقهاء أهل الكوفة وأتباعهم ، ثم الشافعي وأصحابه ، ثم كثير من أصحاب أحمد الذين صنفوا (باب قتال أهل البغى) نسجوا على منوال أولئك تجدهم هكذا ، فإن الخرقى نسج على منوال

المزنى ، والمزنى نسج على منوال مختصر محمد بن الحسن ، وإن كان ذلك فى بعض التبويب والترتيب .

والمصنفون فى الأحكام : يذكرون قتال البغاة والخوارج جميعاً ، وليس عن النبي صلى الله عليه وسلم فى « قتال البغاة » حديث إلا حديث كوثر بن حكيم عن نافع ، وهو موضوع .

وأما كتب الحديث المصنفة مثل : صحيح البخارى ، والسنن ، فليس فيها إلا قتال أهل الردة والخوارج ، وهم أهل الأهواء ، وكذلك كتب السـنة المنصوصة عن الإمام أحمد ونحوه .

وكذلك فيما أظن كتب مالك وأصحابه ليس فيها (باب قتال البغاة) ، وإنما ذكروا أهل الردة وأهل الأهواء وهذا هو الأصل الثابت بكتاب الله وسنة رسوله ، وهو الفرق بين القتال لمن خرج عن الشريعة والسنة ، فهذا الذى أمر به النبي صلى الله عليه وسلم .

وأما القتال لمن لم يخرج إلا عن طاعة إمام معين فليس فى النصوص أمر بذلك ، فارتكب الأولون ثلاثة محاذير : —

(الأول) : قتال من خرج عن طاعة ملك معين وإن كان قريباً منه ومثله ـ فى السنة والشريعة ـ لوجود الافتراق ، والافتراق هو الفتنة .

(والثانى) : التسوية بين هؤلاء وبين المرتدين عن بعض شرائع الإسلام .

(والثالث) : التسوية بين هؤلاء ، وبين قتال الخوارج المارقين من الإسلام ، كما يمرق السهم من الرمية ؛ ولهذا تجد تلك الطائفة يدخلون فى كثير من أهواء الملوك وولاة الأمور ، ويأمرون بالقتال معهم لأعدائهم ، بناء على أنهم أهل العدل وأولئك البغاة ؛ وهم فى ذلك بمنزلة المتعصبين لبعض أئمة العلم ، أو أئمة الكلام ، أو أئمة المشيخة على نظرائهم مدعين أن الحق معهم ، أو أنهم أرجح ، بهوى قد يكون فيه تأويل بتقصير ، لا بالاجتهاد ، وهذا كثير فى علماء الأمة وعبادها وأمرائها وأجنادها ، وهو من البأس الذى لم يرفع من بينها ؛ فنسأل الله العدل ؛ فإنه لا حول ولا قوة إلا به .

ولهذا كان أعدل الطوائف « أهل السنة » أصحاب الحديث .

وتجد هؤلاء إذا أمروا بقتال من مرق من الإسلام أو ارتد عن بعض شرائعه يأمرون أن يسار فيه بسيرة علىّ فى قتال طلحة والزبير ؛ لا يسبى لهم ذرية ولا يغنم لهم مال ، ولا يجهز لهم على جريح ولا يقتل لهم أسير ، ويتركون ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم ، وسار به علىّ فى قتال الخوارج وما أمر الله به رسوله وسار به الصديق فى قتال مانعى الزكاة ، فلا يجمعون بين ما فرق الله بينه من المرتدين والمارقين وبين المسلمين المسيئين ؛ ويفرقون بين ما جمع الله بينه من الملوك والأئمة المتقاتلين على الملك وإن كان بتأويل . والله سبحانه وتعالى أعلم .

سئل الشيخ رحمه الله :ـ

عن إسلام « معاوية بن أبى سفيان » متى كان ؟ وهل كان إيمانه كإيمان غيره أم لا ؟ وما قيل فيه غير ذلك ؟ .

فأجاب : ـ

إيمان « معاوية » بن أبى سفيان ـ رضى الله عنه ـ ثابت بالنقل المتواتر ، وإجماع أهل العلم على ذلك ؛ كإيمان أمثاله ممن آمن عام فتح مكة ، مثل أخيه « يزيد » بن أبى سفيان ، ومثل سهيل بن عمرو ، وصفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل ، والحارث بن هشام . وأبى أسد بن أبى العاص بن أمية ، وأمثال هؤلاء .

فإن هؤلاء يسمون « الطلقاء » : فإنهم آمنوا عام فتح النبى صلى الله عليه وسلم مكة قهرا ، وأطلقهم ومن عليهم ، وأعطاهم وتألفهم ، وقد روى : أن معاوية بن أبى سفيان أسلم قبل ذلك وهاجر ، كما أسلم خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة الحجبى ـ قبل فتح مكة ـ وهاجروا إلى المدينة ، فإن كان هذا صحيحا فهذا من المهاجرين .

وأما إسلامه عام الفتح مع من ذكر فمتفق عليه بين العلماء ؛ سواء كان أسلم قبل ذلك أو لم يكن إسلامه إلا عام فتح مكة ؛ ولكن بعض الكذابين زعم: أنه عير أباه بإسلامه ، وهذا كذب بالاتفاق من أهل العلم بالحديث .

وكان هؤلاء المذكورون من أحسن الناس إسلاما ، وأحمدهم سيرة : لم يتهموا بسوء ، ولم يتهمهم أحد من أهل العلم بنفاق ، كما اتهم غيرهم ؛ بل ظهر منهم من حسن الإسلام وطاعة الله ورسوله ، وحب الله ورسوله ، والجهاد فى سبيل الله وحفظ حدود الله : مادل على حسن إيمانهم الباطن وحسن إسلامهم ، ومنهم من أمّره النبي صلى الله عليه وسلم واستعمله نائبا له ، كما استعمل عتاب بن أسيد أميراً على مكة نائبا عنه ، وكان من خيار المسلمين ، كان يقول : يا أهل مكة ! والله لا يبلغنى أن أحداً منكم قد تخلف عن الصلاة إلا ضربت عنقه .

وقد استعمل النبي صلى الله عليه وسلم «أبا سفيان» بن حرب ـ أبا معاوية ـ على نجران نائبا له ، وتوفى النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبو سفيان عامله على نجران .

وكان معاوية أحسن إسلاما من أبيه باتفاق أهل العلم ، كما أن أخاه «يزيد بن أبى سفيان» كان أفضل منه ومن أبيه ؛ ولهذا استعمله أبو بكر الصديق رضى الله عنه على قتال النصارى حين فتح الشام ، وكان هو أحد الأمراء الذين استعملهم أبو بكر الصديق ، ووصاه بوصية معروفة نقلها أهل العلم ، واعتمدوا عليها ، وذكرها

مالك فى الموطأ وغيره ، ومشى أبو بكر رضى الله عنه فى ركابه مشيعاله ، فقال له : يا خليفة رسول الله ! إما أن تركب وإما أن أنزل ، فقال : لست بنازل ولست براكب ، أحتسب خطاى هذه فى سبيل الله عز وجل .

وكان عمرو بن العاص أحد الأمراء ، وأبو عبيدة بن الجراح أيضاً ، وقدم عليهم خالد بن الوليد لشجاعته ومنفعته فى الجهاد .

فلما توفى أبو بكر ولى عمر بن الخطاب أبا عبيدة أميراً على الجميع ؛ لأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان شديداً فى الله ، فولى أبا عبيدة لأنه كان لينا . وكان أبو بكر رضى الله عنه لينا ، وخالد شديداً على الكفار فولى اللين الشديد وولى الشديد اللين ؛ ليعتدل الأمر ، وكلاهما فعل ما هو أحب إلى الله تعالى فى حقه ، فإن نبينا صلى الله عليه وسلم أكمل الخلق ، وكان شديداً على الكفار والمنافقين ، ونعته الله تعالى بأكمل الشرائع ، كما قال الله تعالى فى نعت أمته : (أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ) وقال فيهم : (أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ) .

وقد ثبت فى الصحيح : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما استشار أصحابه فى أسارى بدر ، وأشار عليه أبو بكر أن يأخذ الفدية منهم وإطلاقهم ، وأشار عليه عمر بضرب أعناقهم . قال النبي صلى الله عليه وسلم : «إن الله يلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من البز ، ويشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الصخر وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم الخليل إذ قال : (فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ

عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) ، ومثل عيسى بن مريم إذ قال : (إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) ، ومثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام إذ قال : (رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) ومثل موسى بن عمران إذ قال : (رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) وكانا فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم كما نعتهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانا هما وزيريه من أهل الأرض .

وقد ثبت فى الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن سرير عمر ابن الخطاب رضى الله عنه لما وضع وجاء الناس يصلون عليه ، قال ابن عباس : فالتفت فإذا على بن أبى طالب رضى الله عنه ! فقال : والله ما على وجه الأرض أحد أحب إلى من أن ألقى الله تعالى بعمله من هذا الميت . والله إنى لأرجو أن يحشرك الله مع صاحبيك ، فإنى كثيراً ما كنت أسمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « دخلت أنا وأبو بكر وعمر ، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ، وذهبت أنا وأبو بكر وعمر » .

ثم ثبت فى الصحيح أنه لما كان يوم أحد انهزم أكثر المسلمين ، فإذا أبو سفيان ! وكان القوم المرام[1] إذ قال : أفى القوم محمد ؟ أفى القوم محمد ؟ أفى القوم محمد ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لا تجيبوه ، ثم قال : أفى

---

(١) كذا بالاصل .

القوم ابن أبى قحافة ؟ أفى القوم ابن أبى قحافة ؟ أفى القوم ابن أبى قحافة ؟ فقال النبي صلى عليه وسلم : «لا تجيبوه» ، فقال : أفى القوم بن الخطاب ؟ أفى القوم ابن الخطاب ؟ أفى القوم ابن الخطاب ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تجيبوه » الحديث بطوله ، فهذا أبو سفيان قائد الأحزاب لم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة : عن النبي صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ؛ لعلمه بأن هؤلاء هم رؤوس عسكر المسلمين .

وقال الرشيد لمالك بن أنس : أخبرنى عن منزلة أبى بكر وعمر من النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : منزلتهما منه فى حياته كمنزلتهما بعد وفاته ، فقال : شفيتنى يا مالك !

فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبا بكر ، جعل الله تعالى فيه من الشدة ما لم يكن فيه قبل ذلك ، حتى فاق عمر فى ذلك ، حتى قاتل أهل الردة بعد أن جهز جيش أسامة ، وكان ذلك تكميلا له لكمال النبي صلى الله عليه وسلم الذى صار خليفة له .

ولما استخلف عمر جعل الله فيه من الرأفة والرحمة ما لم يكن فيه قبل ذلك تكميلا له ، حتى صار أمير المؤمنين ، ولهذا استعمل هذا خالداً ، وهذا أبا عبيدة

وكان يزيد بن أبى سفيان على الشام ؛ إلى أن ولى عمر ؛ فمات يزيد بن أبى سفيان ؛ فاستعمل عمر معاوية مكان أخيه يزيد بن أبى سفيان ، وبقى معاوية

على ولايته تمام خلافته ، وعمر ورعيته تشكره ، وتشكر سيرته فيهم ، وتواليه وتحبه لما رأوا من حلمه وعدله ؛ حتى أنه لم يشكه منهم مشتك ، ولا تظلمه منهم متظلم ، ويزيد بن معاوية ليس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وإنما ولد فى خلافة عثمان ؛ وإنما سماه يزيد باسم عمه من الصحابة .

وقد شهد معاوية ؛ وأخوه يزيد ؛ وسهيل بن عمرو ؛ والحارث بن هشام وغيرهم من مسلمة الفتح مع النبي صلى الله عليه وسلم غزوة حنين ؛ ودخلوا فى قوله تعالى : (ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ) ، وكانوا من المؤمنين الذين أنزل الله سكينته عليهم مع النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وغزوة الطائف لما حاصروا الطائف ورماها بالمنجنيق، وشهدوا النصارى بالشام، وأنزل الله فيها سورة براءة ؛ وهى غزوة العسرة ، التى جهز فيها عثمان بن عفان رضى الله عنه جيش العسرة بألف بعير فى سبيل الله تعالى فأعوزت وكملها بخمسين بعيرا [1] فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم » ، وهذا آخر مغازى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن فيها قتال .

وقد غزا النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من عشرين غزاة بنفسه ، ولم

---

(١) نسخة (وكملها بخمسمائة فرس) اهـ وأخرج الترمذي عن عبد الرحمن بن خباب ـ ما معناه ـ أن الجيش الذي جهزه عثمان ستمائة بعير : وأنه جاء بألف دينار أيضا .

يكن القتال إلا فى تسع غزوات: بدر ، وأحد ، وبنى المصطلق ، والخندق، وذى قرد ، وغزوة الطائف ، وأعظم جيش جمعه النبى صلى الله عليه وسلم كان بحنين والطائف ، وكانوا اثنى عشر ألفاً . وأعظم جيش غزا مع النبى صلى الله عليه وسلم جيش تبوك ، فإنه كان كثيراً لا يحصى ، غير أنه لم يكن فيه قتال .

وهؤلاء المذكورون دخلوا فى قوله تعالى : (لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ) ، فإن هؤلاء الطلقاء مسلمة الفتح : هم ممن أنفق من بعد الفتح وقاتل ، وقد وعدهم الله الحسنى ، فإنهم أنفقوا بحنين والطائف ، وقاتلوا فيهما رضى الله عنهم .

وهم أيضاً داخلون فيمن رضى الله عنهم ، حيث قال تعالى:(وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ)، فإن السابقين هم الذين أسلموا قبل الحديبية ، كالذين بايعوه تحت الشجرة ، الذين أنزل الله فيهم : (لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ) كانوا أكثر من ألف وأربعمائة ، وكلهم من أهل الجنة ، كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة » ، وكان فيهم حاطب بن أبى بلتعة ، وكانت له سيئات

معروفة ، مثل مكاتبته للمشركين بأخبار النبي صلى الله عليه وسلم ، و إساءته إلى مماليكه ، وقد ثبت فى الصحيح أن مملوكه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : والله يا رسول الله لا بد أن يدخل حاطب النار . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « كذبت . إنه شهد بدراً والحديبية » .

وثبت فى الصحيح أنه لما كتب إلى المشركين يخبرهم بمسير النبي صلى الله عليه وسلم إليهم ، أرسل على بن أبي طالب والزبير إلى المرأة التى كان معها الكتاب ، فأتيا بها ، فقال : ما هذا يا حاطب ؟ ! فقال : والله يا رسول الله ما فعلت ذلك ارتدادا عن دينى ، ولا رضيت بالكفر بعد الإسلام ، ولكن كنت امرءاً ملصقاً فى قريش ، لم أكن من أنفسهم ، وكان من معك من أصحابك لهم بمكة قرابات يحمون بها أهاليهم ، فأحببت إذ فاتنى ذلك أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتى ، فقال عمر بن الخطاب : دعنى أضرب عنق هذا المنافق . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك أن الله قال : « اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم » .

وفى هذا الحديث بيان : أن الله يغفر لهؤلاء السابقين — كأهل بدر والحديبية — من الذنوب العظيمة ، بفضل سابقتهم ، وإيمانهم ، وجهادهم ؛ ما لا يجوز لأحد أن يعاقبهم بها ، كما لم تجب معاقبة حاطب مما كان منه .

وهذا مما يستدل به على أن ما جرى بين على وطلحة والزبير ونحوهم :

فإنه إما أن يكون اجتهاداً لا ذنب فيه ، فلا كلام . فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » .

وإن كان هناك ذنب فقد ثبت أن هؤلاء رضى الله عنهم ، وغفر لهم مافعلوه ؛ فلا يضرهم ما وقع منهم من الذنوب إن كان قد وقع ذنب ؛ بل إن وقع من أحدهم ذنب كان الله محاه بسبب قد وقع من الأسباب التى يمحص الله بها الذنوب ، مثل أن يكون قد تاب فيتوب الله عليه ، أو كان له حسنات تمحو السيئات ، أو يكون قد كفر عنه ببلاء ابتلاه به ، فإنه قد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما يصيب المؤمن من نصب ، ولا وصب ، ولا هم ، ولا غم ، ولا حزن ، ولا أذى ، إلا كفر الله من خطاياه » .

وأما من بعد هؤلاء السابقين الأولين ، وهم الذين أسلموا بعد الحديبية ، فهؤلاء دخلوا فى قوله تعالى : (وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ) وفى قوله تعالى : (وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ) ، وقد أسلم قبل فتح مكة خالد ابن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة الحجبى ، وغيرهم . وأسلم بعد الطلقاء أهل الطائف وكانوا آخر الناس إسلاماً ، وكان منهم عثمان ابن أبى العاص الثقفى الذى أمره النبي صلى الله عليه وسلم على أهل الطائف ، وكان من خيار الصحابة ؛ مع تأخر إسلامه .

فقد يتأخر إسلام الرجل ، ويكون أفضل من بعض من تقدمه بالإسلام ، كما تأخر إسلام عمر ، فإنه يقال : إنه أسلم تمام الأربعين ، وكان ممن فضله الله على كثير ممن أسلم قبله ، وكان عثمان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وعبد الرحمن ابن عوف ، أسلموا قبل عمر على يد أبي بكر ، وتقدمهم عمر .

وأول من أسلم من الرجال الأحرار البالغين أبو بكر ، ومن الأحرار الصبيان علي ، ومن الموالي زيد بن حارثة ، ومن النساء خديجة أم المؤمنين ، وهذا باتفاق أهل العلم .

وقد قال الله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ) إلى قوله تعالى : (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ) . فهذه عامة . وقال تعالى :

(لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ * وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا

بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ).

فهذه الآية والتى قبلها : تتناول من دخل فيها بعد السابقين الأولين إلى يوم القيامة ؛ فكيف لا يدخل فيها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ الذين آمنوا به وجاهدوا معه ؟ .

وقد قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « المهاجر من هجر ما نهى الله عنه » فمن كان قد أسلم من الطلقاء وهجر ما نهى الله عنه كان له معنى هذه الهجرة ، فدخل فى قوله تعالى : (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡ) كما دخل فى قوله تعالى : (وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ).

وقد قال تعالى : (مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا) فهذا يتناول الذين آمنوا مع الرسول مطلقاً .

وقد استفاض عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الصحاح وغيرها من غير

وجه أنه قال : « خير القرون القرن الذى بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » .

وثبت عنه فى الصحيح أنه كان بين عبد الرحمن وبين خالد كلام فقال : « يا خالد لا تسبوا أصحابى . فو الذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدكم ، ولا نصيفه » قال ذلك لخالد ونحوه ، ممن أسلم بعد الحديبية ، بالنسبة إلى السابقين الأولين . يقول : إذا أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصف مده .

وهؤلاء الذين أسلموا بعد الحديبية دخلوا فى قوله تعالى : (لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ) بهذه المنزلة .

وكيف يكون بعد أصحابه ؟ والصحبة اسم جنس تقع على من صحب النبى صلى الله عليه وسلم قليلا أو كثيراً ، لكن كل منهم له من الصحبة بقدر ذلك ، فمن صحبه سنة أو شهراً أو يوماً أو ساعة أو رآه مؤمناً ، فله من الصحبة بقدر ذلك ، كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يغزوا فئام من الناس فيقولون : هل فيكم من صحب النبى صلى الله عليه وسلم » . وفى لفظ : « هل فيكم من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون : نعم ؛ فيفتح لهم ؛ ثم يغزوا فئام من الناس فيقولون : هل فيكم من صحب من صحب رسول الله

صلى الله عليه وسلم؟ ـ وفى لفظ ـ هل فيكم من رأى من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم، ثم يغزوا فئـــام من الناس فيقولون: هل فيكم من رأى من رأى من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ـ وفى لفظ ـ من صحب من صحب من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم؛ فيفتح لهم» وفى بعض الطرق فيذكر فى الطبقة الرابعة كذلك.

فقد علق النبي صلى الله عليه وسلم الحكم بصحبته وعلق برؤيته، وجعل فتح الله على المسلمين بسبب من رآه مؤمناً به.

وهذه الخاصية لا تثبت لأحد غير الصحابة؛ ولو كانت أعمالهم أكثر من أعمال الواحد من أصحابه صلى الله عليه وسلم.

فصـــــل

إذا تبين هذا ؛ فمن المعلوم أن الطريق التى بها يعلم إيمان الواحد من الصحابة هى الطريق التى بها يعلم إيمان نظرائه ، والطريق التى تعلم بها صحبته هى الطريق التى يعلم بها صحبة أمثاله .

فالطلقاء الذين أسلموا عام الفتح مثل معاوية ، وأخيه يزيد ، وعكرمة ابن أبى جهل ؛ وصفوان بن أمية ، والحارث بن هشام ؛ وسهيل بن عمرو . وقد ثبت بالتواتر عند الخاصة إسلامهم وبقاؤهم على الإسلام إلى حين الموت .

ومعاوية أظهر إسلاماً من غيره ، فإنه تولى أربعين سنة ؛ عشرين سنة نائباً لعمر وعثمان ، مع ما كان فى خلافة على رضى الله عنه ، وعشرين سنة مستولياً ؛ وأنه تولى سنة ستين بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم بخمسين سنة . وسلم إليه الحسن بن على رضى الله عنهما الأمر عام أربعين ، الذى يقال له عام الجماعة؛ لاجتماع الكلمة وزوال الفتنة بين المسلمين .

وهذا الذى فعله الحسن رضى الله عنه مما أثنى عليه النبي صلى الله عليه وسلم كما ثبت فى صحيح البخارى وغيره عن أبى بكر — رضى الله عنه — أن النبي صلى

الله عليه وسلم قال : « إن ابنى هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم مما أثنى به على ابنه الحسن ومدحه على أن أصلح الله تعالى به بين فئتين عظيمتين من المسلمين ، وذلك حين سلم الأمر إلى معاوية ، وكان قد سار كل منهما إلى الآخر بعساكر عظيمة .

فلما أثنى النبي صلى الله عليه وسلم على الحسن بالإصلاح وترك القتال دل على أن الإصلاح بين تلك الطائفتين كان أحب إلى الله تعالى من فعله ، فدل على أن الاقتتال لم يكن مأموراً به ، ولو كان معاوية كافراً لم تكن تولية كافر وتسليم الأمر إليه مما يحبه الله ورسوله ؛ بل دل الحديث على أن معاوية وأصحابه كانوا مؤمنين ؛ كما كان الحسن وأصحابه مؤمنين ؛ وأن الذى فعله الحسن كان محمودا عند الله تعالى ، محبوباً مرضياً له ولرسوله .

وهذا كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم فى الصحيحين من حديث أبى سعيد الخدرى أنه قال : « تمرق مارقة على حين فرقة من الناس فتقتلهم أولى الطائفتين بالحق » وفى لفظ «فتقتلهم أدناهم إلى الحق» فهذا الحديث الصحيح دليل على أن كلتا الطائفتين المقتتلتين ـ على وأصحابه ، ومعاوية وأصحابه ـ على حق ، وأن علياً وأصحابه كانوا أقرب إلى الحق من معاوية وأصحابه .

فإن على بن أبى طالب هو الذى قاتل المارقين وهم « الخوارج الحرورية » الذين كانوا من شيعة على ثم خرجوا عليه ، وكفروه ، وكفروا من والاه ، ونصبوا له العداوة ، وقاتلوه ، ومن معه . وهم الذين أخبر عنهم النبي صلى الله

عليه وسلم فى الأحاديث الصحيحة المستفيضة ، بل المتواترة ، حيث قال فيهم : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقراءته مع قراءتهم ، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، أينما لقيتموهم فاقتلوهم ، فإن فى قتلهم أجرا عند الله يوم القيامة ، آيتهم أن فيهم رجلا مخدج اليدين ، له عضل عليها شعرات تدردر » .

وهؤلاء هم الذين نصبوا العداوة لعلى ومن والاه ، وهم الذين استحلوا قتله وجعلوه كافراً ، وقتله أحد رؤوسهم « عبد الرحمن بن ملجم المرادى » فهؤلاء النواصب الخوارج المارقون إذ قالوا : إن عثمان وعلى بن أبى طالب ومن معهما كانوا كفاراً مرتدين ، [فإن من] حجة المسلمين عليهم ما تواتر من إيمان الصحابة ، وما ثبت بالكتاب والسنة الصحيحة من مدح الله تعالى لهم ، وثناء الله عليهم ، ورضاه عنهم ، وإخباره بأنهم من أهل الجنة ، ونحو ذلك من النصوص ، ومن لم يقبل هذه الحجج لم يمكنه أن يثبت إيمان على بن أبى طالب وأمثاله .

فإنه لو قال هذا الناصبى للرافضى : إن عليا كان كافراً ، أو فاسقاً ظالماً ، وأنه قاتل على الملك : لطلب الرياسة ، لا للدين ، وأنه قتل « من أهل الملة » من أمة محمد صلى الله عليه وسلم : بالجمل ، وصفين ، وحروراء ، ألوفا مؤلفة ، ولم يقاتل بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم كافراً ، ولا فتح مدينة ، بل قاتل أهل القبلة ، ونحو هذا الكلام ـ الذى تقوله النواصب المبغضون لعلى رضى الله

عنه ـ لم يمكن أن يجيب هؤلاء النواصب إلا أهل السنة والجماعة ؛ الذين يحبون السابقين الأولين كلهم ، ويوالونهم .

فيقولون لهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، ونحوهم ، ثبت بالتواتر إيمانهم وهجرتهم وجهادهم . وثبت فى القرآن ثناء الله عليهم ، والرضى عنهم وثبت بالأحاديث الصحيحة ثناء النبي صلى الله عليه وسلم عليهم خصوصاً وعموما ، كقوله فى الحديث المستفيض عنه : « لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا » ، وقوله : « إنه قد كان فى الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن فى أمتى أحد فعمر » ، وقوله عن عثمان : « ألا أستحيي ممن تستحيي منه الملائكة » ؟ وقوله لعلى : « لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه » . وقوله : « لكل نبي حواريون ، وحواريي الزبير » وأمثال ذلك .

وأما الرافضى فلا يمكنه إقامة الحجة على من يبغض علياً من النواصب ، كما يمكن ذلك أهل السنة ، الذين يحبون الجميع . فإنه إن قال : إسلام على معلوم بالتواتر . قال له : وكذلك إسلام أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، ومعاوية ، وغيرهم ، وأنت تطعن فى هؤلاء ، إما فى إسلامهم ؛ وإما فى عدالتهم .

فإن قال : إيمان على ثبت بثناء النبي صلى الله عليه وسلم . قلنا له : هذه الأحاديث إنما نقلها الصحابة الذين تطعن أنت فيهم ، ورواة فضائلهم : سعد بن أبى

وقاص ، وعائشة ، وسهل بن سعد الساعدى ، وأمثالهم ، والرافضة تقدح فى هؤلاء . فإن كانت رواية هؤلاء وأمثالهم ضعيفة بطل كل فضيلة تروى لعلى ولم يكن للرافضة حجة ، وإن كانت روايتهم صحيحة ، ثبتت فضائل على وغيره ؛ ممن روى هؤلاء فضائله : كأبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وغيرهم .

فإن قال الرافضى : فضائل على متواترة عند الشيعة ـ كما يقولون : إن النص عليه بالإمامة متواتر ـ قيل له أما «الشيعة» الذين ليسوا من الصحابة : فإنهم لم يروا النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا سمعوا كلامه ، ونقلهم نقل مرسل ، منقطع ، إن لم يسنده إلى الصحابة لم يكن صحيحاً .

والصحابة الذين تواليهم الرافضة نفر قليل ـ بضعة عشر وإما نحو ذلك ـ وهؤلاء لا يثبت التواتر بنقلهم لجواز التواطؤ على مثل هذا العدد القليل ، والجمهور الأعظم من الصحابة : الذين نقلوا فضائلهم تقدح الرافضة فيهم ؛ ثم إذا جوزوا على الجمهور الذين أثنى عليهم القرآن الكذب والكتمان ، فتجويز ذلك على نفر قليل أولى وأجوز .

وأيضاً فإذا قال الرافضى: إن أبا بكر . وعمر ، وعثمان ، كان قصدهم الرياسة والملك ، فظلموا غيرهم بالولاية . قال لهم : هؤلاء لم يقاتلوا مسلما على الولاية ، وإنما قاتلوا المرتدين والكفار ، وهم الذين كسروا كسرى وقيصر ، وفتحوا بلاد فارس ، وأقاموا الإسلام وأعزوا الإيمان وأهله ، وأذلوا الكفر وأهله .

وعثمان هو دون أبى بكر ، وعمر ، فى المنزلة . ومع ذلك فقد طلبوا قتله وهو فى ولايته ، فلم يقاتل المسلمين ولا قتل مسلما على ولايته ، فإن جوزت على هؤلاء أنهم كانوا ظالمين فى ولايتهم ، أعداء الرسول : كانت حجـــة الناصبى عليك أظهر .

وإذا أسأت القول فى هؤلاء ونسبتهم إلى الظلم والمعاداة للرسول وطائفته : كان ذلك حجة للخوارج والنواصب المارقين عليك . فإنهم يقولون : أيما أولى أن ينسب إلى طلب الرياسة : من قاتل المسلمين على ولايته ـ ولم يقاتل الكفار ـ وابتدأهم بالقتـال ليطيعوه ؛ وهم لا يطيعونه ، وقتل من « أهل القبلة » الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويحجون البيت العتيق ؛ ويصومون شهر رمضان ويقرءون القرآن ألوفا مؤلفة ؛ ومن لم يقاتل مسلماً ؛ بل أعزوا أهل الصلاة والزكاة ، ونصروهم وآووهم ، أو من قتل وهو فى ولايته ، لم يقاتل ولم يدفع عن نفسه حتى قتل فى داره وبين أهله رضى الله عنه ؟ فإن جوزت على مثل هذا أن يكون ظالما للملك ظالماً للمسلمين بولايته ، فتجويزك هذا على من قاتل على الولاية وقتل المسلمين عليها أولى وأحرى .

وبهذا وأمثاله يتبين أن الرافضة أمة ليس لها عقل صريح ؛ ولا نقل صحيح، ولا دين مقبول ؛ ولا دنيا منصورة ، بل هم من أعظم الطوائف كذبا وجهلا ودينهم يدخل على المسلمين كل زنديق ومرتد ، كما دخل فيهم النصيرية ؛

والإسماعيلية وغيرهم ، فإنهم يعمدون إلى خيار الأمة يعادونهم ، وإلى أعداء الله من اليهود والنصارى والمشركين يوالونهم ، ويعمدون إلى الصدق الظاهر المتواتر يدفعونه ، وإلى الكذب المختلق الذى يعلم فساده يقيمونه ؛ فهم كما قال فيهم الشعبي - وكان من أعلم الناس بهم - لو كانوا من البهائم لكانوا حمراً ، ولو كانوا من الطير لكانوا رخماً .

ولهذا كانوا أبهت الناس وأشدهم فرية ، مثل ما يذكرون عن معاوية . فإن معاوية ثبت بالتواتر أنه أمره النبي صلى الله عليه وسلم كما أمر غيره ، وجاهد معه ، وكان أميناً عنده يكتب له الوحى ، وما اتهمه النبي صلى الله عليه وسلم فى كتابة الوحى . وولاه عمر بن الخطاب الذى كان من أخبر الناس بالرجال وقد ضرب الله الحق على لسانه وقلبه ، ولم يتهمه فى ولايته .

وقد ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أباه أبا سفيان إلى أن مات النبي صلى الله عليه وسلم وهو على ولايته ، فمعاوية خير من أبيه وأحسن إسلاماً من أبيه باتفاق المسلمين ، وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم ولى أباه فلأن تجوز ولايته بطريق الأولى والأحرى ؛ ولم يكن من أهل الردة ، قط ولا نسبه أحد من أهل العلم إلى الردة ، فالذين ينسبون هؤلاء إلى الردة هم الذين ينسبون أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعامة أهل بدر ، وأهل بيعة الرضوان ، وغيرهم من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان إلى ما لا يليق بهم .

والذين نسبوا هؤلاء إلى الردة، يقول بعضهم : إنه مات ووجهه إلى الشرق والصليب على وجهه، وهذا مما يعلم كل عاقل أنه من أعظم الكذب والفرية عليه. ولو قال قائل هذا فيمن هو دون معاوية من ملوك بنى أمية وبنى العباس كعبد الملك بن مروان وأولاده، وأبى جعفر المنصور وولديه - الملقبين بالمهدى ، والهادى - والرشيد ، وأمثالهم من الذين تولوا الخلافة وأمر المؤمنين ؛ فمن نسب واحداً من هؤلاء إلى الردة ، وإلى أنه مات على دين النصارى لعلم كل عاقل أنه من أعظم الناس فرية . فكيف يقال مثل هذا فى معاوية وأمثاله من الصحابة .

بل يزيد ابنه مع ما أحدث من الأحداث ، من قال فيه : إنه كافر مرتد ، فقد افترى عليه . بل كان ملكا من ملوك المسلمين كسائر ملوك المسلمين ، وأكثر الملوك لهم حسنات ولهم سيئات ، وحسناتهم عظيمة ، وسيئاتهم عظيمة ، فالطاعن فى واحد منهم دون نظرائه إما جاهل ، وإما ظالم .

وهؤلاء لهم ما لسائر المسلمين ، منهم من تكون حسناته أكثر من سيئاته ، ومنهم من قد تاب من سيئاته ، ومنهم من كفر الله عنه ، ومنهم من قد يدخله الجنة ، ومنهم من قد يعاقبه لسيئاته ، ومنهم من قد يتقبل الله فيه شفاعة نبي أو غيره من الشفعاء ، فالشهادة لواحد من هؤلاء بالنار هو من أقوال أهل البدع والضلال .

وكذلك قصد لعنة أحد منهم بعينه ليس هو من أعمال الصالحين والأبرار .
وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لعن الله الخمرة ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وحاملها ، وساقيها ، وشاربها ، وبائعها ، ومشتريها ، وآكل ثمنها » . وصح عنه : أنه كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل يكثر شربها يدعى « حماراً » وكان كلما أتى به إلنبي صلى الله عليه وسلم جلده ، فأتى به إليه ليجلده ، فقال رجل : لعنه الله ! ما أكثر ما يؤتى به النبي صلى الله عليه وسلم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تلعنه ! فإنه يحب الله ورسوله » . وقد لعن النبي صلى الله عليه وسلم شارب الخمر عموماً ، ونهى عن لعنة المؤمن المعين .

كما أنا نقول ما قال الله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا) ، فلا ينبغي لأحد أن يشهد لواحد بعينه أنه فى النار ، لإمكان أن يتوب أو يغفر له الله بحسنات ماحية ، أو مصائب مكفرة ، أو شفاعة مقبولة ، أو يعفو الله عنه ، أو غير ذلك .

فهكذا الواحد من الملوك أو غير الملوك ، وإن كان صدر منه ما هو ظلم فإن ذلك لا يوجب أن نلعنه ونشهد له بالنار . ومن دخل فى ذلك كان من أهل البدع والضلال ؛ فكيف إذا كان للرجل حسنات عظيمة يرجى له بها المغفرة مع ظلمه ! كما ثبت فى صحيح البخارى عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه

قال : « أول جيش يغزو قسطنطينية مغفور له » ، وأول جيش غزاها كان أميرهم « يزيد بن معاوية » وكان معه فى الغزاة أبو أيوب الأنصارى ، وتوفى هناك ، وقبره هناك إلى الآن .

ولهذا كان المقتصدون من أئمة السلف يقولون فى يزيد وأمثاله : إنا لا نسبهم ولا نحبهم ، أى لا نحب ما صدر منهم من ظلم . والشخص الواحد يجتمع فيه حسنات وسيئات ، وطاعات ومعاصى ، وبر وفجور وشر ، فيثيبه الله على حسناته ، ويعاقبه على سيئاته إن شاء أو يغفر له ، ويحب ما فعله من الخير ويبغض ما فعله من الشر .

فأما من كانت سيئاته صغائر فقد وافقت المعتزلة على أن الله يغفرها .

وأما صاحب الكبيرة فسلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة لا يشهدون له بالنار ، بل يجوزون أن الله يغفر له ، كما قال تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ) ، فهذه فى حق من لم يشرك ، فإنه قيدها بالمشيئة ، وأما قوله تعالى : (قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا) ، فهذا فى حق من تاب ، ولذلك أطلق وعم .

والخوارج والمعتزلة يقولون : إن صاحب الكبيرة يخلد فى النار ، ثم إنهم

قد يتوهمون فى بعض الأخيار أنه من أهل الكبائر ، كما تتوهم الخوارج فى عثمان وعلى وأتباعهما أنهم مخلدون فى النار ، كما يتوهم بعض ذلك فى مثل معاوية وعمرو ابن العاص ، وأمثالهما ، ويبنون مذاهبهم على مقدمتين باطلتين :

(إحداهما) : أن فلانا من أهل الكبائر .

(والثانية) : أن كل صاحب كبيرة يخلد فى النار .

وكلا القولين باطل . وأما الثانى فباطل على الإطلاق . وأما الأول فقد يعلم بطلانه ، وقد يتوقف فيه .

ومن قال عن معاوية وأمثاله ؛ ممن ظهر إسلامه وصلاته ، وحجه وصيامه أنه لم يسلم ، وأنه كان مقيما على الكفر فهو بمنزلة من يقول ذلك فى غيره ، كما لو ادعى مدع ذلك فى العباس ، وجعفر ، وعقيل ، وفى أبى بكر ، وعمر ، وعثمان . وكما لو ادعى أن الحسن والحسين ليسا ولدى على بن أبى طالب ، إنما هما أولاد سلمان الفارسى ، ولو ادعى أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يتزوج ابنة أبى بكر وعمر ، ولم يزوج بنتيه عثمان ؛ بل إنكار إسلام معاوية أقبح من إنكار هذه الأمور ، فإن منها ما لا يعرفه إلا العلماء .

وأما إسلام معاوية وولايته على المسلمين والإمارة والخلافة فأمر يعرفه جماهير الخلق ، ولو أنكر منكر إسلام على أو ادعى بقاءه على الكفر ؛ لم يحتج

عليه إلا بمثل ما يحتج به على من أنكر إسلام أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ومعاوية وغيرهم . وإن كان بعضهم أفضل من بعض فتفاضلهم لا يمنع اشتراكهم فى ظهور إسلامهم .

وأما قول القائل : إيمان معاوية كان نفاقا ، فهو أيضاً من الكذب المختلق . فإنه ليس فى علماء المسلمين من اتهم معاوية بالنفاق ، بل العلماء متفقون على حسن إسلامه ، وقد توقف بعضهم فى حسن إسلام أبى سفيان - أبيه - وأما معاوية ، وأخوه يزيد ، فلم يتنازعوا فى حسن إسلامهما ، كما لم يتنازعوا فى حسن إسلام عكرمة بن أبى جهل ،وسهيل بن عمرو ، وصفوان بن أمية ، وأمثالهم من مسلمة الفتح ، وكيف يكون رجلا متولياً على المسلمين أربعين سنة نائباً ، ومستقلا يصلى بهم الصلوات الخمس ويخطب ويعظهم ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويقيم فيهم الحدود ، ويقسم بينهم فيئهم ومغانمهم وصدقاتهم ، ويحج بهم ، ومع هذا يخفى نفاقه عليهم كلهم ؟ وفيهم من أعيان الصحابة جماعة كثيرة .

بل أبلغ من هذا أنه - ولله الحمد - لم يكن من الخلفاء الذين لهم ولاية عامة من خلفاء بنى أمية ، وبنى العباس أحد يتهم بالزندقة والنفاق وبنو أمية ، لم ينسب أحد منهم إلى الزندقة والنفاق وإن كان قد ينسب الرجل منهم إلى نوع من البدعة ، أو نوع من الظلم ، لكن لم ينسب أحداً منهم من أهل العلم إلى زندقة ونفاق .

وإنما كان المعروفون بالزندقة والنفاق بنى عبيد القداح ، الذين كانوا بمصر والمغرب ، وكانوا يدعون أنهم علويون؛ وإنما كانوا من ذرية الكفار، فهؤلاء قد اتفق أهل العلم على رميهم بالزندقة والنفاق ، وكذلك رمى بالزندقة والنفاق قوم من ملوك النواحى[1] الخلفاء من بنى بويه وغير بنى بويه ؛ فأما خليفة عام الولاية فى الإسلام فقد طهر الله المسلمين أن يكون ولى أمرهم زنديقاً منافقاً ، فهذا مما ينبغى أن يعلم ويعرف ، فإنه نافع فى هذا الباب .

واتفق العلماء على أن معاوية أفضل ملوك هذه الأمة ، فإن الأربعة قبله كانوا خلفاء نبوة ، وهو أول الملوك ؛ كان ملكه ملكا ورحمة ، كما جاء فى الحديث : «يكون الملك نبوة ورحمة ، ثم تكون خلافة ورحمة ، ثم يكون ملك ورحمة ، ثم ملك وجبرية ، ثم ملك عضوض» وكان فى ملكه من الرحمة والحلم ونفع المسلمين ما يعلم أنه كان خيراً من ملك غيره .

وأما من قبله فكانوا خلفاء نبوة ، فإنه قد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تكون خلافة النبوة ثلاثين سنة ، ثم تصير ملكا » وكان أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، رضى الله عنهم : هم الخلفاء الراشدون ، والأئمة المهديون ، الذين قال فيهم النبى صلى الله عليه وسلم : «عليكم بسنتى وسنة الخلفاء

---

(١) نسخة النواصب

الراشدين من بعدى ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة » .

وقد تنازع كثير من الناس فى خلافة على ؛ وقالوا : زمانه زمان فتنة ، لم يكن فى زمانه جماعة ، وقالت طائفة : يصح أن يولى خليفتان فهو خليفة ، ومعاوية خليفة ؛ لأن الأمة لم تتفق عليه ، ولم تنتظم فى خلافته .

والصحيح الذى عليه الأئمة : أن علياً رضى الله عنه من الخلفاء الراشدين ، بهذا الحديث ، فزمان على كان يسمى نفسه أمير المؤمنين ، والصحابة تسميه بذلك . قال الإمام أحمد بن حنبل : « من لم يربع بعلى رضى الله عنه فى الخلافة فهو أضل من حمار أهله » ، ومع هذا فلكل خليفة مرتبة .

فأبو بكر وعمر لا يوازنهما أحد ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اقتدوا باللذين من بعدى: أبى بكر وعمر » ، ولم يكن نزاع بين شيعة على الذين صحبوه فى تقديم أبى بكر وعمر ، وثبت عن على من وجوه كثيرة أنه قال : لا أوتى برجل يفضلنى على أبى بكر وعمر إلا جلدته حد المفترى .

وإنما كانوا يتنازعون فى عثمان وعلى رضى الله عنهما ؛ لكن ثبت تقديم عثمان على على ، باتفاق السابقين على مبايعة (عثمان) طوعا بلا كره ؛ بعد أن جعل عمر الشورى فى ستة : عثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ،

وعبد الرحمن بن عوف . وتركها « ثلاثة » وهم : طلحة ، والزبير ، وسعد .
فبقيت فى « ثلاثة » : عثمان ، وعلى ، وعبد الرحمن . فولى أحدهما ، فبقى
عبد الرحمن يشاور المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ثلاثة أيام ، ثم
أخبر أنهم لم يعدلوا بعثمان .

ونقل وفاته وولايته : حديث طويل ، فمن أراده فعليه بأحاديث الثقات .
والله أعلم . وصلى الله على نبينا محمد وسلم .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :-

فصـــــل

افترق الناس فى « يزيد » بن معاوية بن أبى سفيان (ثلاث فرق) : طرفان ووسط.

(فأحد الطرفين) قالوا : إنه كان كافراً منافقاً ، وأنه سعى فى قتل سبط رسول الله ، تشفياً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتقاماً منه ، وأخذاً بثأر جده عتبة ، وأخى جده شيبة ، وخاله الوليد بن عتبة ، وغيرهم ممن قتلهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بيد على بن أبى طالب وغيره يوم بدر وغيرها ؛ وقالوا : تلك أحقاد بدرية ، وآثار جاهلية ، وأنشدوا عنه :

لمـا بدت تلك الحمول وأشرفت تلك الرؤوس على ربى جيرونى

نعق الغراب ، فقلت نح أو لا تنح فلقد قضيت من النبى ديونى

وقالوا : إنه تمثل بشعر ابن الزبعرى الذى أنشده يوم أحد :-

ليت أشياخى ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

قد قتلنا الكثير من أشياخهم　وعدلناه ببدر فاعتدل

وأشياء من هذا النمط .

وهذا القول سهل على الرافضة ؟ الذين يكفرون أبا بكر ، وعمر ، وعثمان؛ فتكفير يزيد أسهل بكثير .

(والطرف الثانى) يظنون أنه كان رجلا صالحاً وإمام عدل ، وأنه كان من « الصحابة » الذين ولدوا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وحمله على يديه وبرك عليه ، وربما فضله بعضهم على أبى بكر وعمر . وربما جعله بعضهم نبياً ، ويقولون عن « الشيخ عدى » ، أو حسن المقتول — كذباً عليه — إن سبعين ولياً صرفت وجوههم عن القبلة لتوقفهم فى يزيد .

وهذا قول غالية العدوية والأكراد ونحوهم من الضلال . فإن الشيخ عديا كان من بنى أمية وكان رجلا صالحاً عابدا فاضلا ، ولم يحفظ عنه أنه دعاهم إلا إلى السنة التى يقولها غيره كالشيخ « أبى الفرج » المقدسى ، فإن عقيدته موافقة لعقيدته ؛ لكن زادوا فى السنة أشياء كذب وضلال ، من الأحاديث الموضوعة والتشبيه الباطل ، والغلو فى الشيخ عدى وفى يزيد ، والغلو فى ذم الرافضة ، بأنه لا تقبل لهم توبة ، وأشياء أخر . وكلا القولين ظاهر البطلان عند من له أدنى عقل وعلم بالأمور وسير المتقدمين ؛ ولهذا لا ينسب إلى أحد من أهل العلم المعروفين بالسنة ، ولا إلى ذى عقل من العقلاء الذين لهم رأى وخبرة .

(والقول الثالث) : أنه كان ملكا من ملوك المسلمين ، له حسنات وسيئات ، ولم يولد إلا فى خلافة عثمان ، ولم يكن كافراً ، ولكن جرى بسببه ما جرى من مصرع «الحسين» وفعل ما فعل بأهل الحرة ، ولم يكن صاحباً ولا من أولياء الله الصالحين ، وهذا قول عامة أهل العقل والعلم والسنة والجماعة .

ثم افترقوا (ثلاث فرق) ، فرقة لعنته ، وفرقة أحبته ، وفرقة لا تسبه ولا تحبه ، وهذا هو المنصوص عن الإمام أحمد ، وعليه المقتصدون من أصحابه وغيرهم من جميع المسلمين .

قال صالح بن أحمد : قلت لأبى إن قوما يقولون إنهم يحبون يزيد ، فقال : يا بنى ! وهل يحب يزيد أحد يؤمن بالله واليوم الآخر ؟ فقلت يا أبت فلماذا لا تلعنه ؟ فقال يا بنى ! ومتى رأيت أباك يلعن أحداً .

وقال مهنا : سألت أحمد عن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان . فقال : هو الذى فعل بالمدينة ما فعل ! قلت : وما فعل ؟ قال : قتل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعل . قلت : وما فعل ؟ قال : نهبها ، قلت : فيذكر عنه الحديث ؟ قال : لا يذكر عنه حديث . وهكذا ذكر القاضى أبو يعلى وغيره .

وقال أبو محمد المقدسى لما سئل عن يزيد : فيما بلغنى لا يسب ولا يحب .

وبلغنى أيضاً أن جدنا أبا عبد الله بن تيمية سئل عن يزيد. فقال: لا تنقص ولا تزيد . وهذا أعدل الأقوال فيه وفى أمثاله وأحسنها .

أما ترك سبه ولعنته ، فبناء على أنه لم يثبت فسقه الذى يقتضى لعنه ، أو بناء على أن الفاسق المعين لا يلعن بخصوصه ، إما تحريماً ، وإما تنزيهاً . فقد ثبت فى صحيح البخارى عن عمر فى قصة « حمار » الذى تكرر منه شرب الخمر وجلده لما لعنه بعض الصحابة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله » وقال : « لعن المؤمن كقتله » متفق عليه .

هذا مع أنه قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لعن الخمر وشاربها ، فقد ثبت أن النبي لعن عموماً شارب الخمر ، ونهى فى الحديث الصحيح عن لعن هذا المعين .

وهذا كما أن نصوص الوعيـــد عامة فى أكل أموال اليتامى ، والزانى ، والسارق فلا نشهد بها عامة على معين ، بأنه من أصحاب النار ؛ لجواز تخلف المقتضى عن المقتضى لمعارض راجح : إما توبة ، وإما حسنات ماحية ؛ وإما مصائب مكفرة ، وإما شفاعة مقبولة ؛ وإما غير ذلك كما قررناه فى غير هذا الموضع . فهذه ثلاثة مآخذ .

ومن اللاعنين من يرى أن ترك لعنته مثل ترك سائر المباحات من فضول القول ، لا لكراهة فى اللعنة . وأما ترك محبته فلأن المحبة الخاصة إنما تكون للنبيين ، والصديقين ، والشهداء والصالحين ؛ وليس واحداً منهم ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «المرء مع من أحب» ومن آمن بالله واليوم الآخر : لا يختار أن يكون مع يزيد ، ولا مع أمثاله من الملوك ؛ الذين ليسوا بعادلين .

ولترك المحبة « مأخذان » :

(أحدهما) : أنه لم يصدر عنــه من الأعمال الصالحة ما يوجب محبته فبقى واحداً من الملوك المسلطين . ومحبة أشخاص هذا النوع ليست مشروعة ، وهذا المأخذ ، ومأخذ من لم يثبت عنده فسقه اعتقد تأويلا .

(والثانى) : أنه صدر عنه ما يقتضى ظلمه وفسقه فى سيرته ، وأمر الحسين وأمر أهل الحرة .

وأما الذين لعنوه من العلماء ، كأبى الفرج بن الجوزى ، والكيا الهراس وغيرهما : فلما صدر عنه من الأفعال التى تبيح لعنته ، ثم قد يقولون هو فاسق وكل فاسق يلعن . وقد يقولون بلعن صاحب المعصية وإن لم يحكم بفسقه ، كما لعن أهل صفين بعضهم بعضاً فى القنوت ، فلعن على وأصحابه فى قنوت الصلاة رجالا معينين من أهل الشام ، وكذلك أهل الشام لعنوا، مع أن المقتتلين من أهل التأويل السائغ : العادلين ، والباغين : لا يفسق واحد منهم . وقد يلعن لخصوص ذنوبه الكبار ، وإن كان لا يلعن سائر الفساق ، كما لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنواعا من أهل المعاصى ، وأشخاصاً من العصاة ، وإن لم يلعن جميعهم ، فهذه (ثلاثة مآخذ) للعنته .

وأما الذين سوغوا محبته أو أحبوه ، كالغزالى ، والدستى فلهم مأخذان :

(أحدهما) : أنه مسلم ولى أمر الأمة على عهد الصحابة وتابعه بقاياهم ، وكانت فيه خصال محمودة ، وكان متأولا فيما ينكر عليه من أمر الحرة وغيره ، فيقولون : هو مجتهد مخطئ ، ويقولون : إن أهل الحرة هم نقضوا بيعته أولا ، وأنكر ذلك عليهم ابن عمر وغيره،وأما قتل الحسين فلم يأمر به ولم يرض به ، بل ظهر منه التألم لقتله ، وذم من قتله ، ولم يحمل الرأس إليه وإنما حمل إلى ابن زياد .

(والمأخذ الثانى):أنه قد ثبت فى صحيح البخارى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أول جيش يغزو القسطنطينية مغفور له » وأول جيش غزاها كان أميره يزيد .

«والتحقيق» : أن هذين القولين يسوغ فيهما الاجتهاد ؛ فإن اللعنة لمن يعمل المعاصى مما يسوغ فيها الاجتهاد ، وكذلك محبة من يعمل حسنات وسيئات ؛ بل لا يتنافى عندنا أن يجتمع فى الرجل الحمد والذم ، والثواب والعقاب ؛ كذلك لا يتنافى أن يصلى عليه ويدعى له ، وأن يلعن ويشتم أيضاً باعتبار وجهين .

فإن أهل السنة متفقون على أن فساق أهل الملة ـ وإن دخلوا النار ، أو استحقوا دخولها فإنهم ـ لا بد أن يدخلوا الجنة فيجتمع فيهم الثواب والعقاب ؛ ولكن الخوارج والمعتزلة تنكر ذلك ، وترى أن من استحق الثواب لا يستحق العقاب ، ومن استحق العقاب لا يستحق الثواب . والمسئلة مشهورة ؛ وتقريرها فى غير هذا الموضع .

وأما جواز الدعاء للرجل وعليه فبسط هذه المسئلة فى الجنائز ، فإن موتى المسلمين يصلى عليهم برهم وفاجرهم ، وإن لعن الفاجر مع ذلك بعينه أو بنوعه لكن الحال الأول أوسط وأعدل ، وبذلك أجبت مقدم المغل بولاى ؛ لما قدموا دمشق فى الفتنة الكبيرة ، وجرت بينى وبينه وبين غيره مخاطبات ؛ فسألنى . فيما سألنى : ما تقولون فى يزيد ؟ فقلت : لا نسبه ولا نحبه ، فإنه لم يكن رجلا صالحا فنحبه ونحن لا نسب أحدا من المسلمين بعينه . فقال : أفلا تلعنونه ؟ أما كان ظالماً ؟ أما قتل الحسين ؟.

فقلت له : نحن إذا ذكر الظالمون كالحجاج بن يوسف وأمثاله نقول كما قال الله فى القرآن : (أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) ولا نحب أن نلعن أحدا بعينه ؛ وقد لعنه قوم من العلماء ؛ وهذا مذهب يسوغ فيه الاجتهاد ، لكن ذلك القول أحب إلينا وأحسن .

وأما من قتل « الحسين » أو أعان على قتله ، أو رضى بذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا .

قال : فما تحبون أهل البيت ؟ قلت : محبتهم عندنا فرض واجب يؤجر عليه فإنه قد ثبت عندنا فى صحيح مسلم عن زيد بن أرقم قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بغدير يدعى خما ، بين مكة والمدينة فقال : « أيها الناس ! إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله » فذكر كتاب الله وحض عليه ، ثم قال : « وعترتى

أهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى» قلت لمقدم : ونحن نقول فى صلاتنا كل يوم : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد » قال مقدم : فمن يبغض أهل البيت ؟ قلت : من أبغضهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا .

ثم قلت للوزير المغولى لأى شىء قال عن يزيد وهذا تترى؟ قال : قد قالوا له إن أهل دمشق نواصب ، قلت بصوت عال : يكذب الذى قال هذا ومن قال هذا : فعليه لعنة الله ، والله ما فى أهل دمشق نواصب ، وما علمت فيهم ناصبيا ، ولو تنقص أحد عليا بدمشق لقام المسلمون عليه ؛ لكن كان ـ قديما لما كان بنو أمية ولاة البلاد ـ بعض بنى أمية ينصب العداوة لعلى ويسبه ، وأما اليوم فما بقى من أولئك أحد .

سئل :-

عن جماعة اجتمعوا على أمور متنوعة فى الفساد ، ومنهم من يقول : إن الدين فسد من قبل « هذه » وهو من حين أخذت الخلافة من على بن أبى طالب ، فإن الذين تولوا مكانه لم يكونوا أهلا للولاية ، فلم تصح توليتهم ، ولم يصح للمسلمين بعد ذلك عقد من عقودهم ، لاعقد نكاح ولاغيره ، وأن جميع من تزوج بعد تلك الواقعة فنكاحه فاسد ، وكذلك العقود جميعها فاسدة ، والولايات وغيرها .

ويزعم قائل هذا : أن الله صليب ، وأن كل حرف من الجلالة على رأس خط من خطوط الصليب ، ويقرر للناس أن اليهود والنصارى على حق ، وكذلك المجوس وغيرهم !! .

فأجاب :

ـ رحمه الله تعالى ـ : أما هذا الجاهل فهو شبيه فى جهله بالرافضة ، الذين يكذبون ؛ وخرافاتهم التى لا تروج إلا على جاهل لا يعرف أصول الإسلام ، كالذين ذكروا فى هذا السؤال .

وقيل إنهم يقولون إن الدين فسد من حين أخذت الخلافة من على ، وذلك

من حين موت النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن الخلفاء الراشدين لم يكونوا أهلا للولاية ، وأن عقود المسلمين باطلة ، وأن الله صليب ، ويقرر دين اليهود والنصارى والمجوس : فإن هذا زنديق من شر الزنادقة ، من جنس قرامطة الباطنية ، كالنصيرية والإسماعيلية وأتباعهم .

ولهذا يتكلم بالتناقض ، فإن من يقرر دين اليهود والنصارى والمجوس ، ويطعن فى دين الخلفاء الراشدين المهديين ، والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار : لا يكون إلا من أجهل الناس وأكفرهم ، ولو كان من المؤمنين ، الذين يعلمون أن هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس ، وأن خير الأمة القرن الأول ، ثم الذين يلونه ثم الذين يلونه ؛ لما كان مقرراً لدين الكفار ، طاعنا فى دين المهاجرين والأنصار ، والرد على هذا ونحوه مبسوط فى غير هذا الموضع .

وقد ذكرنا فى ذلك فى الرد على الرافضة ما لا يتسع له هذا الموضع .

ومثل هذا القول لا يقوله من يؤمن بأن محمداً رسول الله ، فنجيب من يقر أن محمداً رسول الله ، فنبين له مما جاء به ما يزيل شبهته ، فأما من يطعن فى نبوته فنكلمه من وجه آخر ، ولكل مقام مقال .

سئل رحمه الله :

هل يصح عند أهل العلم: أن علياً رضى الله عنه قاتل الجن فى البئر؟ ومدَّ يَده يوم خيبر ، فعبر العسكر عليها ، وأنه حمل فى الأحزاب فافترقت قدامه سبع عشرة فرقة ، وخلف كل فرقة رجل يضرب بالسيف يقول أنا على ، وأنه كان له سيف يقال له ذو الفقار ، وكان يمتد ويقصر ، وأنه ضرب به مرحبا وكان على رأسه جرن من رخام فقصم له ولفرسه بضربة واحدة ، ونزلت الضربة فى الأرض ، ومناد ينادى فى الهواء :لا سيف إلا ذو الفقار ، ولا فتى إلا على ، وأنه رمى فى المنجنيق إلى حصن الغراب ، وأنه بعث إلى كل نبى سرا ، وبعث مع النبى صلى الله عليه وسلم جهرا ، وأنه كان يحمل فى خمسين ألفا ، وفى عشرين ألفا ، وفى ثلاثين ألفاً وحده ، وأنه لما برز إليه مرحب من خيبر ضربه ضربة واحدة فقده طولا ، وقد الفرس عرضاً ، ونزل السيف فى الأرض ذراعين أو ثلاثة ، وأنه مسك حلقة باب خيبر وهزها فاهتزت المدينة ووقع من على السور شرفات ، فهل صح من ذلك شيء ؟؟!!

أجاب :ـ

الحمد لله . هذه الأمور المذكورة كذب مختلق باتفاق أهل العلم والإيمان ،

لم يقاتل على ولا غيره من الصحابة الجن ، ولا قاتل الجن أحد من الإنس ؛ لا فى بئر ذات العلم ولا غيرها .

والحديث المروى فى قتاله للجن موضوع مكذوب باتفاق أهل المعرفة ، ولم يقاتل على قط على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لعسكر كان خمسين ألفاً أو ثلاثين ألفاً ، فضلا عن أن يكون وحده قد حمل فيهم ، ومغازيه التى شهدها مع رسول الله وقاتل فيها كانت تسعة : بدراً ، وأحداً ، والخندق ، وخيبر ، وفتح مكة ، ويوم حنين ، وغيرها .

وأكثر ما يكون المشركون فى الأحزاب وهى الخندق ، وكانوا محاصرين للمدينة ، ولم يقتتلوا هم والمسلمون كلهم ، وإنما كان يقتتل قليل منهم وقليل من الكفار ، وفيها قتل على عمرو بن عبدود العامرى ، ولم يبارز على وحده قط إلا واحداً ، ولم يبارز اثنين .

وأما مرحب يوم خيبر : فقد ثبت فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه » فأعطاها لعلى ، وكانت أيام خيبر أياماً متعددة ، وحصونها فتح على يد على رضى الله عنه بعضها .

وقد روى أثر أنه قتل مرحباً وروى أنه قتله محمد بن مسلمة ولعلهما مرحبان ، وقتله القتل المعتاد ، ولم يقده جميعه ، ولا قد الفرس ، ولا نزل

السيف إلى الأرض ، ولا نزل لعلى ولا لغيره سيف من السماء ، ولا مديده ليعبر الجيش ، ولا اهتز سور خيبر لقلع الباب ، ولا وقع شيء من شرفاته وإن خيبر لم تكن مدينة وإنما كانت حصوناً متفرقة ، ولهم مزارع .

ولكن المروى أنه ما قلع باب الحصن حتى عبره المسلمون ، ولا رمى فى منجنيق قط ، وعامة هذه المغازى التى تروى عن على وغيره : قد زادوا فيها أكاذيب كثيرة ؛ مثل ما يكذبون فى سيرة عنترة والأبطال ، وجميع الحروب التى حضرها على رضى الله عنه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة حروب الجمل ، وصفين ، وحرب أهل النهروان . والله أعلم .

سئل :

عمن قال : إن علياً قاتل الجن فى البئر ؟ وأنه حمل على اثنى عشر ألفا وهزمهم ؟ .

فأجاب :

لم يحمل أحد من الصحابة وحده لا فى اثنى عشر ألفاً ولا فى عشرة آلاف لا على ولا غيره ؛ بل أكثر عدد اجتمع على النبي صلى الله عليه وسلم هم الأحزاب الذين حاصروه بالخندق ، وكانوا قريباً من هذه العدة ، وقتل علىّ رجلا من الأحزاب اسمه « عمرو بن عبدوَدِ » العامرى » .

ولم يقاتل أحد من الإنس للجن لا على ولا غيره ، بل على كان أجل قدراً من ذلك ، والجن الذين يتبعون الصحابة يقاتلون كفار الجن ، لا يحتاجون فى ذلك إلى قتال الصحابة معهم .

سئل :

عن « فاطمة » أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم ، وقالت : يا رسول الله ! إن علياً يقوم الليالى كلها إلا ليلة الجمعة فإنه يصلى الوتر ثم ينام إلى أن يطلع الفجر فقال : « إن الله يرفع روح على كل ليلة جمعة تسبح فى السماء إلى طلوع الفجر » فهل ذلك صحيح أم لا ؟ وهل هذا صحيح عن على أنه قال : اسألونى عن طرق السماء فإنى أعرف بها من طرق الأرض ؟

فأجاب :—

وأما الحديث المذكور عن على فكذب ؛ ما رواه أحد من أهل العلم .

وأما قوله : اسألونى عن طرق السماء فإنه قاله ، ولم يرد بذلك طريقاً للهدى ؛ وإنما يريد بمثل هذا الكلام الأعمال الصالحة التى يتقرب بها والله أعلم .

سئل رحمه الله :

عن رجل قال عن « علىّ » بن أبى طالب - رضى الله عنه - إنه ليس من أهل البيت ، ولا تجوز الصلاة عليه ، والصلاة عليه بدعة ؟ !

فأجاب :

أما كون على بن أبى طالب من أهل البيت فهذا مما لا خلاف فيه بين المسلمين ، وهو أظهر عند المسلمين من أن يحتاج إلى دليل ؛ بل هو أفضل أهل البيت ، وأفضل بنى هاشم بعد النبى صلى الله عليه وسلم وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه أدار كساءه على علىّ وفاطمة ، وحسن ، وحسين ، فقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » .

وأما الصلاة عليه منفرداً فهذا ينبنى على أنه هل يصلى على غير النبى صلى الله عليه وسلم منفرداً ؟ مثل أن يقول : اللهم صل على عمر أو على . وقد تنازع العلماء فى ذلك .

فذهب مالك ، والشافعى ، وطائفة من الحنابلة : إلى أنه لا يصلى على غير النبى صلى الله عليه وسلم منفرداً ، كما روى عن ابن عباس أنه قال : لا أعلم الصلاة تنبغى على أحد إلا على النبى صلى الله عليه وسلم .

وذهب الإمام أحمد وأكثر أصحابه إلى أنه لا بأس بذلك ، لأن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال لعمر بن الخطاب : صلى الله عليك . وهذا القول أصح وأولى .

ولكن إفراد واحد من الصحابة والقرابة كعلى أو غيره بالصلاة عليه دون غيره مضاهاة للنبي صلى الله عليه وسلم ، بحيث يجعل ذلك شعاراً معروفاً باسمه : هذا هو البدعة .

سئل شيخ الإسلام :

قدس الله روحه

هل صح عند أحد من أهل العلم والحديث ، أو من يقتدى به فى دين الإسلام ، أن أمير المؤمنين « على بن أبى طالب » ـ رضى الله عنه ـ قال : إذا أنا مت فأركبونى فوق ناقتى وسيبونى ، فأينما بركت ادفنونى . فسارت ولم يعلم أحد قبره ؟ فهل صح ذلك أم لا ؟ وهل عرف أحد من أهل العلم أين دفن أم لا ؟ وما كان سبب قتله ؟وفى أى وقت كان ؟ ومن قتله ؟ .

ومن قتل الحسين ؟ وما كان سبب قتله ؟ وهل صح أن أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم سبوا ؟ وأنهم أركبوا على الإبل عراة ، ولم يكن عليهم ما يسترهم ، فخلق الله تعالى للإبل التى كانوا عليها سنامين استتروا بها . وأن الحسين لما قطع رأسه داروا به فى جميع البلاد ، وأنه حمل إلى دمشق ، وحمل إلى مصر ودفن بها ؟ وأن يزيد بن معاوية هو الذى فعل هذا بأهل البيت ، فهل صح ذلك أم لا ؟ .

وهل قائل هذه المقالات مبتدع بها فى دين الله ؟ وما الذى يجب عليه إذا

تحدث بهذا بين الناس ؟ وهل إذا أنكر هذا عليه منكر هل يسمى آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر أم لا ؟ أفتونا مأجورين ، وبينوا لنا بياناً شافياً .

فأجاب :

الحمد لله رب العالمين . أما ما ذكر من توصية أمير المؤمنين « على بن أبى طالب » ـ رضى الله عنه ـ إذا مات أركب فوق دابته وتسيب ، ويدفن حيث تبرك ، وأنه فعل ذلك به ؛ فهذا كذب مختلق باتفاق أهل العلم . لم يوص على بشىء من ذلك ، ولا فعل به شىء من ذلك ، ولم يذكر هذا أحد من المعروفين بالعلم والعدل ، وإنما يقول ذلك من ينقل عن بعض الكذابين .

ولا يحل أن يفعل هذا بأحد من موتى المسلمين ، ولا يحل لأحد أن يوصى بذلك ، بل هذا مثلة بالميت ، ولا فائدة فى هذا الفعل ؛ فإنه إن كان المقصود تعمية قبره فلا بد إذا بركت الناقة من أن يحفر له قبر ويدفن فيه ، وحينئذ يمكن أن يحفر له قبر ويدفن به بدون هذه المثلة القبيحة ، وهو أن يترك ميتاً على ظهر دابة تسير فى البرية .

وقد تنازع العلماء فى « موضع قبره » . والمعروف عند أهل العلم أنه دفن بقصر الإمارة بالكوفة ؛ وأنه أخفى قبره لئلا ينبشه « الخوارج » الذين كانوا يكفرونه ويستحلون قتله ؛ فإن الذى قتله واحد من الخوارج ؛ وهو عبدالرحمن

ابن ملجم المرادى وكان قد تعاهد هو وآخران على قتل على وقتل معاوية وقتل عمرو بن العاص ؛ فإنهم يكفرون هؤلاء كلهم، وكل من لا يوافقهم على أهوائهم .

وقد تواترت النصوص عن النبي صلى الله عليه وسلم بذمهم ، خرج مسلم فى صحيحه حديثهم من عشرة أوجه ، وخرجه البخارى من عدة أوجه ، وخرجه أصحاب السنن والمسانيد من أكثر من ذلك . قال صلى الله عليه وسلم فيهم : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقراءته مع قراءتهم ؛ يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد — وفى رواية — أينما لقيتموهم فاقتلوهم ، فإن فى قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة ، يقتلون أهل الإسلام » .

وهؤلاء اتفق الصحابة - رضى الله عنهم - على قتالهم ، لكن الذى باشر قتالهم وأمر به على - رضى الله عنه - كما فى الصحيحين عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « تمرق مارقة على حين فرقة من الناس تقتلهم أولى الطائفتين بالحق » فقتلهم على - رضى الله عنه - بالنهروان ، وكانوا قد اجتمعوا فى مكان يقال له : « حروراء » ولهذا يقال لهم الحرورية .

وأرسل إليهم ابن عباس فناظرهم حتى رجع منهم نحو نصفهم ، ثم إن الباقين قتلوا « عبد الله بن خباب » ، وأغاروا على سرح المسلمين ، فأمر

عليٌّ الناس بالخروج إلى قتالهم ، وروى لهم أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتالهم وذكر العلامة التى فيهم : أن فيهم رجلا مخدج اليدين ، ناقص اليد على ثديه مثل البضعة من اللحم تدردر . ولما قتلوا وجد فيهم هذا المنعوت .

فلما اتفق الخوارج - الثلاثة - على قتل أمراء المسلمين الثلاثة : قتل عبد الرحمن بن ملجم « علياً » رضى الله عنه يوم الجمعة سابع عشر شهر رمضان عام أربعين ، اختبأ له ، فحين خرج لصلاة الفجر ضربه ؛ وكانت السنة أن الخلفاء ونوابهم الأمراء الذين هم ملوك المسلمين هم الذين يصلون بالمسلمين الصلوات الخمس ، والجمع والعيدين ، والاستسقاء والكسوف ، ونحو ذلك كالجنائز : فأمير الحرب هو أمير الصلاة الذى هو إمامها .

وأما الذى أراد قتل «معاوية» فقالوا : إنه جرحه ، فقال الطبيب : إنه يمكن علاجك لكن لا يبقى لك نسل ؛ ويقال : إنه من حينئذ اتخذ معاوية المقصورة فى المسجد، واقتدى به الأمراء ، ليصلوا فيها هم وحاشيتهم ، خوفاً من وثوب بعض الناس على أمير المؤمنين وقتله ، وإن كان قد فعل فيها مع ذلك مالا يسوغ وكره من كره الصلاة فى نحو هذه المقاصير .

وأما الذى أراد قتل « عمرو بن العاص » فإن عمراً كان قد استخلف ذلك اليوم رجلا - اسمه خارجة - فظن الخارجى أنه عمرو فقتله ، فلما تبين له قال : أردت عمراً وأراد الله خارجة ، فصارت مثلا .

فقيل إنهم كتموا قبر « على » وقبر « معاوية » وقبر « عمرو » خوفاً عليهم من الخوارج ، ولهذا دفنوا معاوية داخل الحائط القبلى من المسجد الجامع فى قصر الإمارة ، الذى كان يقال له الخضراء ، وهو الذى تسميه العامة قبر « هود » : وهود باتفاق العلماء لم يجئ إلى دمشق ، بل قبره ببلاد اليمن حيث بعث ؛ وقيل بمكة حيث هاجر ؛ ولم يقل أحد : إنه بدمشق .

وأما « معاوية » الذى هو خارج « باب الصغير » فإنه معاوية بن يزيد ، الذى تولى نحو أربعين يوماً وكان فيه زهد ودين . فعلىٌّ دفن هناك وعنى قبره فلذلك لم يظهر قبره .

(وأما المشهد الذى بالنجف) فأهل المعرفة متفقون على أنه ليس بقبر على بل قيل إنه قبر المغيرة بن شعبة ، ولم يكن أحد يذكر أن هذا قبر على ، ولا يقصده أحد أكثر من ثلاثمائة سنة ؛ مع كثرة المسلمين : من أهل البيت ، والشيعة وغيرهم ، وحكمهم بالكوفة .

وإنما اتخذوا ذلك مشهداً فى ملك بنى بويه — الأعاجم — بعد موت على بأكثر من ثلاثمائة سنة ، ورووا حكاية فيها : أن الرشيد كان يأتى إلى تلك ، وأشياء لا تقوم بها حجة .

وأما السؤال عن سبي أهل البيت وإركابهم الإبل حتى نبت لها سنامان وهى البخاتى ، ليستتروا بذلك ، فهذا من أقبح الكذب وأبينه ؛ وهو مما افتراه الزنادقة

والمنافقون ، الذين مقصودهم الطعن فى الإسلام ، وأهله : من أهل البيت ، وغيرهم ، فإن من سمع مثل هذا وشهرته وما فيه من الكذب قد يظن أو يقول : إن المنقول إلينا من معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء هو من هذا الجنس ، ثم إذا تبين أن الأمة سبت أهل بيت نبيها : كان فيها من الطعن فى خير أمة أخرجت للناس ما لا يعلمه إلا الله ؛ إذ كل عاقل يعلم أن الإبل البخاتى كانت مخلوقة موجودة قبل أن يبعث الله النبي صلى الله عليه وسلم ، وقبل وجود أهل البيت ، كوجود غيرها من الإبل والغنم ، والبقر والخيل والبغال والمعز .

وإنما هذا الكذب نظير كذبهم بأن علياً ـ رضى الله عنه ـ نصب يده بخيبر فوطئته البغلة فقال لها قطع الله نسلك فإن كل عاقل يعلم أن البغلة لم يكن لها نسل قط . هذا مع أنهم لم يكن معهم بخيبر بغلة ، بل لم يكن للمسلمين بغال ، وأول بغلة صارت لهم التى أهداها المقوقس ـ صاحب مصر ـ للنبى صلى الله عليه وسلم حتى مات وهى عنده .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « صنفان من أهل النار من أمتى لم أرهما بعد : نساء كاسيات مائلات مميلات على رؤوسهن مثل أسنمة البخت ، لا يدخلن الجنة ، ولا يجدن ريحها . ورجال معهم سياط مثل أذناب البقر يضربون بها عباد الله » .

فالنبى صلى الله عليه وسلم شبه أصحاب العصائب الكبار التى ستكون بعد موته بأسنمة البخاتى ، فلولا أنهم كانوا يعرفونها لم يفهموا ، وهذه العصائب قد

ظهرت بعده بمدة طويلة فى هذا الزمان ونحوه ، ثم إن البخاتى لا يستتر راكبها إذا كان عارياً ، ولو شاء الله أن يستتر من عرى - بغير حق - لستره بما يصلح له ، كما ستر إبراهيم الخليل لما جرد وألقى فى المنجنيق .

ومما يبين ظهور الكذب فى هذا أن المسلمين ما زالوا يسبون الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ، ومع هذا فما علم أنهم قط كانوا يرحلون النساء مجردات بادية أبدانهن ، بل غاية ما يظهر من المرأة المسبية وجهها ، أو يداها ، أو قدمها .

ولم يعلم فى الإسلام أن أهل البيت سبي أحداً منهم أحد من المسلمين فى وقت من الأوقات ؛ مع العلم بأنهم من أهل البيت ، اللهم إلا أن يقع فى أثناء ما تسبيه المسلمون من لا يعلم أنه من أهل البيت ، كامرأة سباها العدو ثم استنقذها المسلمون ، وإذا تبين أنها كانت حرة الأصل أرسلوها ، وإن كان فى ضمن ذلك من لا يعرف من يخفى نسبها ويستحل منها ما حرم الله من هو زنديق منافق فالله أعلم بحقيقة ذلك ، لكن لم يكن شيء من ذلك علانية فى الإسلام قط .

وهذا مما يقوله هؤلاء الجهال أن الحجاج بن يوسف قتل الأشراف وأراد قطع دابرهم ، وهذا من الجهل بأحوال الناس ؛ فإن الحجاج مع كونه مبيراً سفاكا للدماء قتل خلقاً كثيراً لم يقتل من أشراف بنى هاشم أحداً قط ، بل سلطانه عبد الملك بن مروان نهاه عن التعرض لبنى هاشم وهم الأشراف ، وذكر أنه أتى إلى الحرب لما تعرضوا لهم ، يعنى لما قتل الحسين .

ولا يعلم فى خلافة عبد الملك والحجاج نائبه على العراق أنه قتل أحداً من بنى هاشم .

والذى يذكر لنا السبي أكثر ما يذكر مقتل الحسين وحمل أهله إلى يزيد، لكنهم جهال بحقيقة ما جرى ، حتى يظن الظان منهم أن أهله حملوا إلى مصر ، وأنهم قتلوا بمصر ، وأنهم كانوا خلقاً كثيراً ، حتى إن منهم من إذا رأى موتى عليهم آثار القتل قال : هؤلاء من السبي الذين قتلوا ؛ وهذا كله جهل وكذب . والحسين ـ رضى الله عنه ؛ ولعن من قتله ، ورضى بقتله ـ قتل يوم عاشوراء عام إحدى وستين .

وكان الذى حض على قتله الشمر بن ذى الجوشن ، صار يكتب فى ذلك إلى نائب السلطان على العراق عبيد الله بن زياد ؛ وعبيد الله هذا أمر — بمقاتلة الحسين — نائبه عمر بن سعد بن أبى وقاص بعد أن طلب الحسين منهم ما طلبه آحاد المسلمين لم يجئ معه مقاتلة ؛ فطلب منهم أن يدعوه إلى أن يرجع إلى المدينة ، أو يرسلوه إلى يزيد بن عمه ، أو يذهب إلى الثغر يقاتل الكفار ، فامتنعوا إلا أن يستأسر لهم أو يقاتلوه ، فقاتلوه حتى قتلوه وطائفة من أهل بيته وغيرهم .

ثم حملوا ثقله وأهله إلى يزيد بن معاوية إلى دمشق ، ولم يكن يزيد أمرهم بقتله ، ولا ظهر منه سرور بذلك ورضى به ، بل قال كلاما فيه ذمٌ لهم ؛ حيث نقل عنه أنه قال : لقد كنت أرضى من طاعة أهل العراق بدون قتل الحسين ، وقال :

لعن الله ابن مرجانة - يعنى عبيد الله بن زياد - والله لو كان بينه وبين الحسين رحم لما قتله - يريد بذلك الطعن فى استلحاقه حيث كان أبوه زياد استلحق حتى كان ينتسب إلى أبى سفيان صخر بن حرب - وبنو أمية وبنو هاشم كلاهما بنو عبد مناف .

وروى أنه لما قدم على يزيد ثقل الحسين وأهله ظهر فى داره البكاء والصراخ لذلك ، وأنه أكرم أهله ، وأنزلهم منزلا حسناً ، وخير ابنه علياً بين أن يقيم عنده وبين أن يذهب إلى المدينة ، فاختار المدينة . والمكان الذى يقال له سجن على بن الحسين بجامع دمشق باطل لا أصل له .

لكنه مع هذا لم يقم حد الله على من قتل الحسين رضى الله عنه، ولا انتصر له ، بل قتل أعوانه لإقامة ملكه ، وقد نقل عنه أنه تمثل فى قتل الحسين بأبيات تقتضى من قائلها الكفر الصريح ، كقوله :

لما بدت تلك الحمول وأشرفت تلك الرؤوس إلى ربى جيرون
نعق الغراب فقلت نح أولا تنح فلقد قضيت من النبي ديونى !!

وهذا الشعر كفر .

ولا ريب أن « يزيد » تفاوت الناس فيه ، فطائفة تجعله كافراً ؛ بل تجعله هو وأباه كافرين؛ بل يكفرون مع ذلك أبا بكر وعمر، ويكفرون عثمان ، وجمهور المهاجرين والأنصار ، وهؤلاء الرافضة من أجهل خلق الله وأضلهم ، وأعظمهم

كذبا على الله عز وجل ورسوله والصحابة والقرابة وغيرهم ؛ فكذبهم على يزيد مثل كذبهم على أبى بكر وعمر وعثمان ؛ بل كذبهم على يزيد أهون بكثير .

وطائفة تجعله من أئمة الهدى ، وخلفاء العدل ، وصالح المؤمنين ، وقد يجعله بعضهم من الصحابة ، وبعضهم يجعله نبياً . وهذا أيضاً من أبين الجهل والضلال ؛ وأقبح الكذب والمحال ، بل كان ملكا من ملوك المسلمين له حسنات وسيئات ، والقول فيه كالقول فى أمثاله من الملوك . وقد بسطنا القول فى هذا فى غير هذا الموضع .

وأما الحسين ـ رضى الله عنه ـ فقتل بكربلاء قريب من الفرات ، ودفن جسده حيث قتل ، وحمل رأسه إلى قدام عبيد الله بن زياد بالكوفة ، هذا الذى رواه البخارى فى صحيحه وغيره من الأئمة .

وأما حمله إلى الشام إلى يزيد : فقد روى ذلك من وجوه منقطعة لم يثبت شيء منها ، بل فى الروايات ما يدل على أنها من الكذب المختلق ، فإنه يذكر فيها أن «يزيد» جعل ينكت بالقضيب على ثناياه ؛ وأن بعض الصحابة الذين حضروه ـ كأنس بن مالك ، وأبى برزة ـ أنكر ذلك ، وهذا تلبيس . فإن الذى جعل ينكت بالقضيب إنما كان عبيد الله بن زياد ؛ هكذا فى الصحيح والمساند . وإنما جعلوا مكان عبيد الله بن زياد « يزيد » وعبيد الله لا ريب أنه أمر بقتله ، وحمل الرأس إلى بين يديه . ثم إن ابن زياد قتل بعد ذلك لأجل ذلك ،

ومما يوضح ذلك أن الصحابة المذكورين كأنس وأبى برزة لم يكونوا بالشام ، وإنما كانوا بالعراق حينئذ ، وإنما الكذابون جهال بما يستدل به على كذبهم .

وأما حمله إلى مصر فباطل باتفاق الناس ، وقد اتفق العلماء كلهم على أن هذا المشهد الذى بقاهرة مصر الذى يقال له « مشهد الحسين » باطل ليس فيه رأس الحسين ولا شىء منه ، وإنما أحدث فى أواخر دولة « بنى عبيد الله ابن القداح » الذين كانوا ملوكا بالديار المصرية مائتى عام ، إلى أن انقرضت دولتهم فى أيام « نور الدين محمود » وكانوا يقولون : إنهم من أولاد فاطمة ، ويدعون الشرف . وأهل العلم بالنسب يقولون ليس لهم نسب صحيح ، ويقال : إن جدهم كان ربيب الشريف الحسينى فادعوا الشرف لذلك .

فأما مذاهبهم وعقائدهم فكانت منكرة باتفاق أهل العلم بدين الإسلام وكانوا يظهرون التشيع ، وكان كثير من كبرائهم وأتباعهم يبطنون مذهب القرامطة الباطنية ، وهو من أخبث مذاهب أهل الأرض ، أفسد من اليهود والنصارى ، ولهذا كان عامة من انضم إليهم أهل الزندقة والنفاق والبدع : المتفلسفة ، والمباحية ، والرافضة ، وأشباه هؤلاء ، ممن لا يستريب أهل العلم والإيمان فى أنه ليس من أهل العلم والإيمان .

فأحدث هذا « المشهد » فى المائة الخامسة ، نقل من عسقلان . وعقيب ذلك بقليل انقرضت دولة الذين ابتدعوه بموت العاضد آخر ملوكهم .

والذى رجحه أهل العلم فى موضع رأس الحسين بن على - رضى الله عنهما - هو ما ذكره الزبير بن بكار فى كتاب « أنساب قريش » والزبير بن بكار هو من أعلم الناس وأوثقهم فى مثل هذا ، ذكر أن الرأس حمل إلى المدينة النبوية ودفن هناك ، وهذا مناسب . فإن هناك قبر أخيه الحسن ، وعم أبيه العباس ، وابنه على وأمثالهم .

قال أبو الخطاب بن دحية – الذى كان يقال له : « ذو النسبين بين دحية والحسين » فى كتاب « العلم المشهور فى فضل الأيام والشهور » – لما ذكر ما ذكره الزبير بن بكار عن محمد بن الحسن : أنه قدم برأس الحسين وبنو أمية مجتمعون عند عمرو بن سعيد ، فسمعوا الصياح فقالوا : ما هذا ؟ فقيل : نساء بنى هاشم يبكين حين رأين رأس الحسين بن على ، قال : وأتى برأس الحسين ابن على ، فدخل به على عمرو فقال : والله لوددت أن أمير المؤمنين لم يبعث به إلى ، قال ابن دحية : فهذا الأثر يدل أن الرأس حمل إلى المدينة ولم يصح فيه سواه ، والزبير أعلم أهل النسب وأفضل العلماء بهذا السبب ، قال : وما ذكر من أنه فى عسقلان فى مشهد هناك فشىء باطل ، لا يقبله من معه أدنى مسكة من العقل والإدراك ، فإن بنى أمية – مع ما أظهروه من القتل والعداوة والأحقاد – لا يتصور أن يبنوا على الرأس مشهداً للزيارة .

هذا ، وأما ما افتعله « بنو عبيد » فى أيام إدبارهم ، وحلول بوارهم وتعجيل دمارهم ، فى أيام الملقب « بالقاسم عيسى بن الظافر » وهو الذى عقد له بالخلافة

وهو ابن خمس سنين وأيام ، لأنه ولد يوم الجمعة الحادى من المحرم سنة أربع وأربعين وخمسمائة ؛ وبويع له صبيحة قتل أبيه الظافر يوم الخميس سلخ المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة وله من العمر ما قدمنا ، فلا تجوز عقوده ولا عهوده ، وتوفى وله من العمر إحدى عشرة سنة وستة أشهر وأيام لأنه توفى لليلة الجمعة لثلاث عشرة ليـلة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة فافتعل فى أيامه بنـاء المشهد المحدث بالقاهرة ، ودخول الرأس مع المشهدىّ العسقلانى أمام الناس ، ليتوطن فى قلوب العامة ما أورد من الأمور الظاهرة ، وذلك شىء افتعل قصدا ، أو نصب غرضاً ، وقضوا ما فى نفوسهم لاستجلاب العامة عرضاً ، والذى بناه « طلائع بن رزيك » الرافضى . وقد ذكره جميع من ألف فى مقتل الحسين أن الرأس المكرم ما غرب قط ، وهذا الذى ذكره أبو الخطاب بن دحية فى أمر هذا المشهد وأنه مكذوب مفترى هو أمر متفق عليه عند أهل العلم .

والـكلام فى هذا الباب وأشباهه متسع ، فإنه بسبب مقتل عثمان ومقتل الحسين وأمثالهما جرت فتن كثيرة ؛ وأكاذيب وأهواء ؛ وقع فيها طوائف من المتقدمين والمتأخرين ، وكذب على أمير المؤمنين عثمان وأمير المؤمنين على بن أبى طالب أنواع من الأكاذيب ، يكذب بعضهـا شيعتهم ونحوهم ، ويكذب بعضها مبغضوهم ، لا سيما بعد مقتل عثمان ، فإنه عظم الـكذب والأهواء .

وقيل فى أمير المؤمنين على بن أبى طالب مقالات من الجانبين ؛ على برىء منهـا . وصارت البدع والأهواء والـكذب تزداد ، حتى حدث أمور يطول شرحها ، مثل ما ابتدعه كثير من المتأخرين يوم عاشوراء ، فقوم يجعلونه مأتماً يظهرون فيه النياحة والجزع ، وتعذيب النفوس وظلم البهائم ، وسب من مات من أولياء الله والـكذب على أهل البيت ، وغير ذلك من المنـكرات المنهى عنهـا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم واتفاق المسلمين .

والحسين رضى الله عنه أكرمه الله تعالى بالشهادة فى هذا اليوم ، وأهان بذلك من قتله ، أو أعان على قتله ، أو رضى بقتله ، وله أسوة حسنة بمن سبقه من الشهداء ، فإنه وأخوه سيدا شباب أهل الجنة ، وكانا قد تربيا فى عز الإسلام ، لم ينالا من الهجرة والجهاد والصبر على الأذى فى الله ما ناله أهل بيته ، فأكرمهما الله تعالى بالشهادة تـكميلا لـكرامتهما ، ورفعا لدرجاتهما ، وقتله مصيبة عظيمة ، والله سبحانه قد شرع الاسترجاع عند المصيبة بقوله تعالى : (وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ) .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من مسلم يصاب بمصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرنى فى مصيبتى ، وأخْلف لى خيراً منها ، إلا آجره الله فى مصيبته ، وأخلف له خيراً منها » . ومن أحسن ما يذكر هنا : أنه قد روى الإمام أحمد وابن ماجه عن فاطمة بنت

الحسين عن أبيها الحسين — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مسلم يصاب بمصيبة فيذكر مصيبته وإن قدمت فيحدث عندها استرجاعا كتب الله له مثلها يوم أصيب » ، هذا حديث رواه عن الحسين ابنته فاطمة التى شهدت مصرعه .

وقد علم أن المصيبة بالحسين تذكر مع تقادم العهد ، فكان فى محاسن الإسلام أن بلغ هو هذه السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أنه كلما ذكرت هذه المصيبة يسترجع لها ، فيكون للإنسان من الأجر مثل الأجر يوم أصيب بها المسلمون .

وأما من فعل مع تقادم العهد بها ما نهى عنه النبى صلى الله عليه وسلم عند حدثان العهد بالمصيبة فعقوبته أشد ، مثل لطم الخدود وشق الجيوب ، والدعاء بدعوى الجاهلية . فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية » . وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى — رضى الله عنه — قال : « أنا برىء مما برئ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم برئ من الحالقة ، والصالقة ، والشاقة » .

وفى صحيح مسلم عن أبى مالك الأشعرى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب

والطعن فى الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت. وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب». والآثار فى ذلك متعددة.

فكيف إذا انضم إلى ذلك ظلم المؤمنين، ولعنهم وسبهم، وإعانة أهل الشقاق والإلحاد على ما يقصدونه للدين من الفساد وغير ذلك، مما لا يحصيه إلا الله تعالى.

وقوم من المتسننة رووا ورويت لهم أحاديث موضوعة، بنوا عليها ما جعلوه شعاراً فى هذا اليوم، يعارضون به شعار ذلك القوم، فقابلوا باطلا بباطل، وردوا بدعة ببدعة، وإن كانت إحداهما أعظم فى الفساد وأعون لأهل الإلحاد، مثل الحديث الطويل الذى روى فيه: «من اغتسل يوم عاشوراء لم يمرض ذلك العام، ومن اكتحل يوم عاشوراء لم يرمد ذلك العام» وأمثال ذلك من «الخضاب يوم عاشوراء، والمصافحة فيه» ونحو ذلك، فإن هذا الحديث ونحوه كذب مختلق باتفاق من يعرف علم الحديث، وإن كان قد ذكره بعض أهل الحديث وقال: إنه صحيح وإسناده على شرط الصحيح، فهذا من الغلط الذى لا ريب فيه كما هو مبين فى غير هذا الموضع.

ولم يستحب أحد من أئمة المسلمين الاغتسال يوم عاشوراء، ولا الكحل فيه والخضاب، وأمثال ذلك ولا ذكره أحد من علماء المسلمين الذين يقتدى بهم

ويرجع اليهم فى معرفة ما أمر الله به ونهى عنه ، ولا فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا أبو بكر ، ولا عمر ، ولا عثمان ، ولا على .

ولا ذكر مثل هذا الحديث فى شيء من الدواوين التى صنفها علماء الحديث ، لا فى المسندات : كمسند أحمد ، وإسحاق ، وأحمد بن منيع الحميدى ، والدالانى ، وأبو يعلى الموصلى ، وأمثالها . ولا فى المصنفات على الأبواب : كالصحاح ؛ والسنن . ولا فى الكتب المصنفة الجامعة للمسند والآثار ، مثل موطأ مالك ، ووكيع ، وعبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وابن أبى شيبة ، وأمثالها .

ثم إن أهل الأهواء ظنت أن من يفعل هذا أنه يفعله على سبيل نصب العداوة لأهل البيت والاشتفاء منهم ، فعارضهم من تسنن ، وأجاب عن ذلك بإجابة بين فيها براءتهم من النصب واستحقاقهم لموالاة أهل البيت ، وأنهم أحق بذلك من غيرهم . وهذا حق . لكن دخلت عليهم الشبهة والغلط فى ظنهم أن هذه الأفعال حسنة مستحبة . والله أعلم بمن ابتدأ وضع ذلك وابتداعه ، هل كان قصده عداوة أهل البيت أو عداوة غيرهم ؟ فالهدىُ بغير هدى من الله - أو غير ذلك - ضلالة .

ونحن علينا أن نتبع ما أنزل إلينا من ربنا من الكتاب والحكمة ، ونلزم الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم ، من النبيين ، والصديقين ،

والشهداء ، والصالحين . ونعتصم بحبل الله جميعاً ولا نتفرق ؛ ونأمر بما أمر الله به وهو « المعروف » ، وننهى عما نهى عنه وهو « المنكر » ؛ وأن نتحرى الإخلاص لله فى أعمالنا ، فإن هذا هو دين « الإسلام » قال الله تعالى : (بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) وقال تعالى : (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا) .

وقال تعالى : (وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ) .

وقال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ — إلى قوله — يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) ، قال ابن عباس : تبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة .

وقال تعالى (إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ) ،

وقال تعالى : (وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ) .

وليس الكذب فى هذا « المشهد » وحده ؛ بل المشاهد المضافة إلى الأنبياء وغيرهم كذب ، مثل القبر الذى يقال له : « قبر نوح » قريب من بعلبك فى سفح جبل لبنان . ومثل القبر الذى فى قبلى مسجد جامع دمشق ، الذى يقال له : « قبر هود » فإنما هو قبر معاوية بن أبى سفيان ، ومثل القبر الذى فى شرقى دمشق الذى يقال له : « قبر أبى بن كعب » فإن أبيا لم يقدم دمشق باتفاق العلماء .

وكذلك ما يذكر فى دمشق من قبور « أزواج النبى » صلى الله عليه وسلم ، وإنما توفين بالمدينة النبوية .

وكذلك ما يذكر فى مصر من قبر «على بن الحسين» أو «جعفر الصادق» أو نحو ذلك ، هو كذب باتفاق أهل العلم . فإن على بن الحسين وجعفر الصادق إنما توفيا بالمدينة ، وقد قال عبد العزيز الكنانى : ـ الحديث المعروف ـ ليس فى قبور الأنبياء ما ثبت ، إلا قبر « نبينا » قال غيره : وقبر « الخليل » أيضاً .

وسبب اضطراب أهل العلم بأمر القبور أن ضبط ذلك ليس من الدين ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم قد نهى أن تتخذ القبور مساجد ، فلما لم يكن معرفة ذلك من الدين لم يجب ضبطه .

فأما العلم الذى بعث الله به نبيه صلى الله عليه وسلم فإنه مضبوط ومحروس، كما قال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) ، وفى الصحاح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم، ولا من خذلهم، حتى تقوم الساعة ».

وأصل هذا الكذب هو الضلال والابتداع والشرك ، فإن الضلال ظنوا أن شد الرحال إلى هذه المشاهد، والصلاة عندها، والدعاء والنذر لها، وتقبيلها واستلامها ، وغير ذلك ، من أعمال البر والدين ، حتى رأيت كتاباً كبيراً قد صنفه بعض أئمة الرافضة « محمد بن النعمان » الملقب بالشيخ المفيد، شيخ الملقب بالمرتضى وأبى جعفر الطوسى ، سماه « الحج إلى زيارة المشاهد » ذكر فيه من الآثار عن النبى صلى الله عليه وسلم وأهل بيته ، وزيارة هذه المشاهد والحج إليها، ما لم يذكر مثله فى الحج إلى بيت الله الحرام.

وعامة ما ذكره من أوضح الكذب وأبين البهتان، حتى أنى رأيت فى ذلك من الكذب والبهتان أكثر مما رأيته من الكذب فى كثير من كتب اليهود والنصارى ، وهذا إنما ابتدعه وافتراه فى الأصل قوم من المنافقين والزنادقة؛ ليصدوا به الناس عن سبيل الله. ويفسدوا عليهم دين الإسلام ، وابتدعوا لهم أصل الشرك المضاد لإخلاص الدين لله، كما ذكره ابن عباس وغيره من السلف فى قوله تعالى عن قوم نوح : (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا

وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا) قالوا هذه أسماء قوم صالحين كانوا فى قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم . وقد ذكر ذلك البخارى فى صحيحه ، وبسطه وبينه فى أول كتابه فى قصص الأنبياء وغيرها .

ولهذا صنف طائفة من الفلاسفة الصابئين المشركين فى تقرير هذا الشرك ما صنفوه ، واتفقوا هم والقرامطة الباطنية على المحادة لله ولرسوله ، حتى فتنوا أمما كثيرة وصدوهم عن دين الله .

وأقل ما صار شعاراً لهم تعطيل المساجد وتعظيم المشاهد ، فإنهم يأتون من تعظيم المشاهد وحجها والإشراك بها ما لم يأمر الله به ولا رسوله ولا أحد من أئمة الدين؛ بل نهى الله عنه ورسوله عباده المؤمنين .

وأما المساجد التى أمر الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه فيخربونها ، فتارة لا يصلون جمعة ولا جماعة بناء على ما أصلوه من شعب النفاق ، وهو أن الصلاة لا تصح إلا خلف معصوم ونحو ذلك من ضلالتهم .

وأول من ابتدع القول بالعصمة لعلى ، و بالنص عليه فى الخلافة : هو رأس هؤلاء المنافقين « عبدالله بن سبأ » الذى كان يهودياً ، فأظهر الإسلام وأراد فساد دين الإسلام ، كما أفسد بولص دين النصارى ، وقد أراد أمير المؤمنين على بن أبى طالب قتل هذا لما بلغه أنه يسب أبا بكر وعمر حتى هرب منه ،

كما أن علياً حرق الغالية الذين ادعوا فيه الإلهية ، وقال فى المفضلة : لا أوتى بأحد يفضلنى على أبى بكر وعمر إلا جلدته جلد المفترى .

فهؤلاء الضالون المفترون أتباع الزنادقة المنافقون يعطلون شعار الإسلام وقيام عموده ، وأعظمه سنن الهدى التى سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ بمثل هذا الإفك والبهتان ، فلا يصلون جمعة ولا جماعة .

ومن يعتقد هذا فقد يسوى بين المشاهد والمساجد ، حتى يجعل العبادة : كالصلاة ، والدعاء ، والقراءة ، والذكر ، وغير ذلك مشروعا عند المقابر كما هو مشروع فى المساجد ، وربما فضل بحاله أو بقاله : العبادة عنـــد القبور ، والمشاهد على العبادة فى بيوت الله التى هى المساجد ، حتى تجد أحدهم إذا أراد الاجتهاد فى الدعاء والتوبة ونحو ذلك قصد قبر من يعظمه ، كشيخه أو غير شيخه ، فيجتهد عنده فى الدعاء والتضرع ، والخشوع والرقة ، ما لا يفعله مثله فى المساجد ، ولا فى الأسحار ، ولا فى سجوده لله الواحد القهار .

وقد آل الأمر بكثير من جهالهم إلى أن صاروا يدعون الموتى ويستغيثون بهم ، كما تستغيث النصـارى بالمسيح وأمه ، فيطلبون من الأموات تفريج الكربات وتيسير الطلبات ، والنصر على الأعداء ورفع المصائب والبلاء ، وأمثال ذلك ، مما لا يقدر عليه إلا رب الأرض والسماء .

حتى أن أحدهم إذا أراد الحج ، لم يكن أكثر همه الفرض الذى فرضه

الله عليه وهو « حج بيت الله الحرام » ، وهو شعار الحنيفية ملة إبراهيم إمام أهل دين الله ، بل يقصد المدينة .

ولا يقصد ما رغب فيه النبي صلى الله عليه وسلم : من الصلاة فى مسجده حيث قال فى الحديث الصحيح : « صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه ، إلا المسجد الحرام » ، ولا يهتم بما أمر الله به من الصلاة والسلام على رسوله حيث كان ، ومن طاعة أمره ، واتباع سنته ، وتعزيره ، وتوقيره ، وهو أن يكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين ، بل أن يكون أحب إليه من نفسه ، بل يقصد من زيارة قبره أو قبر غيره ما لم يأمر الله به ورسوله ، ولا فعله أصحابه ولا استحسنه أئمة الدين .

وربما كان مقصوده بالحج من زيارة قبره أكثر من مقصوده بالحج ، وربما سوى بين القصدين ، وكل هذا ضلال عن الدين باتفاق المسلمين ، بل نفس السفر لزيارة قبر من القبور — قبر نبي أو غيره — منهى عنه عند جمهور العلماء ، حتى أنهم لا يجوزون قصد الصلاة فيه ، بناء على أنه سفر معصية ؛ لقوله الثابت فى الصحيحين :

« لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدى هذا » وهو أعلم الناس بمثل هذه المسألة .

وكل حديث يروى فى زيارة القبر فهو ضعيف ، بل موضوع ، بل قد

كره مالك وغيره من أئمة المدينة أن يقول القائل : زرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما المسنون السلام عليه إذا أتى قبره صلى الله عليه وسلم ، وكما كان الصحابة والتابعون يفعلون إذا أتوا قبره ؛ كما هو مذكور فى غير هذا الموضع .

ومن ذلك الطواف بغير الكعبة ، وقد اتفق المسلمون على أنه لا يشرع الطواف إلا بالبيت المعمور ، فلا يجوز الطواف بصخرة بيت المقدس ، ولا بحجرة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا بالقبة التى فى جبل عرفات ، ولا غير ذلك .

وكذلك اتفق المسلمون على أنه لا يشرع الاستلام ولا التقبيل إلا للركنين اليمانيين ؛ فالحجر الأسود يستلم ويقبل ، واليمانى يستلم . وقد قيل : إنه يقبل ، وهو ضعيف .

وأما غير ذلك فلا يشرع استلامه ولا تقبيله ؛ كجوانب البيت ، والركنين الشاميين ، ومقام إبراهيم ، والصخرة ، والحجرة النبوية ، وسائر قبور الأنبياء والصالحين .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « قاتل الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وفى رواية لمسلم : « لعن الله اليهود والنصارى ؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

وفى الصحيحين أيضاً عن عائشة وابن عباس قالا : لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصة له على وجهه : فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه ، فقال وهو كذلك : « لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما صنعوا .

وفى الصحيحين أيضاً عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرضه الذى لم يقم منه : « لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ولولا ذلك أبرز قبره ، غير أنه خشى أن يتخذ مسجداً .

وفى صحيح مسلم عن جندب بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته بخمس وهو يقول : « إنى أبرأ إلى الله أن يكون لى منكم خليل ، فإن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا ، ولو كنت متخذاً من أمتى خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ألا وإن من كان قبلكم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ! ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ! فإنى أنهاكم عن ذلك » .

وفى صحيح مسلم عن أبى مرثد الغنوى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها » .

وعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام » رواه أهل السنن ؛

كأبى داود ، والترمذى ، وابن ماجه ، وعلله بعضهم بأنه روى مرسلا ، وصححه الحافظ .

وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما اشتكى النبى صلى الله عليه وسلم ذكر له بعض نسائه أنها رأت كنيسة بأرض الحبشة يقال لها : « مارية » . وكانت أم سلمة وأم حبيبة أتيا أرض الحبشة ؛ فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها ، فرفع رأسه فقال : « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله » .

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ قال : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » . رواه أهل السنن : كأبى داود ، والنسائى ، والترمذى . وقال حديث حسن وفى بعض النسخ صحيح .

وفى موطأ مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد » ، وفى سنن أبى داود عنه أنه قال : « لا تتخذوا قبرى عيداً ، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر » .

وأما العبادات فى المساجد : كالصلاة والقراءة والدعاء . ونحو ذلك : فقد قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾

وقال تعالى : (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ) الآية.

وفى الترمذى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان ، فإن الله تعالى يقول :(إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ) الآية . وقال تعالى : (قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ) الآية . وقال تعالى : (وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا) وقال تعالى : (فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ) الآية . وقال تعالى : (وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ) .

وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « صلاة الرجل فى المسجد تفضل على صلاته فى بيته وسوقه بخمس وعشرين درجة ـ وفى لفظ ـ صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم بخمس وعشرين درجة » . وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً ، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ثم آمر رجلا فيصلى بالناس ، ثم أنطلق برجال معى ، معهم حزم من حطب ، إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار » .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجل أعمى فقال : يا رسول الله ! إنه ليس لى قائد يقودنى إلى المسجد فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرخص له فيصلى فى بيته فرخص

له ، فلما ولى دعاه ، فقال : « هل تسمع النداء بالصلاة ؟ قال : نعم . قال : فأجب » .

وفيه أيضاً عن أبى سعيد - رضى الله عنه - قال : من سره أن يلقى الله غداً مسلماً فليحافظ على هذه الصلوات حيث ينادى بهن فإن الله شرع لنبيكم سنن الهدى ، وإنهن من سنن الهدى ، ولو أنكم صليتم فى بيوتكم كما يصلى هذا المتخلف فى بيته لتركتم سنة نبيكم ، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم ، وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور ، ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد ، إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة ، ويرفعه بها درجة ، ويحط عنه بها خطيئة ، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين رجلين حتى يقام فى الصف .

وهذا باب واسع قد نبهنا بما كتبناه على سبيل الهدى فى هذا الأمر الفارق بين أهل التوحيد الحنفاء أهل ملة إبراهيم المتبعين لدين الله الذى بعث به رسله ، وأنزل به كتبه ، وبين من لبس الحق بالباطل ، وشاب الحنيفية بالإشراك .

قال تعالى : (وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ) ، وقال تعالى : (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ) .

وقال تعالى : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) ، وقال تعالى : (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ) الآية .

وقال تعال : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) .

والله سبحانه وتعالى أعلم ؟

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

فصـــــــل

وأما « الصحابة » و « التابعون » : فقال غير واحد من الأئمة : إن كل من صحب النبي صلى الله عليه وسلم أفضل ممن لم يصحبه مطلقاً ؛ وعينوا ذلك في مثل معاوية ، وعمر بن عبد العزيز ؛ مع أنهم معترفون بأن سيرة عمر بن عبد العزيز أعدل من سيرة معاوية ، قالوا : لـكن ما حصل لهم بالصحبة من الدرجة أمر لا يساويه ما يحصل لغيرهم بعلمه .

واحتجوا بما في الصحيحين أنه قال : « لا تسبوا أصحابي ! فوا الذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا لما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » ، قالوا : فإذا كان جبل أحد ذهبا لا يبلغ نصف مد أحدهم كان في هذا من التفاضل ما يبين أنه لم يبلغ أحد مثـــل منازلهم التي أدركوها بصحبة النبي صلى الله عليه وسلم .

وفي المسألة بسط وبيان لا يحتمله هذا المـكان .

سئل رحمه الله تعالى :

عن رجلين تنازعا فى ساب « أبى بكر » ؛ أحدهما يقول : يتوب الله عليه ، وقال الآخر : لا يتوب الله عليه ؟ .

فأجاب : —

الصواب الذى عليه أئمة المسلمين أن كل من تاب تاب الله عليه ، كما قال الله تعالى : (قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ) ، فقد ذكر فى هذه الآية أنه يغفر للتائب الذنوب جميعاً ؛ ولهـــذا أطلق وعمم . وقال فى الآية الأخرى : (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ) ، فهذا فى غير التائب ، ولهذا قيد وخصص .

وليس سب بعض الصحابة بأعظم من سب الأنبياء ؛ أو سب الله تعالى ، و « اليهود والنصارى » الذين يسبون نبينا سراً بينهم إذا تابوا وأسلموا قبل ذلك منهم باتفاق المسلمين ، والحديث الذى يروى : « سب صحابتى ذنب لا يغفر » : كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والشرك الذى لا يغفره الله ، يغفره

لمن تاب باتفاق المسلمين ، وما يقال : إن فى ذلك حقاً لآدمى يجاب عنه من « وجهين » :

(أحدهما) : أن الله قد أمر بتوبة « السارق » و « الملقب » ونحوهما من الذنوب التى تعلق بها حقوق العباد ، كقوله : (وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) ، وقال : (وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ) ، ومن توبة مثل هذا أن يعوض المظلوم من الإحسان إليه بقدر إساءته إليه .

(الوجه الثانى) : أن هؤلاء متأولون ؛ فإذا تاب الرافضى من ذلك ، واعتقد فضل الصحابة ، وأحبهم ، ودعا لهم : فقد بدله الله السيئة بالحسنة ، كغيره من المذنبين .

وسئل :-

عن « جماعة » اجتمعوا على أمور متنوعة فى الفساد ، ومنهم من إذا قرئ عليه أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم التى يكون راويها « عبد الله بن مسعود » ؛ أو قيل له : هذا مذهب عبد الله بن مسعود شرع فى تنقيصه ، وأخذ يقدح فيه ، ويجعله ضعيف الرواية ، ويزعم أنه كان بين الصحابة منقوصا ، حتى إن بعضهم لم يثبت فى المصاحف قراءته ، وإنه كان يحذف من القرآن المعوذتين ؟

فأجاب رحمه الله :

« ابن مسعود » — رضى الله عنه — من أجلاء الصحابة ، وأكابرهم ، حتى كان يقول فيه عمر بن الخطاب : كنيف ملئ علماً. وقال أبو موسى : ما كنا نعد « عبد الله بن مسعود » إلا من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ من كثرة ما نرى دخوله وخروجه . وقال له صلى الله عليه وسلم « إذنك علىّ أن ترفع الحجاب ، وأن تسمع بسوادى حتى أنهاك » وفى السنن : « اقتدوا بالذين من بعدى : أبى بكر وعمر ، وتمسكوا بهدى ابن أم عبد » .

وفى الصحيح من سره أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأ على قراءة ابن أم عبد ، ولما فتح العراق بعثه عليهم ليعلمهم الكتاب والسنة ، فهو أعلم الصحابة

الذين بعثهم إلى العراق ، وقال فيه أبو موسى : لا تسألونى عن شيء ما دام هذا الحبر فيكم . وكان ابن مسعود يقول : لو أعلم أن أحداً أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل لأتيته .

وهو أحد الثلاثة الذين سماهم معاذ بن جبل عند موته لما بكى مالك بن يخامر السكسكى فقال له معاذ بن جبل : مايبكيك ؟ فقال : والله ما أبكى على رحم بينى وبينك ، ولا على دنيا أصيبها منك ولكن أبكى على العلم والإيمان الذين كنت أتعلمهما منك ، فقال : إن العلم والإيمان مكانهما من ابتغاهما وجدهما ، اطلب العلم عند « أربعة » فان أعياك هؤلاء ، فسائر أهل الأرض أعجز ، فسمى له « ابن مسعود » ، و « أبى بن كعب » ، و « عبد الله بن سلام » وأظن الرابع « أبا الدرداء » .

وسئل على عن علماء الناس ؟ فقال : واحد بالعراق ابن مسعود . وابن مسعود فى العلم من طبقة عمر ، وعلى ، وأبى ، ومعاذ . وهو من الطبقة الأولى من علماء الصحابة ، فمن قدح فيه أو قال : هو ضعيف الرواية فهو من جنس الرافضة الذين يقدحون فى أبى بكر وعمر وعثمان ، وذلك يدل على إفراط جهله بالصحابة ، أو زندقته ونفاقه .

سئل رحمه الله تعالى :-

عن رجل يناظر مع آخر فى « مسألة المصراة » ، وردها إذا أراد المشترى فاستدل من ادعى جواز الرد بحديث أبى هريرة المتفق عليه ؛ فعارضه الخصم بأن قال : « أبو هريرة » لم يكن من فقهاء الصحابة . وقد أنكر عليه عمر بن الخطاب كثرة الرواية، ونهاه عن الحديث، وقال : إن عدت تحدث فعلت وفعلت ، وكذا أنكر عليه ابن عباس ، وعائشة أشياء . فهل ما ذكره الخصم صحيح أم لا ؟ وما يجب على من تكلم فى أبى [هريرة] بهذا الكلام ؟ .

فأجاب :

الحمد لله . هذا الراد مخطئ من وجوه :—

(أحدها) : قوله إنه لم يكن من فقهاء الصحابة ؛ فإن عمر بن الخطاب ولى أبا هريرة على البحرين ، وهم خيار المسلمين ، الذين هاجر وفدهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهم وفد « عبد القيس » .

وكان أبو هريرة - أميرهم - هو الذى يفتيهم بدقيق الفقه ؛ مثل « مسألة

المطلقة » دون الثلاث ، إذا تزوجت زوجا أصابها ، هل تعود إلى الأول على الثلاث ؟ - كما هو قول ابن عباس وابن عمر ، وهو مذهب أبى حنيفة ورواية عن عمر ، بناء على أن إصابة الزوج تهدم ما دون الثلاث كما هدمت الثلاث - أو تعود على ما بقى ؟ كما هو قول عمر وغـيره من أكابر الصحابة وهو مذهب مالك والشافعى ، وأحمد فى المشهور عنه ؛ بناءاً على أن إصابة الزوج الثانى إنما هى غاية التحريم الثابت بالطلاق الثلاث ، فهو الذى يرتفع بها والمطلقة دون الثلاث لم تحرم ، فلا ترفع الإصابة منها شيئاً ؛ فأفتى أبو هريرة بهذا القول . ثم سأل عمر فأقره على ذلك وقال : لو أفتيت بغيره لأوجعتك ضرباً .

وكذلك أفتى أبو هريرة فى دقائق « مسائل الفقه » مع فقهاء الصحابة ؛ كابن عباس وغيره من أشهر الأمور . وأقواله المنقولة فى فتاويه تدل على ذلك. وإذا كان عمر وعلى أفقه من عمران بن حصين . وأبى موسى الأشعرى : لم يخرجا بذلك من الفقه، وكذلك إذا كان معاذ وابن مسعود ونحوهما أفقه من أبى هريرة وعبد الله بن عمر ونحوهما : لم يخرجا بذلك من الفقه .

(الثانى) أن يقال لهذا المعترض : جميع علمـاء الأمة عملت بحديث أبى هريرة فيما يخالف القياس والظاهر ، كما عملوا جميعهم بحديثه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها» . وعمل أبو حنيفة

مع الشافعي وأحمد وغيرهما بحديثه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « من أكل أو شرب ناسياً فليتم صومه فإنما أطعمه الله وسقاه» مع أن القياس عند أبي حنيفة أنه يفطر ، فترك القياس لحديث أبي هريرة ، ونظائر ذلك تطول .

ومالك مع الشافعي وأحمد : عملوا بحديث أبي هريرة في غسل الإناء من ولوغ الكلب سبعاً ، مع أن القياس عند مالك أنه لا يغسل ؛ لأنه طاهر عنده ، بل الأئمة يتركون القياس لما هو دون حديث أبي هريرة ، كما ترك أبو حنيفة القياس في مسألة « القهقهة » بحديث مرسل لا يعرف من رواه من الصحابة وحديث أبي هريرة أثبت منه باتفاق الأمة .

(الثالث) أن يقال : المحدث إذا حفظ اللفظ الذي سمعه لم يضره أن لا يكون فقيها ، كالملقنين بحروف القرآن ، وألفاظ التشهد والأذان ونحو ذلك . وقد قال صلى الله عليه وسلم : «نضر الله امرءاً سمع حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » وهذا بين في أنه يؤخذ حديثه الذي فيه الفقه من حامله ، الذي ليس بفقيه ؛ ويأخذ عمن هو دونه في الفقه ؛ وإنما يحتاج في الرواية إلى الفقه إذا كان قد روى بالمعنى ، نخاف أن غير الفقيه يغير المعنى وهو لا يدري .

و « أبو هريرة » كان من أحفظ الأمة ، وقد دعا له النبي صلى الله عليه وسلم « بالحفظ » قال : فلم أنس شيئاً سمعته بعد ؛ ولهذا روى حديث المصراة وغيره بلفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(الرابع) : أن الصحابة كلهم كانوا يأخذون بحديث أبى هريرة ، كعمر وابن عمر وابن عباس وعائشة ، ومن تأمل كتب الحديث عرف ذلك .

(الخامس) : أن أحداً من الصحابة لم يطعن فى شىء رواه أبو هريرة ، بحيث قال : إنه أخطأ فى هذا الحديث ؛ لا عمر ولا غيره ؛ بل كان لأبى هريرة مجلس إلى حجرة عائشة ، فيحدث ويقول : يا صاحبة الحجرة ! هل تنكرين مما أقول شيئا ؟ فلما قضت عائشة صلاتها لم تنكر مما رواه ، لكن قالت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يسرد الحديث سردكم ، ولكن كان يحدث حديثاً لو عده العاد لحفظه . فأنكرت صفة الأداء لا ما أداه .

وكذلك ابن عمر قيل له : هل تنكر مما يحدث أبو هريرة شيئاً ؟ فقال : لا ولكن أخبر وجبنا . فقال أبو هريرة ما ذنبي إن كنت حفظت ونسوا . وكانوا يستعظمون كثرة روايته حتى يقول بعضهم أكثر أبو هريرة ؛ حتى قال أبو هريرة : الناس يقولون أكثر أبو هريرة ، والله الموعد ؛ أما إخوانى من المهاجرين : فكان يشغلهم الصفق بالأسواق . وأما إخوانى من الأنصار : فكان يشغلهم عمل أموالهم ، وكنت امرءاً مسكينا ألزم رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت أشهد إذا غابوا ، وأحفظ إذا نسوا ؛ ولقد حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً . ثم قال : « أيكم يبسط ثوبه ، فبسطت ثوبى . فدعا لى. فلم أنس بعد شيئا سمعته منه صلى الله عليه وسلم .

وروى عنه أنه كان يجزئ الليل « ثلاثة أجزاء » : ثلثاً يصلى ، وثلثاً يكرر على الحديث ، وثلثاً ينام .

فقد بين أن سبب حفظه ملازمة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقطع العلائق ودعاؤه له .

وكان عمر بن الخطاب يستدعى الحديث من أبى هريرة ، ويسأله عنه ولم ينهه عن رواية ما يحتاج إليه من العلم الذى سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا توعده على ذلك . ولكن كان عمر يحب التثبت فى الرواية ؛ حتى لا يجترئ الناس فيزاد فى الحديث .

ولهذا طلب من أبى موسى الأشعرى من يوافقه على حديث الاستئذان ؛ مع أن أبا موسى من أكابر الصحابة وثقاتهم باتفاق الأئمة .

(السادس) : أن الصحابة كانوا يرجعون فى مسائل الفقه إلى من هو دون أبى هريرة فى الفقه ، كما رجع عمر بن الخطاب إلى حمل بن مالك وغيره فى « دية الجنين » وكما رجع عثمان بن عفان إلى الفريعة بنت مالك فى لزوم المتوفى عنها « لمنزل الوفاة » وكما رجع عمر بن الخطاب وغيره فى « توريث المرأة من دية زوجها » إلى الضحاك بن سفيان الكلابى ، وكما رجع زيد بن ثابت وغيره إلى امرأة من الأنصار فى سقوط طواف الوداع عن الحائض .

وكذلك ابن مسعود لما أفتى « المفوضة المتوفى عنها » بمهر المثل ؛ فقام رجال من أشجع فشهدوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى فى بروع بنت واشق بمثل ما قضيت به ؛ ففرح عبد الله بذلك فرحاً شديداً !! وأبو بكر الصديق ورّث الجدة بحديث المغيرة بن شعبة ، ومحمد بن سلمة ، ونظائر هذا كثيرة .

(السابع) : أن يقال : المخالف لحديث أبى هريرة فى « المصراة » يقول : إنه يخالف الأصول أو قياس الأصول .

فيقال له : بل القول فيه كالقول فى نظائره التى اتبعت فيها النصوص ، فهذا الحديث ورد فيما يخالف غيره لا فيما يماثل غيره ؛ والقياس هو التسوية بين المتماثلين ، والتفريق بين المختلفين ؛ وذلك أن من خالفه يقول : إنه أثبت الرد بالمعيب ، وقدر بدل المتلف ؛ بل إن كان من المثليات ضمن بمثله وإلا فقيمته ، وهذا مضمون بغير مثل ولا قيمة ، وجعل الضمان على المشترى والخراج بالضمان .

فيقال له : الرد يثبت بالتدليس ، ويثبت باختلاف الصفة باتفاق الأئمة ، «والمدلس» الذى أظهر أن المبيع على صفة وليس هو عليها كالواصف لها بلسانه ، وهذا النوع من الخيار غير خيار الرد بالعيب .

ويقال له : المشترى لم يضمن اللبن الحادث على ملكه . ولكن ضمن ما فى الضرع ؛ فإنه لما اشترى المصراة وفيها لبن تلف عنده : كان عليه ضمانه ؛ وإنما قدر الشارع البدل لأنه اختلط اللبن القديم باللبن الحادث ، فلم يبق يعرف مقدار اللبن القديم .

فلهذا لم يمكن ضمانه بمثله ولا بقيمته ، فقدر الشارع فى ذلك بدلا يقطع به النزاع ، كما قدر ديات النفس وديات الأعضاء ومنافعها ، ونحو ذلك من المقدرات التى يقطع بها نزاع الناس ، فإنه إذا أمكن العلم بمقدار الحق : كان هو الواجب . وإذا تعذر ذلك شرع الشارع ما هو أمثل الطرق وأقربها إلى الحق .

فتارة يأمر بالخرص إذا تعذر الكيل أو الوزن ؛ إقامة للظن مقام العلم عند تعذر العلم ، ويأمر بالاستهام لتعيين المستحق عند كمال الإبهام . وتارة يقدر بدل الاستحقاق إذا لم يكن طريق آخر لقطع الشقاق ؛ ورد المشترى للصاع بدل ما أخذ من اللبن من هذا الباب .

وفى المسألة حكاية ثانية ذكرها « أبو سعيد بن السمعانى » عن الشيخ العارف يوسف الهمدانى ، عن الشيخ الفقيه أبى إسحاق الشيرازى ، عن القاضى أبى الطيب الطبرى ، قال : كنا جلوساً بالجامع ببغداد ، فجاء خراسانى سألنا عن المصراة . فأجبناه فيها ، واحتججنا بحديث أبى هريرة ، فطعن فى أبى هريرة ،

فوقعت حية من السقف وجاءت حتى دخلت الحلقة وذهبت إلى ذلك الأعجمى فضربته فقتلته .

ونظير هذه ما ذكره الطبرانى فى « كتاب السنة » عن زكريا بن يحيي الساجى قال : كنا نختلف إلى بعض الشيوخ لسماع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاسترعنا فى المشى ، ومعنا شاب ماجن . فقال : ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة . لا تكسروها . قال : فما زال حتى جفته رجلاه ، ولهذا نظائر ، نسأل الله تعالى الاعتصام بكتابه ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم واتباع ما أقام من دليله ، والله سبحانه أعلم .

وسئل أيضاً ـ:

رحمه الله تعالى :

عن فرقة من المسلمين يقرون بالشهادتين ويصومون، ويحجون ويخرجون الزكاة ، ويجاهدون أنفسهم فى مرضاة الله ، غير أنهم يكفرون سابى صحابة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يرجوا لأحد توبة إذا تاب وإن المصر على ذلك مخلد فى النار ، ومن قال بتوبتهم يسموهم « الرجوية » ولا يصلون إلا مع من يتحققون عقيدته ، وما يتفوه أحدهم من شىء أو يسأل عن شىء إلا يقول : إن شاء الله . فهل هم مصيبون فى أفعالهم ؟ أم مخطئون فى أقوالهم ؟

فأجاب : ـ

الحمد لله . هؤلاء قوم مسلمون لهم ما لأمثالهم من المسلمين ، يثيبهم الله على إيمانهم بالله ورسوله ، وطاعتهم لله ورسوله ؛ ولا يذهب بذلك إيمانهم وتقواهم بما غلطوا فيه من هذه المسائل ، كسائر طوائف المسلمين الذين أصابوا فى جمهور ما يعتقدونه ويعملونه ؛ وقد غلطوا فى قليل من ذلك ، فهؤلاء بمنزلة أمثالهم من المسلمين .

وقولهم : إن توبة ساب الصحابة لا تقبل وأنه مخلد فى النار خطأ ، بل الذى عليه « السلف والأئمة » : كالأئمة الأربعة وغيرهم : أن توبة الرافضى تقبل كما تقبل توبة أمثاله ، والحديث الذى يروى : « سب صحابتى ذنب لا يغفر » حديث باطل لم يروه أحد من أهل العلم ، ولو قدر صحته فالمراد به من لم يتب ، فإن الله يأخذ حق الصحابة منه .

وأما من تاب فقد قال الله تعالى : (قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا) ، وهذا فى حق التائب : أخبر أنه يغفر جميع الذنوب ، وساب الصحابة إذا كان يعتقد جواز ذلك فهذا مبتدع ضال كسائر الضلال ، والحق فى ذلك لله ، كمن سب الرسول معتقداً أنه ساحر أو كاذب ، فإذا أسلم هذا قبل الله إسلامه . كذلك الرافضى إذا تبين له الحق وتاب قبل الله منه ، وإن كان يقر بتحريم ذلك فهذا ظالم ، كمن قذف غيره واغتابه، ومظالم العباد تصح التوبة منها ، ويدعو لهم ويثنى عليهم بقدر ما لعنهم وسبهم ، فإن الحسنات يذهبن السيئات .

وإذا قال القائل : هذا حجر ؛ وقال : لا أقطع بأن هذا حجر فهذا مخطئ ؛ لـكن إن كان مراده أنى إذا قطعت بأنه حجر فقد جعلت الله عاجزاً عن تغيره ، فإنه يقال له : بل هو الآن حجر قطعا والله قادر

على تغييره وإن كان مراده بقوله إن شاء الله أن الله قادر على تغييره فهذا المعنى صحيح ؛ وإن كان شاكا فى كونه حجراً فهذا متجاهل ، يعزر على ذلك .

وتجوز الصلاة خلف كل مسلم مستور باتفاق الأئمة الأربعة وسائر أئمة المسلمين ، فمن قال : لا أصلى جمعة ولا جماعة إلا خلف من أعرف عقيدته فى الباطن فهذا مبتدع مخالف للصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين الأربعة وغيرهم . والله أعلم .

آخر ماوجد من كتاب

مفصل الاعتقاد

ويليه كتاب

الأسماء والصفات



فهرس المجلد الرابع

الصفحة	الموضوع
١ ــ ١٩١	سئل ما قولكم في مذهب السلف في الاعتقاد ومذهب غيرهم من المتأخرين ، ما الصواب منهما وما تنتحلونه أنتم من المذهبين ؟ وفي أهل الحديث هل هم أولى بالصواب من غيرهم وهل هم المرادون بالفرقة الناجية وهل حدث بعدهم علوم جهلوها وعلمها غيرهم ؟ هذه الرسالة من كتاب « نقض المنطق »
١ ، ٢	الجواب ٠٠ في الآية الوعيد لمن اتبع غير سبيل المؤمنين ، من سبيلهم الإيمان بصفات الله وأسمائه من غير زيادة ولا نقص
٢ ــ ٩	هذه النقول التي نقلها الأئمة عن السلف دليل على أن مذهبهم ما تقدم ٠
٩ ــ	« فصل » وأما كونهم أعلم ممن بعدهم وأحكم وأن مخالفهم أحق بالجهل والحشو
٩ ، ١٠	أهل الحديث يشاركون كل طائفة فيما يتحلون به من صفات الكمال ويمتازون عنهم ٠٠ وصفات الكمال هي المعقول والقياس والاستدلال والنظر ، والرأي والكلام ، والمجادلة والمحاجة والمكاشفة والوجد والذوق
١٠ ، ١١	يعلم أنهم أفضل . . . إلخ بأمور : منها استقراء أحوال العالم وبموارد النزاع بينهم وبين غيرهم وإقرار مخالفيهم
١١ ــ	إنما نبل الإمام أحمد والشافعي وغيرهما عند الأمة باتباع الحديث والسنة
١١ ــ	ما تكلم في أحد من هؤلاء إلا لعدم متابعتهم لهما لعذر ٠
١١ ــ	ما حمدت المعتزلة عند أتباعها وعند من يغضى عن مساوئها إلا بما وافقت فيه أهل السنة كردهم على الروافض
١٢ ــ	الشيعة المتقدمون كانوا يرجحون على المعتزلة بما وافقوا فيه أهل السنة وخالفوا فيه غيرهم

الصفحة	الموضوع

الصفحة | الموضوع

الصفحة	الموضوع
٧١ ــ	الأشعرى نشأ فى الاعتزال أربعين عاما ثم رجع عنه وبالغ فى الرد على المعتزلة
٧٢ ــ	نهاية الرازى والغزالى وإمام الحرمين ، وما وجد الشهرستانى عند المتكلمين والفلاسفة
٧٣ ــ ٧٥	ابن الفارض فى آخر أنفاسه يقول ·· إلخ ، وتفسير آيات
٧٦ ، ٧٧	مما نسبه كثير من أتباع المشايخ الصادقين إليهم واحتج عليه بأحاديث موضوعة وتفسيرات باطلة
٧٧ ــ	الرافضة يدعون أنهم أخذوا علوم الأسرار عن أهل البيت
٧٧ ، ٧٨	نفى على لما ادعاه الرافضة عنه من علوم الأسرار والوصية إليه
٧٨ ، ٧٩	الأسرار التى ادعوها عن جعفر الصادق وهى كذب
٧٩ ــ	من ألف رسائل إخوان الصفا ، وحقيقتها
٧٩ ، ٨٠	عامة الملاحم كذب كملاحم ابن عنضب
٨٠ ــ	باب الكذب فى الحوادث الكونية أكثر منه فى الأمور الدينية
٨٠ ، ٨١	النبى كان يحب الفأل ويكره الطيرة
٨١ ، ٨٢	عامة من فى دينه فساد يدخل فى الأكاذيب الكونية كابن عربى وابن سبعين والذين حددوا مدة بقاء هذه الأمة من حروف المعجم
٨٢ ، ٨٣	المتكلمون يحتج كل منهم بما يقع له من حديث موضوع أو مجمل وينزله على رأيه
٨٤ ، ٨٥	جانب الرسالة أحق بكل تحقيق وعلم ، وأعلم الناس بذلك أخصهم بالرسول
٨٥ ، ٨٦	تفسير : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ) الآية
٨٦ ــ	أهل البدع يردون ما جاء به الرسول أو يعارضونه بما يجعلونه نظيرا له من كشف أو رأى أو نحو ذلك
٨٧ ، ٨٨	بيان أن المتكلمين أحق بالحشو ، وبكل وصف مذموم يذكرون به أهل السنة
٨٨ ــ	القرامطة والفلاسفة والمعتزلة سموا الصفاتية حشوية
٨٨ ، ٨٩	ومن يثبت الصفات العقلية يسمى مثبتة الصفات الخبرية حشوية

الصفحة	الموضوع
٨٨ ــ	أبو المعالى وأبو محمد فى علم الفقه والكلام والعربية والحديث
٨٩ ــ	عمدة كل منافق نبز أهل الحق بالألقاب الشنيعة ٠ ليكذبوا به ويعتنقوا الباطل
٨٩ ــ ٩١	من أساليب الزنادقة والفلاسفة فى القدح فى الرسول ونسبته إلى عدم بيان الحق ، نتيجة ذلك
٩١ ــ	أعلم الناس بالرسول أصحابه ، وأعلم الناس بهم أهل الحديث
٩٢ ــ	وخواص المتكلمين والقرامطة أعلم بعلم أئمتهم
٩٢ ــ	المشافه أعلم بمقصود المتكلم من غير المشافه
٩٢ ــ ٩٤	الذين قاموا بالدين علما وعملا ودعوة هم ورثة الرسل ، فهم كالطائفة الطيبة من الأرض
٩٢ ، ٩٣	شرح حديث . « مثل ما بعثنى الله به من الهدى ٠٠ »
٩٣ ، ٩٤	أعطى ابن عباس من العلم والفهم ما فاق به كثيرا من الصحابة
٩٤ ــ	همة أبى هريرة كانت مصروفة إلى حفظ الحديث أكثر
٩٥ ــ	ما يعنى المؤلف بأهل الحديث إذا أطلق هذه العبارة
٩٥ ، ٩٦	المعظمون للفلسفة والكلام أبعد الناس عن معرفة الحديث وأسانيده واتباعه ، وعن حفظ القرآن ومعرفة معانيه
٩٦ ــ	كلما كانت الطوائف أقرب إلى الله ورسوله كانت بالقرآن والحديث أعرف والعكس بالعكس
٩٦ ــ	الذين يعيبون أهل الحديث ويعدلون عن مذهبهم جهلة زنادقة ، عيب المنافقين للعلماء قديم
٩٧ ــ	علماء أهل الحديث هم الأبدال وهم الطائفة المنصورة
٩٨ ــ	« فصل » فى أن الرسول والسلف علموا حقائق ما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر وبينوها للأمة ، ودفع الطعن فيهم
٩٨ ــ	القول بأن الفلاسفة والمتكلمين أعلم بذلك من الرسل وأتباعهم من أقوال المنافقين
٩٨ ــ ١٠٠	الرد على من قال إن الأنبياء لم يخبروا عموم الخلق بهذه الحقائق وإنما خاطبوهم بالتخييل

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع
١٤٠ ــ	لأهل الحديث من العلم وتضعيف الأجر ما ليس لغيرهم
١٤٠ ، ١٤١	من زعم أن طائفة أدركوا من حقائق العلوم والأعمال والأخلاق ما لم يدركوه فهو جاهل أو منافق
١٤٠ ــ ١٤٣	بيان ذلك بالقياس الصحيح والفطرة
١٤٠ ــ ١٤٣	النبى أعلم الخلق بالحقائق الخبرية والطلبية وأحب الخلق للتعليم وأقدرهم على البيان
١٤١ ــ	معنى حديث الاستخارة
١٤١ ، ١٤٢	إذا لم يكن فى الطوائف من هو أعلم بالحقائق وأبين لها من الرسول وجب أن يكون كل ما يذم به أهل السنة فهو فى طائفة الذام لهم أكثر
١٤٤ ، ١٤٥	« فصل » قول من قال : إن الحشوية على ضربين فيه حق وباطل ·· فمن الحق ···
١٤٥ ــ	من الأحاديث الموضوعة فى الصفات
١٤٥ ــ	أبو الفرج صنف كتابا فى امتحان السنى من البدعى وزاد فيه بعض غلاة المثبتة أشياء ···
١٤٦ ــ	نسبة أهل الإثبات إلى الحشو والتشبيه والتجسيم باطل من وجوه · الأول ···
١٤٦ ــ	أول من لقب أهل السنة بهذه الألقاب المعتزلة
١٤٦ ــ ١٥٤	الأسماء التى ذم الله بها ، والأسماء التى مدح بها
١٤٦ ــ	الذم بلفظ التشبيه مأثور عن السلف · لكن أهل السنة لم يتصفوا به
١٤٦ ــ	الأسماء التى نفاها الله عن نفسه
١٤٧ ــ	الألقاب التى لم يدل الشرع على ذم أهلها ولا مدحهم تحتاج إلى بيان المراد بها وأنهم مذمومون
١٤٧ ــ	الوجه الثانى أنه إن أدخل فى هذه الألقاب مثبتة الصفات الخبرية فقد ذم سلفه
١٤٨ ، ١٤٩	حديث « اعدل فإنك لم تعدل » الرد على قوله ، والآخر يتستر بمذهب السلف

الصفحة	الموضوع
١٥٠ ــ	قوله : مذهب السلف هو التوحيد والتنزيه دون التجسيم والتشبيه
١٥٠ ــ	ما تعنى الجهمية والصفاتية بلفظ التوحيد والتنزيه ، والتشبيه والتجسيم
١٥٠ ، ١٥١	التوحيد عند الفلاسفة والاتحادية ، والتوحيد الذى بعث الله به الرسل
١٥١ ، ١٥٢	مذهب السلف يعرف بالنقول المتواترة عنهم ، وبإجماع الطوائف لا بالدعوى
١٥٢ ــ	لفظ التجسيم لا يوجد فى كلام السلف نفيه ولا إثباته ، ولا يوجد عنهم لفظ التوحيد والتنزيه بمعنى نفى الصفات
١٥٣ ــ	نفى التشبيه موجود فى كلامهم ومعناه نفى التمثيل
١٥٣ ــ ١٥٦	الطوائف المشهورة بالبدعة لا تدعى مذهب السلف
١٥٣ ــ	الوجه الرابع أن هذا الاسم ليس فى كتاب الله
١٥٤ ــ	ما يجب على المجتهد أن ينظر فيه من الأدلة
١٥٤ ــ	مسلك المعتزلة فى علماء السلف وعلومهم ، وفى الصحابة
١٥٥ ــ	سبب انتقاص المبتدعة للسلف ... ، أشهر الطوائف بالبدعة الروافض ، شعار أهل البدع ترك اتباع السلف
١٥٦ ــ	متكلمة أهل الإثبات لا يطعنون فى السلف ، بل قد يوافقونهم
١٥٧ ــ	قد ينصر المتكلمون كالجوينى والغزالى والرازى أقوال السلف تارة ، وأقوال المتكلمين تارة وقد يجعلون المتأخرين أعلم من السلف وأحكم
١٥٧ ، ١٥٨	من تدبر الكتاب والسنة علم أن القرون الثلاثة هى خير الأمة فى الأعمال والأقوال والاعتقاد وكل فضيلة
١٥٧ ــ ١٥٨	حديث : « لا يأتى على الناس زمان .. » قول ابن مسعود من كان مستنا ، قول الشافعى ...
١٥٨ ، ١٥٩	تفضيل الخلف على السلف قدح فى بيان الرسول أو تجويز لكتمانه الحق أو عدم علمه به
١٥٩ ، ١٦٠	الرسول عند الملاحدة ــ من المتفلسفة ونحوهم ــ أحكم الأعمال دون العلوم

الصفحة	الموضوع
١٦٥ ـ	« فصل » ثم قال المعترض قال ابن الجوزى فى الرد على الحنابلة ·· إلخ ·· والكلام على هذا فيه أنواع «١» «٢» «٣»
١٦٥ ، ١٦٦	أبو الفرج لم يتعرض للرد على جنس الحنابلة وإنما قصد أفرادا منهم
١٦٦ ـ	الحنابلة أقل الطوائف نزاعا واختلافا ، وهم متفقون فى الأصول الكبار ، سبب ذلك
١٦٧ ـ	الأشعرى وأصحابه منتسبون إلى أحمد
١٦٧ ـ	أكثر من مال إلى الأشعرى هم التميميون
١٦٧ ، ١٦٨	عبد الواحد صنف كتابا وذكر فيه من اعتقاد أحمد ما فهمه ولم يذكر فيه ألفاظه
١٦٨ ـ	الناس فى نقل مذاهب الأئمة قد يذكرون عنهم بحسب ما بلغهم وفهموه
١٦٨ ، ١٦٩	النبى معصوم لا يصدر عنه خبران متناقضان بخلاف غيره
١٦٩ ـ	الوجه الثانى : أن أبا الفرج متناقض فى هذا الباب
١٦٩ ، ١٧٠	الوجه الثالث : أن الإثبات ليس مختصا بالحنبلية ولا فيهم من الغلو ما ليس فى غيرهم
١٧٠ ـ	لعلم الإمام أحمد وأتباعه من الكمال والتمام ما يعرفه أهل العلم بذلك
١٧٠ ، ١٧١	مبلغ جهل من فضل الخلف على السلف ، ووقيعتهم فى أئمة أهل السنة
١٧١ ـ	وقيعة اليهود والنصارى والصابئة والمشركين وغيرهم فى الرسل
١٧١ ، ١٧٢	عامة أهل الكلام يعظمون أئمة الاتحاد ، ويتكلفون لعباراتهم المحامل
١٧١ ـ ١٧٣	زعم ابن عربى أن الولاية أعظم من النبوة والرسالة ، نقد عباراته
١٧٣ ـ	أسماء الله وأسماء صفاته شرعية سمعية ، تسميتها أعراضا وأجساما
١٧٤ ، ١٧٥	الوجه الرابع أن ما يذكر عن الحنبلية سواء كان الصواب فيه مع المثبت أو مع النافى أو كان فيه تفصيل فذاك موجود فى طوائف
١٧٥ ـ	توجد المذاهب المتقابلة فى النفى والإثبات ، حتى فى أهل التوراة والإنجيل والصابئة

الصفحة	الموضوع
١٧٥ ـ	جنس إثبات الصفات أغلب على المتبعين للرسل وجنس النفى يغلب على غيرهم
١٧٥ ـ ١٨٦	نقل المؤلف عن (الكرجى) فى كتابه الفصول ما حكاه من مذهب السلف
١٧٥ ـ	ما ذكره الكرجى من كلام الشافعى ومالك والثورى وأحمد والبخارى وغيرهم من الأئمة الكبار
١٧٦ ـ	سبب اقتصار الكرجى على النقل عن هؤلاء
١٧٦ ، ١٧٧	فائدة النقل عن هؤلاء إلزام الحجة لمن ينتحل مذهبهم فى الفروع دون الأصول
١٧٧ ـ	قد افتتن خلق من المالكية بمذهب الأشعرية
١٧٧ ، ١٧٨	من عدا الأئمة الذين نقل عنهم الكرجى قد اندرجت مذاهبهم تحت مذاهب أولئك
١٧٩ ـ	طرف من فضائل الأئمة الذين نقل مناصيصهم
١٨٠ ـ	السنة أقوال وأعمال وعقائد .
١٨٠ ـ	خلاصة ما نقل عنهم وما أضاف إلى ذلك أن العقائد ثلاثة أضرب
١٨١ ـ ١٨٦	الضرب الأول ، وأقوال أهل السنة فيه إجمالا وتفصيلا
١٨٦ ـ	الحنابلة اقتفوا أثر السلف
١٨٦ ، ١٨٧	النوع الثانى أن هذا الكلام ليس فيه من الحجة ما يستحق أن يخاطب به أهل العلم
١٨٧ ـ	قول ابن الجوزى أن مثل هؤلاء لا يحدثون
١٨٨ ، ١٨٩	قوله إنهم يكابرون العقول
١٨٨ ـ	غالية المجسمة هم هشام بن الحكم وشيعته
١٨٩ ـ	نفور من ينفر عن مذهب أو يقبله لا يدل على صحة ذلك ولا على فساده
١٨٩ ، ١٩٠	تفسير اتباع الهوى
١٩٠ ـ	الرد على قول ابن الجوزى كأنهم يخاطبون الأطفال
١٩١ ـ ١٩٣	قال المؤلف : الأقوال نوعان

الصفحة　　　　　الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة | الموضوع

الصفحة | الموضوع

الصفحة	الموضوع
٣٩٤ ـ	وقال « فصل » في أفضل نساء هذه الأمة ، وفي تفضيل أزواجه على بناته
٣٩٥ ـ	وقال : « فصل » لم يقل إن نساء النبي أفضل من العشرة إلا ابن حزم ، ليس في النساء أنبياء
٣٩٧ ـ	وقال « فصل » هل أبو بكر وعمر أفضل من الخضر
٣٩٨ ـ ٤١٤	سئل عن رجلين اختلفا فقال أحدهما أبو بكر وعمر أعلم وأفقه من على .. إلخ
٣٩٨ ـ	ممن حكى الإجماع أن أبا بكر أعلم من على
٣٩٩ ـ	مما يدل على أعلمية أبي بكر وأصالة رأيه وبعده عمر
٣٩٩ ، ٤٠٠	أمر النبي للأمة بالاقتداء بهما خاصة وباتباع سنة الأربعة
٤٠٠ ـ	ابن عباس كان يفتي بقولهما خاصة
٤٠٠ ـ ٤٠٢	كان لأبي بكر وعمر من الاختصاص بالرسول والصحبة وكمال المودة ما ليس لغيرهما
٤٠٢ ـ	تمنى على أن تكون له أعمال عمر ، سؤال المشركين يوم أحد عن النبي وأبي بكر وعمر يدل ...
٤٠٣ ـ	لم يحفظ لأبي بكر قول خالف نصا مع قيامه بأمور من العلم والفقه عجز عنها غيره
٤٠٣ ، ٤٠٤	موافقة عمر للنصوص أكثر من موافقة على
٤٠٤ ـ	استخلاف على على المدينة لا يدل على أنه أحق بالخلافة ، وكذلك قوله (ألا ترضى)
٤٠٥ ـ	ما تنازع الصحابة في مسألة إلا فصلها أبو بكر وارتفع الخلاف ...
٤٠٥ ، ٤٠٦	قام أبو بكر مقام الرسول فسمى خليفته ، على تعلم من أبي بكر بعض السنة ، الذين صحبوا عمر وعليا يرجحون قول عمر ، شيعة على ـ الذين صحبوه ـ لم يقدموه على أبي بكر وعمر
٤٠٧ ـ	شيعة على ثلاث طوائف ، تصريح على بتفضيل أبي بكر وعمر على جميع الأمة
٤٠٨ ـ	مما يدل على أنه لم يقل ذلك على سبيل التواضع
٤٠٨ ـ ٤١٠	الجواب عن ما روى « أقضاكم على » ، العلم بالحلال والحرام أعم من القضاء ، القضاء نوعان

الصفحة — الموضوع

الصفحة	الموضوع
٤٥٠ ـ ٤٥٢	غلط طوائف من الفقهاء إذ سووا بين قتال البغاة وبين قتال الخوارج وما نعى الزكاة
٤٥١ ـ ٤٥٢	لا يقاتل من خرج عن طاعة ملك معين ، أعدل الطوائف فى قتال الخوارج ، ومن ارتد عن بعض شرائع الدين
٤٥٣ ـ ٣٨١	سئل عن إسلام معاوية متى كان وهل كان إيمانه كإيمان غيره وما قيل فيه
٤٥٣ ـ	إيمان معاوية ثابت بالنقل المتواتر والإجماع
٤٥٣ ، ٤٥٤	متى أسلم ، حسن إسلامه وإسلام الطلقاء ، كان أبوه عاملا للنبى
٤٥٤ ، ٤٥٥	أخوه يزيد كان أحسن إسلاما منه ومن أبيه
٤٥٥ ـ	سبب تقديم أبى بكر لخالد على أبى عبيدة وعمرو بن العاص ، وتقديم عمر لأبى عبيدة
٤٥٦ ، ٤٥٧	أبو بكر وعمر كانا وزيرى النبى ، جواب مالك لما سأله الرشيد عنهما
٤٥٧ ـ	جعل الله فى أبى بكر من الشدة لما استخلف وفى عمر من اللين مالم يكن فيهما قبل
٤٥٧ ، ٤٥٨	ولى عمر معاوية على الشام مكان أخيه وكانت رعيته تشكر سيرته
٤٥٨ ، ٤٥٩	ما حضر معاوية مع الرسول من الغزوات ، عدد غزواته وما قاتل فيه منها ،
٤٥٨ ، ٤٥٩	مسلمة الفتح دخلوا فى قوله : (ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ) (وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ) (وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ)
٤٥٩ ، ٤٦٠	قصة مكاتبة حاطب المشركين بمسير الرسول إليهم
٤٦٠ ، ٤٦١	فضل من شهد بدرا أو الحديبية وما يغفر بذلك من الذنوب ، الأسباب التى تكفر بها
٤٦١ ٤٦٢	من أسلم بعد فتح مكة ، قد يكون إسلام من تاخر أفضل
٤٦٢ ـ	أول من أسلم من الرجال البالغين والأحرار والصبيان والموالى والنساء
٤٦١ ـ ٤٦٤	آيات وأحاديث فى فضل التابعين للسابقين بإحسان إلى يوم القيامة . ويدخل فيها من صحب الرسول وإن لم يكن من السابقين

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع
٤٧٨ ، ٤٧٩	أدلة خلافة علي والرد على من نازع فيها ، لا يوازن أبا بكر وعمر أحد
٤٧٩ ــ	قدم السابقون عثمان على علي طوعا بعد الشورى
٤٨١ ــ ٤٨٩	قال الشيخ « فصل » افترق الناس في يزيد بن معاوية ثلاث فرق
٤٨٢ ــ	أحد الطرفين قال إنه كافر وأنه سعى في قتل الحسين أخذا بثــأر قرابته ، والطرف الثاني قال إنه من الصحابة …
٤٨٣ ــ	القول الثالث أنه كان من ملوك المسلمين له حسنات وسيئات …
٤٨٣ ، ٤٨٤	افترق هؤلاء ثلاث فرق فرقة لعنته ، وفرقة أحبته ، وفرقة لا تحبه ولا تسبه
٤٨٤ ــ	نصوص الوعيد عامة ومع ذلك لا يشهد بها على معين
٤٨٤ ــ	ثلاثة مآخذ لترك سبه ولعنه ، يلعن من لعنه الرســـول على سبيل العموم ولا يلعن المعين
٤٨٤ ، ٤٨٥	مأخذ من لم يحبه ، استدل من لعنه ، ثلاثة مآخذ لمن لعنه
٤٨٥ ، ٤٨٦	الذين سوغوا محبته أو أحبوه لهم مأخذان
٤٨٦ ــ	التحقيق أن هذين القولين يسوغ فيهما الاجتهاد تعليل ذلك
٤٨٦ ، ٤٨٧	حكم الفساق إذا دخلوا النار عند أهل السنة وعند الخوارج ، يجوز الدعاء للرجل وعليه
٤٨٧ ، ٤٨٨	جواب المؤلف لمن سأله عن يزيد وعدم لعنه ومحبة أهل البيت
٤٨٨ ــ	بعض بني أمية كان ينصب العداوة لعلي ويسبه
٤٨٩ ــ ٤٩١	سئل عن جماعة يقولون إن الدين فسد من حين أخذت الخلافة من علي ، ولم يصح للمسلمين عقود
٤٩٠ ــ	من يقرر دين اليهود والنصارى والمجوس ، ويطعن في دين الخلفاء الراشدين … لا يكون إلا من أجهل الناس وأكفرهم
٤٩١ ، ٤٩٤	سئل هل صح عن أحد من أهل العلم أن عليا قاتل الجن في البئر ومد يده يوم خيبر فعبر العسكر عليها … إلخ
٤٩١ ، ٤٩٢	لم يقاتل الجن أحد من الإنس ، ولم يقاتل على عهد الرسول عسكر كانوا خمسين ألفا
٤٩٢ ــ	المغازي التي شهدها علي مع الرسول وصف غزوة الأحزاب لم يبارز علي إلا واحدا ، صفة قتل علي لمرحب وهل هناك مرحب آخر قتله محمد بن مسلمة
٤٩٢ ــ	من الكذب في غزوة خيبر ، الحروب التي حضرها علي بعد الرسول

(١١٠٠٠/ي ٣ – ٣ –ج٤) (٦) (٠١)

١٢٣٥

ردمك : ٦-٢٠-٧٧٠-٩٩٦٠ (مجموعة)
٩-٢٤-٧٧٠-٩٩٦٠ (ج ٤)